يطبع لأول مرة كاملاً

رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله

المعروف بكتاب



العبادة

للعلامة المحقق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني

قدم له

العلامة المحدث عبد الله بن عبد الرحمن السعد

تحقيق

الشبراوي بن أبي المعاطي المصري

دار العاصمة

للنشر والتوزيع


كتاب
العبادة

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اليماني، عبدالرحمن بن يحيى

كتاب العبادة. / عبدالرحمن بن يحيى اليماني؛ أبو أحمد الشبراوي المصري .- الرياض، ١٤٣١هـ

٦٦٤ ص، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٤-١٢-٨٠٥٧-٦٠٣-٩٧٨

١-العبادات (فقه إسلامي) أ- المصري، أبو أحمد الشبراوي(محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٥٢ ١٤٣١/٢٦٨٦

رقم الإيداع: ١٤٣١/٢٦٨٦

ردمك: ٤-١٢-٨٠٥٧-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

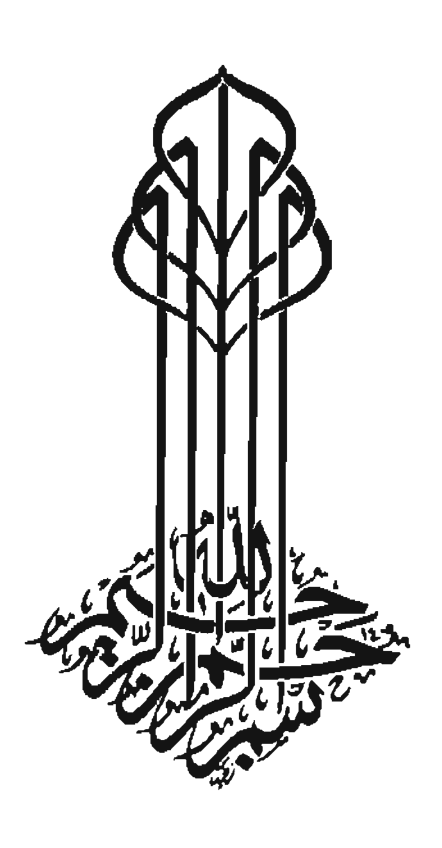
دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص.ب: ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي: ١١٥٥١

المركز الرئيسي: شارع السويدي العام

هاتف: ٤٤٩٧٢٢٤/ فاكس: ٤٤٩٧٢٢٥



مقدمة العلامة المحدث عبد الله السعد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فهذا كتاب العبادة للشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي -رحمه الله تعالى- وقد قام الشيخ الشبراوي بن أبي المعاطي المصري على إخراج هذا الكتاب، فترجم لصاحب الكتاب ترجمة جميلة، ذكر فيها كثيراً مما يتعلق بالمؤلف -رحمه الله تعالى- ثم قام بعزو الأحاديث والنقولات إلى مصادرها، فجزاه الله خيرا، وبارك فيه.

ولعلي أتحدث هنا عن الكاتب والكتاب.

فأما الكاتب فهو من مشاهير العلماء في هذا العصر، وقد اشتهر بتحقيقاته ومؤلفاته، وكان مبرزاً في علوم متعددة من علوم الشريعة واللغة، وخاصة في علمي الحديث والعقائد، وفيهما ألف أكبر كتبه، كتاب "التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل" وهذا في علم الحديث وصناعته، وإن كان مشتملاً على أقسام أخرى، فهناك مباحث تتعلق بالفقهيات وأخرى في العقائد.

وأما الكتاب الثاني فهو كتاب "العبادة"، وهو كتابنا هذا، وسيأتي إن شاء الله تعالى الحديث عنه.

وأما ما يتعلق بعلمه بالحديث: فقد اشتهر بتمكنه بهذا العلم وصناعته، كعلم العلل والجرح والتعديل ومناهج المحدثين، فله كلام كثير

في هذا الباب، وقد قام أحد الإخوة بجمع كلامه فيما يتعلق بقواعد الصناعة الحديثية والكلام على الرجال، وقام آخر بجمع كلامه في القواعد الحديثية فقط، كما كتب أكثر من شخص رسالة علمية في جهوده في الحديث. ولعله -رحمه الله تعالى- من أمكن علماء الحديث في هذا العصر، ومن الأشياء المهمة التي نبه عليها: التفريق ما بين منهج المتقدمين ومنهج المتأخرين في علم الحديث.

فقد قال في مقدمته لكتاب "الفوائد المجموعة" للشوكاني (ص: ٨) مبيناً تساهل كثير من المتأخرين في حكمهم على الأحاديث: "إنني عندما أقرن نظري بنظر المتأخرين؛ أجدني أرى كثيراً منهم متساهلين، وقد يدل ذلك على أن عندي تشدداً لا أوافق عليه، غير أني مع هذا كله رأيت أن أبدي ما ظهر لي ناصحاً لمن وقف عليه من أهل العلم، أن يحقق النظر ولا سيما من ظفر بما لم أظفر به من الكتب التي مرت الإشارة إليها" اهـ.

وقال أيضاً في "الأنوار الكاشفة" (ص: ٢٩): "وتحسين المتأخرين فيه نظر" اهـ.

وقال أيضاً في كتاب العبادة (ص: ٢١٥): "ومنهم من يحكي عن بعض المتأخرين كالسبكي وابن حجر وابن الهمام والسيوطي ونحوهم؛ أنهم صححوا ذلك الحديث أو الأثر أو حسنوه، ويكون جهابذة العلم من السلف قد ضعفوا ذلك الحديث أو حكموا بوضعه، وهم أجل وأكمل من المتأخرين، وإن كان بعض المتأخرين أولي علم وفضل وتبحر، ولكننا رأيناهم يتساهلون في التصحيح والتحسين، ويراعون فيه بعض أصول الفن، ويغفلون عما يعارضها

من الأصول الأخرى[١].

وفوق ذلك أن السلف كانوا أبعد عن الهوى، ومن هنا قال ابن الصلاح: إن التصحيح والتحسين قد انسد، ولم يبق فيهما إلا النقل عن السلف، ولكنه يعين على ما نريده، وهو وجوب الاحتياط فيما يصححه المتأخرون أو يحسنونه، وهكذا جماعة من المتقدمين لا يغتر بتصحيحهم كالحاكم وابن حبان بل والترمذي[٢] ولا سيما تحسينه، وهؤلاء أئمة كبار ..." اهـ وينظر باقي كلامه.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله في دفاعه عن المعلمي، وكان سبب ذلك أن أحد أهل العلم قد رد على رسالته في تأخير المقام، فقال ضمن دفاعه عنه-: "وأما اللوازم القبيحة التي زعم صاحب النقض أن لا مفر للمعلمي منها ولا محيد عنها، فلا نرى أنها تلزم المعلمي

---

(١) كعلم العلل، فيصححون الحديث أو يحسنونه بظاهر الإسناد، ولا يلتفتون إلى ما فيه من علل خفيه وأحيانا ظاهرة. وأيضاً علم الجرح والتعديل لا يعطونه حقه من التوسع وتتبع حديث الراوي.

(٢) قلت: أما الترمذي، فهو إمام في علم الحديث والعلل، وقد بين كثيراً من علل الأحاديث في كتابه الجامع والعلل الكبير، وإنما الكلام في تحسينه. ويجاب عن ذلك: أن حكمه على الحديث بأنه حسن لا يعني ما اصطلح عليه المتأخرون؛ وهو رواية الثقة الذي خف ضبطه، وإنما يقصد به الحديث الذي لم يجمع شروط القبول، كما أنه ليس بشديد الضعف. فالحسن عنده هو الحديث الذي لم يثبت، ولذا يجمع أحياناً بين التحسن والتضعيف، وليس هذا مكان بيان هذه المسألة.

لا لمجرد حسن الظن به فقط، باعتباره عالماً خدم الأحاديث النبوية وما يتعلق بها؛ بل لأمرين ..."[١].

قلت: ثم ذكر هذين الأمرين، ثم ذكر بعد ذلك أموراً أخرى رد بها على هذا الشخص الذي انتقد المعلمي، فقام الشيخ بالجواب عنها.

وقال الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في تعليقه على كتاب "القائد إلى تصحيح العقائد" للمعلمي[٢]: "فرغت من قراءة كتاب "القائد إلى تصحيح العقائد" للعلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي العتمي، فإذا هو كتاب من أجود ما كتب في بابه في مناقشة المتكلمين والمتفلسفة الذين انحرفوا بتطرفهم وتعمقهم في النظر والأقيسة والمباحث، حتى خرجوا عن صراط الله المستقيم الذي سار عليه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من إثبات صفات الكمال لله تعالى من علوه سبحانه وتعالى على خلقه علواً حقيقياً يشار إليه في السماء عند الدعاء إشارة حقيقية، وأن القرآن كلامه حقاً حروفه ومعانيه كيفما قرأ أو كتب، وأن الإيمان يزيد وينقص حقيقة، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، وأن الأعمال جزء من الإيمان، لا يتحقق الإيمان إلا بالتصديق والقول والعمل.

---

[١] فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم (٥: ١٢٠) وما بعدها.

[٢] وهو القسم الآخر من التنكيل.

حقق العلامة المؤلف هذه المطالب بالأدلة الفطرية والنقلية من الكتاب والسنة على طريقة السلف الصالح من الصحابة وأكابر التابعين، وناقش من خالف ذلك من الفلاسفة كابن سينا ورؤساء علم الكلام كالرازي والغزالي والعضد والسعد، فأثبت بذلك ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه المحققة الشافية الكافية بأوضح حجة وأقوى برهان أن طريقة السلف في الإيمان بصفات الله تعالى أعلم وأحكم وأسلم، وأن طريقة الخلف من فلاسفة ومتكلمين أجهل وأظلم وأودى وأهلك.

قرأت الكتاب فأعجبت به أيما إعجاب، لصبر العلامة على معاناة مطالعة نظريات المتكلمين، خصوصاً من جاء منهم بعد من ناقشهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم كالعضد والسعد، ثم رده عليهم بالأسلوب الفطري والنقول الشرعية التي يؤمن بها كل من لم تفسد عقليته بخيالات الفلسفة والمتكلمين، فسد بذلك فراغاً كان على كل سني سلفي سده بعد شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى، وأدى عنا ديناً كنا مطالبين بقضائه، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وحشرنا وإياه في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا؛ آمين".

وقال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري -رحمه الله-: "وكُنت في زيارة له، وكان عنده الشيخ فهد بن حمين الفهد -رحمه الله تعالى- وجرى ذكر المعلمي، فقام الشيخ حمود وأتى بكتاب التنكيل، وقرأ أول مقدمة الكتاب التي كتبها الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- حتى

وصل إلى قوله: "بأسلوب علمي متين ..." إلى أن قال: "... على صبر من البحث والتحقيق كاد أن يبلغ الغاية، إلا أن يكون بلغها ..." اهـ.

قال الشيخ حمود معلقاً: "بل بلغها".

وقال أيضاً: دخلت في مكتبة الحرم المكي، فسألته عن أحد الكتب، فقام مسرعا وأتى به، ثم قال عن المعلمي -رحمه الله-: ما عرفناه إلا بعد أن توفي، أو كلاما نحو هذا.

وممن أثنى عليه الشيخ حماد الأنصاري، وكان من تلاميذه، فهو يعرفه عن قرب، فقد قال -رحمه الله-: "شيخي عبد الرحمن المعلمي رحمة الله عليه كان كثير البحث جدا، يبحث في أكثر من كتاب في وقت واحد، وكنت أجالسه في مكتبة الحرمين، وكان يعطيني كتباً فيقول: ابحث عن كذا، فما أجده، فأعطيه إياها، فيقول لي: هذا هو، أين أنت عنه؟. هذا في سنة (١٣٦٧هـ). السبب في هذا: عدم الانتباه والسرعة"[١].

وقال أيضا: "المعلمي رجلٌ محدثٌ عالمٌ، وهو شيخي"[٢].

وقال أيضا: "ليست عندي إجازة في الحديث من الشيخ المعلمي، إنما عندي إجازة من مشايخه الهنود. والمعلمي شيخي، كنت معه حتى

---

[١] المجموع في ترجمة المحدث الشيخ حماد الأنصاري (ص: ٥٩٢).

[٢] السابق (ص: ٥٩٣).

مات"[١].

وقد طلب الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- أن يتولى تصحيح كتاب فتح الباري، وقد جرى ذلك مرتين، وقد يكون أكثر، ولكن هذا ما وقفت عليه[٢].

وأما ما يتعلق بالكتاب فاسمه يترجم عن مضمونه ومحتواه؛ فاسمه "رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله" فهو في بيان حقيقة التوحيد وإخلاص العبادة لله عز وجل، وما يضاد ذلك من الشرك بجميع صوره وأنواعه. وقد أطال المصنف في بيان هذا الأمر، خاصة في بعض مسائله، فأجاد وأفاد، وحقق المراد، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وسأذكر هنا بمشيئة الله تعالى بعض ما يتعلق بهذه المسألة الجليلة؛ لأن علمها فرض، كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (محمد: ١٩).

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦).

وفي صحيح مسلم (٢٦) من حديث الوليد بن مسلم عن حمران عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم أنه لا

---

(١) السابق (ص: ٦٢٢).

(٢) ينظر: الرسائل المتبادلة بين ابن باز والعلماء (ص: ١٩٥-١٩٧).

اله إلا الله دخل الجنة".

وقد بين لنا ربنا عز وجل هذه المسألة غاية البيان في كتابه العظيم، وفيما أوحاه لرسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فأقول وبالله تعالى التوفيق: إن من تدبر نصوص القرآن والسنة، تبين له هذا الأمر غاية البيان، فنصوص الوحي كلها شرح وتوضيح لهذه المسألة العظيمة، وهذا من الناحية النظرية.

وإذا نظر العبد أيضاً إلى العبادات والتكاليف التي كلف بها في يومه وليلته، تبين له هذا الأمر غاية البيان، وهذا من الناحية العملية.

وشرح ذلك باختصار:

فأقول فيما يتعلق بالأمر الأول -وهو الناحية النظرية-: من المعلوم أن الله عز وجل لم يأمر بعبادته فحسب، بل أمر أن لا يعبد إلا إياه، وأن يخلص العبد لربه غاية الإخلاص في جميع أقواله وأفعاله، قال تعالى في أول وأعظم سور القرآن، وهي سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥). أي لا نعبد إلا أنت، ولا نستعين إلا بك.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ٢).

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (الزمر: ١٤).

وقال تعالى: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى

مِنْكُمْ﴾ (الحج: ٣٧). أي باتقائكم ربكم بإخلاص العمل إليه.

وقد عرف المشركون هذه الحقيقة، فقال تعالى عنهم -وقد أقرهم على قولهم هذا-: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (الأعراف: ٧٠).

وفي صحيح مسلم (٢٥٦٤) من حديث أسامة -وهو ابن زيد- أنه سمع أبا سعيد مولى عبد الله بن عامر يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم".

وفي رواية عنده من حديث يزيد الأصم عن أبي هريرة: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

وتَأَمَّلْ سورةَ الجن، فقد ذكر الله عن الجن أنهم عندما سمعوا القرآن قالوا: ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (الجن: ٢). لأن القرآن يدعوا إلى الإخلاص، ثم بعد ذلك نزهوا الله عز وجل عن الصاحبة والولد، ثم أخبر الله عز وجل عنهم أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله فيما لا يقدر عليه إلا الله ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: ٦). ثم ذكر الله عنهم إيمانهم بالبعث، وأن الخلق انقسموا فيما يتعلق بالدين إلى أقسام كثيرة، وأنه لا ينجو أحد منهم إلا من أسلم وجهه لله تعالى. ثم ذكر الله عز وجل بعد ذلك إخلاص العبادة له ومن ذلك الدعاء، ثم أمر الله رسول عليه الصلاة والسلام أن يقول للناس أنه لا يدعو إلا ربه عز وجل، ولا يشرك به أحدا، وأنه لا يملك ضرا ولا رشدا، وأنه

لن يجيره أحد من الله، ولن يجد من دونه ملتحدا، أي نصيرا وملجأ، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأنه يُطْلِعُ من يشاء من رسله على بعض الغيب[١].

ثانياً: وتأسيسا على ما تقدم، تجد في الكتاب والسنة أن الأعمال تأتي دائماً مقيدة بالإخلاص لله وحده على سبيل التفصيل، وأما الذي تقدم في النقطة الأولى فهو على سبيل الإجمال. وهذا يكرر كثيراً، حتى تظهر المحجة، وتقام الحجة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٣).

وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (الكوثر: ٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٠).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٨). إلى غير ذلك من الآيات.

ثالثا: إن مما يوضح هذا ويبينه زيادة على ما تقدم؛ التذكير به

---

[١] سيأتي قريباً -إن شاء الله- ذكر الآيات التي تتحدث عن ذلك من سورة الجن.

ومدارسته بين حين وآخر، وليس في وقت دون وقت، قال الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد: ١٩).

وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة: أنها في سورة مدنية، وهي سورة محمد عليه الصلاة والسلام، فعلى هذا تكون بعد مدة كبيرة من بعثته ﷺ، وفي أقل الأحوال بعد ثلاث عشرة سنة، ومع ذلك كله يأمره عز وجل أن يعلم بأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى، مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يبعث إلا بذلك، ولم يدعو الناس إلا لهذا الأمر؛ ولذا كان عليه الصلاة والسلام وهو في سياق الموت يدعو الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، فقال كما في الصحيحن: "لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". وفي رواية عند البخاري (١٢٧٦): أنه قال ذلك لما اشتكى. وعند مسلم (٥٢٨): أن ذلك كان في مرضه عليه الصلاة والسلام. بل في صحيح مسلم أنه قال ذلك قبل وفاته بخمس، فقد أخرج مسلم (٥٣٢) من طريق عبد الله بن عبد الله حدثني جندب قال :سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس يقول: "ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك" بل قال ذلك وهو في سياق الموت عندما نزل به كما في صحيح البخاري (٣٢٦٧)، (٥٤٧٨)، ومسلم (٥٣١) من طريق ابن شهاب عن عبيد الله عن عبد الله أن عائشة وعبد الله ين عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك:

"لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر مثل ما صنعوا".

كل هذا تذكيرا منه عليه الصلاة والسلام لأمته بإفراد الله بالعبادة، وتحذيرا لهم من الوقوع في الشرك، ولذا ينبغي على المسلم ألا ينسى هذا الأمر، وأن يتذكره دائماً. كما ينبغي على الدعاة أن يتعاهدوا الناس بالتذكير به، وبهذا يعرف الناس التوحيد، وحقيقة العبادة، ويبتعدوا عن الشرك. ولذا كان بعض أهل العلم يسأل غيره عن هذه المسائل؛ ليس من باب أنه لا يعرف ذلك، وإنما من باب التذكير والمذاكرة، ودليل ذلك ما في صحيح البخاري معلقا عن معاذ بن جبل أنه قال: "اجلس بنا نؤمن ساعة". وبهذا تحصل الاستقامة على الدين، التي أمر الله تعالى بها رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢).

وفي صحيح مسلم (٣٨) من حديث عروة بن الزبير عن سفيان بن عبد الله قال: قلت يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال: "قل آمنت بالله ثم استقم". وهذا من الأسباب التي بها يكون العبد مستقيما على ذلك إلى الممات.

رابعاً: وتحقيقا لما تقدم من إفراد الله عز وجل بالعبادة وتحقيقاً للتوحيد، حذرنا ربنا من الشرك غاية التحذير، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨).

وقال تعالى مخاطباً أنبياءه ورسله الكرام، أنهم لو أشركوا فستحبط أعمالهم ويكونوا من الخاسرين. وقد أعاذهم الله من ذلك فعصمهم من الوقوع في الشرك، ولكن في هذا تحذير للناس كافة، وأن الإنسان مهما بلغ من المكانة فإن هذا لا ينفعه عند الله تعالى بسبب شركه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: ١٠٦).

وأخرج البخاري (١١٨١)، ومسلم (٩٢) كلاهما من طريق الأعمش عن شقيق عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار".

وأخرج مسلم (٩٣) من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله!

ما الموجبتان؟ فقال: "من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار".

وأخرجه أيضا من طريق أبي الزبير عن جابر ولفظه: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار".

وهذا التغليظ حتى في الأمور الدقيقة منه، ففي مسند أحمد (١٨٣٩)، والأدب المفرد (٧٨٣) للبخاري من حديث الأجلح الكندي عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت فقال له النبي ﷺ: "أجعلتني لله ندا؟! بل ما شاء الله وحده"[١].

فهذا الرجل الذي يظهر أنه لم يقصد تسوية مشيئة الرسول بمشيئة الله تعالى حقيقة؛ لأنه من المعلوم عند الخلق كافة، أن مشيئة الله تعالى، لا تساويها مشيئة مخلوق مهما بلغ من المكانة والمنزلة، ومع ذلك عندما أتى بلفظ يفيد ذلك، وهو الإتيان بحرف الواو التي تفيد المساواة غلظ الرسول ﷺ الإنكار عليه.

وأخرج النسائي (٣٧٧٣)، من طريق مسعر عن معبد بن خالد عن عبد الله بن يسار عن قتيلة -امرأة من جهينة- أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب

---

(١) وإسناده لا بأس به، ويشهد له ما بعده.

الكعبة ويقول أحدهم: ما شاء الله ثم شئت[1].

وقد روى الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بالسدرة، فقلنا: أي رسول الله! اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط -وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها- قال النبي ﷺ: "الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨). إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم"[2].

في هذا الحديث عندما طلبوا منه عليه الصلاة والسلام شجرة يتبركون بها، أنكر عليهم وجعل مقالتهم هذه مثل مقالة قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

فأين هذا من دعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله، والطواف بالقبور، وغير ذلك مما وقع فيه كثير من الناس.

وهذا كله بسبب غفلتهم عن التوحيد، وعدم تدبرهم لما جاء في

---

(١) وفي الكبرى (١٠٧٥٦)، (١٠٧٥٧)، وأحمد (٢٧٠٩٣)، وابن سعد (٨: ٣٠٩)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣٠٨)، (٣٠٩)، والطبراني في الكبير (٢٥: ١٤) وهو حديث صحيح رجاله ثقات، وقد صححه الحاكم، وابن حجر في الإصابة، وهناك كلام للطحاوي والسندي -حاشية المسند- حول معنى الحديث.

(٢) هذا حديث صحيح، أخرجه ابن إسحاق في السيرة -وقد وقع في سنده خطأ- ومعمر في جامعه الملحق بالمصنف، وأحمد، والحميدي، وابن حبان؛ من طرق متعددة عن الزهري به.

الكتاب والسنة.

وفي مسند الإمام أحمد (٧١٤٢٢) من طريق يزيد بن أبي منصور عن دخين الحجري عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا؟ قال: إن عليه تميمة، فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال: "من علق تميمة فقد أشرك". وإسناده جيد. ودخين كان كاتباً لعقبة بن عامر.

فانظر امتناعه عليه الصلاة والسلام من مبايعته، مع أنه جاء لكي يسلم، والسبب وقوعه في شيء من الشرك، ولم يؤخر ذلك إلى ما بعد الإسلام، حتى قطعت التميمة.

بل كان عليه الصلاة والسلام يحذر أمته، وينهاهم فيما دون ذلك، محافظة على التوحيد، وسداً لطرق الشرك، فقد أخرج مسلم (٨٧٠) من حديث عبد العزيز بن رفيع عن تميم بن طَرَفَة عن عدي بن حاتم: أن رجلا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: "بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله". وهذا تعظيم لله تعالى[١].

---

[١] قال الإمام النووي في المنهاج (٦: ١٥٩): "قال القاضي وجماعة من العلماء: إنما أنكر عليه لتشريكه في الضمير المقتضي للتسوية، وأمره بالعطف تعظيما لله تعالى بتقديم اسمه، كما قال ﷺ في الحديث الآخر: لا يقل أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شاء فلان". وقد رد النووي كلام القاضي عياض، وأنا أذهب إلى ما قاله القاضي عياض.

وكان أيضاً ينهى عن مدح الإنسان في وجهه؛ لأن المدح كثيراً ما يوقع المادح في الغلو، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام على هذا.

خامساً: مما يبين معرفة التوحيد وحقيقة العبادة، وما يضاد ذلك من الشرك معرفة ما كان عليه العرب قبل البعثة؛ لأن بمعرفة ذلك يُعرف سبب كفرهم وضلالهم وانحرافهم عن ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومعرفة حقيقة دعوة الرسول ﷺ، ودعوة الأنبياء من قبله؛ لأن من المعلوم أن دعوهم واحدة؛ وهي الإسلام، فكل رسول كان يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩).

وقد بين الله عز وجل أن سبب كفر العرب وضلالهم، هي الوسائط التي اتخذوها بينهم وبين الله عز وجل، وزعموا أنهم ما فعلوا ذلك إلا لكي تقربهم من الله عز وجل، وأنهم يرجون شفاعتهم عند الله تعالى. فبين الله تعالى أنهم قد كفروا بذلك وضلوا ضلالاً بعيدا. فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس: ١٨).

وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣).

وفي صحيح مسلم (١١٨٥) من حديث عكرمة بن عمار عن أبي زُمَيْل عن ابن عباس أن المشركين كانوا إذا طافوا بالبيت يقولون: لبيك لا شريك لك، فيقول رسول الله ﷺ: "ويلكم قد قد"، فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

فلم ينفعهم قولهم: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١] مبيناً حالة العرب قبل الإسلام:

"اعلم -رحمك الله- أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة، وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده، فأولهم نوح عليه السلام، أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين: ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا. وآخر الرسل محمد ﷺ، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين. أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده، مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين.

فبعث الله محمدا ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله، لا يصلح منه شيء لغير الله؛ لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلا عن غيرهم.

---

[١] في كتاب: كشف الشبهات.

وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا؛ فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١).

وقوله: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٩). وغير ذلك من الآيات[1].

---

[1] قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩) فهم يؤمنون بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله، وأنه عزيز عليم.

ولذا قال زهير بن أبي سلمى -وهو جاهلي- في معلقته:

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ومثله قول عنترة بن شداد كما في الديوان الذي جمع فيه شعره:

=

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا، ولم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة، الذي يسميه المشركون في زماننا: "الاعتقاد"، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلا ونهارا، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلاً صالحا مثل: اللات، أو نبيا مثل عيسى.

وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك ،ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ (الجن: ١٨).

وقال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ﴾ (الرعد: ١٤).

وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والذبح كله لله، والاستغاثة كلها بالله ،وجميع أنواع العبادات كلها لله.

وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن

-

يا عَبْلُ أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها

فهو يعلم أن له رباً، وأنه في السماء.

قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون.

وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا اله إلا الله. فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور؛ سواء كان ملكا أو نبيا أو وليا أو شجرة أو قبرا أو جنيا، لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني به المشركون في زماننا بلفظ "السيد"، فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: لا اله إلا الله. والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه ،فانه لما قال لهم قولوا :لا اله إلا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٥).

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله. فلا خير في رجل جهّال الكفار أعلم منه بمعنى "لا اله إلا الله".

إذا عرفت ما ذكرت لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨)، وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم إلى أخرهم، الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه، وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا؛ أفادك فائدتين:

الأولى: الفرح بفضل الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

وأفادك أيضا: الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى، كما ظن المشركون، خصوصا إن ألهمك الله ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

فحينئذ يعظم خوفك وحرصك على ما يخلصك من هذا وأمثاله".

قلت: ومعرفة حال العرب في جاهليتهم، ومعرفة حال الأمم الأخرى التي سبقتهم؛ في غاية من الأهمية؛ لأنه بهذا تعرف حقيقة دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولأي شيء دعوا الناس إليه، ولذا قال ربنا عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠).

وقال أبو طالب علي بن أنجب الخازن في كتابه أخبار الوزراء في

دول الأئمة الخلفاء كما في الإعلان بالتوبيخ للسخاوي مبيناً أهمية التاريخ، وأن ذلك يبعث على توحيد الله عز وجل: "أوفى مصنفات التواريخ فائدة، وأكثرها عائدة، وأجلها أثرا، وأطيبها خبرا، وأحسنها سمرا، وأحلاها ثمرا، لأن فيها ما يبعث على احتلاب الفضائل، واجتناب الرذائل. وفي مصارع الأعيان ومن ساعده الزمان[1]، وملك البنيان، اعتبارا لمن اعتبر، وتجربة لمن تفكر، إذ اللبيب يرى مكارم الأخلاق فيستحسنها، ورذائل الأفعال فيستهجنها، وعوائد الخير فيطلبها، وعواقب الشر فيجتنبها، وما زال أرباب الهمم العلية، والنفوس الأبية، يتطلعون إلى محاسن الأخبار ليجعلوها لقاحاً لأفهامهم، وسقالاً لأذهانهم، وتذكرة لقلوبهم، ورياضة لعقولهم. ثم إن تأمل ذلك يبعث على التوحيد، والاعتراف بوحدانية الباري جل جلاله؛ إذ في تدبر مجاري الأقدار، وتقلب الأدوار، واختلاف الليل والنهار، وتوالي الأمم وتعاقبها، وتداول الدول وتناوئها، عظة للمتعظين، وتنبيهاً للغافلين، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، ولو لم يكن في ذلك إلا ما ينتفع به المعتبر من قلة الثقة بالدنيا الفانية، وكثرة الرغبة في الآخرة الباقية؛ لكفى ما تتوجه إليه البصيرة من

---

(١) نسبة الأفعال إلى الزمان لا تجوز، وقد ذم الله عز وجل المشركين لقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤)، فالواجب نسبة الأفعال إلى الله تعالى.

جميل الأفعال، وتحث عليه من مصالح الأعمال"[١].

سادساً: ومما يجلي لك معنى التوحيد ويوضحه، الاستدلال عليه بتوحيد الربوبية، وذلك من كونه تعالى هو الخالق وحده، والمدبر والمتصرف وحده، والضار والنافع وحده، والرازق وحده، وغير ذلك من أفعاله التي اختص بها.

قال محمد الأمين الشنقيطي: "ومن أعظم الاستدلال بخلق المخلوقات على معنى لا إله إلا الله ما يتضح من النظر في ترتيب أول سورة البقرة؛ لأنه تعالى بدأها بحروف مقطعة هي: ﴿الم﴾ (البقرة: ١) ثم اتبع ذلك بتعظيم شأن القرآن في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ١)، ثم بين أن الناس بالنسبة إلى الإيمان بالقرآن والكفر به ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: هي التي آمنت به ظاهراً وباطنا، وهم المذكورون في قوله: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ...﴾ الآية (البقرة: ٣).

والطائفة الثانية: هي التي كفرت به ظاهراً وباطناً، وهم المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ...﴾ الآية (البقرة: ٧).

الطائفة الثالثة: هي التي آمنت به ظاهرا وكفرت به باطنا، وهم المنافقون المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ

---

[١] الإعلان بالتوبيخ (ص: ٢٨-٢٩).

وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ الآية (البقرة: ٩). وأطال تعالى الكلام في هذه الطائفة الأخيرة؛ لأنها شر الطوائف، فضرب لها المثل بالنار في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ...﴾ الآية (البقرة: ١٧). وبالماء في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ...﴾ الآية (البقرة:١٩).

ولا شك أن كل مسلم سمع هذا التقسيم إلى هذه الطوائف الثلاث؛ يتمنى أن يعلم الطريق التي توصله إلى أن يكون من الطائفة الطيبة، فبين تعالى أن الطريق الوحيد لكونه منها هو تحقيق هاتين الكلمتين، أعني: كلمة "لا إله إلا الله" وكلمة "محمد رسول الله" فجاء بكلمة: "لا إله إلا الله" أولاً موضحة إثباتها على حدة، ونفيها على حدة. ثم بين البرهان القاطع على صحتها، وهو خلقه تعالى للمخلوقات، ومن المعلوم أن كلمة "لا إله إلا الله" مركبة من نفي وإثبات؛ لأن "لا إله" نفي، و"إلا الله" إثبات. ومعنى النفي منهما: هو خلع جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات. ومعنى الإثبات منها: هو إفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الشرعي خاصة، مع الإخلاص له في ذلك على وجه الذل والخضوع والمحبة.

فإذا عرفت ذلك فاعلم أن قوله جل وعلا بعد ذكر الطوائف الثلاث: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢).

كما وصفنا لك، فقوله جل وعلا: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ فيه معنى الإثبات من "لا إله إلا الله" وهو أول أمر في المصحف الكريم. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ يتضمن معنى النفي منها على أبلغ وجه وأكمله وأتمه، وهو أول نهي في المصحف الكريم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ هو البرهان القاطع على صحة معنى "لا إله إلا الله" ولذا جاء به بين طرفيها، وهو نص صريح سماوي في أن من حكَم خلق الخلق من العقلاء وغيرهم؛ إقامة البرهان بذلك على أنه تعالى هو المعبود وحده ...".

إلى أن قال: "ولأجل ذلك جرت العادة في القرآن بأن الله تعالى يجعل علامة استحقاق العبادة هو كون المعبود خالقاً؛ لأن خلقه للخلق برهان على استحقاقه للعبادة، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ واضح في ذلك.

وكقوله تعالى في الرعد: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾ (الرعد: ٦). يعني: وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

وكقوله تعالى في فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ...﴾ (فاطر: ٤٠). وهو صريح في أن من لا يخلق غيره لا يعبد، وأن من يخلق غيره هو الذي يعبد.

وبه تعلم أن من حكم خلق الخلق الدليل على استحقاق العبادة.

ونظير ذلك قوله تعالى في لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (لقمان: ١١).

وقوله في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ...﴾ (الأحقاف: ٤).

وقوله تعالى في الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف: ١٩١).

وقوله تعالى في الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ...﴾ (الحج: ٧٣). يعني: أن من لم يكن خالقاً فلا يصح أن يكون معبودا، والمعبود لابد أن يكون خالقاً.

ولما بين تعالى في سورة النحل تلك البراهين العظيمة علا جلالته وعظمته، وأنه المعبود وحده في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ...﴾ (النحل: ٣) إلى قوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ

يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٧).

ولما بين في سورة الفرقان علامات من يستحق العبادة بقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢). أتبع ذلك بصفات من لا يستحق أن يعبد بقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ...﴾ (الفرقان: ٣). والآيات بمثل هذا كثيرة جدا معروفة".

ثم قال: "وأما مسألة رزقه تعالى الخلق فقد بين تعالى في آيات كثيرة من كتابه أن من حكم ذلك كونه برهاناً قاطعاً على أنه لا إله إلا هو وحده، وأنه المعبود وحده، فكونه هو الرازق لخلقه من أعظم أدلة التوحيد الدالة على عظمته جل وعلا وجلاله وكمال قدرته، ولذا يأتي بصفة الرزق دائما في القرآن في إقامة البرهان على توحيده تعالى، كقوله تعالى في الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٤٠).

وقوله تعالى في يونس: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١).

وقوله تعالى في النمل: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ...﴾ (النمل: ٦٤).

وقوله في غافر: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (غافر: ١٣).

وقوله تعالى في الجاثية: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية: ٥).

وقوله تعالى في البقرة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢).

وقوله في غافر: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ...﴾ (غافر: ٦٤).

وقوله تعالى في الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ...﴾ (الأنعام: ١٤).

وقوله تعالى في العنكبوت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ١٧).

ومن أصرح البراهين في ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس: ٢٤) إلى قوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: ٣٢).

والآيات بمثل هذا كثيرة جدا.

وصفة الرزق في جميع الآيات المذكورة إنما هي من براهين التوحيد، وبذلك تعلم أن من حكم رزقه تعالى لخلقه إقامة البرهان لهم بذلك على

عظمته وكمال قدرته، وأنه المعبود وحده جل وعلا"[١].

سابعاً: ومما يفسر التوحيد ويبينه، أن يعرف العبد عظمة الله عز وجل وعظيم قدرته ونعوت جلاله، وأن العباد مهما بلغوا من المكانة عند الله عز وجل، فهم عبيد لله، مفتقرون إليه، لا ينفعون ولا يضرون أحداً من دونه، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر: ٢).

إلى أن قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ

---

[١] فتاوى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي المطبوعة ضمن مجموع مؤلفاته (ص: ٣-١٤).

بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (فاطر: ١٧).

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٩).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالقرآن كله في بيان عظمة الله وكماله وجلاله، وأن الإنسان ليس بيده شيء إلا ما أقدره الله عليه، قال الله تعالى عن نبيه محمد عليه الصلاة والسلام الذي له الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ

كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

وقال تعالى عنه أيضا: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس: ١٠٨).

وقال تعالى عنه أيضا في سورة الجن ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن: ٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥)

أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: ٨٣).

ثامناً: ومن الأمور المهمة التي تبين لك التوحيد، وتفسر لك العبادة، وتبعدك عن الشرك؛ الحذر من الغلو والابتعاد عنه، وترك الأسباب التي تؤدي إليه؛ لأن أول شرك وقع في الأرض كان بسبب الغلو بالصالحين، ولذا قال الله تعالى محذراً عباده من ذلك: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٧١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٧).

وأخرج الإمام أحمد (٣٢٤٨) من حديث زياد بن حصين عن أبي العالية ابن عباس أن الرسول ﷺ قال: "إياكم والغلو في الدين، فإنما اهلك

من كان قبلكم الغلو في الدين"[١].

وأخرج البخاري (٣٢٦١) من حديث ابن عباس عن عمر أن الرسول ﷺ قال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله".

والإطراء: هو المبالغة في المدح.

وقد أخرج أبو داود (٤٨٠٦) بإسناد صحيح من حديث أبي نضرة عن مطرف قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا أنت سيدنا. فقال: "السيد الله تبارك وتعالى" قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا فقال: "قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان".

وأخرج النسائي في الكبرى (١٠٠٧٧) بإسناد صحيح من حديث حماد بن سلمة قال ثنا ثابت عن أنس: أن ناسا قالوا لرسول الله ﷺ: يا خيرنا وابن خيرنا، ويا سيدنا وابن سيدنا. فقال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، إني لا أريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تعالى أنا محمد بن عبد الله، عبده ورسوله".

---

(١) وأخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وفي الكبرى (٤٠٦٣)، وابن ماجه (٣٠٢٩)؛ كلهم من حديث أبي العالية عن ابن عباس، وفي بعض الروايات عن ابن عباس عن أخيه الفضل، وهو حديث صحيح.

ففي هذين الحديثين نهاهم رسول الله ﷺ عن تسييده، مع أنه سيد ولد آدم، خوفاً عليهم من الغلو، وتواضعاً منه لربه عز وجل. فأين هذا من إطلاق بعض المخلوقين على بعض الخلق بأنه ملك القلوب، وهذا خطأ كبير لأن ملك القلوب هو الله تعالى وحده، فهو الذي يملك تصريفها وتقليبها كيف يشاء، كما أخرج مسلم في صحيحه (٢٦٥٤) من طريق أبي هانئ عن أبي عبد الرحمن الحبلي أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: "اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك".

وأخرج أحمد (١٧٦٦٧) والنسائي في الكبرى (٧٧٣٨) وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٦) واللفظ له وصححه ابن حبان (٩٤٣) والحاكم (٧٩٠٧) كلهم من طريق بسر بن عبيد الله عن أبي إدريس الخولاني عن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه".

ومثل ما تقدم تسمية بعض المخلوقين بملك الإنسانية، وملك الإنسانية على الإطلاق هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (الناس: ١).

بل نهى عليه الصلاة والسلام عما هو دون ذلك، فقد أخرج البخاري (٢٥١٩)، ومسلم (٣٠٠٠) من حديث عبد الرحمن بن أبي

بكرة عن أبيه قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ فقال: "ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك -مرارا- من كان منكم مادحا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه".

وأخرجه البخاري (٥٧١٣) وبوب عليه: ما يكره من التمادح.

وأخرج الشيخان البخاري (٥٧١٣)، ومسلم (٣٠٠١)؛ كلاهما من طريق بُرَيْد بن عبد الله بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة فقال: "لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل".

وقد بوب البخاري على هذا الحديث: باب ما يكره من الإطناب في المدح، وليقل ما يعلم.

كل هذا صيانة للتوحيد، وتحقيقاً له، وقطعاً للشرك وسداً لأبوابه.

تاسعاً: ومما يبين لك حقيقة التوحيد أيضاً: عدم الاغترار بالدنيا والتعلق بها، والإكثار من حطامها الفاني، فإنه لا يخفى أن من الأسباب الكبيرة التي أوقعت العباد في المعاصي والذنوب؛ بل والشرك والغفلة عن الله عز وجل؛ تقديم الدنيا على الآخرة وشدة التعلق بها.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود:

(١)
١٥) .

---

(١) قال محمد بن عبد الوهاب في تفسير هذه الآية ما حاصله: "ذُكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة وصلاة وصلة وإحسان إلى الناس وترك ظلم ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظ أهله وعياله أو إدامة النعم عليه ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالا صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالا صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضا هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد كما هو واقع كثيرا.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصا في ذلك لله وحده لا شريك له لكنه على عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضا قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره وكان السلف يخافون منها قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧).

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه

=

وقد بين ربنا عز وجل في آيات كثيرة حقارة الدنيا، وسرعة زوالها، وأن على العبد أن يتعلق بخالقه ومولاه، ويقدم آخرته على دنياه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: ١٧).

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ

الله طالبا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالا قاصدا بها الدنيا؛ مثل أن يحج فرضه لله ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم : القرآن كثيرا ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص ويسكت عن صاحب الشائبتين وهو هذا وأمثاله). ينظر فتح المجيد (ص: ٤٣٩-٤٤١)، وهو موجود في كتاب التفسير من مؤلفات الشيخ (٤: ١٢٠-١٢٣).

يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢١).

وأما الناحية العملية، والمقصود بها التكاليف والعبادات التي يقوم بها العبد في يومه وليلته، ففيها البرهان الواضح، والدليل الظاهر، في بيان التوحيد، والنهي عن ضده.

فأولاً فيما يتعلق بأركان الإسلام الخمسة ورأس ذلك شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن المعلوم أن الإنسان لا يكون مسلماً إلا بنطقه بالشهادتين، مع العلم بمعناها والعمل بمقتضاها.

"وقد بين الله تعالى في مواضع من القرآن، معنى كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، ولم يكل عباده في بيان معناها إلى أحد سواه، وهو صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف: ٢٨)، فعبر عن معنى: لا إله، بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وعبر عن معنى: إلا الله، بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

فتبين أن معنى لا إله إلا الله هو: البراءة من عبادة كل ما سوى الله، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى كما تقدم؛ وهذا واضح بين لمن جعل الله له بصيرة، ولم تتغير فطرته، ولا يخفى إلا على من عميت بصيرته بالعوائد الشركية، وتقليد من خرج من الصراط المستقيم، من أهل الأهواء والبدع والضلال ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠).

وقال تعالى في بيان معناها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ

سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، والمعنى: أي بعض كان من نبي أو غيره، كالمسيح ابن مريم، والعزير، ونحوهما؛ وفي قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ (آل عمران: ٦٤)، معنى: لا إله، وقوله: إلا الله، هو المستثنى في كلمة الإخلاص.

وهذا التوحيد هو الذي دعا إليه النبي ﷺ أهل الكتاب وغيرهم من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨).

وقد قال تعالى في معنى هذه الكلمة عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ﴾ (الكهف: ١٦)، ففي قوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ معنى: لا إله، وقوله: ﴿إِلا اللَّهَ﴾ (الكهف: ١٦)، هو المستثنى في كلمة الإخلاص، وقال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ (الكهف: ١٤)، إلى قوله: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ (الكهف: ١٤)، فتقرر بهذا أن الإلهية هي: العبادة ؛ وأن من صرف شيئا لغير الله فقد جعله لله ندا، والقرآن كله في تقرير معنى لا إله إلا الله، وما تقتضيه وما تستلزمه، وذكر ثواب أهل التوحيد وعقاب أهل الشرك.

ومع هذا البيان الذي ليس فوقه بيان، كثر الغلط في المتأخرين من هذه الأمة في معنى هذه الكلمة، وسببه تقليد المتكلمين الخائضين، فظن بعضهم أن معنى لا إله إلا الله إثبات وجود الله تعالى، ولهذا قدروا الخبر المحذوف في لا إله إلا الله، وقالوا: لا إله موجود، إلا الله، ووجوده تعالى قد أقر به المشركون الجاحدون لمعنى هذه الكلمة.

وطائفة ظنوا أن معناها قدرته على الاختراع، وهذا معلوم بالفطرة، وما يشاهد من عظيم مخلوقات الله تعالى كخلق السماوات والأرض، وما فيهما من عجائب المخلوقات؛ وبه استدل الكليم موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون، لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ٢٦).

وفي سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ (الإسراء: ١٠٢). ففرعون يعرف الله، ولكن جحده مكابرة وعنادا.

وأما غير فرعون من أعداء الرسل، من قومهم، ومشركي العرب، ونحوهم، فأقروا بوجود الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧)، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام لما جحدوا ما دلت عليه لا إله إلا الله من إخلاص العبادة بجميع أفرادها لله وحده.

وفي الحديث الصحيح: "من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار".

وتقدم قول قوم هود: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ (الأعراف: ٧٠)، دليل على أنهم أقروا بوجوده وربوبيته، وأنهم يعبدونه، لكنهم أبوا أن يجردوا العبادة لله وحده دون آلهتهم التي كانوا يعبدونها معه.

فالخصومة بين الرسل وأممهم، ليست في وجود الرب، وقدرته على

الاختراع فإن الفطر والعقول دلتهم على وجود الرب، وأنه رب كل شيء ومليكه، وخالق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؛ وإنما كانت الخصومة في ترك ما كانوا يعبدونه من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (هود: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (العنكبوت: ١٨).

فالشرك في العبادة هو الذي عمت به البلوى في الناس، قديما وحديثا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (الروم: ٤٢)".

إلى أن قال: "وقد قيدت لا إله إلا الله، في الأحاديث الصحيحة، بقيود ثقال لا بد من الإتيان بجميعها، قولا، واعتقادا، وعملا فمن ذلك حديث عتبان الذي في الصحيح: "فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله"، وفي حديث آخر: "صدقا من قلبه"، "خالصا من قلبه"، "مستيقنا بها قلبه"، "غير شاك"، فلا تنفع هذه الكلمة قائلها إلا بهذه القيود، إذا اجتمعت له مع العلم بمعناها ومضمونها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ

بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦). وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩)، فمعناها يقبل الزيادة، لقوة العلم، وصلاح العمل.

فلا بد من العلم بحقيقة معنى هذه الكلمة، علما ينافي الجهل، بخلاف من يقولها وهو لا يعرف معناها، ولا بد من اليقين المنافي للشك، فيما دلت عليه من التوحيد، ولا بد من الإخلاص المنافي للشرك، فإن كثيرا من الناس يقولها وهو يشرك في العبادة، وينكر معناها، ويعادي من اعتقده وعمل به؛ ولا بد من الصدق المنافي للكذب، بخلاف حال المنافق الذي يقولها من غير صدق، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (الفتح: ١١)، ولا بد من القبول المنافي للرد، بخلاف من يقولها ولا يعمل بها، ولا بد من المحبة لما دلت عليه من التوحيد والإخلاص وغير ذلك، والفرح بذلك، المنافي لخلاف هذين الأمرين، ولا بد من الانقياد بالعمل بها وما دلت عليه مطابقة، وتضمنا، والتزاما. وهذا هو دين الإسلام، الذي لا يقبل الله دينا سواه"[١].

ولا يخفى أن الحكمة من خلق الخليقة وشرع الطريقة[٢]؛ هو توحيده وإفراده بالعبادة وإثبات ما أثبته لنفسه من نعوت الجلال وصفات الكمال، ومحبة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والبراءة من الشرك وأهله، قال الله

---

[١] الدرر السنية (٢: ٢٣١-٢٤٤).

[٢] الطريقة هي الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده باتباعه.

تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨).

وهذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، ولا يدخل الإنسان الإسلام إلا بإعلانه للتوحيد والبراءة من الشرك كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف: ٢٨).

وقال تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...﴾ (الممتحنة: ٤).

وكما في صحيح مسلم (١٦) من حديث سعد بن عبيدة عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: "بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان".

وفي البخاري (١٣٣٣)، مسلم (٩) من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان".

وفي صحيح مسلم (١) من حديث يحيى بن يَعْمَر عن عبدالله بن عمر بن الخطاب عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: وقد سئل عن الإسلام

فقال: "الإسلام أن تشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ..." الحديث. والنصوص في هذا كثيرة.

وأما الصلاة التي هي الركن الثاني فهي توحيد عملي؛ لأنها توجه لله وخضوع له وصلة بين العبد وربه، فالنداء لها يكون بتكبير الله وتعظيمه، وبالشهادة له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم يختم الأذان بتوحيده وتكبيره، ثم يفتتحها المصلي بإعلانه أن الله أكبر من كل شيء، ثم يناجي ربه بقوله: "سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك"[١].

فينزه العبد ربه من كل نقص، ويحمده ويعظمه. ثم يخبر عن توحيده لربه، ثم عندما يقرأ الفاتحة وهي قسمان: ثناء من العبد على ربه، ودعاء له بأن يهديه صراطه المستقيم.

"[٢]ثم يثني العبد على ربه ويعظمه عز وجل[٣]، ثم إذا رفع من الركوع شرع له أن يحمد ربه ويثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه، بأن وفقه بذلك الخضوع، ثم نقله منه إلى مقام الاعتدال والاستواء بين يديه

---

(١) أخرجه أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه وهو ثابت بمجموع طرقه.

(٢) هذا من كلام أبي عبد الله ابن القيم رحمه الله تعالى.

(٣) وهذا في الركوع.

واقفاً في خدمته، كما كان في حال القراءة.

ثم شرع له أن يكبر ويخر ساجداً فيضع أصبعيه على الأرض بين يدي ربه، راغماً له أنفه، خاضعاً له قلبه وجوارحه، متذللاً لعظمته، خاضعاً لعزته، أذل شيء وأكسره لربه تعالى، مسبحاً له بعلوه، قد طابق قلبه حال جسمه، فسجد القلب كما سجد الوجه، فأحر به في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه، منه في غيرها من الأحوال، كما قال عليه الصلاة والسلام: "أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد ..." الحديث[١].

ثم إذا جلس بين السجدتين يكون قد تمثل جاثياً بين يدي ربه، ملقياً نفسه بين يديه، معتذراً إليه مما جناه، راغبا إليه أن يغفر له ويرحمه، وقد كان النبي ﷺ يكرر الاستغفار في هذه القعدة، ويكثر رغبته إلى الله فيها.

ثم يسجد، ثم يكرر هذه الأفعال، فإذا أكمل صلاته ولم يبق إلا الانصراف شرع له الجلوس بين يدي ربه مثنياً عليه بأفضل التحيات التي لا تصلح إلا له ولا تليق بغيره.

ثم يعطف عليها الصلوات وكلها لله؛ فالتحيات له ملكاً، والصلوات له عبودية واستحقاقا، ثم الطيبات كذلك.

فكل طيب مضاف إليه؛ وصفاً وفعلاً وقولاً ونسبة، وهي تتضمن تسبيحه وتحميده وتكبيره وتمجيده والثناء عليه بآلائه وأوصافه.

---

[١] أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة.

فهذه الكلمات الطيبات ومعانيها له وحده، لا يشركه فيها غيره؛ كسبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

ثم يشرع له أن يسلم على عباد الله الذين اصطفى، فتحية المخلوق تكون بعد تحية الخالق، وقدم في هذه التحية أولى الخلق بها، وهو النبي ﷺ، ثم على نفسه بعده، وعلى سائر عباد الله الصالحين في الأرض والسماء. ثم بعد ذلك يجدد توحيده، فيشهد شهادة الحق التي بنيت عليها الصلاة. ثم بعد ذلك قبل أن يسلم أذن له أن يسأل حاجته بعد تعظيمه لربه، وصلاته على رسوله ﷺ، فالتحيات أولها حمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة على رسوله، ثم الدعاء آخر الصلاة. ثم يختمها بعد ذلك بذكر اسم الله عز وجل، وهو السلام. ثم يستغفر العبد ربه عز وجل، من تقصيره عموماً، ومن تقصيره؛ خصوصاً في صلاته من عدم إقباله الكامل على ربه عز وجل. ثم بعد ذلك يوحد ربه ويسبحه ويحمده ويكبره، بل الأذان الذي يسبق هذه الصلاة متضمن لجميع العقيدة"[١].

وأما الركن الثالث وهي الزكاة، فشأنها عظيم، وأمرها كبير، ولذا عندما يخرج العبد زكاة ماله لله تعالى، والمال من أعظم المحبوبات له، فهذا برهان على إيمانه، كما في صحيح مسلم (٢٢٣) من حديث أبي سلام عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان،

---

(١) انتهى كلام ابن القيم.

والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء ..." الحديث.

وقد كرر ربنا عز وجل في آيات متتابعة أن إنفاق المال لابد أن يكون خالصاً له تعالى، كما تقدم.

وأما الصيام فهو مبني على إخلاص العبادة؛ بل هو من أظهر العبادات في ذلك؛ لأنه سرٌّ بين العبد وربه؛ يترك محبوباته وشهواته لله تعالى، وفي صحيح البخاري (١٨٠٥) ومسلم (١١٥١) من حديث عطاء عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به ...) الحديث.

وفي البخاري (١٨٠٢)، مسلم (٧٦٠) من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه".

وأما الحج؛ فشعاره التوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وأعظم أركانه الوقوف بعرفة، والسنة في هذا اليوم الإكثار من دعاء الله عز وجل والتهليل، إلى مغيب شمس هذا اليوم.

ولا يخفى أن هذا ربط للعبد بربه، وتعلق به، وأن عليه أن يتوجه في كل حالاته إليه، فهذا كله توحيد عملي يبين معنى: لا إله إلا الله.

ثانياً: أما ما يتعلق بالعبادات الأخرى في يومه وليلته، فالمسلم يبدأ يومه بالتوحيد، فقد أخرج البخاري (٥٩٥٣) من حديث ربعي بن حراش عن حذيفة قال: كان النبي ﷺ إذا آوى إلى فراشه قال:"بسمك اللهم أموت وأحيا"، وإذا قام قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور". فيعتقد أن الموت والحياة بيد الله تعالى وحده، فيحمد الله عز وجل على ذلك بعدما يستيقظ.

ثم بعد ذلك يذكر أوراد الصباح، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا أصبح قال: "أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين"[١].

وفطرة الإسلام هي التوحيد، فقد فطر الله عباده على ذلك، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، ودين نبينا محمد هو الإسلام -أي: إسلام الوجه لله عز وجل والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله- ولم يكتف بهذا حتى أكده بأنه أصبح على ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلماً وما كان من المشركين.

وفي المساء يقول مثل ذلك، وفي الحديث الآخر الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٤٧) عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

---

[١] أخرجه أحمد (١٥٣٩٧)، والنسائي في الكبرى (٩٨٣١).

قال: "سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة".

وهذا كله توحيد وإقرار بالعبودية من قبل العبد لربه جل وعلا، واعتراف بنعمه وآلائه عليه، وإقرار منه بذنوبه، وطلب للمغفرة من ربه عز وجل.

وفي الحديث الآخر: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"[١].

ومنها ما رواه أبو داود (٥٠٧٣)، والنسائي في الكبرى (٩٨٣٥) وصححه ابن حبان (٨٦١) أن رسول الله ﷺ قال: "من قال حين يصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر يومه ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته". فاعتبر من هذا الحديث العظيم كيف يُعَلِّمُ العبد التوحيد والإخلاص لله عز وجل، وذلك باعتراف العبد أن مابه من نعمة أو بأحد

---

[١] أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٤٠٥) وفيه ضعف.

من خلقه فهي من الله وحده لاشريك له، وبعد اعترافه بذلك وإقراره بحمد الله وشكره على ذلك.

ومن الحكمة في ذلك التكرار أن الخلق كثيراً ما يغفلون عن شكر الله عز وجل حينما ينعم عليهم بالنعم، فيشكرون من تسبب ها عليهم وينسون الله عز وجل الذي قدرها وساقها إليهم وجعلها على يد بعض عباده، وقد تكفل لهم بتيسيرها.

وإذا جاء الليل جدد توحيده لربه وإخلاص العبادة له، فمن أذكار الليل -وهي غير أذكار المساء- قراءة سورة الإخلاص، ففي صحيح مسلم (٨١١) من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: "أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟" قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: "قل هو الله أحد يعدل ثلث القرآن".

وأخرج أيضا (٨١٢) من حديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن" فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: قل هو الله أحد، ثم دخل فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء؛ فذاك الذي أدخله ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: "إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن".

وهكذا إذا أراد أن ينام جدد إخلاصه وعبوديته لربه فيقول كما جاء في البخاري (٢٤٤)، ومسلم (٢٧١٠) عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ أوصى رجلا فقال: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم

اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به".

بل حتى إذا تعارّ من الليل يجدد إيمانه وتوحيده، ففي صحيح البخاري (١١٠٣) من حديث جنادة بن أبي امية عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: "من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته".

وهكذا عند أكله وشربه، فإذا ابتدأ يقول: بسم الله، وإذا انتهى يحمد الله، وإذا خرج من بيته قال: "بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان"[(١)].

وإذا دخل إلى بيته فالمشروع له أن يذكر اسم الله، كما جاء ذلك في صحيح مسلم (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبدالله، أنه سمع النبي ﷺ يقول: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله

---

(١) اخرجه الترمذي (٣٤٢٦) من حديث أنس بن مالك وهو حديث حسن بما يشهد له.

قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء".

وإذا ذهب إلى قضاء الحاجة فالمشروع له أن يستعيذ بالله من الشياطين؛ ذكراهم وإناثهم كما في الصحيحين من حديث أنس.

وإذا خرج سأل الله تعالى مغفرته، كما في سنن أبي داوود من حديث عائشة، بل حتى إذا أراد أن يأتي أهله قال البخاري في كتاب الوضوء "باب التسمية على كل حال وعند الوقاع (١٤١) ثم ساق من طريق سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس يبلغ به النبي ﷺ قال: "لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا، فقضي بينهم ولد لم يضره".

وكذا في حال الشدة، عليه أن يكثر من ذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥).

ولو استرسلنا في ذكر الأدلة لطال بنا المقام، فلو أن الناس تدبروا ذلك لاستقام لهم توحيدهم، وحققوا العبودية لربهم، وعرفوا معاني ذلك حق المعرفة، وابتعدوا عما يضاد ذلك كله؛ لأن هذه العبادات والأذكار والأوراد مستغرقة لجميع وقت الإنسان في يومه وليلته وفي عمره كله، حتى ينزل به الموت، ففي صحيح مسلم (٢٦) من حديث عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة".

وفي صحيح مسلم (٩١٧) من حديث عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله".

ولذا كان رسول الله ﷺ وهو في فراش الموت يحذر أمته من الشرك ومن اتباع اليهود والنصارى.

فتبين مما تقدم أن الشارع قد بين لنا بأتم بيان وأظهر برهان، معنى الإله وحقيقة العبادة، ولأجل هذا قال المشركون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: ٥).

وفي صحيح البخاري (٧) في قصة هرقل مع أبي سفيان عندما سأله -وذلك قبل أن يسلم أبا سفيان- قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: "اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ..." الحديث.

فلم يخفَ على أبي سفيان -وهو في حال الشرك- حقيقة دعوة الرسول ﷺ.

هذا مع ملاحظة أربعة أمور:

أولاً: أن الله عز وجل قد أخذ الميثاق على عباده وهم في صلب أبيهم آدم بأنه ربهم عز وجل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعرف: ١٧٤).

ثانياً: أن الله عز وجل قد فطر العباد على التوحيد، قال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠).

وفي البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٢٦٥٨): "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ..." الحديث.

وفي صحيح مسلم أيضا (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول ﷺ قال ذات يوم في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نحلته عبدا حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا".

ثالثاً: أن الله عز وجل قد حفظ دينه من التحريف أو التبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ويلزم من ذلك حفظ السنة النبوية التي تفسر القرآن، وهذا بخلاف الأمم السابقة، فمن أسباب ضلالهم ووقوعهم في الشرك والكفر هو التحريف والتبديل الذي وقع لكتبهم.

رابعاً: أن من رحمة الله عز وجل التي وسعت كل شيء؛ أن هيأ لعباده من يبين لهم الحق ويهديهم صراطه المستقيم، بما أورثهم من كتابه وسنة نبيه ﷺ. فهداهم ليهدي بهم من شاء من عباده، وأخذ عليهم العهد والميثاق؛ ببيان ما أورثهم من العلم والهدى كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، وجعلهم مرجعاً عند الاختلاف وتنازع الحق أو جهله، فقال سبحانه:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. (النحل: ٤٣).

وبالله تعالى التوفيق.

كتبه

عبد الله بن عبد الرحمن السعد

١٤٣٠/١١/٢٦ هـ

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٧١).

أما بعد: فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد: فهذا كتاب: "رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله" المعروف بكتاب "العبادة" للعلامة المحقق عبد

الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني -رحمه الله-.

والعبادة في اللغة: هي التذلل والخضوع.

قال الجوهري: "أصل العبودية الخضوع والذل"[١].

وقال الراغب الأصفهاني: "العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل"[٢].

وأما العبادة في الشرع، فقد عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بأنها: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[٣].

وعرفها ابن القيم -رحمه الله- بأنها: كمال الحب مع كمال الذل، فقال:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فقيام دين الله بالإخلاص ... والإحسان إنهما له أصلان

لم ينج من غضب الإله وناره ... إلا الذي قامت به الأصلان

---

(١) الصحاح (٣: ٦٥).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (ص: ٥٤٢).

(٣) العبودية (ص: ٣٨).

والنـــاس بعـــد فمـــشرك بإلهـــه   أو ذو ابتداع أو له الوصـــفان[(١)]

وعرفها الشيخ السعدي بقوله: "العبادة روحُها وحقيقتُهـــا تحقيـــقُ الحبِّ والخضوع لله؛ فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة؛ فـــإن حقيقتها الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته المحبة التامة"[(٢)].

وهناك ارتباط وثيق بين الألوهية والعبادة، فالإله في اللغة هو المعبود، قال الجوهري: "أله -بالفتح- إلاهة، أي عبد عبادة ... ومنه قولنا: "الله". وأصله إله على وزن فعال، بمعنى مفعول؛ لأنه مألوه بمعـــنى معبـــود ... والتأليه التعبيد، والتأله التنسك والتعبد، قال رؤبة بن العجاج:

لِلهِ دَرُّ الغانِيـــــــات الُمـــــــدَّهِ   سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِن تَألُّهِي"[(٣)]

وقال الفيروزآبادي: "أله إلاهة وألوهة وألوهية: عبد عبادة، ومنـــه لفظ الجلالة، قال: وأصله إله بمعنى مألوه، وكل ما اتخذ معبودا إله عنـــد

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص: ٣٢).

(٢) الحق الواضح المبين (ص: ٥٩-٦٠).

(٣) الصحاح (٧: ٧٢)، وديوان رؤبة (ص: ١٦٥)، و"المده": جمع ماده، ومده فلانًـــا يمـــده مدهًا: نعت هيئته وجماله وأثنى عليه ومدحه. و"استرجعن": قلن: إنا لله وإنا إليه راجعـــون؛ يقلنها حسرة عليه كيف تنسك وهجر الدنيا بعد الذي كان من شبابه وجماله وصبوته!

متخذه"[١].

فيجب على كل مكلف معرفة العبادة، ثم إفراد الله جل وعلا وتوحيده بها، وهذا النوع من التوحيد -توحيد الألوهية والعبودية- هو أهم أنواع التوحيد على الإطلاق، وإذا أطلق اسم التوحيد لا ينصرف إلا إليه.

فالتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد اجتمعت في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ (مريم: ٦٥).

وتوحيد الربوبية: -وهو إفراد الله بالخلق، والملك، والتدبير- قد حكى القرآن عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (يونس: ٣١).

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧).

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (العنكبوت: ٦٣)[٢].

---

[١] تاج العروس من جواهر القاموس (٣٦: ٣٢٢).

[٢] ولم يجحد أحد توحيد الربوبية إلا ما حصل من فرعون؛ فإنه أنكره مكابرة؛ كما قال =

وتوحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله تعالى بما له من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، قد كان المشركون -أيضاً- يقرون بجنس هذا التوحيد، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك، إما جهلاً، وإما عنادًا، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ (الرعد: ٣٠). قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا، إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن، قال الشاعر:

ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها ... ألا قَضَبَ الرحمنُ رَبي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجِلتم علينا عَجْلَتينَا عليكُمُ ... وما يَشَأ الرّحْمَنُ يَعْقِد ويُطْلِقِ

وهما جاهليان.

وقال زهير:

فلا تَكْتُمنَّ اللهَ ما في نفوسكُمْ ... لِيَخْفَى، وَمَهْما يُكتمِ اللهُ يَعْلَمِ[1]

=

تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: ١٤)، وقال تعالى حكاية عن موسى وهو يناظر فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الإسراء: ١٠٢)؛ فهو في نفسه مقر بأن الرب هو الله ﷻ. انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (١: ٩).

[1] ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا

=

وبعضهم كان يؤمن بالبعث والحساب، قال زهير:

يؤَّخرْ فيوضعْ في كتاب فيدَّخر ليوم الحساب أو يعجَّل فينقم

وبعضهم كان يؤمن بالقضاء والقدر، قال عنترة:

يا عَبلُ أينَ من المَنيَّة مَهْربي إن كانَ ربي فِي السَّماءِ قَضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم كثير.

فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده، ولم يكونوا بذلك مسلمين؛ فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السببِ الذي أوجب سفك دمائهم، وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم، مع هذا الإقرار والمعرفة، وهو امتناعهم عن توحيد الإلهية الذي هو معنى لا إله إلا اللّه، وهو عبادة لله وحده لا شريك له، وهي الغاية التي خلق الله الخلق لأجلها، وأرسل جميع رسله لتحقيقها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١). وهذا أول أمر في القرآن.

ينكرونه لردُّوا على النبي ﷺ ذلك، كما ردُّوا عليه توحيد الإلهية. فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ (ص: ٥). لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد. انظر: تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٧).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣). فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك.

وهي دعوة جميع الأنبياء بعده، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

فهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وهو أول دعوة الرسل وآخرها[١].

قال الشيخ حافظ حكمي -رحمه الله- مبينا أن توحيد الألوهية هو أهم أنواع التوحيد، وأن من أجل تحقيقه أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسلت سيوف الجهاد، وفرق بين المؤمنين والكافرين، فقال:

هذا وثاني نوعي التوحيدِ ... إفرادُ ربِّ العرش عن نديدِ

أن تعبد الله إلهاً واحدا ... معترفاً بحقه لا جاحدا

وهو الذي به الإله أرسلا ... رسله يدعون إليه أولا

وأنزل الكتابَ والتبيانا ... من أجله وفرق الفرقانا

وكلف اللهُ الرسولَ المجتبى ... قتال من عنه تولى وأبى

حتى يكونَ الدينُ خالصاً لهُ ... سرا وجهرا دقه وجلهُ

وهكذا أمته قد كلفوا ... بذا وفي نص الكتاب وصفوا

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٨).

وقـــد حوتـــه لفظـــة الـــشهادة فهي سبيل الفـــوز والـــسعادة
مـــن قالهـــا معتقـــدا معناهـــا وكـــان عـــاملا بمقتـــضاها
في القول والفعل ومـــات مؤمنـــا يبعث يوم الحـــشر نـــاج آمنـــا
فـــإن معناهـــا الـــذي عليـــه دلـــت يقينـــا وهـــدت إليـــه
أن لـــيس بـــالحق إلـــه يعبـــدُ إلا الإلـــه الواحـــد المنفـــردُ
بـــالخلق والـــرزق وبالتـــدبيرِ جل عـــن الـــشريك والـــنظيرِ
وبشروط سـبعة قـد قيـدت وفي نصوص الوحي حقا وردت
فإنـــه لم ينتفـــع قائلـــها بالنطق إلا حيـث يـستكملها
العلـــم والـــيقين والقبـــولُ والانقيـــاد فـــادر مـــا أقـــولُ
والـــصدق والإخـــلاص والمحبـــة وفقـــك الله لمـــا أحبـــه[1]

وهذه الأبيات الأخيرة ينبغي تدبرها، فقد أجمع العلماء -رحمهم الله- على أن هذه الكلمة العظيمة -لا إله إلا الله- لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه:

الشرط الأول: العلم المنافي للجهل، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩).

وقال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ

---

[1] معارج القبول شرح سلم الوصول (١: ٣٢).

شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦).

وفي الصحيح عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة"[١].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة"[٢].

وفي رواية: "لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة"[٣].

الشرط الثالث: القبول المنافي للرد، فقد يعرف معناها ولا يقبله، إما كبرا، كحال مشركي العرب الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (الصافات: ٣٦).

---

[١] رواه مسلم (٢٦).

[٢] رواه مسلم (٢٧).

[٣] المصدر السابق.

أو حسدا كحال اليهود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ﴾ (البقرة: ١٠٩).

الشرط الرابع: الانقياد المنافي للترك، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ (الزمر: ٥٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء: ١٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (لقمان: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠).

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل ﷺ عن النبي ﷺ قال: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا اله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا

حرمه الله على النار"[١].

الشرط السادس: الإخلاص، قال تعالى: ﴿أَلا لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ (الزمر: ٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة: ٥).

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه"[٢].

وفي الصحيحين عن عتبان بن مالك أن النبي ﷺ قال: "إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ﷻ"[٣].

الشرط السابع: المحبة المنافية للبغض، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

وفي الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما

---

[١] رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

[٢] رواه البخاري (٩٩).

[٣] رواه البخاري (٤١٥)، ومسلم (٣٣).

يكره أن يقذف في النار[١].

فهذه الكلمة العظيمة -لا إله إلا الله- لا تنفع قائلها إلا بهذه الشروط.

قيل للحسن البصري -رحمه الله-: إنَّ ناساً يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنَّة، فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدَّى حقَّها وفرضها، دخلَ الجنَّةَ[٢].

وقيل لوهب بنِ مُنبِّه -رحمه الله-: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنَّة؟ قال: بلى؛ ولكن ما من مفتاحٍ إلا وله أسنان، فإنْ جئتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فتح لك، وإلاَّ لم يفتح لك[٣].

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ... فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك النجاة

---

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١: ٢٠٠).

(٣) رواه البخاري تعليقاً (٣: ١٠٩)، ووصله وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤: ٦٦).

من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها"[١].

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن -رحمه الله- في فتح المجيد -عند قول النبي ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار"- قال: "من شهد أن لا إله إلا الله" أي: من تكلم بها عارفا لمعناها، عاملا بمقتضاها، باطنا وظاهرا؛ فلابد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها ... أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح فغير نافع بالإجماع"[٢].

وهذا أمر في غاية الوضوح، ولكن لغلبة الجهل، وخفاء العلم، وبعد العهد، التَبَسَ الأمرُ على أكثر الناس، ونقضت عرى الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"[٣].

فإذا كان عدم معرفة الجاهلية سببا لنقض عرى الإسلام، فكيف بمن لا يعرف الجاهلية ولا الإسلام كما هو الغالب في هذه الأوقات؟!

هذا مع كثرة علماء السوء الذين يلبسون على الناس أمر دينهم

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٣٦).

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: ٦٣).

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥: ٥٤).

رغبة فيما في أيدي الأغنياء، أو رهبة من بطش الأمراء، أو إرضاء للعامة الدهماء، فإذا أحدث أحد من هؤلاء بدعة، ثم استعان بهؤلاء العلماء تجدهم أسرع ما يكون إلى الترغيب فيها، وتحريف الكتاب والسنة في سبيل تحسينها، وتضليل أو تكفير من قد يتعرض لردها، وأعجب من هذا أنهم يزعمون أن هذا منهج السلف، والسلف منهم بريء، فمن أعظم مزايا السلف -كما قال العلامة المعلمي في ثنايا هذا الكتاب نقلا عن ابن الحاج- "كان في عهد السلف إذا ابتدعت العامة بدعة قام العلماء في إبطالها، وأما علماء الخلف فإنهم إذا ابتدع أحد من العامة والأمراء والأغنياء بدعة قام العلماء في الترغيب فيها، والانتصار لها وتوجيهها".

ثم قال العلامة المعلمي معلقاً: "وقد صدق وبر، ومن أراد من أمرائنا وأغنيائنا فليجرب بأن يحدث بدعة، ثم يستعين بالعلماء، فسيجدهم أسرع ما يكون إلى الترغيب فيها، وتحريف الكتاب والسنة في سبيل تحسينها، وتضليل أو تكفير من قد يتعرض لردها، ولعل الأعلم الأتقى منهم هو الذي يلزم نفسه السكوت، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبهذا هلكت الأمم السابقة، وقد قص الله تعالى في كتابه عن اليهود والنصارى ما فيه أعظم العبر ... فأما النصرانية فمن تتبع تاريخها منذ رفع عيسى عليه السلام تبين له أنه كان لا يزال في القرون الأولى عارفون بالحق، ولكنهم مغلوبون على أمرهم، وكانت العامة والملوك والأئمة المضلون يحدثون المقالات، فيجدون من العلماء والرهبان من ينصرها، ويكفر أو يضلل من يخالفها، وهذا حال جميع الأمم.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل".

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال فمن".

وروى البخاري نحوه عن أبي هريرة، وفيه: "فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك".

وروى الشافعي بسند صحيح -كما في الفتح- عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: "لتركبن سنن من كان قبلكم حلوها ومرها".

وفي الفتح: وأخرج الطبراني من حديث المستورد بن شداد ﷺ عن النبي ﷺ: "لا تترك هذه الأمة شيئاً من سنن الأولين حتى تأتيه".

قال في الفتح: "قلت: وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ، وسيقع بقية ذلك"[١].

---

[١] كتاب العبادة (ص:).

ولكن من لطف الله ﷻ بعباده أن قيض لهم من أئمة الهدى، وأعلام الدجى من يردهم إلى منهج السلف الصالح، ويكشف لهم زيوف الباطل، ويدحض شبه المبطلين، وهذا من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، ومن هنا ألف هذا العالم الرباني كتاب "العبادة" ليعالج فيه أهم القضايا المتعلقة بتوحيد الألوهية، الذي هو أعظم أنواع التوحيد قاطبة وأجدرها بالعناية والاهتمام، مستدلا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال السلف، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية، بأشفى عبارة وأجلى بيان، وهذا دأبه -رحمه الله- في كتبه ورسائله، يعالج المسائل والمشاكل معالجة لا يدع بعده مقالاً لقائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[١].

الكتاب ومنهج العمل فيه:

١- تقع نسخة الكتاب الخطية في أربعة مجلدات:

الأول: يشتمل على مئة ورقة عدد سطوره (١٦) سطراً، وعدد

---

[١] كان الشيخ يعزو كثيرا لهذا الكتاب في بعض كتبه، خاصة المباحث المطولة التي تعرض لها وفصل القول فيها في هذا الكتاب الفذ، حتى ذكره الشيخ في سبعة مواضع من كتابه: "القائد إلى تصحيح العقائد" وهو الجزء الرابع من كتاب "التنكيل". انظر: (٢: ١٧٨، ٢٥٢، ٢٧٧، ٢٨٣، ٣٧٨، ٣٨٢)، وذكره الشيخ أيضاً في ثلاثة مواضع من كتابه حقيقة التأويل. انظر الصفحات: (٢٤)، (٣٤)، (٥٣)، وذكره أيضا في أول كتاب تحقيق البدعة مخطوط، وهذا يدل على أهمية هذا الكتاب يسر الله إخراجه.

الكلمات في السطر (١١) كلمة، وخطه جيد يقرأ، ومبيض، يبدأ من (ص: ١-٩١).

الثاني: كالصفات السابقة، يبدأ من (ص: ٣٩٧-٥١٢)[١].

الثالث: كذلك يبدأ من (ص: ٥١٣-٦٣٠).

الرابع: يبدأ من (ص: ٦٣١-٧٤١).

وهذه المخطوطة من مخطوطات الحرم المكي الشريف، مخطوطة رقم (٤٧٨١).

وقفت على مخطوطة أخرى للكتاب، ثم اتضح لي أنها المسودة لهذا الكتاب، وقد ذكر ذلك الدكتور منصور بن عبد العزيز السماري وفقه

---

(١) سقط من (ص: ٩١-٣٩٧)، وذلك عندما تكلم الشيخ المعلمي على الحديث الضعيف، وهذا الجزء استله الشيخ -رحمه الله- من الكتاب وجعله في جزء مفرد، وذلك لأن الشيخ توسع في هذا المبحث جداً، ولا غرو في ذلك، فهو من أئمة هذا الشأن، قال الدكتور السماري في ترجمة الشيخ المعلمي (ص: ٤٧) -عند ذكر مصنفاته-: قال المعلمي: "فإني ألفت رسالة في "رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله" ونبهت في مقدمتها عن الأمور التي يحتاج لها الناس ويستندون إليها وهي غير صالحة لذلك، فجاء في ضمن ذلك الحديث الضعيف، فرأيت الكلام فيه يطول، فأفردته في رسالة، ثم وجدت إيضاح الحق فيه يتوقف على تحقيق البدعة، التي قال فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "كل بدعة ضلالة" ورأيت الكتب والرسائل التي ألفت في التحذير من البدع، منها ما لا يكاد تستفيد منه إلا العلماء، ككتاب "الاعتصام" للشاطبي، ومنها ما هو غير محرر كـ "الباعث" لأبي شامة، ورأيت الكلام فيها يحتاج إلى بسط، فآثرت إفرادها برسالة اقتصر فيها على ما لا بد منه ...".

الله[١].

٢- أثبتُّ النصَ كما هو في المخطوطة، ووضعت عليه علامات الترقيم.

٣- كتبت ترجمة موجزة للمؤلف رحمه الله.

٤- عزى المؤلف الآيات القرآنية بذكر اسم السورة، ورقم الآية، وكذلك خرج الأحاديث النبوية، والآثار الموجودة في الكتاب، وحكم عليها، من حيث الصحة والحسن والضعف، وتَركتُ أحكامه كما هي، لعلمي أن الشيخ -رحمه الله- ممن يحتج بتصحيحه وتضعيفه، فهو من أئمة هذا العلم، وأساطين هذا الشأن[٢].

٥- قمت بعمل فهرس للموضوعات الواردة في الكتاب.

وفي الختام، ومن باب قول النبي ﷺ: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" أتقدم بخالص الشكر لشيخنا العلامة المحدث عبد الله بن عبد الرحمن السعد على ملاحظاته وتوجيهاته وتقديمه للكتاب، والله أسأل أن يجزيه خير الجزاء وأن يبارك له في علمه وعمله.

كما أتقدم بالشكر للأخ الفاضل: سعد بن علي المساعد خطيب

---

(١) الشيخ عبد الرحمن المعلمي وجهوده في السنة ورجالها (ص: ٤٤).

(٢) كان الشيخ ربما لا يكتب رقم الحديث، وربما كتب رقم الجزء والصفحة، فكنتُ أكتب رقم الحديث فقط، ليتيسر لمن شاء الرجوع إليه.

الجامع الكبير بفيضة السر، والذي أعطاني النسخة الخطية الأولى للكتاب، والأخ الكريم إبراهيم بن عبد الرحمن الشايقي الذي أعطاني النسخة الخطية الثانية للكتاب، والأخ الكريم عمرو بن محمد صلاح الذي قابل أكثر الكتاب معي على الأصل المخطوط.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

أبو أحمد الشبراوي بن أبي المعاطي المصري

السنبلاوين - دقهلية - بمصر

ترجمة المؤلف

• **اسمه ونسبه:**

هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن الحسن بن صالح بن عبد الرحمن الْمُعَلِّمِي العُتمي اليماني.

والمعلمي: نسبة إلى أحد أجداده، ففي كتاب "الأنساب" للسمعاني في نسبة "البجلي" علق الشيخ المعلمي بقوله: "بجيلة علك: بطن من بني عبس بن سمارة بن غالب بن عبد الله بن علك، منهم -كما في "طرفة الأصحاب" (ص: ٦٥)-: محمد بن حسين البجلي الصالح، وهو مشهور جداً في اليمن، يقال للمنتسبين إليه: بنو البجلي. وله أخٌ اسمه: علي.

وكني أبوهما: حسين بالمعُلِّم؛ لكثرة تعليمه الناس، وإلى علي بن حسين هذا ينتسب جدُّنا محمد بن الحسن المعلمي، الذي ينتسب إليه عشيرتنا "بنو المعلمي"[(١)].

وأما "العُتمي" نسبة إلى "عُتمة"، وهي: "حصن في جبال وَصَاب من أعمال زبيد"[(٢)]، يعني: باليمن.

---

(١) الأنساب للسمعاني بتحقيق المعلمي اليماني (٢: ٨٧).

(٢) انظر: معجم البلدان (٤: ٨٢).

• مولده:

ولد في أواخر سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف، بقرية الْمَحَاقِرَة من عُزلةِ الطُّفَن من مخلاف رازح، من ناحية عتمة، من قضاء أَنَس، التابع لولاية صنعاء في اليمن[١].

• نشأته:

قال الشيخ عن نفسه: رُبيت في كفالة والديَّ، وكانا من خيار تلك البيئة، وهي بيئة يغلب عليها التدين والصلاح.

ثم قرأت القرآن على رجل من عشيرتنا، وعلى والدي.

وكانت طريقة القراءة في تحفيظ القرآن في اللوح حفظاً مؤقتاً، أي: أن يحفظ الدرس في اليوم الأول، ثم يعيد حفظه في اليوم الثاني، ثم لا يسأل عنه بعد ذلك، إلا أنه يُلزم بتلاوة القرآن في المصحف كل يوم صباحاً ومساءً لكل أحدٍ، حتى بعد الكبر.

وعلى كل حال فإن قراءتي كان متقنة من جهة القراءة والكتابة.

وقبل أن أختم القرآن ذهبتُ مع أبي إلى بيت "الريمي" حيث كان أبي يمكث هناك يُعلّم أولادهم، ويصلي بهم.

• تعلمه التجويد والحساب واللغة التركية:

قال الشيخ: ثم سافرت إلى "الحجرية" حيث كان أخي الأكبر:

---

(١) كلمة مخلاف في لغة اليمن يعني: قرية.

محمد بن يحيى -رحمه الله- كان كاتباً في المحكمة الشرعية، وهناك شركت في مكتب للحكومة، كان يعلم فيه القرآن والتجويد والحساب واللغة التركية، فمكثت هناك.

• تعلمه النحو والعربية:

قال الشيخ: ثم جاء والدي -رحمه الله- لزيارتنا، ومكث هناك مدةً، سألني عمَّا أقرأ في المكتب، فأخبرته، ثم قال لي: فالنحو؟ فأخبرته: أنه لا يدرس في المكتب، فقال: ادرسه على أخيك، ثم كلم أخي أن يُقرِّر لي درساً في النحو، فكان يُقْرِئني في "الآجرومية" مع "شرح الكفراوي"، واستمر ذلك نحو أسبوعين ثم سافرت مع والدي، ولا أدري ما الذي استفدت تلك الأيام من النحو، غير أن رغبتي اتجهت إليه، فاشتريت في الطريق بعض كتب النحو.

ولما وردتُّ بيت "الريمي" وجدتُ أحمد بن مصلح الريمي -رحمه الله- وقد كان تعاطى طلب النحو، وكانت معه كراسة فيها قواعد وشواهد وإعرابات، فاصطحبنا، وكنا عامَّة أوقاتنا نتذاكر، ونحاول إعراب آيات، أو أبيات، وكنا نستعين بتفسيري "الخازن" و"النسفي"، وأخذتْ معرفتي تتقوى، حتى طالعت "مغني ابن هشام" نحو سنة، وحاولت تلخيص قواعده المهمة في دفتر، وحصلت لي -بحمد الله تعالى- مَلَكةٌ لا بأس

بها[١].

• **تعلمه الفقه:**

قال الشيخ: ثم ذهبتُ إلى بلدنا "الطُّفَن" ورأى والدي أن أبقى هناك مدةً لأقرأ على الفقيه العلامة الجليل: أحمد بن محمد بن سليمان المعلمي، وكان متبحراً في العلم، مكث بزبيد مدة طويلة، ثم عاد بعلمه إلى جهتنا، ولم يستفيدوا من علمه إلا قليلاً.

فأخذتُ من كتب والدي كتاب "منهاج النووي" مخطوطاً، وذهبت إلى الشيخ، وكان يختلف إليه جماعة من أبناء عشيرتنا يقرؤون عليه، فبعد أن سلمت عليه، وأخبرته خبري، قال: في أي كتاب تريد أن تقرأ؟ فقلتُ: في "منهاج النووي" فوجم، ثم لما جاء دوري، أمرني أن أقرأ، فشرعت أقرأ خطبة "المنهاج" وهو يستمع لي، فبعد أن قرأت أسطراً تناول مني الكتاب ونظر فيه، ثم قال لي: هل صححت هذا الدرس على أحدٍ؟ قلتُ: لا. قال: فهل قرأت في النحو؟ قلتُ: قليلاً. قال: لا، ليس بقليل، ثم قال: أخبرتني أولاً أنك تريد القراءة في "المنهاج" فلم يعجبني ذلك؛ لأني أرى أن على طالب العلم الذي يريد أن يقرأ في "المنهاج" أن يبدأ قبل ذلك بدراسة النحو، حتى يتمكن من الفهم، لكن كرهت أن أكسر

---

(١) وللشيخ -رحمه الله- مؤلفات في "النحو" منها: اللطيفة البكرية والنتيجة الفكرية في المهمات النحوية، وغيرها.

خاطرك، فرأيت أن آذن لك في القراءة، وطبعاً تخطئ في الإعراب، فأرد عليك، فتكثر ذلك، فتنتبه نفسُك إلى احتياجك إلى دراسة النحو أولاً، ولكن لما قرأتَ لم تخطئ، فظننتُ أن الكتابَ مضبوطٌ بالحركات، فلما رأيته غير مضبوط، قلتُ: لعلك قد صححت ذلك الدرس على بعض العلماء، فلما نفيتَ ذلك، علمتُ أنك قد درست النحو.

فأخبرته بالواقع، وإني في الحقيقة لم أدرسه دراسة مرتبة، فقال: على كل حالٍ معرفتك بالنحو جيدة، فاقرأ في "المنهاج" وتحضر عندما يتيسَّر لك مع هؤلاء في درسهم في النحو[1].

• **تعلمه الفرائض:**

قال الشيخ المعلمي: ثم درست عليه شيئاً في الفرائض، فتيسرت عليَّ جداً، لمعرفتي السابقة بمبادئ الحساب، ثم رجعت إلى بيت "الريمي" وانكببت على كتاب "الفوائد الشنشورية" في الفرائض: أحل مسائله، وأفرض مسائل أخرى وأحاول حلها، ثم امتحانها وتطبيقها.

---

[1] للشيخ عناية ببعض المتون والمؤلفات في الفقه، منها: "عمدة الفقه" لابن قدامة الحنبلي، و"كشف المخدرات والرياض المزهرات شرح أخصر المختصرات" للبعلي الحنبلي، وله أبحاث مفردة في مسائل فقهية متفرقة، سيأتي الكلام عليها عند ذكر مصنفات الشيخ إن شاء الله تعالى.

• تَعَلُّمُه الأدبَ والشعر:

قال الشيخ: وكانت في كتب والدي كتاب "مقامات الحريري" وبعض كتب الأدب، فأولعت بها، ثم حاولت قَرْضَ الشِّعر[1].

ثم جاء أخي من مقرِّه بالحجرية، وأُعجب بما شدوته: النحو والفرائض، ثم رجع إلى الحجرية وتركني.

وفي مقال بعنوان "المعلمي والسنوسي في مجلس الإدريسي" تحقيق عبد الله أبو داهش، المنشور في مجلة عالم الكتب (١٢: ٢) شوال عام (١٤١١) في (ص: ٢٠٢) أنشد الشيخ المعلمي مخاطباً لمن كان يناظره:

ما كان ما كان عن حبٍّ لمحمدة ... ولم نُرِدْ سمعةً بالبحث والجدلِ

لكنما الحقُّ أولى أنْ نعظِّمه ... من الخداعِ بقولٍ غيرِ معتدلِ

ولا أحبُّ لكم إلا الصوابَ كما ... أُحبُّه وهو من خيرِ المقاصد لي

فظُنَّ خيراً كظني فيك محتملاً ... ما كان أثناء نصر الحق من خطلِ

فإنما غضبي للحقِّ حيث أرى ... إعراضَكم عنه تعليلاً بلا عِللِ

وقد عَلمتم صوابي في محاورتي ... والحمدُ لله ربِّ السهل والجبلِ

• ذهابه إلى الحجرية ثم رجوعه إلى عتمة:

قال الشيخ: ثم كتب [يعني: أخاه] يستقدمني، فقدمت عليه، وبقيتُ

---

(١) وللمعلمي رحمه الله تعالى ديوان شعر، وتحقيقات لكتب الشعر ككتاب "المعاني الكبير" لابن قتيبة، وغيره وسيأتي الحديث عنها في "آثار الشيخ ومؤلفاته" إن شاء الله تعالى.

هناك [يعني: في الحجرية] مدة لا أستفيد فيها إلا حضوري معه بعض مجالس نتذاكر فيها الفقه، ثم رجعت إلى "عتمة"، وكان القضاء وقتها قد صار إلى الزيدية، وعين الشيخ: علي بن مصلح الريمي كاتباً للقاضي، فلزمت القاضي، وكان هو السيد: علي بن يحيى المتوكل رجلاً عالماً فاضلاً معمراً، آسف لتقصيري إذ لم أقرأ عليه شيئاً، ولا طلبت منه إجازة.

ثم عزل، وولي القضاء بعده السيد: محمد بن علي الرازي، وكتبت عنده مدةً، وكان رجلاً شهماً كريماً، على قلة علمه.

• انتقاله إلى "عسير" فراراً من بطش الرافضة:

لما استحكمت قبضة الرافضة على اليمن، خرج الشيخ منها، وذلك سنة (١٣٣٦) متوجهاً إلى "عسير" وهي مدينة بين الحجاز واليمن.

• رئاسته لقضاء "عسير" وتلقيبه بـ "شيخ الإسلام":

مكث المعلمي -رحمه الله- في عسير دارسا ومدرساً، ثم قاضياً فرئيساً للقضاء، وكان أمير "عسير" حينئذ: الإدريسي[1].

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن إدريس، المعروف بـ: الإدريسي ولد في صبيا سنة (١٢٩٣)، ودرس في الأزهر، ثم ذهب إلى المغرب فدرس هناك، ثم عاد إلى السودان.

ثم رجع إلى صبيا وأعلن نفسه إماما خارجا على الدولة العثمانية ... واستمر حاكماً لعسير والمخلاف السليماني لمدة تقرب من عشرين عاماً حتى توفي في صبيا سنة (١٣٤١).

وصفه المعلمي في وصيته التي كتبها لما انتقل من بلده إلى عسير بقوله: "أمير المؤمنين السيد الإمام، محيي علوم الشريعة ومجددها، ومميت رسوم البدع الشنيعة ومبددها".

وقد لقَّبَ الإدريسي المعلمي بـ: شيخ الإسلام؛ لِمَا رأى من ورعه وزهده وعلمه وثقته وأمانته، وصار يعتمد عليه في تدريس الطلبة، والجواب عن بعض المهمات، وحل بعض المسائل القضائية المشكلة، وجعله "نائب الشرع الشريف"، فصار المعلمي ينوب عنه -حال مرض الإدريسي- في تولِّي أكثر المخاطبة مع من يأتيه من المندوبين، وفي قراءة الكتب التي تَرِدُ، وعرض مضمونها عليه، وهكذا صار لديه: العالم الثقة الأمين.

وقد كان الشيخ في أثناء تلك المدَّة يكثر الطلبَ من الإدريسي أن يُعْفِيَه من مهام القضاء وغيره؛ كي يتفرغَ لخدمة العلم فقط، فكان الإدريسي يَعِدُهُ بإحضار مساعدين له في تلك المهام حتى يتسنى له ما يريد، لكن قضى الله وفاة الإدريسي قبل أن يفي بوعده.

ثم رأى المعلمي بعد وفاة الإدريسي أن تفرغه للعلم واجب؛ لأمور ذكرها، منها قوله: "من المعلوم أن الدعوة مبنيةٌ على علم وعملٍ، فكيف نقوم بإحياء العمل وترك العلم، والقيام بخدمة العلم هو أعظم خدمة

-

وقد كان المعلمي درس على الإدريسي بعض الفنون، ولا سيما في النحو، وقد جمع ما ألقاه الإدريسي من دروس في النحو في كتاب سماه المعلمي "الأمالي النحوية"، ذكره الزيادي في عمارة القبور (ص: ٢٦-٢٧، ٣٤).

وللإدريسي ترجمة في "الأعلام" للزركلي (٦: ٢٠٣).

للدعوة، بل هو الشطر المهم فيها".

• وفاة الإدريسي وانتقال المعلمي إلى عدن:

توفي الإدريسي سنة (١٣٤١)، وتولى بعده ابنه: علي، وكان دونه كفاءة، فكثرت الاضطرابات الداخلية، فتوجه الشيخ إلى عدن، وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند، -فمكث فيها سنة، مشتغلاً بالتدريس والوعظ، ثم ارتحل إلى "زنجبار" - وهي على ساحل بحر الهند شرق عدن.

• انتقاله إلى الهند والتحاقه بدائرة المعارف العثمانية:

رحل الشيخ المعلمي إلى الهند -لأسباب سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى- وعُيِّن في دائرة المعارف العثمانية -بحيدر آباد الدكن- مصححاً لكتب الحديث وعلومه وغير ذلك من كتب الأدب والتاريخ، فبقي فيها نحو ثلاثين سنة.

وقد صحح في تلك المدَّة جملة من الكتب الأمهات في الحديث والرجال وغيرها سيأتي بيانها عند ذكر مصنفات الشيخ إن شاء الله تعالى.

• انتقاله إلى مكة المكرمة وتعيينه أميناً لمكتبة الحرم المكي:

ثم رحل الشيخ المعلمي في آخر حياته إلى مكة المكرمة في شهر ذي القعدة سنة (١٣٧١) مجاوراً لبيت الله الحرام، حيث عين أميناً لمكتبة الحرم المكي، فبقي فيها يعمل في خدمة رُوَّاد المكتبة من طلاب العلم، بالإضافة إلى استمراره في تصحيح الكتب وتحقيقها لتطبع في دائرة المعارف

العثمانية، حتى وافاه الأجل سنة (١٣٨٦) رحمه الله تعالى[1].

يضع البعض سؤالاً مفاده: لماذا ترك الإمام المعلمي بلده اليمن، وقد كان بقاؤه أنفع لليمن وأهله؟.

يقول الشيخ أحمد بن غانم الأسدي: "إن اليمن كانت في عهد المعلمي في ظلام دامس، وكان حكامها جادين في قمع مريدي الإنارة وطالبي الاستنارة، فلما خاف المعلمي على دينه من الفتن وعلمه من الضياع والزلل فر إلى الله يبغي السلامة ويقصد النجاة.

وكان اتجاهه بإرادة الله تعالى إلى "جازان" سنة (١٣٣٦) الواقعة حين ذلك تحت إمرة الشريف محمد بن علي الإدريسي.

وهناك حط رحلة عندما وجد الجو صحواً، وهو في الثالثة والعشرين من عمره أي: في ريعان شبابه ومقتبل عمره المبارك.

وها هو يشرح واقعة في اليمن في قصيدة قالها سنة (١٣٣٥) ومنها:

هُمُ أخذوا الأحرار منا رهائناً ... وهمْ أخذوا الأموال قهراً بلا عقدِ

هم ظلمونا واستباحوا محارماً ... وأصبح منا الليثُ يخضع للقردِ

فهم عاملونا بالقساوة غلظة ... وهم كفَّرونا إنْ وقفنا على الرُّشدِ

وقالوا لنا إنا كفرنا بقولنا ... إنما الأعمال من قدر الفردِ

---

[1] انظر: النكت الجياد المنتخبة من كلام شيخ النقاد ذهبي العصر العلامة عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني، لإبراهيم بن سعيد الصبيحي (ص: ١٨-٢٨).

وقال مشيراً إلى موقفه من الإمام يحيى بن محمد حميد الدين: وأما قولك: إن الثقة أخبرك أني هجوت الإمام في سابق الأيام، فإن كنت تعني: ابن حميد الدين، وقد سلمت له لفظ الإمام، فأنا أهجوه في السباق واللحاق، ولا حاجة للنقل؛ إذ قد سمعت قصائدي بأذنك. وهذه نسخ قصائدي السابقة وأنا بالوطن موجودة بذم ابن حميد الدين وحزبه[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر المعلمي -حفظه الله تعالى-:

ومما ينبغي الالتفات إليه في مفارقة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي -رحمه الله تعالى- لبلده اليمن فراقاً طويلاً بعد نهاية دولة الإدريسي، وما كان يكمن في جوائح الشيخ من همة عالية تكاد تناطح السحاب في اللحاق بركب العلماء العاملين الأعلام، خصوصا علماء السنة الأكابر، وبالأخص علماء الحديث في مجال التعليم والتأليف

---

(١) ابن حميد الدين هو الإمام المتوكل يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين، عالم محقق في علوم العربية والفقه فروعه وأصوله، شاعر أديب ولد في صنعاء سنة (١٢٨٦) دعا إلى نفسه بالإمامة سنة (١٣٢٢) وخاض مع الدولة العثمانية حروبا دامية انتهت بتوقيع صلح دعان سنة (١٣٢٩).

تميز حكمه بالظلم والقسوة خاصة على غير أهل مذهبه، فلقد كان يمتهن شعب اليمن ويتفنن في تعذيبه، ولا تطيب له الحياة إلا إذا كان يعيش هذا الشعب في شقاء وبؤس، يتجرع الصراعات الداخلية ليستنزف ما في يده من مال، فيبقى خاضعا ذليلا لا حول له ولا طول، واستمر في ذلك حتى وافاه الأجل المحتوم سنة (١٣٦٧).

"هجر العلم ومعاقله في اليمن" (٣: ١٦٩٦-١٧٣٨).

والتحقيق والذب عن السنة النبوية.

ينشأ عن هذه المقدمة سؤال هو:

لِمَ لَمْ يعد الشيخ -رحمه الله- بعد انتهاء دولة الإدريسي في جازان وما جاورها إلى بلده اليمن فيتفرغ لنشر العلم وخدمة السنة النبوية تعليماً وتأليفاً؟

الجواب: أن الشيخ عبد الرحمن -رحمه الله- لو عاد إلى بلده لهذا الهدف السامي النبيل لواجه محنة كبرى تعيقه عن هذا الخير كله؛ إذ كان سيواجه سطوة الإمام يحيى حميد الدين الذي إن لم يأمر بضرب عنق الشيخ -لو تم له ذلك- فإنه سيودعه السجن الطويل والمضايقة والأذى الذي يوقفه عن هذه الهمة العالية السامية، بتهمة أن الشيخ رحمه الله كان عند خصمه الإدريسي مشاركاً في حكم الإدريسي الذي يعتبره الإمام يحيى حميد الدين خصماً له هو ومن له صلة به في حكمه، وكانت تلك الفترة هي فترة اتساع حكم الإمام، وكان حكمه حينئذ قاسياً، وتلك تهمة يعتبرها الإمام جريمة كبرى لمن كان خارجا عن حكمه وموالياً لغيره ممن ينازعه الملك والحكم.

ودليلنا على هذا الرأي: أن الإمام يحيى قد امتدت يده القاسية إلى إنزال عقاب شديد، وهو سجن أشخاص من بيت المعلمي ليس لهم صلة بحكم الإدريسي، وقد حبسهم الإمام يحيى بسبب تهمة واهية أوهى من بيت العنكبوت.

وأحب أن أورد هذه القصة: أعرف الفقيه العلامة أحمد بن محمد

المعلمي وهو في أخريات حياته، وهو والد زوجتي -رحمه الله- وقد حكى قصة سجنه من قبل الإمام يحيى في أيام طلبه العلم هو ووالده محمد وأخواه: عبد الله بن محمد المعلمي وعبد الكريم بن محمد المعلمي: أنه ذهب إلى مدينة زبيد للطلب، ومكث فيها مدة سبع سنوات، وفي نهاية فترة دراسته قوي عزمه على السفر لأداء فريضة الحج، فسافر من زبيد على أمل العودة إلى قريته في ناحية عتمة فسافر لأداء فريضة الحج، ومر عند عودته بالبلاد التي كان فيها حكم الإدريسي مارا بها وعاد إلى قريته، وما فتئ يستقر في قريته حتى هجم عليه عساكر الإمام يحيى حميد الدين واعتقلوه هو ووالده وأخويه، وذهبوا بهم الأربعة إلى صنعاء مشيا على الأقدام على مسافة أربعة أيام أو خمسة، وأودعهم الإمام في السجن أشهراً كل هذا العقاب الشديد والقاسي والترويع لأن هذا الفقيه -رحمه الله تعالى- مر عند عودته من سفر الحج بالأماكن التي كان يحكمها الإدريسي، وبعد إطلاقهم من السجن لم يلبث والدهم إلا أياما يسيرة حتى توفاه الله، رحمه الله.

فأنت ترى ماذا حصل لهذا الطالب ووالده وأخويه من عقاب من الإمام يحيى حميد الدين بدون ذنب اقترفوه، فكيف لو كان هذا الفقيه البريء ممن ناصر الإدريسي، أو اتصل به، أو شارك معه في الحكم؟! ماذا سيصنع معه الإمام يحيى حميد الدين؟! وكيف لو عاد الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي -رحمه الله- إلى قريته في عتمة فماذا كان سيصنع معه الإمام يحيى حميد الدين؟! إما أن يأمر الإمام يحيى بضرب عنقه -نسأل الله

الصون- أو يودعه السجن الطويل.

وحينئذ لا يبقى لهذا العالم أي جهد عملي في التدريس والتـــأليف وخدمة السنة المطهرة، و لم ينتفع الناس بعلمه، ولكن شاء الله تعالى لهـــذا العالم الجليل أن يختار الهجرة الطويلة التي استغرقت معظم حياتـــه حـــتى موته، وأن يشمر عن ساعد الجد، ويعاني مرارة الغربة ومشقاتها، ويسافر من جازان إلى الحديدة مختفياً، ثم إلى عدن فحضرموت وزنجبار، ثم الهند، واستقر في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن.

فألقت عصاها واستقر بها النـــوى كما قر عينا بالإيـــاب المـــسافر

ثم مَنَّ الله عليه بأن يختم عمره سنوات مجاورا ببلد الله الحـــرام، ثم الوفاة بعد فترة حافلة بالعلم والعمل والتدريس والتأليف وخدمة الـــسنة المطهرة[1].

- **شيوخه:**

١- والده الفقيه العلامة العماد يحيى بن علي المعلمي.

٢- أخوه العلامة الجليل محمد بن يحيى بن علي المعلمي.

٣- الفقيه العلامة الجليل أحمد بن محمد بن سليمان المعلمي.

٤- السيد محمد بن علي الإدريسي.

٥- الشيخ عبد القادر محمد الصديقي القادري.

---

[1] انظر: الإمام عبد الرحمن بن يحي المعلمي حياته وآثاره (٢٠-٢٣) لأحمد بن غانم الأسدي.

٦- الشيخ الإمام سالم بن عبد الرحمن باصهي[1].

• تلاميذه:

١- أبو تراب الظاهري عبد الجميل بن عبد الحق بن محمد بن الهاشم العدوي العمري، يتصل نسبه بالفاروق ﷺ، قدم بلاد الحرمين وعمل مدرساً في المسجد الحرام سنين عديدة، وعمل أيضاً في مكتبة الحرم. أثنى عليه شيخه المعلمي بقوله: "العالم الفاضل"، وأثنى عليه شيخه أحمد شاكر بقوله: "هو بارقة علم في الحديث والرجال، ناقد ذو فهم" ولد بالهند سنه (١٣٤٣) وتوفي بمكة المكرمة ودفن بها سنة (١٤٢٣).

٢- محمد بن علي بن حسين الروافي، عالم في الفقه والفرائض والنحو، له مشاركة قوية في علم الحديث، درس في ذمار وفي صنعاء، ثم رحل إلى مكة المكرمة سنة (١٣٧٩)، فأخذ عن بعض شيوخ العلم مثل الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وعن غيره.

٣- مشرف بن عبد الكريم بن محسن بن أحمد بن عبد الله المحرابي، عالم مشارك، درس في ذي جبلة، ثم رحل إلى مكة المكرمة؛ فلازم الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ... وشيوخ آخرين وبقي هناك مدة ثم عاد إلى جبلة موطنه.

٤- عبد الكريم الخراشي ... مدير مكتبة مكة المكرمة في الفترة

---

[1] المصدر السابق (ص: ١٩-٢٠).

المسائية لاحقاً، قال: كنت أنصرف من كلية الشريعة من جامعة أم القرى فأدخل عليه بعد الظهر ... وأسأله عما يشكل عليَّ، وكنت أنسخ له بعض ما يريد نسخه، ومن آخر ما قمت بنسخه عشرة ألواح من كتاب "مجمع البحرين" للهيثمي، وإنني أدعو الله له كل يوم في صلاتي.

٥- عبد الرحمن بن حسن بن محمد شجاع الدين، قرأ عليه "الآجرومية".

٦- أحمد بن محمد المعلمي، قرأ عليه "الآجرومية" وأعرب جزءاً من القرآن من سورة الناس إلى فصلت.

٧- محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم المعلمي، رحل إلى مكة سنة (١٣٧٤) لأداء فريضة الحج فالتقى بالإمام المعلمي، وقرأ عليه "قطر الندى" و"الآجرومية"، وبقي هناك حتى عام (١٣٧٦)، ثم رجع إلى اليمن معلماً ومربياً.

٨- عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم المعلمي، لازمه ثلاث سنين، فقرأ عليه في النحو "الآجرومية"، ثم "الألفية"، وقرأ عليه في الفقه الشافعي.

٩- عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي، لازمه عشر سنوات، وقرأ عليه "شرح ابن عقيل" و"النحو الواضح" في المرحلة الابتدائية والثانوية، وقرأ عليه "الرحبية" ومصطلح الحديث "الكفاية" والحساب، كما علمه كيفية التعامل مع المعاجم العربية وكيفية الترجمة.

١٠- محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكريم المعلمي، لازمه

قرابة ثلاث سنين، فقرأ عليه النحو و"الألفية" وجزءاً من الرحبية.

١١- عبد الرحمن بن أحمد المعلمي، قرأ عليه في النحو.

١٢- محمد بن عثمان اللكنوي[١].

• أولاده:

للشيخ ولد واحد اسمه: عبد الله؛ وُلِدَ -كما ذكر الشيخ- ضحى يوم الثلاثاء سادس شهر ربيع الثاني من عام واحد وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، وكان للشيخ يوم ولد ابنه عبد الله: تسعة وثلاثون عاماً، وكان الشيخ شفوقاً على ولده وحريصاً على صلاحه وتعليمه، وقد أوصى بذلك، فقد نقل الشيخ إبراهيم بن سعيد الصبيحي أن الشيخ ماجد بن عبد العزيز الزيادي وجد بخط الشيخ متحدثاً عن ولده قال: "اللهم اجعله من عبادك المخلصين العلماء العاملين، الهداة المهديين، وإني أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم، وأسألك أن تجعله من العلماء الراسخين، العارفين بكتابك المبين، وسنة نبيك الأمين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله، وأن تجعله قرة عين لأبويه، إنك أنت الكريم الوهاب، الرزاق لمن تشاء بغير حساب".

وقال أيضاً: "أوصي إلى الشيخ إبراهيم رشيد أن يحتاط لولدي عبد الله، أصلحه الله، إذا توفاني الله تعالى قبل بلوغه، ويجتهد في تربيته تربية

---

[١] المصدر السابق (ص: ٢٣-٢٦).

صالحة، ويمنعه من الاختلاط بالأطفال السفهاء، وينفق عليه وعلى أمه -ما لم تتزوج- مما يجده من متروكي هنا، ومما لعله ييسره الله تعالى من الدائرة، ثم إذا وصل حَدَّ القراءة ألزمه حفظ القرآن الكريم، ولقنه التوحيد الحق، ثم يربيه تربية دينية علمية"[١].

• **عقيدته:**

كان الشيخ المعلمي -رحمه الله- سلفي العقيدة، بل هو من الراسخين فيها، العالمين بمبادئها وقواعدها، الداعين إلى اتباعها، الذَّابِّين عن حياضها، الكاشفين لشبه من خالفها، بنظر ثاقب، وعلم راسخ، وأدب جم، وقد هجر الشيخ بلده؛ فراراً بدينه من الفتن، وحفاظاً على عقيدته من الزلل.

وقد كان للشيخ يدٌ طولى في تبسيط وتقرير أصول العقيدة سالكاً سبيل الوضوح والتسهيل، مبتعداً ومحذراً من التكلُّف والتهويل، وله مؤلفات في كشف ضلالات الصوفية، والرد على من يقول منهم بالحلول والاتحاد.

وقد أفرد الشيخ في كتابه "التنكيل" قسماً في العقيدة، سماه "القائد إلى تصحيح العقائد" أبدع الشيخ فيه وأجاد، في بيان أصول عقيدة أهل السنة، ومآخذها، وما يضادها من مآخذ أهل البدع والأهواء، فجاء

---

[١] انظر: النكت الجياد (ص: ٣٤-٣٥).

كتاباً جامعاً نافعاً في بابه، فلله دره.

ورد الشيخ -رحمه الله- على الذين يدافعون عن عقيدة الإسلام بجهل فيقول: "فإن أضرَّ الناس على الإسلام والمسلمين وهم المحامون الاستسلاميون بطعن الأعداء في عقيدة من عقائد الإسلام، أو حكم من أحكامه ونحو ذلك، فلا يكون عند أولئك المحامين من الإيمان واليقين والعلم الراسخ بالدين والاستحقاق لعون الله وتأييده ما يثبتهم على الحق ويهديهم إلى دفع الشبهة، فيلجؤون إلى الاستسلام بنظام المتقدمين: التحريف، ونظام المتوسطين: زعمُ أن النصوص النقلية لا تفيد اليقين والمطلوب في أصول الدين اليقين!

فعزلوا كتاب الله وسنة رسوله عن أصول الدين"[١].

ويبين -رحمه الله- شناعة الغلو في الصالحين فيقول: "من أوسع أودية الباطل: الغلو في الأفاضل، ومن أمضى أسلحته أن يرمي الغالي كل من يحاول رده إلى الحق ببغض أولئك الأفاضل ومعاداتهم.

يرى بعض أهل العلم أن النصارى أول ما غلوا في عيسى -عليه السلام- كان الغلاة يرمون كلَّ من أنكر عليهم بأنه يبغض عيسى ويحقره ونحو ذلك فكان هذا من أعظم ما ساعد على انتشار الغلو؛ لأن بقايا أهل الحق كانوا يرون أنهم إذا أنكروا على الغلاة نُسبوا إلى ما هم أشدُّ الناس

---

[١] الأنوار الكاشفة (ص: ١٨).

كراهيةً له من بغض عيسى وتحقيره، ومَقَتَهم الجمهور وأوذوا، فثبَّطهم هذا عن الإنكار، وخلا الجو للشيطان. وقريب من هذا حال الغلاة الروافض وحال القبوريين، وحال غلاة المقلدين"[١].

ويبين حال الأمة وما ابتليت به في عقيدتها بسبب علماء السوء، فيقول رحمه الله: "ثم حدثتْ أحداثٌ، وخَلَف خُلُوفٌ، وغلا غالون، وقصَّر آخرون، ووقف وُقوف، وكثرت الخدع، وانتشرت البدع، وعُبد الهوى -وبئس المعبود- واشتبه المحمود بالمذموم والمذموم بالمحمود، وكانت البلية العظمى والرزية الكبرى قلة العلماء وتقاعدهم عن نصرة الحق، ما بين خوَّار يخاف الناسَ أشدَّ من خوف الله، وجبّار يرغب في الشهرة والسمعة والجاه، ومفتون بحب الحطام وخوف الطغاة، وآخر وآخر، لا نطيل بِذكرهم، ولا نبالغ الآن في هتك سترهم؛ لا جرم اتخذ الناس رؤساء في الدين جهالاً، فلم يألوا أنفسَهم وغيرَهم خبالاً؛ فلا يكاد يُرى لهم رادع، ولا لأنوفهم جادع، بل ولا قارع".

إذا غاب ملاح السفينة وارتمت ... بها الريح يوماً دبّرتها الضفادع

وخلا الجو للملحدين وأعداء الدين، فبالغوا في العيب والعيث، ودفنوا المحْضَا ونشروا الخبث؛ وكان ما كان؛ والله المستعان"[٢].

---

(١) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (١: ٨٠).

(٢) صدع الدجنة في فصل البدعة عن السنة (ص: ٦٢).

وقد عُثِرَ على وصية بخط الشيخ يقول فيها: "هذا ما يوصي به العبد المذنب العاصي الخاطئ المسرف على نفسه: عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن حسن المعلمي العتمي، الذي كان يأمر بالمعروف ويجتنبه، وينهى عن المنكر ويرتكبه، مخلاً بالفرائض، مقلاً من المندوبات، معاوداً لكثير من الكبائر الموبقات، مصراً على كثير من الصغائر المكروهات، ليس له عمل يرجو نفعه، إلا عفو ربه سبحانه وتعالى.

يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً واحداً، ورباً شاهداً، وملكاً متعالياً، منزها عن كل نقص، جامعاً لكل كمال.

أشهد أنه فوق ألسنة الواصفين، ومدارك المنكرين، ولا يعلم شيئاً من شؤونه على الحقيقة إلا هو.

وأشهد أنه أرسل رسلاً إلى خلقه لإبلاغ الحجة، وإيضاح المحجة، فبلغوا رسالته كما أُمِرَ، وكان خاتمهم خيرهم سيدنا وشفيعنا إلى ربنا: رسول الله وحبيبه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهداة المهديين.

وبعد: فعقيدتي التي ألقى الله تعالى بها، وأقف بها بين يديه، مصمما على أنها الحق الحقيق، هي:

أن الله سبحانه وتعالى مستحقٌ لكل كمال، منزه عن كل نقص، في التفصيل والإجمال، أؤمن بكل ما سمى به نفسه، أو سماه به نبيه، وأقر كل ذلك على ما ورد، معتقد أنه كذلك بحسب ما أراده.

ولا أتصرف في شيء من أسمائه المتشابهة لجهلي عن الأسرار، فربما يكون لذلك المقام خواص لا يصح إطلاق ذلك إلا معها.

وأن كلمته العليا، وأن حجته البالغة، وأن عباده محجوجون له، مستحقون الجزاء على ذنوبهم، وأنه سبحانه لا يظلم أحداً.

وأعتقد أن كل مسلم، اعتقد في الله سبحانه وتعالى، وعقيدته أداه إليها اجتهاده، وظن أنها الحق، وقصد بها الحق، ولم تكن كفراً، فهو من رحمة الله قريب وإن أخطأ، واقفٌ عما إذا استلزمت كفراً، وأنا إلى السلامة أقرب.

واعتقد أن الملائكة والأنبياء معصومون، ولا أُفضِّل، وأن أهل البيت والصحابة مكرمون، ولا أُقَدِّمُ ولا أؤخر[١].

---

[١] قال شيخنا العلامة المحدث عبد الله السعد حفظه الله: قوله: "وأن أهل البيت والصحابة مكرمون، ولا أُقَدِّمُ ولا أؤخر" إن كان يقصد عدم المفاضلة بين الصحابة وأهل البيت فهذا فيه نظر، فقد اتفق أهل السنة على تقديم أبي بكر ثم عمر رضي الله عنهما، واختلفوا في المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما، والصحيح تقديم عثمان كما ذهب إليه جمهور أهل السنة.

ومن الدليل على ذلك: ما رواه البخاري (٣٤٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من طريق أبي عثمان عن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله ﷺ: "أي الرجال أحب إليه، فقال: أبو بكر. فقلتُ: ثم من؟ قال: عمر. فعد رجالا".

وما رواه البخاري في صحيحه (٣٤٥٥) من طريق يحي بن سعيد عن نافع عن ابن عمر قال: "كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم".

=

أصوب علياً، وأعتقد أن أهل الجمل أرادوا الخير فأخطؤوا، ولم تكن الحرب عن رضا من علي ولا أم المؤمنين ومن معها، وإنما أثارها سفهاء: الخائنون.

وأخطئ أهل صفين، وأعتقد أنهم بغوا أو طغوا واعتدوا، ولا أدري أخفي عليهم الحق، أم تعمَّدوا منابذتهم، فالله حسيبهم[1].

وأخرجه (٣٤٩٤) من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحدا ثم عمر ثم عثمان ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم".

وفي صحيح البخاري (٣٤٦٨) من طريق أبي يعلى عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول عثمان قلت: ثم أنت. قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

(١) قال شيخنا العلامة المحدث عبد الله السعد حفظه الله: قوله: "وأعتقد أنهم بغوا أو طغوا واعتدوا ..." هذا فيه نظر، والذي ينبغي؛ الاقتصار على ما جاء به النص. قال يعقوب بن شيبة في مسنده في المكيين في مسند عمار بن ياسر لما ذكر أخبار عمار: "سمعت أحمد بن حنبل سئل عن حديث النبي ﷺ في عمار: "تقتلك الفئة الباغية" فقال أحمد: قتلته الفئة الباغية كما قال النبي ﷺ وقال: في هذا غير حديث صحيح عن النبي ﷺ وكره أن يتكلم في هذا بأكثر من هذا ..." اهـ من منهاج السنة النبوية (٤: ٤١٤).

فالإمام أحمد اقتصر على ما جاء به النص، وكره أن يزيد على ذلك، وهذا الذي ينبغي أن يسلكه كل مسلم وخاصة فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم جميعاً.

وأما قوله: (ولا أدري أخفي عليهم الحق، أم تعمَّدوا منابذتهم، فالله حسيبهم) هذا الكلام لا =

هذا ما يوصي به العبد المسرف على نفسه، المضيع لخمسه، المنيب إلى ربه، المستغفر لذنبه: عبد الرحمن بن يحيى بن علي المعلمي.

أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ونبيه بالهدى ودين الحق، أرسله صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، والتابعين لهم بإحسان، وبعد:

فأؤمن بالله، كما جاء عن الله وعن رسوله، وكما يحب ربنا ويرضى، وأؤمن بالقضاء والقدر، خيره وشره، من الله تعالى، كما جاء عن الله وعن رسل الله، وكما يحب ربنا ويرضى، وحسبي الله وكيلاً، وكفى به شهيداً، إنه كان لطيفاً خبيرا.

اللهم إنك تعلم عقيدتي، وتعلم سري وعلانيتي، فما وافق رضاك ففضلاً منك تَقَبَّلْهُ مني، وما أخطأت فيه أو اشتبه علي ففضلاً منك تجاوز عني، برحمتك يا أرحم الراحمين.

فعلت سوءًا وظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا الله، سبحانك وتعاليت عما يقول الظالمون علواً كبيراً".

داعي له، ولو أن مسلما عمل شيئاً فأخطأ وكان من الممكن أنه كان متأولا في فعله هذا لكان من الجدير أن يحمل عمله على ذلك إحسانا للظن به، فكيف بالصحابة رضي الله عنهم؟ فهم من باب أولى.

ثم شرع الشيخ في بيان ما أوصى به إلى أهله مِنْ بعده[١].

• **منهجه الفقهي:**

كان الشيخ -رحمه الله- على منهج فقهاء المحدثين، الذين يدورون مع الدليل حيثما دار، فيعنون أولاً بصحة الدليل، ثم النظر فيما يحتمله من المعاني والأحكام، مع اعتبار كلام الصحابة وأئمة التابعين، دون التقيد باتباع مذهب دون آخر.

قال رحمه الله: "ومن تأمل حال كثيرٍ من علماء المذاهب رأى أن كثيراً منهم قد تكون حالهم عند التحقيق شراً من حال اصبغ؛ وذلك أنهم يظهرون التدين بقبول الحديث وتعظيم الصحيحين ويزيد بعضهم حتى من أهل عصرنا هذا فيقول: إن الحديث إذا كان في الصحيحين أو أحدهما فهو مقطوع بصحته، فإذا جاءوا إلى حديث مخالف لمذهبهم حرفوه أقبح تحريف، فالرد الصريح أخف ضرراً على المسلمين وأهون مؤنة على أهل العلم والدين من إثارة الشبه والتطويل والتهويل الذي يغتر به كثير من الناس ويضطر العالم إلى صرف وقته في كشف ذلك. والله المستعان"[٢].

وقال في التنكيل: "الفقهيات والاختلاف فيها إذا كان سببه غير الهوى أمره قريب؛ لأنه كما مرت الإشارة إليه لا يؤدي إلى أن يصير

---

[١] انظر: النكت الجياد (ص: ٢٩-٣١).

[٢] التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (١: ٣٥٣).

المسلمون فرقاً متنازعة وشيعاً متنابذة، ولا إلى إيثار الهوى على الهدى، وتقديم أقوال الأشياخ على حجج الله ﷻ، والالتجاء إلى تحريف معاني النصوص، وإذا كان المسلمون قد وقعوا في ذلك فإنما أوقعهم الهوى، فلا مخلص لهم منه إلا أن يستيقظ أهل العلم لأنفسهم فيناقشوها الحساب، ويكبحوها عن الغي ويتناسوا ما استقر في أذهانهم من اختلاف المذاهب، وليحسبوها مذهباً واحداً اختلف علماؤه، وإن على العالم في زماننا النظر في تلك الأقوال وحججها وبيناتها، واختيار الأرجح منها.

وقد نص جماعة من علماء المذاهب: أن العالم المقلد إذا ظهر له رجحان الدليل المخالف لإمامه لم يجز له تقليد إمامه في تلك القضية، بل يأخذ بالحق؛ لأنه إنما رخص له بالتقليد عند ظن الرجحان؛ إذ الفرض على كل أحد طاعة الله وطاعة رسوله، ولا حاجة في هذا إلى اجتماع شروط الاجتهاد؛ فإنه لا يتحقق رجحان خلاف قول إمامك إلا في حكم مختلف فيه، فيترجح عندك قول مجتهد آخر، وحينئذ تأخذ بقول هذا الآخر متبعاً الدليل الراجح من جهة، ومقلداً في تلك القضية لذاك المجتهد الآخر من جهة، والفقهاء يجيزون تقليد المقلِّد غيرَ إمامه في بعض الفروع لمجرد احتياجه، فكيف لا يجوز -بل يجب- أن يقلده فيما ظهر أن قوله أولى بأن يكون هو الحق في دين الله؟! وقضية التلفيق إنما شددوا فيها إذا كانت لمجرد التشهي وتتبع الرخص، فأما إذا اتفقت لمن يتحرى الحق وإن خالف هواه فأمرها هين، فقد كان العامة في عهد السلف تَعرِض لأحدهم المسألة في الوضوء فيسأل عنها عالماً فيُفتيه فيأخذ بفتواه، ثم تعرض له

مسألة أخرى في الوضوء -أيضاً- أو الصلاة فيسأل عالماً آخر فيفتيه فيأخذ بفتواه، وهكذا.

ومن تدبر علم أن هذا تعرض للتلفيق، ومع ذلك لم ينكره أحد من السلف فذاك إجماعٌ منهم على أن مثل ذلك لا محذور فيه؛ إذْ كان غير مقصود، ولم ينشأ عن التشهي وتتبع الرخص ...

فأما من أبى إلا الجمود على أقوال آبائه وأشياخه والانتصار لها، فيوشك أن يدخل في قول الله تبارك وتعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ (الجاثية: ٢٣)"[١].

وقال في ترجمة "أحمد بن كامل القاضي": "... وأما قول الدارقطني: "أهلكه العجب" ففسرها الدارقطني بقوله: "فإنه كان يختار ولا يضع لأحدٍ من الأئمة أصلاً"، فقيل له: كان جريري المذهب؟ فقال: "بل خالفه واختار لنفسه، وأملى كتاباً في السنن وتكلم على الأخبار".

فحاصل هذا: أنه لم يكن يلتزم مذهب إمام معين، بل كان ينظر في الحجج، ثم يختار قول مَن رجح قولُه عنده.

أقول: وهذا -أيضاً- ليس بجرح، بل هو بالمدح أولى، وقد قال

---

(١) التنكيل (٢: ٣٨٣-٣٨٥).

الخطيب: "كان من العلماء بأيام الناس والأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر وتواريخ أصحاب الحديث، قال ابن رزقويه: لم تر عيناي مثله".

أقول: فيحق لهذا أن ينشد:

إن أكن معجباً فعجب عجيب   لم يجد فوق نفسه من مزيد[(١)]

• مكانته العلمية وثناء أهل العلم والفضل عليه:

١- أجازه شيخ كلية الحديث في الجامعة العثمانية -بحيدر آباد الدكن بالهند- الشيخ: عبد القدير محمد الصديقي القادري، وقال في إجازته -بعد حمد الله والصلاة على نبيه-: "إن الأخ الفاضل والعالم العامل الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي العتمي اليماني، قرأ عليَّ من ابتداء "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم" واستجازني ما رويته عن أساتذتي، فوجدته: طاهرَ الأخلاق، طيبَ الأعراق، حسن الرواية، جيد الملكة في العلوم الدينية، ثقة عدل، أهل للرواية بالشروط المعتبرة عند أهل الحديث، فأجزته برواية "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم" و"جامع الترمذي" و"سنن أبي داود" و"ابن ماجه" و"النسائي" و"الموطأ" لمالك ... حرر بتاريخ (١٣) من ذي القعدة سنة (١٣٤٦)"[(٢)].

---

(١) التنكيل ترجمة رقم (٢٩).

(٢) انظر: كتاب الشيخ عبد الرحمن المعلمي وجهوده في السنة ورجالها للدكتور منصور بن عبد العزيز السماري (ص: ١٠).

٢- ولقد دأب مدير دائرة المعارف: السيد هاشم الندوي بوصف الشيخ المعلمي في خاتمة بعض الأجزاء التي صححها بقوله: "وقد اعتنى بتصحيح هذا الكتاب وتعليق الحواشي المفيدة: الأستاذ الفاضل مولانا الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني ولله دره، قد اجتهد في تصحيح الأسماء والأنساب والمشتبهات، واستوعب النظر في الاختلافات من حيث علم الرجال، ونقد الروايات من جهة الجرح والتعديل ... وساعده ... وأنا الحقير الكاتب في المقابلة والتصحيح"[1].

وجاء في خاتمة طبع كتاب "الكنى" للبخاري (ص: ٩٤) من آخر الجزء الثامن: "البحث عن كتاب الكنى للإمام البخاري بقلم الأستاذ الفاضل الناقد في الرجال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني دام فضله".

٣- وقال الشيخ الفاضل: حماد الأنصاري -رحمه الله-: "إن الشيخ عبد الرحمن المعلمي عنده باع طويل في علم الرجال جرحاً وتعديلاً وضبطاً، وعنده مشاركة جيدة في المتون تضعيفاً وتصحيحاً، كما أنه ملم إلماماً جيداً بالعقيدة السلفية"[2].

٤- وقال الشيخ الألباني -رحمه الله- في مقدمة تحقيقه لكتاب التنكيل: "... تأليف العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى بن علي

---

(١) انظر على سبيل المثال: خاتمة طبع الجزء السابع من "التاريخ الكبير" (ص: ٤٠١، ٤٤٣).

(٢) النكت الجياد (ص: ٣٨).

اليماني -رحمه الله تعالى- بين فيه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة تجني الأستاذ الكوثري على أئمة الحديث ورواته ... إلى غير ذلك من الأمور ... مبرهناً عليها من كلام الكوثري نفسه في هذا الكتاب العظيم، بأسلوب علمي متين لا وهن فيه، ولا خروج عن أدب المناظرة، وطريق المجادلة بالتي هي أحسن، بروحٍ علمية عالية، وصبر على البحث والتحقيق، كاد أن يبلغ الغاية، إن لم أقل قد بلغها، كل ذلك انتصاراً للحق، وقمعاً للباطل، لا تعصباً للمشايخ والمذهب، فرحم الله المؤلف وجزاء عن المسلمين خيراً".

وقال أيضاً في تعليقه على ذكر المعلمي درجات توثيق ابن حبان: "هذا تفصيل دقيق، يدل على معرفة المؤلف -رحمه الله تعالى- وتمكنه من علم الجرح والعديل، وهو مما لم أره لغيره، جزاه الله خيراً"[١].

٥- وقال محدث أرض الكنانة أبو الأشبال الشيخ أحمد بن محمد شاكر المتوفى سنة (١٣٧٧) رحمه الله: "وقد كان حقق مصححه -يعني التاريخ الكبير للبخاري- العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي"[٢].

٦- وقال العالم الفاضل أبو تراب الظاهري: "هو علم من العلماء الأعلام البارزين، كان عبداً أواها ورعاً زاهداً تقياً، لم يكن يدنس ثوبه

---

(١) التنكيل (١: ٤٥١).

(٢) حاشيته تفسير الطبري: (١: ٣٣).

برذيلة، ولا اخترام مروءته".

وقال أيضاً: "وكان نحوياً بارعاً وعروضياً، وذا معرفة باللغة وغريبها، حفظ الألفية، وبعض المتون في الأصول والفقه، ولقي الأكابر".

٧- وعن رسالة بعث بها محمد عبد الله المعلمي إلى الشيخ المعلمي -مخطوطة-: "... كوكب الأدباء، وتاج النجباء، من تسنم متن المعالي، وناطح بهمته كل عال، سليل الأكارم، وجيه الهدى، الآخذ بمجامع القلوب ... الشيخ العلامة القاضي عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، أدام الله معاليه، وخلد لتاليه، وحفظ ذاته من كل سوء، وصرف عنه الشرور ..".

٨- وأثنى عليه الشيخ محب الدين الخطيب -رحمه الله تعالى- في مقدمته لكتاب "كشف المخدرات والرياض المزهرات شرح أخصر المختصرات" (ص: ١٠) بقوله: "... حضرة العالم المحقق الشيخ: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي الذي عرف الناس فضله بما صدر عنه من تصحيح كثير من الكتب الإسلامية ...".

٩- وذكر الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد -رحمه الله تعالى- في كتابه "التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل": "من تدور عليهم التحقيقات والتقييدات من المتقدمين والمتأخرين، حتى بلغ الحافظ السخاوي، ثم ذكر آخرهم وهو: ذهبي العصر العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني. ثم علق على ذلك في الحاشية بقوله: "تحقيقات هذا الحبر نقش في حجر، ينافس الكبارَ كالحافظ ابن حجر، فرحم الله

الجميع، ويكفيه فخراً كتابه "التنكيل"[١].

١٠- وقال الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف الأستاذ بكلية الشريعة بالأزهر -رحمه الله تعالى- في مقدمته "للفوائد المجموعة": "محقق الكتاب: الأستاذ الشيخ عبد الرحمن اليماني، لا يجهل علمه باحث في علوم الحديث، وله منة على الباحثين، بما يحققه من الكتب الحديثية التي نشرت في الهند، وهو ذو باع طويل في علم رجال الأثر، وقد اجتهد في تحقيق هذا الكتاب ونقد رواياته ورواته، معتمداً على أوثق المصادر، حتى إنه صحح كثيراً من أغاليط المؤلفات في هذا الفتن، وهو بذلك جدير.

وكان في عمله أميناً رزيناً، إذا لم يعلم يقول في الراوي المجهول "لم أجده ... لا أعرفه" وفي من لم يستبن له أمره "لم يتبين لي حاله" بعبارة ضابطة محققة. وذكر المحقق في مقدمة الكتاب: منهجه، وأنه إذا قورن بالعلماء المتأخرين، ظن أنه مشدد -وقد يكون ذلك- وأنه سلك مسلكاً لا يعتمد فيه كل الاعتماد على قواعد هذا الفن المدونة في كتب المصطلح، لأنها غير كافية في الحكم، كما يظهر لمن مارس صنيع علماء الجرح والتعديل، وتتبع أقوالهم، وتطبيقها على جزئياتها"[٢].

١١- وسجل له الدكتور: حمزة بن عبد الله المليباري أستاذ الحديث

---

(١) التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل (ص: ٢٧).

(٢) الفوائد المجموعة (ص: ١٤-١٥).

بالجامعة الإسلامية، قسنطينة - الجزائر: شهادة غاليةً إذ يقول: "... ما أروع الشيخ عبد الرحمن المعلمي -رحمه الله تعالى- وهو من القلائل الذين فهموا دقة منهج المحدثين في تعليلهم وتصحيحهم للأحاديث، إذ يقول: إذا استنكر الأئمة المحققون المتن، وكان ظاهر السند الصحة، فإنهم يتطلبون له علة، فإذا لم يجدوا علة قادحة مطلقاً حيث وقعت، أعلوه بعلة ليست بقادحة مطلقاً، ولكنهم يرونها كافية للقدح في ذلك المنكر ...".

وقد نقل المليباري كلام الشيخ كاملاً من مقدمة "الفوائد المجموعة" ثم قال : "وهذا كلام جد نفيس، ينم عن فهمه الصحيح لمنهج النقاد من خلال الممارسة، وقليلاً ما نلمس مثل هذا التحقيق في بحوث المعاصرين، وجزاه عنا خير الجزاء"[١].

هذا وقد أثنى على الشيخ غير واحد من الأفاضل، يطول المقام بذكرهم، منهم: الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ محمد نصيف، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، وغيرهم.

• زهده وورعه:

من تأمل حال الشيخ، ونظر في سيرته، ووصاياه، علم ما كان عليه الشيخ من الزهد والورع، والتواضع ورقة الحال، فبعد أن بلغ من العلم مبلغ الكبار، وانتشرت تحقيقاته ومؤلفاته، وعرفه المشتغلون بهذا العلم

---

[١] الموازنة بين المتقدمين والمتأخرين في تصحيح الأحاديث وتعليلها (ص: ٣١-٣٢).

الشريف، لم يداخله زغل العلم، ولا بريق الشهرة، ولم يرتد ثياب العظمة، بل ظل عاكفاً في محراب العلم، بين أروقة البحث والتحقيق والنظر، لا يشغله عن ذلك شاغل، وقد ارتضى أن يكون أميناً لمكتبة الحرم المكي، من أجل المكث بين الكتب والمخطوطات، ينهل منها إلى آخر نفس في عمره.

قال تلميذه محمد بن عثمان اللكنوي: "كان المعلمي -رحمه الله- شيخاً وقوراً، سمح الخلق، حسن السجية، زاهداً ورعاً مقبلاً على شأنه، بصيراً بزمانه، عزوفاً عن المناصب، سخياً في خفا، يكاد لا يعلم أحد ما يقوم به من إنفاق في سبيل الخير"[(١)].

وقال أحمد بن غانم الأسدي: "ولما كان في دائرة المعارف العثمانية واحتاج إلى بعض المال مصاريف له لسفره إلى مكة كتب لمدير الدائرة رسالة وفيها: "ويسرني أن أخدم هذه الدائرة العلمية الجليلة بلا طلب معاوضة، وسأدوم على ذلك بقية عمري، سواء أكانت الخدمة مقابلة وتصحيحا أم غيره، وإنما اضطرني إلى طلب المعاوضة على مقابلة وتصحيح الستة الأجزاء الباقية من كتاب "ابن أبي حاتم" حاجتي إلى مصاريف السفر، وهذا السبب نفسه يجبرني أن أرفع إليكم مع الأسف

---

(١) الإمام عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني حياته وآثاره (ص: ١٩).

والخجل"[١].

وقال ابن غانم: وأخبرني تلميذه الشيخ محمد بن أحمد المعلمي: أنه كان جالساً في مكتبة الحرم المكي عندما كان هناك، فجلس بجانبه رجل مصري وقال له: عندي أسئلة و لم أجد من يشفي عليلي ويروي غليلي فيها. قال: فأشرت له إلى الإمام، فذهب إليه فلما انتهى من سردها، أجابه عنها واحداً بعد واحد، فوجد الرجل بغيته، فأدخل يده في جيبه، فأخرج ملأها جنيهات وناولها الإمام، فرفض الإمام أن يقبلها، فقال الرجل المصري: لأن تسفك دمي أهون عليَّ من أن تردني. فأجابه الإمام قائلا: لأن تسفك دمي أهون عليَّ من أن آخذها. فولا الرجل شاكراً للإمام رحمه الله تعالى"[٢].

ويقول الشيخ عن نفسه: "وقد جرني الغضب للسنة وأئمتها إلى طرف مما أكره وأعوذ بالله من شر نفسي، وسيئ عملي ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠) "[٣].

• **تواضعه ورقة حاله:**

---

[١] المصدر السابق (ص: ٣٧).

[٢] المصدر السابق (ص: ٣٨).

[٣] التنكيل (١: ٢٦٢).

يقول الدكتور محمود الطناحي -رحمه الله- في حديث عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند: "... والقائمون على تصحيح الكتب في هذه الدائرة يعملون في إخلاص واحتساب وصمت، ومن أشهرهم وأعلاهم قدراً: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني".

ثم تكلم الدكتور الطناحي عن نسب المعلمي ونشأته ورحلاته إلى جيزان والهند، وذكر أهم ما شارك في تصحيحه من الكتب الموسوعية، وما ألفه من الرسائل المطبوعة والمخطوطة، وما يتعلق بوفاته، ثم قال: "وكان الشيخ -فيما وُصف لنا- متواضعاً، ورقيق الحال، حدثني الأستاذ فؤاد السيد -أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية- رحمه الله قال: كنت في أثناء الحج أتردد على مكتبه الحرم المكي لرؤية المخطوطات، وزيارة مدير المكتبة: الشيخ سليمان الصنيع، وكان بين الحين والآخر، يأتي إلينا رجل رقيق الحال يسقينا ماء زمزم، وبعد يومين طلبتُ من الشيخ الصنيع رؤية الشيخ عبد الرحمن المعلمي، فقال: ألم تره بعد؟ أليس يسقيك كل يوم من ماء زمزم؟

يقول الأستاذ فؤاد: فتعجبت من تواضعه ورقة حاله، مع ما أعرفه من علمه الواسع الغزير"[1].

---

[1] مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف في حديث عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند (ص: ٢٠٣).

وقال الشيخ أحمد بن غانم الأسدي: "إن الشيخ أحمد شاكر رغب في سنة من السنوات في رؤية الشيخ المعلمي -رحمهما الله- فدخل مكتبة الحرم واتجه صوب مدير المكتبة الشيخ سليمان الصنيع -رحمه الله- وأثناء محادثته مع الشيخ سليمان الصنيع جاء المعلمي -رحمه الله- بالماء والشاي ووضعهما أمام الشيخ أحمد شاكر والشيخ سليمان الصنيع، وانصرف المعلمي للقراءة، ثم قال الشيخ أحمد شاكر باللهجة المصرية: عاوز أشوف الشيخ المعلمي. فقال له الشيخ سليمان الصنيع: الذي أحضر لك الشاي والماء هو المعلمي، وما هي إلا دقائق حتى أخذ الشيخ أحمد شاكر في البكاء"[(١)].

---

(١) الإمام عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني حياته وآثاره (ص: ٣٥).

ونقل الشيخ الصبيحي عن الزيادي كما في النكت الجياد (ص: ٨٤-٨٦) "بعد أن طبع المعلمي -رحمه الله- رسالته "طليعة التنكيل" والتي هي عبارة عن نموذج من مغالطات الكوثري، كتب الكوثري رسالة بعنوان "الترحيب بنقد التأنيب" مبيناً فيها الأخطاء الواقعة في رسالة المعلمي السابقة "الطليعة". فكتب المعلمي -رحمه الله- رسالة بعنوان "تعزيز الطليعة" بين فيها الداعي لهذه الأخطاء قال في أولها: "أما بعد ... فهذه رسالة أردفت بها رسالتي "طليعة التنكيل" لما وقفت على رسالة الأستاذ العلامة محمد زاهد الكوثري التي سماها "الترحيب بنقد التأنيب" يرد بها على الطليعة، وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه".

وبعد هذه الرسالة كتب المعلمي -رحمه الله- رسالة بعنوان "شكر الترحيب" وقد قسم هذه الرسالة إلى قسمين:

=

القسم الأول: "في أشياء أخذها عليّ الأستاذ وهو محق في الجملة ..."
القسم الثاني: "في أمور تجناها الأستاذ ..."
ثم أرسل الشيخ المعلمي للشيخ أحمد شاكر رسالة خطية مبيناً فيها سبب تأليف "طليعة التنكيل" ومنبهاً على الأخطاء الواقعة فيها ومسائلاً له، قال في أولها:
"لله الحمد ... العلامة المفضال أبي الأشبال ناصر السنة الشيخ أحمد محمد شاكر أدام الله تعالى توفيقه. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:
قبل ثلاث سنوات تقريباً جاء صديق لي من أهل الفضل بكتاب وناولني إياه، فقرأت عنوانه، فإذا هو كتاب "تأنيب الخطيب" للأستاذ محمد زاهد الكوثري، وكنت قد وقفت على تعاليق للكوثري على ذيول "الحفاظ" وكتب أخرى، فعرفت طريقته، فلم تطب نفسي بمطالعة تأنيبه، فرددت الكتاب على صاحبي، فألح أن أنظر فيه، فرأيت أن أطيب نفسه بقراءة ورقة أو ورقتين، فلما شرعت في ذلك، رأيت الأمر أشد جداً مما كنت أتوقع، فبدا لي أن أكمل مطالعته، وأقيد ملاحظات على مطالعة في أئمة السنة وثقات رواتها فاجتمع عندي كثير من طبع نموذج بمصر في رسالة بعنوان "طليعة التنكيل" لا أراكم إلا قد تفضلتم بالاطلاع عليها، وآلمني أن الفاضل الذي علق عليها تصرف في مواضع من المتن بباعث النكاية في صاحب "التأنيب"، وذلك عندي خارج عن المقصود، بل ربما يكون منافياً له، وفي النكاية العلمية كفاية لو كانت النكاية مقصودة لذاتها، ثم وقعت في الطبع أغلاط كثيرة، ولا سيما في إهمال العلامات، وعلى ذلك فليس ذلك بناقص من شكري للناشر والمعلق.
وأنا الآن مشتغل بتبييض الكتاب، لكن بقيت مهمات لم أهتد إلى مواضعها، وأنا منذ زمان أحب التعرف عليكم والاستمداد منكم، فيعوقني إكباري لكم، وعلمي بأن أوقاتكم مشغولة بكبار الأعمال كخدمة "المسند" وأخيراً قوى عزمي على الكتابة إليكم، راجياً العفو والمساحة.

عدله وإنصافه:

أهم الفوائد التي أسأل عنها أمور:

الأول: أن الكوثري ذكر أن أبا الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان الأصبهاني، روى عن أبي العباس الجمار عن ابن أبي سريج عن الشافعي مقالة مالك في أبي حنيفة ... نعم رأيت رجلاً لو نظر لهذه السارية وهي من الحجارة فقال: إنها من ذهب لقامت حجته. فأحب أن أعرف من أين أخذ الكوثري هذه الرواية، وما هو سندها إلى أبي الشيخ.

الثاني: أن الكوثري يقول في أبي الشيخ هذا: "ضعفه بلديه الحافظ أبو أحمد العسال بحق" فأحب أن أعرف مستند الكوثري في ذلك. وفي ذهني قصة فيها: أن رجلاً من المحدثين هجر صاحباً له في حكاية عن الإمام أحمد تتعلق ببعض أحاديث الصفات، وقال الهاجر ما معناه: لا أزال هاجراً له حتى يخرج تلك الحكاية من كتابه. هذه حكاية وقفت عليها قديماً، و لم أهتد الآن لموضعها، ويمكن أن تكون الواقعة لأبي الشيخ والعسال وأن تكون هي مستند الكوثري.

الثالث: في تاريخ بغداد (٣: ١٧٧) من طريق يونس -يعني ابن عبد الأعلى- قال: سمعت الشافعي يقول: ناظرت محمد بن الحسن ... الخ. فالكوثري يزعم أن الخطيب تصرف في هذه الحكاية، والحكاية من وجه آخر عن يونس في "الانتقاء" لابن عبد البر (ص: ٣٤).

وأكاد أجزم أن ابن عبد البر اختصرها، فعسى أن تكونوا وقفتم عليها تامة في غير "تاريخ بغداد" فأرجو إن تيسر لكم أن تفيدوني عن هذه الأمور الثلاثة.

في عزمي أن أفرد من كتابي ترجمة الإمام الشافعي وترجمة الخطيب؛ لأن الكلام طال فيها فصار كل منها يصلح أن تكون رسالة مستقلة. فهل هناك في القاهرة من الشافعية من ينشط لطبع تلك الرسالتين على نفقته. فإن كان، فأرجو من فضلكم أن تعرفوني حتى أرسلهما إليكم وتنوبوا عني فيما يلزم ...".

إن صفة العدل والإنصاف عزيزة الوجود اليوم، ذلك أن الغالب على من قام بالرد على أهل البدع يحاول أن لا يُبقي لهم ولا يذر، حتى وإن أنكر موجودا وطمس معلوما، لكن من رسخ في العلم وتحلى بصفاته -التي منها العدل والإنصاف- لن يحيد عن هذا الطريق السوي، والنهج القويم، ولقد كان إمامنا المعلمي أحد أولئك الراسخين، فقد رد على الكوثري وأبي رية بأسلوب علمي متين، لا وهن فيه، ولا خروج عن أدب المناظرة، وطريق المجادلة بالتي هي أحسن، بروح علمية عالية، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨) فتراه ينعت الكوثري بالأستاذ العلامة، وذكر الكوثري قصة في إسنادها عمر بن قيس المكي، فذكر الإمام المعلمي كلام الكوثري ثم قال: "صدق الأستاذ، ولم يحسن الخطيب بذكر هذه الحكاية"[(١)].

وقال -رحمه الله- بعد أن ذكر طرفاً من كلام الكوثري ورميه لأهل السنة بأنهم حشوية قال: ولا أجاري الأستاذ على هذا، ولكني أقول: الموفّق حقاً ومن وفق لمعرفة الحق واتباعه ومحبته، والمحروم من حرم ذلك كله، فما بالك بمن وقع في التنفير من الحق وعيب أهله؟![(٢)].

---

(١) التنكيل (١: ٣٧٢).

(٢) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل (٢: ٥).

وكذا تعامل مع أبي رية، مع شدة عداوته للسنة، فجعل الله لكلامه من القبول والرغبة ما لا يعلم قدره إلا الله؛ لأنه كما قال هو عن نفسه مع الكوثري: "وحرصت على توخي الحق والعدل واجتناب ما كرهته للأستاذ، خلا أن إفراطه في إساءة القول في الأئمة جرَّأني أن أصرح ببعض ما يقتضيه صنيعه. وأسأل الله تعالى التوفيق لي وله"[١].

• **محافظته على الوقت:**

يقول الشيخ عبد الرحمن العجيان: ولا زلت أذكر ما حدثنا به الثقات من شغف ذهبي العصر الشيخ العالم المحدث عبد الرحمن بن يحيى المعلمي -رحمه الله- من أنه لم يكن ينام حتى يضع عن يمينه شرح "ألفية ابن مالك" وعن يساره "شرح منتهى الإرادات"، فإذا نام ترك الأنوار مضاءة فيغفو ثم يقوم، فيلتفت إلى أحد الكتابين، فيفتح على صفحة محددة، ثم ينظر فيها ،ثم يرجع فينام، رحمه الله تعالى[٢].

وقال العلامة محمد بهجة البيطار: "... ولم يتفق لي أن دخلت المكتبة بمكة المكرمة مرة إلا ورأيته محافظاً على الوقت، مكباً على العلم -رحمه الله تعالى- وقد كان الشيخ يتحلى بصفاتٍ نبيلة، تتجلى بوضوح عند مطالعة كتبه:

---

(١) الطليعة (ص: ١٨).

(٢) الإمام عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني حياته وآثاره (ص: ٣٦).

منها: الحلم، وسعة الصدر، وعدم مقابلة الذم والشتم بمثله.

ومنها: امتلاك النفس عند الغضب للحق، وعدم مجاراة الجاهل في جهله.

ومنها: سلوك سبيل المجاملة والمسامحة وعدم بسط اللسان في ثلب المفتري، اكتفاء بإظهار الحق.

ومنها: عفة لسانه وصون قلمه عن تتبع الهفوات وذكر الفظائع والمنكرات؛ صوناً لحرمات المسلمين.

ومنها : الميل إلى الإنصاف وتحري الصواب، حتى ولو كان في ذلك الصواب تقوية لمنطق المخالف.

ومنها: الاعتراف بخطأ نفسه، والتنبيه على الصواب.

وغير ذلك مما يعلم بمطالعة كلامه رحمه الله تعالى.

• آثاره:

تنوعت آثار الشيخ -رحمه الله- إلى ثلاثة أنواع:

١- ما قام بتأليفه.

٢- ما قام بتحقيقه.

٣- ما شارك في تحقيقه وتصحيحه.

أ ـــ أولاً: ما قام بتأليفه:

١- "**طليعة التنكيل**" وطبعت في حياة المعلمي -رحمه الله-.

٢- "**التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل**": وطبع بتحقيق: الشيخ الألباني رحمه الله بعد وفاة المعلمي -رحمه الله-.

٣- **"القائد إلى تصحيح العقائد"**: وهو الجزء الرابع من "التنكيل" وقد أفرده "المكتب الإسلامي" بالطبع.

٤- **"الأنوار الكاشفة لما في كتاب "أضواء على السنة" من الزلل والتضليل والمجازفة"**: طبع في المكتب الإسلامي.

٥- **"علم الرجال وأهميته"**: طبع بدار الراية بالرياض بتحقيق: علي حسن عبد الحمد.

٦- **"رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله"**: المعروف بـ كتاب **"العبادة"**، وهو كتابنا هذا.

٧- **"أحكام الكذب"**: وقد ذكره المعلمي في كتابه التنكيل (٢: ٣٣٦).

٨- **"حقيقة التأويل"**: طبعته دار أطلس الخضراء، بتحقيق: جرير بن العربي الجزائري.

٩- **"تحقيق البدعة"**: طبع باعتناء: الدكتور عثمان بن معلم محمود شيخ، والدكتور أحمد حاج محمد عثمان، بدار أضواء السلف.

١٠- **"الرد على المتصوفة القائلين بوحدة الوجود"**: قال الدكتور منصور بن عبد العزيز السماري: تقع في (٢٨) صفحة حجم كبير، عدد الأسطر (٢٥) سطرا، في السطر (١٥) كلمة، كتبها في عام (١٣٤١) جاء ذلك في مقدمتها، ورقها متآكل بعضه.

١١- **"الحنيفية والعرب"**: قال السماري: رسالة تقع في (١٠)

صفحات من الحجم المتوسط، عدد الأسطر (١٦) سطراً، في السطر (١١) كلمة، مكتوبة بخط جيد ومبيض، ولها مسودة تقع في (٦) صفحات من الحجم الكبير، عدد الأسطر (٢٨) سطراً، في السطر (١٥) كلمة.

١٢- **"رسالة في قوله تعالى: {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً}"** ذكرها في كتابه "الأنوار الكاشفة" (ص: ١٣٩). قال السماري (ص: ٤٩): ولم أعثر عليها.

١٣- **"إغاثة العلماء من طعن صاحب الوراثة في الإسلام"**: ذكره عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي في ترجمة الشيخ المذكورة في مقدمة "التنكيل" ضمن مؤلفات الشيخ المخطوطة. وقال السماري (ص: ٤٩): ولم أعثر عليه.

١٤- **"فلسفة الأعياد وحكمة الإسلام"**: قال السماري: ومن العناوين التي وردت في الرسالة: "منشأ الأعياد"، و"الأعياد الدينية"، و"نظرية الإسلام في الأعياد" ... تقع في (٧) صفحات من الحجم الكبير، عدد الأسطر (٢٨) سطراً، في السطر (١٥) كلمة، وعليها حواش، وورقها قديم.

١٥- **"الاحتجاج بخبر الواحد"**: ذكرها المعلمي في كتاب "الاستبصار في نقد الأخبار"، وذكرها السماري (ص: ٤٩)، ثم قال: ولم أعثر عليها.

١٦- "**عمارة القبور**": طبع طبعتين:

الأولى: بتحقيق: ماجد بن عبد العزيز الزيادي بالمكتبة المكية.

والثانية: بتحقيق: حاكم بن عبيسان المطيري بدار أطلس، باسم: "البناء على القبور".

١٧- "**أحكام الحديث الضعيف**": ذكرها المعلمي في مقدمته لكتاب الفوائد المجموعة (ص: ٩-١٠)، وفي كتابه "الأنوار الكاشفة" (ص: ٨٧-٨٨)، وذكرها -أيضا- في كتاب "العبادة" (ص: ٤٠٨) من المخطوط، قال الدكتور السماري: وهي تقع في ثلاثة دفاتر:

الأول: من الحجم المتوسط، صفحات الكتابة (٤٣) صفحة، في الصفحة (١٦) سطراً، والسطر (١٠) كلمات.

ثم يليه الثاني: كالصفات السابقة، صفحات الكتابة (٣٠) صفحة.

ثم يليه الثالث: كسابقيه، صفحات الكتابة (٣٤) صفحة.

١٨- "**الاستبصار في نقد الأخبار**": طبعت بتحقيق: سيدي محمد الشنقيطي بدار أطلس الخضراء، وقال السماري (ص: ٥٤-٥٥): " تقع في كراس من الحجم المتوسط، صفحات الكتابة (٦٢) صفحة في الصفحة (١٦) سطراً، في السطر (١١) كلمة، والرسالة لم تكمل، ولم يجاوز فيها المقالة الأولى من المقالات الأربع التي أشار إليها"[1].

---

[1] حيث قال الشيخ المعلمي في أولها: "هذا ونقد الخبر على أربع مراتب:
=

١٩- "**النقد البريء**": ذكرها في رسالة "الاستبصار في نقد الأخبار" (ص: ٥٩)، وقال السماري (ص: ٥٥): ولم أعثر عليها.

٢٠- "**الأحاديث التي استشهد بها مسلم -رحمه الله تعالى- في بحث الخلاف في اشتراط العلم باللقاء**": طبع في المكتبة المكية، بتحقيق: ماجد الزيادي.

٢١- "**فهرس لبعض نوادر مخطوطات مكتبة الحرم المكي**" طبع في المكتبة المكية، بتحقيق: ماجد الزيادي.

٢٢- "**تصحيح الكتب القديمة**": طبعت في المكتبة المكية باسم: "رسالة فيما على المتصدين لطبع الكتب القديمة فعلُه"، وهي ضمن مجموع خمس رسائل للمعلمي بتحقيق: ماجد الزيادي.

٢٣- "**أصول التصحيح**": وهي الرسالة الثانية من مجموع الزيادي.

-

الأولى: النظر في أحوال رجال سنده واحداً واحداً.

الثانية: النظر في اتصاله.

الثالثة: البحث والنظر في الأمور التي تدل على خطأ إن كان.

الرابعة: النظر في الأدلة الأخرى مما يوافقه أو يخالفه.

فلنعقد لكل واحدة من هذه الأربع مقالة، ونسأل الله تبارك وتعالى التوفيق".

٢٤- **"عقيدة العرب في وثنيتهم"**: وهي الرسالة الخامسة من مجموعة الزيادي.

٢٥- **"صدع الدجنة في فصل البدعة عن السنة"**: طبع باعتناء: الدكتور عثمان بن معلم محمود شيخ، والدكتور أحمد حاج محمد عثمان، بدار أضواء السلف.

٢٦- **"صفة الارتباط بين العلماء في القديم والحديث"**: وهي عبارة عن محاضرة ألقاها الشيخ في الحفل السنوي الذي أقامته دائرة المعارف العثمانية عام (١٣٥٦)، وطبعت بدار المحدث باعتناء: سامي بن محمد بن جاد الله.

٢٧- **"تحقيق المقال في تراجم الرجال"**: وهي عبارة عن محاضرة ألقاها المعلمي في الحفل السنوي الذي أقامته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند عام (١٣٥٧)، طبعته دار البصائر بدمشق، ودار الحرمين بالقاهرة بتعليق: طارق بن عوض الله.

٢٨- **"اللطيفة البكرية والنتيجة الفكرية في المهمات النحوية"**: طبعت بدار عالم الفوائد، بتحقيق: أسامة بن مسلم الحازمي.

٢٩- **"فوائد في كتاب العلل لابن أبي حاتم"**: طبعت بتحقيق: عبد الرزاق بن أسعد بن عبد الرؤوف، بدار أطلس بالرياض.

٣٠- **"ديوان شعر"**: ذكره عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي في ترجمته للشيخ -رحمه الله- المذكورة في مقدمة "التنكيل".

ب ــــ وله بحوث في مسائل فقهية متفرقة وهي:

١- "**بحث في مقام إبراهيم عليه السلام: هل يجوز تأخيره عن موضعه عند الحاجة لتوسيع المطاف**": طبع بدار الراية بالرياض، بتحقيق: علي حسن عبد الحميد.

٢- "**بحث في قيام رمضان**": قال السماري: يقع في (١٣) صفحة من الحجم الكبير، في الصفحة (٢٤) سطراً وفي السطر (١٥) كلمة، وخطه لا بأس به.

٣- "**بحث في توسعة المسعى بين الصفا والمروة**": قال السماري: يقع في (٥) صفحات من الحجم الكبير في الصفحة (٢١) سطراً، وفي السطر (١٥) كلمة، مكتوب بخط لا بأس به.

٤- "**بحث في سير النبي ﷺ في حجه بين المشاعر، ومتى كان إسراعه، والكلام حول وادي "محسر" وسبب الإسراع فيه**": طبعت في المكتبة المكية، باسم: "سير النبي ﷺ من عرفات إلى مزدلفة"، وهي ضمن خمس رسائل للمعلمي بتحقيق: ماجد الزيادي.

٥- "**بحث في توكيل الولي في النكاح**": قال السماري: يقع في (٣٥) صفحة من الحجم المتوسط، في الصفحة (١٦) سطراً، وفي السطر (١١) كلمة، بخط لا بأس به.

٦- "**بحث في عدم اشتراط الصوم في الاعتكاف**": قال السماري: يقع في (٥) صفحات من الحجم الكبير في الصفحة (٣٠) سطراً، في

السطر (١٥) كلمة، بخط لا بأس به.

٧- "**بحث في القبلة وقضاء الحاجة**": قال السماري: يقع في (٢٣) صفحة من الحجم الكبير في الصفحة (٣٢) سطراً وفي السطر (١٢) كلمة، فيها ضروب وخطها يقرأ.

٨- "**بحث في الربا وأنواعه، والمضاربة والاحتكار**": قال السماري: يقع في (٦٢) صفحة من الحجم الكبير، في الصفحة (٢٧) سطراً، في السطر (١٢) كلمة، ومتآكل جزء منها.

٩- "**بحث في هل للجمعة سنة قبلية؟ وسبب تسمية الجمعة**": قال السماري: يقع في (٢٤) صفحة من الحجم المتوسط، في الصفحة (١٧) سطراً في السطر (١٣) كلمة، بخط لا بأس به.

١٠- "**الحكم المشروع في الطلاق المجموع**": طبع بدار أطلس، بتحقيق: حاكم المطيري.

١١- "**بحث في: هل يدرك المأموم الركعة بإدراكه الركوع مع الإمام**": قال السماري: طبعت عام (١٤١٤) بمكتبة الإرشاد صنعاء.

١٢- "**بحث حول تفسير الرازي**": مطبوع بالمكتبة المكية ضمن مجموع يحتوي على خمس رسائل للمعلمي، بتحقيق: ماجد الزيادي.

ج ــ ما قام بتحقيقه وتصحيحه والتعليق عليه:

١- "**كتاب الرد على الأخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية**"، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

طبعته الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

٢- "**الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**"، تأليف: الإمام محمد بن علي الشوكاني، طبعه المكتب الإسلامي.

٣- "**التاريخ الكبير**"، تأليف: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وهو مطبوع بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند).

٤- "**بيان خطأ محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه**"، تأليف: الإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، وقد تم طبع هذا الكتاب بدائرة المعارف العثمانية.

٥- "**الجرح والتعديل وتقدمته**"، تأليف: الإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، وقد تم طبع هذا الكتاب بدائرة المعارف العثمانية.

٦- "**تاريخ جرجان**"، تأليف: الحافظ حمزة بن يوسف السهمي، وقد طبع بدائرة المعارف العثمانية.

٧- "**موضح أوهام الجمع والتفريق**"، تأليف: الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، وهو من مطبوعات دائرة المعارف أيضاً.

٨- "**الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب**"، للأمير الحافظ أبي نصر علي بن هبة الله الشهير بابن ماكولا، طبعته مطبعة دائرة المعارف العثمانية، وقد طبع منه (٧) مجلدات،

حقق الشيخ المعلمي الستة الأولى منها، وشرع في الجزء السابع إلى مـــادة "عوال" (ص: ٤٩) منه، حيث وافاه الأجل، ولم يكمل الكتاب.

٩- "**الأنساب**"، للإمام أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، وطبعته مطبعة دائرة المعارف العثمانية.

١٠- "**تذكرة الحفاظ**"، للحافظ أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، وطبعته دائرة المعارف العثمانية.

١١- "**المعاني الكبير في أبيات المعاني**"، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، طبعته دائرة المعارف العثمانية، وطبعته -أيـــضاً- دار الكتب العليمة.

١٢- "**المنار المنيف في الصحيح والضعيف**"، للإمام شمس الـــدين أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، أعده وأخرجه -بتحقيق المعلمـــي- الدكتور منصور السماري، ونشرته دار العاصمة.

١٣- "**كشف المخدَّرات والرياض المزهـــرات شـــرح أخـــصر المختصرات**" في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني رحمـــه الله، لـــشمس الدين أبو عبد الله محمد بن بدر الدين بن عبد القادر بن بلبان البعلي، قال الدكتور السماري (ص: ٧٤) والكتاب طبعه محب الـــدين الخطيـــب في مطبعته، في مجلد واحدٍ.

د ـــ ما شارك في تحقيقه وتصحيحه:

١- "**الجواب الباهر في زوار المقابر**"، تأليف: شيخ الإسلام ابـــن

تيمية، وقد طبعته المطبعة السلفية بالقاهرة، وكتب على غلاف الكتاب: صحح أصله وحققه: الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع، وشارك في تحقيقه وخرج أحاديثه: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني".

٢- **"مسند أبي عوانة"**، للإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الإسفرائيني، شارك الشيخ في تحقيقه وتصحيح الجزء الأول والثاني من الكتاب، قال الشيخ هاشم الندوي في خاتمة الطبع للجزء الأول: "... بعد المقابلة على الأصل والتعليقات المفيدة من الكتب الصحيحة قدمت هذا الجزء إلى رفيقنا ... الشيخ عبد الرحمن اليماني مصحح دائرة المعارف لينظر فيه نظراً ثانياً فاستوعب العمل واعتنى بالتصحيح والتعليق من كتب الرجال والحديث ..." ومثله جاء في خاتمة طبع الجزء الثاني، وقد طبع بدائرة المعارف العثمانية، ويختم الشيخ المعلمي تعليقاته بحرف (ح).

٣- **"السنن الكبرى"**، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، شارك المعلمي في التحقيق من بداية الجزء الرابع إلى نهاية الجزء العاشر وهو آخر الكتاب، وهو مطبوع بدائرة المعارف العثمانية، ويتميز تعليق الشيخ المعلمي بأنه يختمه بحرف (ح).

٤- **"موارد الظمآن إلى زوائد بن حبان"**، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، شارك في تصحيح الأخطاء فوضع جدول صواب أخطاء "مواردِ الظمآن"، ويقع في أحدى عشرة صفحة، الصفحة تحتوي على (٤٨) خطأ وتصويبه، كتب في آخر جدول الخطأ والصواب ما

نصه: "انتهى جدول تصحيح الخطأ وتصويب الصواب في كتاب "موارد الظمآن بزوائد ابن حبان"، وهو جهد مشكور للأخ المفضال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، اجتهد فيه بمراجعة أسماء رجال الأسانيد من كتب الرجال ومسند الإمام أحمد وبعض السنن كالترمذي وأبي داود، فجزاه الله على هذا المجهود خير الجزاء ..." ولم يشارك الشيخ في التعليق على الكتاب.

٥- **"الكفاية في علوم الرواية"**، للإمام المحدث أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، طبعته المطبعة السلفية، بإشراف محب الدين الخطيب، وشارك الشيخ المعلمي في تصحيح الكتاب، وكتب ترجمة للخطيب البغدادي في آخر الكتاب، ويدل على أن الترجمة بقلمه إحالته عليها في حاشية "الموضح" للخطيب (١: ٣)، وقال الشيخ المعلمي في خاتمة الطبع: "أما بعد فقد تم طبع كتاب "الكفاية في علم الرواية" ... وعني بتصحيحه من رجال الدائرة ... وخادمهم الحقير عبد الرحمن بن يحيى اليماني ... وكان تمام الطبع في يوم الأربعاء عاشر شهر شعبان سنة (١٣٥٧)".

٦- **"المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"**، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي. جاء في خاتمة الطبع: "وعني بتصحيحه من أفاضل دائرة المعارف وعلمائها ... هاشم الندوي ... والشيخ عبد الرحمن اليماني ... ولم يتهيأ لدائرة المعارف العثمانية العثور على الأجزاء الأربعة الأولى والقسم الأول

من الجزء الخامس، وتم لهم تحقيق القسم الثاني من الجزء الخامس والجزء السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر وهو آخر الكتاب.

٧- **"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"**، للحافظ ابن حجر العسقلاني. جاء في خاتمة الطبع: "... وقد اعتنى بالطبع والتصحيح رفقاء دائرة المعارف ... هاشم الندوي ... والفاضل النحرير الشيخ عبد الرحمن اليماني ..." وتعليقات الشيخ تتميز بأنه يختمها بحرف (ح).

٨- **"عمدة الفقه"**، للإمام موفق الدين ابن قدامة الحنبلي، جاء على غلاف الكتاب: "قابل الأصل وحرره عبد الرحمن بن يحيى المعلمي أمين مكتبة الحرم، شرحه وعلق حواشيه: عبد الله بن عبد الرحمن البسام ...". طبعته مطبعة الحلبي، ونشرته مطبعة النهضة الحديثة بمكة.

٩- **"الأمالي اليزيدية"**، لأبي عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي، وهي عبارة عن مراثٍ وأشعار وأخبارٍ ولغة وغيرها، قال السماري: جاء في مقدمة الكتاب للمصحح الحبيب عبد الله بن أحمد العلوي الحسيني الحضرمي: "... فشرعنا في طبعه بمساعدة العلامة المحقق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني مصحح دائرة المعارف" ويتميز تعليق الشيخ بأنه يختمه بحرف (ح).

١٠- **"الأمالي الشجرية"**، لأبي السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني المعروف بابن الشجري، جاء في خاتمة الطبع: "واشتغل بتصحيحه ... حبيب عبد الله بن أحمد العلوي، والشيخ عبد الرحمن

اليماني ..."، وتعليقات الشيخ يختمها بحرف (ح).

١١- **"عمل اليوم والليلة"**، لأبي بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري المعروف بابن السني، فقد جاء في خاتمة الطبع: "وعني بتصحيحه من أفاضل دائرة المعارف وعلمائها هاشم الندوي ... والشيخ عبد الرحمن اليماني"، لا توجد تعليقات سوى إثبات فروق النسخ.

١٢- **"الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار"**، لأبي بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الهمذاني، جاء في خاتمة الطبع: "... وعنى بتصحيحه من أفاضل دائرة المعارف وعلمائها ... هاشم الندوي ... والشيخ عبد الرحمن اليماني ..."، التعليقات قليلة وأكثرها إثبات فروق النسخ، ويرمز الشيخ لتعليقه بحرف (ح).

١٣- **"صفة الصفوة"**، لابن الجوزي، جاء في خاتمة طبع المجلد الأول: "وعنى بتصحيحه من أفاضل دائرة المعارف وعلمائها ... والشيخ عبد الرحمن اليماني ..." وكذا جاء في خاتمة طبع المجلد الثاني والثالث، وفي خاتمة المجلد الرابع: "وعني بتصحيحه محمد طه الندوي ... وكاتبه ... عبد الرحمن اليماني غفر الله ذنوبهم وستر عيوبهم ..."، التعليقات قليلة، وأكثرها إثبات فروق النسخ، يرمز الشيخ لتعليقه بحرف (ح).

١٤- **"تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر"**، وهو كتاب في علم الفلك، لكمال الدين أبي الحسن الفارسي، جاء في خاتمة الطبع: "... باشرنا طبعه ... وتولى ذلك ... والمكرم الشيخ عبد الرحمن اليماني ..."،

التعليقات نادرة، وغالبها إثبات فروق النسخ، يرمز الشيخ لتعليقه بحرف (ح).

١٥- **"مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم"**، لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده. ذكر الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي في ترجمته للشيخ المعلمي في مقدمة التنكيل: أنه شارك في تحقيق وتصحيح هذا الكتاب، وقال السماري: "وقد وقفت عليه، ولم أجد فيه ما يدل على مشاركة المعلمي في تحقيقه ... فلعله شارك في طبعة أخرى، والله أعلم".

١٦- **"نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"**، لعبد الحي بن فخر الدين الحسيني، ذكر الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي في ترجمته للشيخ المعلمي في مقدمة التنكيل: أنه شارك في تحقيق وتصحيح هذا الكتاب، وقال السماري: "وهذا -أيضاً- لم أجد فيه ما يدل على مشاركة المعلمي في تحقيقه".

١٧- **"لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية"**، للسفاريني. ذكر ذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي في ترجمته للشيخ في مقدمة "التنكيل" باسم "شرح عقيدة السفاريني"، وذكره -أيضاً- الدكتور منصور السماري (ص: ٨٦٩) وقال في التعليق: "لم أعثر على الطبعة التي شارك فيها".

١٨- "**المعتصر من المختصر من مشكل الآثار**"، للقاضي أبي المحاسن يوسف بن موسى الحنفي، جاء في خاتمة طبع الجزء الأول منه: "واعتنى بتصحيح هذا الكتاب من علماء الدائرة الشيخ محمد طه الندوي ... وأمعن النظر فيه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني مصحح دائرة المعارف ..." ومثله في خاتمة الجزء الثاني.

١٩- "**دلائل النبوة**"، لأبي نعيم الأصبهاني، طبع بدائرة المعارف العثمانية، وقال الدكتور منصور السماري: "وبتصفح الكتاب المصوَّر، يلاحظ كثرة التعاليق التي تختم بحرف (ح)، وهذا عُهِد من صنيع الشيخ عبد الرحمن اليماني رحمه الله".

٢٠- "**إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم**"، لابن خالويه، جاء في خاتمة الطبع: ملاحظات شعبة التصحيح لدائرة المعارف: "لا ريب أن الدكتور سالم الكرنكوي قد بذل جهده في استنساخ هذا الكتاب ومقابلته على النسختين المذكورين والضبط والتصحيح على الألفاظ واللغات، فرتبه وعلق عليه الهوامش بأجمل أسلوب، وإن حصلت له صعوبة شديدة في القراءة والمقابلة والمراجعة لكنه استوفى العمل. ثم استقصى النظر في هذا الكتاب: حضرة الفاضل الأديب الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني أحد رفقاء الجمعية، ونبه في الحواشي على بعض الخطأ من جهة النسخ بعلامة . ع . ي. فشكر الله سعيهما. وطبع الكتاب على نفقة الجمعية العلمية بدائرة المعارف العثمانية، وقام بطباعته

مكتبة "المتنبي" بالقاهرة.

• **وفاته:**

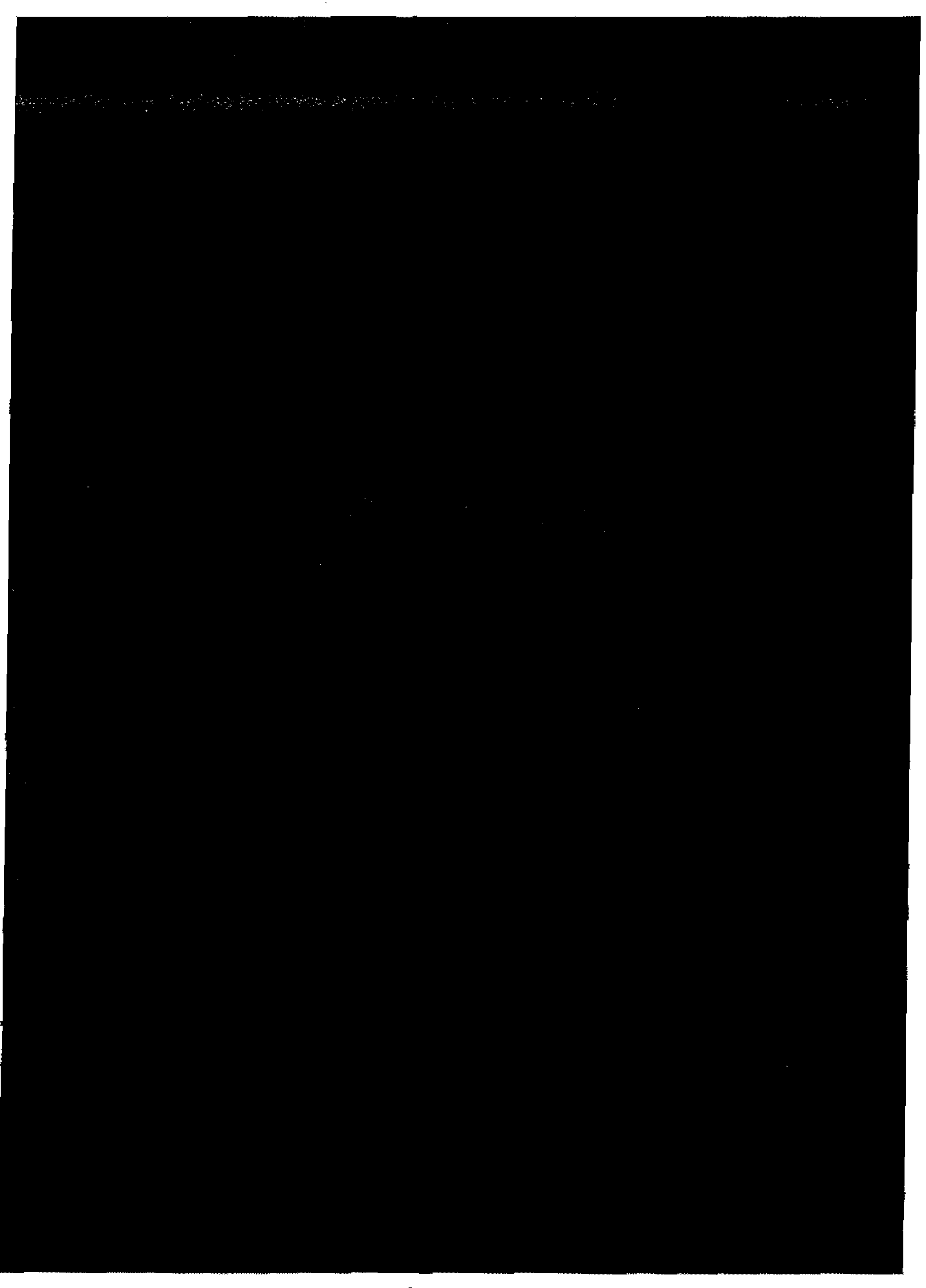
قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن المعلمي: في ليلة الأربعاء وبعد صلاة العشاء، جاء بعض الطلاب عند الشيخ ومعه كتاب في الأصول، وطلب منه أن يشرح له بعض العبارات، وكان يظهر على هذا الطالب علامات التسرع، وبيد الشيخ -رحمه الله- سلسلة فقال للطالب: انظر هذه السلسلة التي بيدي، صانعها مكث في صنعها مدة، أخذ يركب حلقة حلقة، وهكذا العلم مسألة مسألة.

وفي هذه الليلة وبعد انتهاء الدوام رفعت عنه جميع الكتب التي كانت أمامه، وكان أمامه "الإكمال" و"الأنساب"، وفي صباح يوم الخميس وجدته وقد وضعها أمامه".

وقال السماري: "توفي صبيحة يوم الخميس من شهر صفر عام (١٣٨٦) من الهجرة بعد ما أدى صلاة الفجر في المسجد الحرام، وعاد إلى مكتبة الحرم حيث كان يقيم، فدخل عليه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المعلمي مع بداية العمل في المكتبة فوجده على سريره، وقد توفي، فرحمه الله وأسكنه فسيح جناته".

صور من الأصل المخطوط

الورقة الأولى من الأصل المخطوط



الورقة الأخيرة ن الأصل الخطوط



النص المحقق



بسم الله الرحمن الرحيم

[١] الحمد لله الذي خلق الجن والإنس ليعبدوه، وبعث إليهم رسله ليوحدوه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وسلم تسليماً كثيراً".

أما بعد: فإني تدبرت الخلاف المستطير بين الأمة في القرون المتأخرة في شأن الاستغاثة بالصالحين الموتى وتعظيم قبورهم ومشاهدهم، وتعظيم بعض المشايخ الأحياء، وزعم بعض الأمة في كثير من ذلك أنه شرك، وبعضها أنه بدعة، وبعضها أنه من الدين الحق. ورأيت كثيراً من الناس قد وقعوا في تعظيم الكواكب والروحانيين مما يطول شرحه، وهو موجود في كتب التنجيم والتعزيم، كشمس المعارف وغيرها. وعلمت أن مسلماً من المسلمين لا يقدم على ما يعلم أنه شرك ولا على تكفير من يعلم أنه غير كافر. ولكنه وقع الاختلاف في حقيقة الشرك، فنظرت في حقيقة الشرك فإذا هو بالاتفاق اتخاذ غير الله ﷻ إلها من دونه، أو عبادة غير الله ﷻ، فانتقل النظر إلى معنى الإله والعبادة، فإذا فيه اشتباه شديد، فإن أصح الأقوال في تفسير إله، قولهم: معبود، أو معبود بحق، ومعنى العبادة مشتبه كذلك كما ستراه -إن شاء الله- فعلمت أن ذلك [٢] الاشتباه هو سبب

الخلاف، وإذا الخطر أشد مما يُظن؛ لأن الجهل بمعنى الإله يلزمه الجهل بمعنى كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" وهي أساس الإسلام وأساس جميع الشرائع الحقة، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وقد دل الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على أنه لا يكفي النطق بها بدون معرفة معناها، وإيضاح ذلك أن الاعتداد بالنطق بها له شروط منها:

أن يكون على سبيل الاعتراف، للقطع بأن المشرك إذا نطق بها حكاية عن غيره لا يعتد بذلك، كالمسلم إذا نطق بكلمة الكفر حكاية عن غيره، وأنت خبير أن العبارة لا يحكم بكونها اعترافاً حتى يُعلم أن المتكلم بها يعرف معناها، فلو أثبت زيد على إنسان أعجمي أنه قال: أنا رقيق لزيد، ووجدنا هذا الأعجمي لا يعرف العربية ولا يعرف معنى رقيق، وإنما لقنوه تلك العبارة بدون إعلامه بمعناها، لم يعتد باعترافه، وهذا مما لا خلاف فيه أصلاً.

ومنها العلم بمضمونها، والعلم هو الذي يعبر عنه أهل الكلام بالتصديق، وقيل التصديق أخص، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩) [٣]، وقال ﷻ: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦).

فقيد نفع الشهادة؛ قيده بالعلم بالمشهود به، قال ابن جرير في تفسيرها: "اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك:

ولا يملك عيسى وعُزير والملائكة الذين يعبدهم هؤلاء المشركون بالساعة الشفاعة عند الله لأحد، إلا من شهد بالحقّ، فوحد الله وأطاعه بتوحيد علم منه وصحة بما جاءت به رسله"[١].

ثم اسند نحوه عن مجاهد، وفيه: ﴿إلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وهو يعلم الحق، ثم قال: "وقال آخرون: عني بذلك: ولا تملك الآلهة التي يدعوها المشركون ويعبدونها من دون الله الشفاعة إلا عيسى وعُزير وذووهما، والملائكة الذين شهدوا بالحقّ، فأقروا به، وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به".

ثم اسند نحوه عن قتادة، ثم قال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه لا يملك الذين يعبدهم المشركون من دون الله الشفاعة عنده لأحد، إلا من شهد بالحقّ، وشهادته بالحقّ: هو إقراره بتوحيد الله، يعني بذلك: إلا من آمن بالله، وهم يعلمون حقيقة توحيده"[٢].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل [٤] لَّمْ تُؤْمِنُوا

---

[١] [في المخطوط: "فوحد الله وأطاعه علم منه بتوحيد وصحة بما جاءت به رسله" وكأن الشيخ المعلمي شعر أن فيها خطأ، حيث قال: "نقلت هذه العبارة كما هي في النسخة المطبوعة". وقد صححتها من تفسير ابن جرير بتحقيق الشيخ أحمد شاكر].

[٢] تفسير الطبري (٢١: ٦٥٥).

وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٤).

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة: ٤١).

وفي القرآن آيات كثيرة في شأن المنافقين لا نطيل بإيرادها.

وفي صحيح مسلم عن عثمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة"[١].

وفي صحيح مسلم عن عمر قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مسيره ... فذكر الحديث، وفيه: -فقال يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: "أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أني رسول الله لا يلقى الله ﷻ بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة"[٢].

وفيه أيضاً عن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حديث طويل: "فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة."[٣].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) صحيح مسلم (٢٦).

(٢) صحيح مسلم (٢٧).

(٣) صحيح مسلم (٣١).

وسلم قال: "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قـال: لا إلـه إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه"[١].

وفيه عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله [ه] وسلم قال: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار"[٢].

وأصل الحديث في صحيح مسلم أيضاً.

وحديث الصحيحين وغيرهما في سؤال القبر سنذكره في الكلام على التقليد إن شاء الله تعالى.

وهذا الشرط مجمع عليه أيضاً، فأما ما نقل عن الكرامية من أن الإيمان هو النطق بالشهادتين فقط، وأن المنافق مؤمن حقيقة، فهو نـزاع لفظي؛ لأنهم يقولون: إن هذا الإيمان -الذي هو النطق- إنما هو بالنظر إلى الأحكام الدنيوية، فأما النجاة من النار فشرطها التصديق، فالمنافق مخلد في النار هكذا نقله عنهم الشهرستاني والسعد التفتازاني وغيرهما"[٣]، هذا مع مخالفة قولهم للنصوص القرآنية والإجماع السابق قبلهم.

إذا تقرر ما ذكر، فلا ريب أن الجاهل بمعنى لا إلـه إلا الله لا يـتم

---

(١) صحيح البخاري (٩٩)، (٦٢٠١).

(٢) صحيح البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٣) الملل والنحل (١: ١٥٤)، وشرح المقاصد (٢: ٢٤٨).

علمه بمضمونها ولا أن يقال شهد بها وهو يعلم، ولا يستطيع أن يجزم بأنه عالم بمضمونها مصدق به، ولا أنه يقولها غير شاك فيها مستيقناً قلبه، خالصاً من قلبه أو نفسه، صدقاً من قلبه.

وفي فتح الباري نقلا عن الحليمي: "لو قال الوثني لا إله إلا الله وكان يزعم أن الصنم يقربه إلى الله؛ لم يكن مؤمنا حتى يتبرأ من عبادة الصنم"[1].

ومنها التسليم ويعبر عنه بالرضا واكتفى جماعة عنه بالتصديق زاعمين أنه يتضمنه قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ [٦] فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥).

وفي صحيح مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا"[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً) (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي

---

(١) فتح الباري (١٣: ٣٥٩).

(٢) صحيح مسلم (٣٤).

لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً﴾ (الإسراء: ١٠١-١٠٢).

وقال تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ... وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ...﴾ (النمل: ١٢-١٤) فعلم من هذه الآيات أن فرعون وقومه كانوا عالمين مستيقنين و لم ينفعهم ذلك لعنادهم إذ لم يُسَلِّموا و لم يرضوا.

ومن لا يعلم معنى لا إله إلا الله لا يمكن أن يقال إنه مُسَلِّم بمضمونها راض به.

ومنها أن يكون النطق على سبيل الالتزام: أي التزام أن يعمل طول عمره بمضمون كلمة التوحيد ولا يخالفها.

وأدلته أكثر من أن تحصى منها قول الله جل وعلا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وهذا كالتفصيل لكلمة التوحيد، وفيه بيان الالتزام، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق أن العبادة والإلاهة متحدان أو متقاربان، [٧] وأن الشرك هو عبادة غير الله ﷻ، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ

اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ ... قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (الأعراف: ٦٥-٧٠).

ونحو ذلك في قصة صالح (الأعراف: ٧٣)، وفي قصة شعيب (الأعراف: ٨٥)، وجاء نحوه في سورة هود (هود: ٢٥-٨٤)، ونحوه عن نوح (المؤمنون: ٢٣).

وهذا كله بيان لآية الأنبياء[١].

وهو متضمن الالتزام؛ لتصريحه بأن إرسال الرسل إلى قومهم كان لدعوتهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غيره، وإجابة الرسل معناها قبول ما أرسلوا به، ولما جعلت الشهادة إعلاناً بقبول ما أرسل به الرسل كانت متضمنة التزام، الشاهد أن لا يعبد إلا الله.

وفي الصحيحين وغيرهما في حديث أبي هريرة في حديث جبريل عليه السلام إذ سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان والإسلام، قال: "الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به"[٢].

وفي صحيح مسلم حديث عمر في هذه القصة وفيه بدل قوله: "أن تعبد الله ولا تشرك به"، "أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول

---

(١) [أي: تفسير لآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)].

(٢) صحيح البخاري (٥٠)، وصحيح مسلم (٩).

الله"[١].

قال في الفتح: "ولما عبر الراوي بالعبادة أحتاج أن يوضحها بقوله: "ولا تشرك به شيئاً" ولم يحتج إليها في رواية عمر لاستلزامها ذلك"[٢].

[٨] وفي الصحيحين أيضاً حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس وفيه: "فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ..."[٣].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد في هذه القصة: "آمركم بأربع اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ..."[٤]. ولهذا نظائر.

وفيه أن الصحابة ﷺ كانوا يفهمون اتحاد معنى شهادة أن لا إله إلا الله، التي يثبت بها الإسلام، ومعنى التزام عبادة الله تعالى وعدم الشرك به وهو المطلوب، والله أعلم.

وأيضاً فالاعتراف والتصديق إنما هما بمثابة الوسيلة للالتزام، وأما التسليم والرضا فإنه مستلزم للالتزام.

---

(١) صحيح مسلم (٨).

(٢) فتح الباري (١: ١١٩).

(٣) صحيح البخاري (٥٣)، وصحيح مسلم (١٧).

(٤) صحيح مسلم (١٨).

بل لو قيل بأن جانب الالتزام هو المغلب في شهادة أن لا إله إلا الله لما كان بعيداً، بدلالة الاكتفاء بها من المشرك المحارب، وإن لم يسمع شيئاً من البراهين المبطلة للشرك، وفي الحديث أن أم سليم؛ وهي أم أنس بن مالك بعد تأيمها من أبيه، جاء أبو طلحة يخطبها وهو مشرك، فأبت عليه إلا أن يسلم، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسلم، فلما رآه النبي صلى الله عليه [٩] وآله وسلم قال: "جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه"[١].

بل قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٤).

فهؤلاء شهدوا أن لا إله إلا الله على سبيل الالتزام وقُبلت منهم مع شهادة الله تعالى عليهم بأنه لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وبذلك انتفى صدق الاعتراف، وانتفى التصديق، وانتفى الرضا الحقيقي، فلم يبق إلا الالتزام، فتدبر.

وقد قال العلماء: إن "لَمَّا" النافية تشعر بأن المنفي سيقع بعد ذلك، وعلى هذا ففي الآية وعد من الله ﷻ لهؤلاء القوم بأنه سيدخل الإيمان في قلوبهم، وقد وعدهم صريحاً بقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا ...﴾ الخ، فيؤخذ من

---

[١] أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٠٥٦)، وسنده صحيح.

ذلك مع النظر إلى الآيات الواردة في المنافقين؛ أن هؤلاء القوم لم يكونوا منافقين، وذلك أن الله ﷻ وعد هؤلاء بما سمعت، وتوعد المنافقين بأن يضلهم ويزيدهم مرضا ورجسا وغير ذلك، وبالتأمل يظهر أن الفرق بين الفريقين؛ أن المنافقين كان يظهرون الإيمان في العلانية وهم في السر يخوضون في التكذيب والعداوة ويسعون في كيد الإسلام وأهله، وأما هؤلاء الأعراب فكانوا ناصحين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللإسلام والمسلمين ظاهراً وباطناً، وإن لم يكن قد دخل الإيمان في قلوبهم، فتدبر.

ثم رأيت للإمام الشافعي رحمه الله كلاما في كتاب "إبطال الاستحسان" قال: "ثم أطلع الله رسوله على قوم يظهرون الإسلام ويسرون غيره ... فقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ...﴾ الآية (الحجرات: ١٤).

قال الشافعي: ﴿أسلمنا﴾ يعني: أسلمنا بالقول بالإيمان مخافة القتل والسباء، ثم أخبر أنه يجزيهم إن أطاعوا الله ورسوله، يعني: إن أحدثوا طاعة الله ورسوله، وقال له في المنافقين وهم صنف ثان: ﴿إذا جاءك المنافقون ...﴾ (المنافقون: ١)[١].

وقال ﷻ: ﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ

---

[١] الأم (٧: ٣١٠).

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦).

فجعل التظاهر بالكفر كفراً منافيا للإسلام و لم يستثن إلا المكره، مع أن ظاهر الآية أن المكره بتظاهره بالكفر قد كفر بعد إيمانه، ولكن لما كان معذوراً في ذلك وقلبه مطمئن بالإيمان عذره الله تعالى، فأما من شرح بالكفر صدراً؛ بأنْ فَعَلَه غير مكره عليه فلا ينفعه أن يكون قلبه مطمئناً [١٠] بالإيمان إن صح أن يوصف بذلك.

ويشهد لهذا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً) (٩٧) (إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً) (٩٨) (فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٩٩) جاء عن ابن عباس وغيره أنها نزلت في قوم أسلموا بمكة و لم يهاجروا بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأكره بعضهم على الخروج مع المشركين يوم بدر فقتلوا، وسمى ابن إسحاق منهم جماعة.

أقول: واستثناء المستضعفين صريح في أن القوم قد كانوا أسلموا، وبذلك جاءت الروايات، وصرح بعض أكابر السلف أن غير المستضعفين

من هؤلاء كفروا بعدم هجرهم[١]، واستبعده بعض المتأخرين ظاناً أنه لم يكن منهم إلا مجرد عدم الهجرة.

ويظهر لي أن من بقي بمكة بعد الهجرة وقبل الفتح كان يضطر إلى إظهار الكفر، لا أشك في هذا، فإن الآثار فيه كثيرة.

وإذن فهؤلاء مكثوا ببلد يكرهون فيه على إظهار الكفر، وكان يمكنهم الهجرة، [١١] فكان مكثهم مع علمهم بأنهم سيكرهون على الكفر نوع اختيار بطل به عذرهم، والله أعلم.

ثم رأيت في سنن البيهقي ما لفظه: "قال الله جل ثناؤه في الذي يفتن عن دينه قدر على الهجرة فلم يهاجر حتى توفي: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ...﴾ (النساء: ٩٧) الآية"[٢]، وهذا صريح في ما ظهر لي، ولله الحمد.

وقوله تعالى في المستضعفين: ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ ظاهر في أن إظهار الكفر لأجل الإكراه لا يخلو عن الإساءة، الله أعلم.

ومما يدل على الالتزام قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ... يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ ... فَبَايِعْهُنَّ﴾ (الممتحنة:

---

[١] تفسير الطبري (٩: ١٠٦).

[٢] السنن الكبرى للبيهقي (٩: ١٢).

١٠-١٢)، والمراد بدلالة السياق فبايعهن على ذلك عند قدومهن من دار الكفر.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عبادة بن الصامت "أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بايعهم على مثل بيعة النساء"[(١)]، وجاء مثله عن جرير بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو"[(٢)].

وهذه المبايعة كأن المقصود بها -والله أعلم- تفسير الشهادتين وتأكيدهما، ولذلك -والله أعلم- ترك أئمة الصحابة ﷺ ومن بعدهم مبايعة من يسلم مثل المبايعة المذكورة اكتفاء بالشهادتين وبأن معناهما وما يتعلق به من التزام الأمور المذكورة [١٢] قد اشتهر بين الناس.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (البقرة: ٨٣) فأخْذ الميثاق منهم أن لا يعبدوا إلا الله؛ إما أن يكون مفسراً لشهادة أن لا إله إلا الله، وإما أمراً آخر استغني عنه في الإسلام غالبا بالشهادة.

ومما يستدل به هاهنا ما جاء من أخذ الميثاق من بني آدم في عالم الذر. والله أعلم.

ومما يوضح ذلك أيضاً أن الكافر لو قال: أنا أعلم أن دين الإسلام

---

(١) صحيح البخاري (١٨)، وصحيح مسلم (١٧٠٩).

(٢) فتح الباري (١: ٦٧).

حق، ولكني لا أدع ديني، أو قال: أنا أعلم أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حق، ولكني لا أحب الدخول في الإسلام، أو قال: أنا لا أدع ديني مع أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ فإنه لا يصير بشيء من ذلك مسلماً، ولا تلزمه أحكام الإسلام، وقد وردت في معنى هذا آثار كثيرة منها قصة أبي طالب، ومنها قصة ابن صوريا وغيره من اليهود كانوا يعترفون ولكنهم أبوا الدخول في الإسلام فلم يعد النبي صلى الله عليه وآله [١٣] وسلم اعترافهم إسلاما ولا تمسكهم بدينهم بعد ذلك ردة، ومنها قصة هرقل والأعشى ميمون وغير ذلك.

ثم رأيت في الهدي النبوي ما لفظه: "وفيها أن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه نبي، لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فإذا تمسك بدنيه بعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه، ونظير هذا قول الحبرين له وقد سألاه عن ثلاث مسائل، فلما أجابها قالا: نشهد أنك نبي. قال: فما يمنعكما من اتباعي؟ قالا: نخاف أن تقتلنا اليهود. و لم يلزمهما بذلك الإسلام.

ونظير ذلك شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق، وأن دينه من خير أديان البرية ديناً، و لم تدخله هذه الشهادة في الإسلام.

ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة، وأنه صادق، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، عُلم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار

والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً"[١].

وقد مر قبل أوراق قول الحليمي: "لو قال الوثني لا إله إلا الله وكان يزعم أن الصنم يقربه إلى الله لم يكن مؤمنا حتى يتبرأ من عبادة الصنم"[٢].

فعلم مما قدمناه أن من شرط الاعتداد بكلمة الشهادة أن تكون على سبيل الالتزام، والالتزام مع الجهل بالملتزم سواء والعدم.

ثم إذا وقعت كلمة الشهادة مستكملة للشروط، فشرط استمرار حكمها أن لا يحدث من صاحبها ما يخل بموجبها وهذا هو المقصود الحقيقي والثمرة المطلوبة، ولذلك وقع الاتفاق على أن السجود للصنم أو الشمس أو نحوهما ردة تخرج عن الإسلام إلا لمن أُكره، ولم يشترط في الحكم بردته أن يسمي الشمس مثلاً إلهاً، بل لو كان حال السجود معلنا بثباته على لا إله إلا الله وكانت قرينة تشهد له؛ كأن جُعل له مال عظيم على السجود للشمس فيسجد طمعاً في المال لم يُفِدْه ذلك، والله أعلم.

ومن لا يعلم معنى لا إله إلا الله فكيف يؤمَن عليه العمل بخلاف موجبها؟!!

فإن قيل: أفلا يكفي الإنسان أن يكون معترفاً بصدق الرسول في جميع [١٤] ما جاء به، مصدقاً به، مسلماً راضياً ملتزما العمل بموجب ذلك

---

(١) زاد المعاد (٣: ٥٥٧).

(٢) فتح الباري (١٣: ٣٥٩)، وقد سبق.

عازما عليه، فلما سمع كلمة لا إله إلا الله وعلم أن الرسول جاء بها، اعترف بها وصدق وسلم ورضي والتزم وعزم على العمل بموجبها مع أنه جاهل بمعناها، كما يكفيه مثل هذا في نحو الحروف المقطعة في أوائل السور، ونحو ذلك، وإذا وقع منه عمل يخالف موجبها وهو لا يعلم ذلك عذر بالجهل؟

قلت: الأدلة التي قدمناها صريحة في أن المطلوب الاعتراف والتصديق والتسليم والرضا والالتزام والعمل بالموجب على وجه التحقيق في كل واحد منها، وذلك لا يكون إلا مع العلم بالمعنى كما قدمنا، فأما حصول هذه الأشياء بمجرد خبر المعصوم مع جهل المعنى فلا يكون على وجه التحقيق كما هو ظاهر، وقد يجمع الجاهل بالمعنى مع الاعتراف بلا إله إلا الله على الوجه المذكور الاعتراف بما يناقض معناها، أعني: الشرك وإنكار حقيقة معناها أعني: التوحيد وهكذا يقال في التصديق وغيره.

وحينئذ فلم يحصل له شيء من المقصود؛ وهو توحيد الله ﷻ وتنزيهه، والخضوع له وتعظيمه، وما يدرينا لعل هذا الرجل لو علم حقيقة معناها لما اعترف به، ومثل ذلك يقال [١٥] في التصديق وغيره، ووجه ذلك أنه قد تقوم لديه شبهات تعارض ما يعتقده من صدق الرسول، أو يكون ذلك الأمر مخالفاً لهواه، وللهوى سلطان عظيم على النفوس، فربما عرضت الحقيقة البينة على النفس وهي غير مخالفة لهواها فقبلتها، ثم تعرض عليها حقيقة مثل تلك في الوضوح أو أبين ولكنها مخالفة لهواها فتردها.

وهل كذب المشركون رسلهم إلا لمجيئهم بما يخالف الأهـواء؟! وفي الحديث: "حبك للشيء يعمي ويصم"[١].

ومن تتبع مناظرات أهل النحل المختلفة، وتأويلاتهم البراهين الواضحة؛ تبين له ما ذكرناه، بل من تتبع مناظرات الفرق الإسلامية، وتأييد كل فرقة لمذهبها، وتأويلاتهم الأحاديث والآيات والبراهين العقلية؛ علم ما للهوى من السلطان العظيم، حتى أن كثيرا من أولئك المتأولين التأويلات التي لا يشك البريء من الهوى في بطلانها، هم ممن ثبتت معرفته وأمانته، وأنه لا يتعمد الباطل، ولكن الهوى أعماه وأصمه، ففعل ما فعل ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ (الكهف: ١٠٤)، ولله در البريق الهذلي حيث يقول:

أين لي ما ترى والمرء تأبى عزيمته ويغلبه هواه
[١٦] فيعمي ما يرى فيه عليه ويحسب ما يراه لا يراه

وكما أن الإنسان قد يجتهد في الطاعة في العمل، ولكنه لو كلف عملاً شديد المشقة لم يطع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولا يسألكم أموالكم إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ (محمد: ٣٧).

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٤٠)، وأبو داود (٥١٣٠)، كلاهما من حديث أبي الدرداء مرفوعاً وصوب بعض الحفاظ وقفه وفي الجامع الصغير، أن ابن عساكر أخرجه من حديث عبد الله بن أنيس قال في الشرح (٣٦٧٤): إسناده حسن. وزعم وضعه الصغاني.

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء: ٦٦).

وقال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) فكذلك قد يجتهد الإنسان في التصديق، فإذا كلف التصديق بما يخالف هواه؛ لم يصدق، فربما أخبر بخبر لا يفهمه فصدقه على عادته في التصديق، ولو تبين له معناه بما يخالف هواه ورأيه لكذب وارتاب أو توقف، فقد كان مشركو قريش يعلمون أمانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى خصوه بلقب الأمين، ولما سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: لا، وأبو سفيان يومئذٍ رأس المشركين والحديث في صحيح البخاري[1].

وروى الحاكم في المستدرك عن ناجية بن كعب، عن علي عليه السلام، قال: "قال أبو جهل: قد نعلم يا محمد إنك تصل الرحم، وتصدق الحديث، ولا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣) قال الحاكم (٢: ٣١٠) صحيح على

---

[1] صحيح البخاري (٧)، وصحيح مسلم (١٧٧٣).

شرط الشيخين"[1].

وفي تفسير الآية المذكورة آثار أخرى تؤيد ما قلناه؛ أن المشركين

---

(١) فتعقبه الذهبي فقال: "ما خرجا لناجية شيئاً".

أقول: أجل لم يخرجا لناجية، ولكن قد وثقه العجلي وابن حبان، وقال ابن معين: صالح.

فأما قول ابن المديني: ما روى عنه غير أبي إسحاق وهو مجهول. فالمجهول عندهم هو: من لم يرو عنه إلا واحد، قد يكون محتجا به، وذلك إذا وثق.

قال السخاوي في فتح المغيث: "وخص بعضهم القبول بمن يزكيه مع رواية الواحد أحد من أئمة الجرح والتعديل، واختاره ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" وصححه شيخنا، وعليه يتمشى تخريج الشيخين في صحيحيهما لجماعة ...". فتح المغيث (ص: ١٣٥).

أقول: وبهذا الاعتبار يصح قول صاحب المستدرك على شرط الشيخين.

فأما قول الجوزجاني ناجية: "مذموم" فهو مردود عليه، لأن الجوزجاني منحرف عن علي عليه السلام، مسرف في الطعن على أصحابه، فمراده بقوله: "مذموم" أنه كان يحب عليا، وهذا في الحقيقة مدح لا قدح، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها، وقد ذكر الحافظ وغيره في مواضع أن الجوزجاني لا يقبل طعنه في أصحاب علي عليه السلام.

نعم أخرج الترمذي الحديث في جامعه من طريق معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية، عن علي.

ثم أخرجه من طريق عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية: "أن أبا جهل ..." قال الترمذي: فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن علي، وهذا أصح. جامع الترمذي (٣٠٦٤).

أقول: ابن مهدي أثبت في معاوية، ولكن أخرجه في المستدرك من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن ناجية، عن علي، وقد قال ابن مهدي: "إسرائيل في أبي إسحاق أثبت من شعبة والثوري".

كانوا يشهدون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بما ذكر، والله أعلم.

فلو فرض أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم بخبر لا يعرفون معناه؛ لصدقوه، ولكنه لما جاءهم بلا إله إلا الله وهم يعرفون معناها؛ كذبوه لمخالفتها هواهم.

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمع قريشاً [١٧] ثم قال لهم: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[(١)].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٢٠).

وقد تقدم بيان أن فرعون وقومه كانوا مستيقنين بصدق موسى عليه السلام، ومع ذلك كان منهم ما كان.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٢)، واللفظ له ومسلم (٢٠٨).

وكان عمرو بن عبيد من زهاد المسلمين وعبادهم؛ يضرب به المثل في ذلك، حتى قال الخليفة المنصور العباسي في العباد:

كلكم طالب صيد

كلكم يمشي رويد

غير عمرو بن عبيد

ورثاه لما مات بأبيات معروفة، ومع ذلك فصح عنه أنه قال: إن كان ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ في اللوح المحفوظ؛ فما على ابن آدم حجة!! وصح أنه روي له عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خبر يخالف رأيه في القدر، فقال عمرو: "لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعته من زيد بن وهب لما صدقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله لما قبلته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا [١٨] لقلت ليس على هذا أخذت ميثاقنا!!!".

ونُقلت عنه أشياء أخرى من هذا الباب[١].

ليس هذا رأي عمرو وحده، بل كل من يعتقد عقيدة مستنداً فيها إلى العقل يزعم أن دلالة العقل عليها يقينية، بحيث أنه يستحيل أن يجيء يقين بخلافها.

---

[١] انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٨: ٦٢)، والاعتصام للشاطبي (١: ١٧٤).

قال الغزالي: أما اليقين فشرحه: أن النفس إذا أذعنت للتصديق بقضية من القضايا، وسكنت إليها، فلها ثلاثة أحوال:

أحدها: أن تتيقن وتقطع به ... بل حيث لو حكى لها عن نبي من الأنبياء أنه أقام معجزة وادعى ما يناقضها؛ فلا تتوقف في تكذيب الناقل، بل تقطع بأنه كاذب، أو تقطع بأن القائل ليس بنبي، وأن ما ظن من معجزة فهي مخرقة، وبالجملة فلا يؤثر هذا في تشكيكها، بل تضحك من قائله وناقله[1].

وقد عرفتك أن كل معتقد عقيدة مسندا لها إلى العقل يزعم أنها يقينية، ومعنى ذلك أنه لو لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشافهه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يخالف تلك العقيدة لكذبه، والعياذ بالله.

[١٩] فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها   سجية نفس كل غانية هند

ولكن القوم إذا جاء دليل شرعي يخالف عقيدتهم؛ فتارة ينكرون ثبوته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل يزعمون أن ثبوته محال، وتارة يستكرهونه على التأويل، ولكن من تلك العقائد ما هو خطأ، فلو فرضنا أن صاحبها لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسمع منه ما يخالف عقيدته فما ندري ما يكون حاله، أيرد قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال عمرو، ويقطع بأنه ليس بنبي، وأن ما ظن أنه معجزة له

---

(١) المستصفى (ص: ٣٥).

فهو مخرقة ويضحك منه، أم يتردد أم يرجع عن عقيدته التي يزعم أنها يقينية يستحيل أن يجيء يقين بخلافها؟

ومن تأمل تأويلاتهم المستكرِهة للآيات القرآنية؛ لم يجزم بحسن الظن بهم.

إن من غره النساء بود بعد هند لجاهل مغرور
كل أنثى وأن بدا لك منها آية الحب فحبها خيتعور

مع أن هؤلاء وعمرو في مقدمتهم إذا سمعوا آية من القرآن لم يفهموا معناها لم يترددوا في تصديقها، وكذلك إذا كان ظاهرها مخالفاً لعقيدتهم فإنهم يصدقونها بعد تأولها على ما يوافق عقيدتهم، ولكن لو فرضنا [٢٠] أن آية جاءت قطعية الدلالة على خلاف قولهم فما ندري ماذا يصنعون، وقد نقل عن عمرو أنه جحد أن تكون ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١) ... السورة، وقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ (المدثر: ١١) ... الآيات من القرآن.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي بن كعب أنه سمع رجلاً يقرأ بخلاف قراءته التي سمعها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم سمع آخر يقرأ خلاف قراءتهما، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فأخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن القراءات الثلاث كلها صحيحة، قال أبي: "فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قد غشيني؛ ضرب في صدري،

ففضت عرقاً، وكأنما انظر إلى الله فرقا ..." الحديث[١].

وفي قصة الإسراء أن بعض من كان قد أسلم ارتدوا لما سمعوها.

وفي قصة ابن أبي سرح أنه كان يكتب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فربما نزلت آية فيملي عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم "عليم حليم" فيقول له: أو أكتب "عزيز حكيم"؟ فيقول له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "كلاهما سواء" فارتد ابن أبي سرح[٢].

وفي خبر الرجل الذي قاتل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشد القتال، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "هو في النار" فكاد بعض المسلمين يرتاب[٣].

[٢١] وفي قصة الحديبية، ويوم أحد، ووفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ ما يشبه ذلك[٤].

والمقصود أن الإنسان قد يكون يرى نفسه مصدقاً تصديقاً تاماً، فإذا عرض عليه ما يخالف رأيه وهواه؛ تبين أن تصديقه لم يكن كما ظن، ولكن أُبَيّاً وأضرابه من الصحابة ﷺ كان الله تبارك وتعالى يتداركهم

---

(١) صحيح مسلم (٨٢٠).

(٢) انظر الروايات وتوجيه القصة في الصارم المسلول (ص: ١١٨) وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١١٢).

(٤) انظر: الآثار في الصحيحين وغيرهما.

ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

فأما الحروف المقطعة في أوائل السور؛ فإهمال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيان معانيها وإهمال، أكثر الصحابة والتابعين الكلام فيها، واختلاف المتكلمين فيها؛ كل ذلك يدل أنه لا يتوقف على معانيها أصل من أصول الدين التي كلفت الأمة علمها والعمل بها، ويوضح ذلك أن الذين خاضوا في الكلام على معانيها لم يذكروا إلا معاني لا يتوقف عليها أصل من أصول الدين، ولا كذلك كلمة التوحيد كما تقدم أيضاً.

فأما العذر بالجهل؛ فإنما يعذر به في مسألة التوحيد من لم تبلغه الدعوة أصلا، أو بلغته ولم يمكنه البحث والنظر، ولعله يأتي لهذا مزيد إن شاء الله تعالى.

[٢٢] وبالجملة فالشبهة التي أثرناها لكشفها هي مغالطة محضة معلوم بطلانها من الدين بالضرورة، فلنكتف في حلها بما تقدم.

فأما قول بعض المتكلمين في العقائد: إنه يكفي العلم الإجمالي بكلمة التوحيد، فهو مبني على ما ذكروه من أن كلمة التوحيد مستلزمة لجميع العقائد في الصفات وغيرها مما لا يجب العلم به تفصيلاً، ولا يترتب عليه عمل، أي: فبالنسبة إلى ما تستلزمه؛ يكفي العلم الإجمالي، وأما بالنسبة إلى معناها المطابق فلا بد من العلم التحقيقي، والله أعلم.

نعم لو فرض أن إنساناً كان معترفا بحقيقة التوحيد على سبيل التحقيق، مصدقاً به كذلك مع بقية الشرائط المتقدمة، وهو مع ذلك يجهل معنى لا إله إلا الله، ويقولها امتثالا للشرع، ويعترف بها إجمالاً، إلى آخر ما

تقدم، فالأمر في هذا ربما يستقرب.

[ملحق: ٢٢] وكذلك من نطق بالشهادتين ملتزماً للإسلام، ولم يكن يعلم معناهما تفصيلاً؛ فإنه يقبل إسلامه، ولكنه لا يعذر إذا جرى منه ما ينقض الشهادة، إلا إذا كان قريب العهد بالكفر لم يمكنه التعلم، وحال ما يبين له أن قوله أو فعله مخالف للشهادة يرجع عنه وعلى هذا حمل العلماء حال قوم موسى في قولهم له: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ (الأعراف: ١٣٨). وما صح عن أبي واقد الليثي وغيره؛ أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: اجعل لنا ذات أنواط، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ (الأعراف: ١٣٨). وسيأتي هذا الحديث إن شاء الله تعالى.

فكأن القائلون لموسى والقائلون لمحمد عليهما السلام؛ قريبي عهد، كما جاء في بعض روايات الحديث: "وكنا قريبي عهد بكفر"، فلذلك - والله أعلم- عذروا.

فإن قلت: قصة ذات أنواط كانت في الخروج إلى حنين، وأبو واقد الليثي ممن شهد بدراً، فكيف يقال: إنه قريب عهد بكفر؟

قلت: الصواب أن أبا واقد إنما أسلم في فتح مكة، كما حققه الحافظ ابن حجر في "الإصابة" وبين غلط من قال: إنه شهد بدراً، وسبب الغلط، وكان الخروج إلى حنين عقب الفتح، فثبت أن أبا واقد كان قريب عهد بكفر، كما قال: "وكنا قريبي عهد بكفر".

فإن قلت قد علم أن أول ما يدعو إليه الأنبياء شهادة أن لا إله إلا الله؛

فقوم موسى قد كانوا شهدوا بذلك، فقولهم: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ مناقض للشهادة مناقضة صريحة لا تحتمل أن يجهلوها ...

قلتُ: كأنهم -والله أعلم- جوزوا أن يكون المنع من اتخاذ إله غير الله ﷻ خاصاً بما يتخذه الناسُ من قبل أنفسهم، فلا يدخل في ذلك ما يجعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقومه، ولو فرض أن قريب العهد بالكفر أصر على قوله أو فعله بعد أن بين له مخالفته للشهادة، فإنه يصير مرتداً جزماً. أما لو مات قبل أن يبين له؛ فالذي يقتضيه النظر أنه وأن حكمنا في الظاهر بأنه لم يخرج عن الإسلام، هو في نفس الأمر مفوض إلى علم الله ﷻ، فإن علم الله ﷻ منه أنه لو بين له لرجع؛ فهو ناج، وأن علم الله تعالى منه أنه لو بين له لأصر عليه؛ فلا، والله أعلم.

واعلم أن قرب العهد ليس له حد معين، وإنما المدار فيه على التقصير في التعلم وعدمه، فمن لم يقصر عذر، ومن قصر لم يعذر.

ومن هنا يظهر أنه على فرض أن تكون بعض الأقوال والأعمال المنتشرة بين عوام المسلمين بعد القرون الأولى مناقضة لشهادة أن لا إله إلا الله يكون عامتهم معذورين؛ لأن المشهور بين أهل العلم -فضلاً عن غيرهم- أن معناها: "لا واجب الوجود إلا الله" كما سيأتي تحقيقه إن شاء الله. فغالب الناس لا يظنون أن لها معنى غير ذلك، فلسنا نستطيع أن نحكم عليهم بالتقصير، وهناك أسباب أخرى تمنع الحكم عليهم بالتقصير، فوجب أن لا يحكم على مسلم قال أو فعل ما يكون مناقضا للشهادة بأنه كافر أو مشرك، حتى يتبين لنا تقصيره، وما لم يتبين لنا تقصيره فهو عندنا

مسلم، وقد يكون من خيار المسلمين وصالحيهم وأوليائهم.

ولكن أعيذك بالله أن يغرك الشيطان فيقول لك: فأنت على هذا معذور، فيصدك بذلك عن البحث والتحقيق، فاحذر ذلك وإلا كنت مقصراً غير معذور.

واعلم أننا وإن لم نحكم على أكثر الناس بالتقصير؛ فإنما ذلك بحسب علمنا، وقد يكون كثير منهم في نفس الأمر مقصرين، ومن كان كذلك فهو في حكم الله كذلك، ولا ينفعه عدم حكمنا عليه بذلك.

هذا وقد اشتهر في القرون المتأخرة حكم جماعة من المعروفين بالعلم على كثير من تلك الأقوال والأعمال أنه شرك، مناقض لشهادة أن لا إله إلا الله، فضاقت دائرة العذر على من لم يبحث ويحقق، ولعلك تقول أنا مشغول بأمور معاشي عن البحث والتحقيق، فأقول لك: قد حاول مؤلف هذه الرسالة أن يقرب لك طريق ذلك، ومهما اشتبه؛ فلن يشتبه عليك أن الواجب على من لم يبحث ولم يحقق؛ أن يعمل بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات؛ استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات؛ وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه". أخرجاه في الصحيحين[1].

---

(١) البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وبحديث الحسن بن علي عليه السلام، عن جده صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال له: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة"[١].

وبالحديث الآخر: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين؛ حتى يدع ما لا بأس به، حذراً مما به بأس"[٢].

وتدبر هذا المثل: لو أن رجلاً أمياً أعطي كتاباً، فقال له قائل: هو مصحف. وقال له آخر: كلا بل هو من كتب الكفار، وبقي الأمي مترددا، فهل له أن يرمي بذلك الكتاب في النجاسة، وإذا رماه، فماذا يكون حكمه؟

ومثلاً آخر: لو أنك دخلت بيتك في ظلمة، وهناك سرير قد تنام عليه أمك وقد تنام عليه امرأتك، هل لك أن تهجم على المرأة النائمة عليه فتواقعها، مع ترددك أأمك هي أم امرأتك؟

واعلم أن قول الأكثر ليس بحجة -كما سيأتي إيضاحه- وإنما الحجة

---

[١] أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي، (٢٥١٨) وغيرهما: وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

[٢] أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب، [وابن ابن ماجه (٤٢١٥)]، وأخرجه الحاكم (٤: ٣٥٥) بلفظ: "إن الرجل لا يكون من المتقين ..." وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وأقره الذهبي، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٦) بسند حسن كما في شرح الجامع الصغير (٩٩٤٢).

في الإجماع المحقق، وليس في مسألتنا إجماع محقق، فإياك أن تكتفي بقول بعض الناس: أكثر العلماء على كذا، أو قد انعقد الإجماع على كذا.

وسيرد عليك تحقيق الحق في تلك الأمور بما يثلج صدرك، وتعلم بعض ما فيها من النقل عن العلماء إن شاء الله تعالى، وكذلك سيأتي تقرير عذر أكثر الناس ظاهراً وسياق الأدلة في ذلك إن شاء الله تعالى.

واعلم أن موضوع هذه الرسالة هو البحث عن حقيقة التوحيد، ووزنه بهذه الكلمة الطيبة التي جعلها الشرع علما له ليتضح شأن الأمور المختلف فيها أمنافية هي للتوحيد أم لا، والغالب أن الجاهل بمعنى لا إله إلا الله يكون جاهلاً بحقيقة التوحيد، ومن كان كذلك يخشى عليه أن يكون مشركاً وهو لا يشعر [٢٣] أو أن يعرض له الشرك فيقبله وهو لا يدري، أو أن يرمي غيره من المسلمين بالشرك بغير بينة، وكلا الأمرين خطر شديد.

وأما الشرك -نعوذ بالله منه- فهلاك لا هوادة فيه لأحد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (المائدة: ٧٢).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦) أي: الملائكة ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ

يَعْمَلُونَ) (٢٧) (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (٢٨) (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٩).

وقال جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (٨٣) (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (٨٤) (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ) (٨٥) (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (٨٦) (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (٨٧) (ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (٨٨) (أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ...﴾ (الأنعام: ٨٩).

وقال تبارك اسمه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) (٦٤) [٢٤] (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥).

وقال عز من قائل: ﴿لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً﴾ (الإسراء: ٢٢).

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً﴾ (الإسراء: ٣٩).

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) (٢١٣) (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

وقال جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

وقال تبارك اسمه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨).

وقد عصم الله ﷻ ملائكته وأنبياءه وخاتمهم عليهم الصلاة والسلام من الشرك ومما هو دونه، ولكن نبه بما تقدم من الآيات المتعلقة بهم على عظم أمر الشرك وخطره، مع أن التحذير هو من جملة العصمة.

[٢٥] ومما يبين عظم خطر الشرك؛ أن أعظم سورة في القرآن، والسورة التي تعدل ثلث القرآن وإنما هي بضع عشرة كلمة، والسورة التي ورد أن قراءتها براءة من الشرك، وأعظم آية في القرآن، كل ذلك مبني على توحيد العبادة.

أما أعظم سورة فالفاتحة، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم برواية أبي سعيد بن المعلى، وأبي بن كعب، وأبي هريرة ﷺ أنها أعظم سورة في كتاب الله، وفيه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته". يريد صلى الله عليه وآله وسلم قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧). والحديث في صحيح البخاري: من رواية أبي سعيد بن المعلي،

وأما الرواية عن أبي، وأبي هريرة ففي المستدرك وفي غيره[١].

ومما يدل على عظم الفاتحة؛ أن الله تعالى فرضها في كل ركعة من الصلاة، والصلاة أعظم الفرائض الدينية، بل أخبر الله ﷻ أن الفاتحة هي الصلاة، ففي صحيح مسلم وغيره، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله تعالى: حمدني [٢٦] عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي ..." الحديث[٢]، فصَّل فيه الفاتحة فقط فجعلها هي الصلاة، ويشهد لذلك تسمية الصلاة صلاة، فإن الصلاة في اللغة: الدعاء، والشيء إنما يسمى باسم جزئه إذا كان ذلك الجزء هو الأعظم، وليس في الصلاة دعاء أعظم من الفاتحة.

ولهذا احتج أبو هريرة بهذا الحديث على وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة على المأموم.

وقال ﷻ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ (الإسراء: ٧٨). والمراد بقرآن الفجر

---

(١) رواية أبي سعيد بن المعلي في صحيح البخاري (٤٢٠٤)، والرواية من طريق أبي هريرة عن أبي بن كعب ففي المستدرك (٢: ٢٨٣)، وفي غيره.

(٢) صحيح مسلم (٣٩٥).

صلاته، كما هو واضح من السياق. ورُوي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح" ثم قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ (الإسراء: ٧٨)[٢]. ففي الآية تسمية الصلاة قرآنا ولا ريب أن أعظم القرآن فيها هو الفاتحة.

وبيان كون الفاتحة مبنية على توحيد العبادة؛ أن صدر السورة تمهيد لقوله تعالى فيها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

فقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١) معناه كما حققه المفسرون وغيرهم: لا نبتدي بشيء مستعينين به أو متبركين إلا باسم الله الرحمن الرحيم، وتضمن هذا للتوحيد ظاهر.

﴿الْحَمْدُ للّهِ﴾ (الفاتحة: ٢) معناه على ما حققه المفسرون وغيرهم: كل حمد مستحق لله ﷻ وحده. أي: ليس معه أحد يستحق شيئاً من الحمد.

---

[١] روى ابن جرير في تفسيره (١٧: ٥٢١)، وغيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: صلاة الصبح، ورواه أيضا عن مجاهد (١٧: ٥٢٢).

[٢] صحيح البخاري (٤٤٠)، وصحيح مسلم (٦٤٩).

وإيضاحه أن الكمالات التي يستحق عليها الحمد كلها لله ﷻ فإن ما ينسب إلى غيره من الكمالات مخلوق له، وموهوب منه.

ومما يستحق عليه الحمد النعم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، وإذا كان لا يستحق شيئا من الحمد إلا الله ﷻ؛ فقد علم من ذلك أنه لا يستحق من شيء غيره شيئا من العبادة.

وعبارة ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الفاتحة: ٢) الشكر خالصاً لله جل ثناؤه دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما يرى من خلقه ..."[1].

وعن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام قال: فقدَ أبي بغلةً له، فقال: لئن ردها الله ﷻ لأحمدنّه محامد يرضاها، فما لبث أن أُتي بها بسرجها ولجامها، فركبها، فلما استوى عليها وضمّ عليه ثيابه، رفع رأسه إلى السماء، وقال: الحمد لله -لم يزد عليها- فقيل له في ذلك، فقال: وهل تركتُ، أو أبقيت شيئاً؟ جعلت الحمد كله لله ﷻ[2].

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) أي: مالكهم ومدبرهم، فكيف يعبد بعضهم شيئا آخر، مثل العابد في كونه مربوبا لله تعالى مخلوقا له تعالى موقوفا على تدبيره سبحانه؟!

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ٣) في الجمع بين هذين الاسمين

---

(١) تفسير ابن جرير (١: ١٣٥).

(٢) صفة الصفوة (٢: ١١١).

الكريمين وتكرار ذكرهما في هذه السورة الكريمة دلالة على سعة رحمة الله تبارك [٢٧] وتعالى، وقد عبر عن نحو هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وقال تعالى حكاية عن الذين يحملون العرش ومن حوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ (غافر: ٧).

وفي بيان ذلك إبطال ما توهمه بعض المشركين، بل جميعهم -كما يأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى في بيان اعتقاد قدماء المصريين- توهموا أن الناس لحقارتهم وجهلهم وفجورهم؛ لا ينبغي لهم، أو لا يغنيهم التوجه رأسا إلى من له الكبرياء والجلال والعظمة تبارك وتعالى، بل لابد لهم أن يتوجهوا إلى المقربين عنده، كالروحانيين، فيتخذوهم آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم، حتى يكونوا شفعاءهم عند الله ويقربوهم إليه زلفى؛ لأن الروحانيين ونحوهم متوسطون بين الجبار ﷻ وبين سائر الخلق، فدرجتهم لا ترفعهم عن الالتفات إلى الناس، ولا تضعهم عن نظر الجبار إليهم، وقبول شفاعتهم! ووجه بطلان هذا الوهم ببيان رحمة الله تبارك وتعالى ظاهر.

وبعد: ففي الاسمين الشريفين المذكورين، وذكرهما مرتين وجوه أخرى في دحض بعض شبه المشركين تدرك بالتدبر، والله أعلم.

[٢٨] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤) فيه إشارة إلى ما نص عليه تعالى في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً

وَلَا يَعْقِلُونَ) (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزمر: ٤٤).

فمن تدبر الآيات المتقدمة من الفاتحة واستحضر ما تضمنته من دلائل التوحيد؛ لم يبق عنده ريب أن الله ﷻ هو وحده المستحق للعبادة، فإذا تلاها مع ذلك التدبر مستحضرا أنه قائم بين يدي الله ﷻ يثني عليه ويتضرع إليه؛ لم يتمالك نفسه أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) ومعنى ذلك كما أطبق عليه المفسرون وأهل العربية وأهل المعاني: نخصك اللهم بعبادتنا ونخصك باستعانتنا، أي: لا نعبد غيرك ولا نستعين غيرك.

وعبارة ابن جرير: "وتأويل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لك اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك".

ثم روى بسنده إلى ابن عباس ، قال: "قال جبريل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: قل يا محمد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ..."

إلى أن قال ابن جرير: "ومعنى قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها لا أحدا سواك إذ كان من يكفر [٢٩] بك يستعين بسواك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة".

ثم ذكر بسنده عن ابن عباس ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: "إياك

نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها"[١].

ودلالة بقية السورة على التوحيد تظهر بالتدبر، فلا نطيل ببيانها.

ثم رأيت في نظم الدرر للبقاعي في الكلام على الفاتحة ما لفظه: "فالغرض الذي سيقت له الفاتحة هو: إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة ... ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم، والمقصود من جمعهم تعريفهم بالملك، وبم يرضيه، وهو إفراده بالعبادة، وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة لإفراده بالعبادة، وهو مقصود الفاتحة بالذات، وغيره وسائل إليه ... لأن إرسال الرسل وإنزال الكتب؛ نصب الشرائع، والمقصود من نصب الشرائع؛ جمع الخلق على الحق، والمقصود من جمعهم؛ تعريفهم بالملك وبما يرضيه؛ وهو إفراده بالعبادة، وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول. انتهى.

وأما الآية: فآية الكرسي، ففي صحيح مسلم وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها أعظم آية في القرآن، ولفظه: عن أبي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟" قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال: "يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟" قال: قلت ﴿اللَّهُ

---

(١) تفسير ابن جرير (١: ١٦١).

﴿لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) قال: فضرب في صدري، وقال: "والله ليهنك العلم أبا المنذر"[١].

وبيان بنائها على توحيد العبادة؛ أنها في سياق قوله تعالى قبلها: ﴿... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

فقوله ﷻ: ﴿وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ يتضمن الرد على المشركين الذين يتكلون على محبتهم لآلهتهم، وعلى شفاعة آلهتهم لهم، ونبه تعالى على هذا بقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٣٠].

﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ظاهر.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾: هذه صفات خاصة بالله ﷻ، وعليها يدور استحقاق العبادة المعبر عنه بالألوهية، فذكرُ هذه الصفات برهان على قوله: ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

ولما علم الله ﷻ أنهم يقولون: هذه الصفات وإن اقتضت أن الله تعالى هو الأحق بالعبادة، فلا تدفع أن يكون لآلهتنا استحقاق ما، إذ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣)، ﴿وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ (يونس: ١٨).

---

(١) صحيح مسلم (٨١٠).

فقال تعالى دحضاً لشبهتهم: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾؛ الاستفهام إنكاري، أي: إن مآله إلى الإنكار، كما لا يخفى، والمعنى كما قال تعالى في آية أخرى: [٣١] ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (يونس: ٣).

أي: ومن لا يشفع عنده إلا بإذنه كيف يستحق أن يعبد من دونه بغير إذنه؟! ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (الحج: ٧١).

ومن الحكمة في إيراد الكلام بصورة الاستفهام؛ حمل المخاطب على أن يتفكر في الجواب؛ فيؤديه تفكره إلى العلم بأنه ما من شفيع إلا من بعد إذنه، ويكون حينئذ أقرب إلى الاعتراف، فتدبر.

وإذا كان الله ﷻ هو الأحق بالعبادة باعترافكم، فكيف تصرفون عنه شيئاً من حقه إلى مَن غايةُ أمرهم أنه تعالى قد يأذن لهم بالشفاعة عنده؟! أولا تعقلون إن هذا الفعل مظنة أن يوجب غضب الله تعالى، ويكون أولئك الشفعاء بين أمرين:

إما أن يرضوا فعلكم فيغضب الله عليهم أيضاً: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٩).

وإما أن يَسخطوه فيكونوا أعداء لكم، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ) (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٥،٦).

ولما كان المقصود من العبادة هو أن يعلم المعبود بتعظيم العابد له، فيقضي له حوائجه؛ كان بيناً أنه لا يستحقها إلا من يحيط علمه فيعلم بوقوعها وبحوائج فاعلها ومصالحه، والمعبودون من دون الله ﷻ ليسوا كذلك، فنبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ذكر البغوي ما يعلم منه: أن الضمائر للملائكة؛ لأن المشركين كانوا يعبدونها كما سيأتي إن شاء الله عن مقاتل.

وقال البخاري في صحيحه: "باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ...﴾ (سبا: ٢٣)، وقال جل ذكره: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، ثم ذكر حديث "إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ شَيْئًا فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ...".

ففي صنيعه إشارة واضحة إلى أن الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أنها الملائكة وهو يساعد قول مقاتل"[١].

ورأيت في بعض تعاليقي نُقِلَ مثل قول مقاتل عن ابن عباس رضي الله عنهما و لم أستحضر الآن من أين نقلته.

[٣٢] قال ابن جرير: "إنما يعني بذلك أن العبادة لا تنبغي لمن كان

---

[١] وانظر: فتح الباري (٨: ٥٣٨).

بالأشياء جاهلاً، فكيف يعبد من لا يعقل شيئاً ألبته من وثن وصنم؟!

يقول: اخلصوا العبادة لمن هو محيط بالأشياء كلها، يعلمها لا يخفى عليه صغيرها وكبيرها"[١].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)؛ بيان لعظمته ﷻ وشمول علمه، وكمال قدرته، وأنه مستغن عن المعين والمساعد على التدبير في السماوات والأرض.

وفيه إشارة إلى الملائكة الذين يعبدهم بعض المشركين أن ما يقومون به من الأعمال في السماوات والأرض، ومن ذلك الشفاعة ليس موكولاً إلى هواهم وخيرتهم، ولا حاجة بالله ﷻ إلى عملهم، أي: وإنما يجري الله تعالى ما يجري من ذلك على أيديهم، ليكون لهم شرف طاعته وعبادته مع حكم أخرى.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) (٢٦) (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) (٢٧) (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (٢٨) (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٢٩).

[٣٣] هذا والآيات المبينة لخطر الشرك كثيرة جدا، وفيما ذكرناه

---

(١) تفسير ابن جرير (٥: ٣٩٧).

كفاية فيما قصدنا.

وأما رمي المسلم بالشرك بغير بينة، فحسبك من خطره ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من طرق عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم "أن من كفر مسلما فقد كفر"[(١)].

على أن من لم يحط بمعنى لا إله إلا الله على سبيل التحقيق، فهو بنفسه على خطر أن يكون مشركاً، أو يعرض له الشرك فيقبله وهو لا يشعر، فالأولى به أن يبادر إلى تخليص نفسه.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٥٧٥٢)، وصحيح مسلم (٦٠).

فصل

فقد اتضح لك إن شاء الله تعالى اضطرار كل مسلم إلى معرفة معنى لا إله إلا الله، فأما كون معرفتها متوقفة على معرفة معنى إله فواضح.

ولنبين لك الآن ما وقع فيه من الاشتباه:

اعلم أنني تتبعت عبارات أهل العلم في تفسير لفظ "إله" فوجدهم كالمجمعين على أن معناه: "معبود بحق"، وقال بعضهم: "معبود"، وسيأتي نقل عباراتهم والكلام عليها إن شاء الله تعالى.

ولكن كلمة "معبود" تحتاج إلى تفسير، فتتبعت عباراتهم في معنى العبادة، [٣٤] فإذا هي مابين مجمل ومنقوض، كما سترد عليك إن شاء الله تعالى.

وتتبعت عقائد أهل القرون المتأخرة من الفرق المختلفة، فوجدت أكثرهم يبنون اعتقادهم على التقليد، ثم يدافعون عنه باستدلال ناقص، فيحتجون بما ليس بحجة أصلاً، وبما هو في نفسه حجة، ولكن لا دلالة فيه على مدعاهم، وبما فيه دلالة على مدعاهم بحسب الظاهر، ولكن تخالف تلك الدلالة أدلة أخرى، فيترك المستدل تلك الأدلة، أو يتأول ما يسهل عليه تأويله، ثم يوفي الصاع بالطعن والتشنيع على مخالفه، والتنفير منه.

وقد تكون الدعوى حقا في نفسها، ولكن المدعي قصر عن إثباتها، فلم يأت إلا بما يمكن مخالفه أن يعارضه بمثله أو أقوى منه.

وأرى أن أذكر لك أهم الأمور التي كثيرا ما يستند إليها في الاعتقاد

وليست بصالحة للاستناد، وأنبه على ما فيها.

فمن تلك الأمور؛ التقليد، وقد دل الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم على أن التقليد في أصول العقائد لا يكفي، ومعرفة معنى لا إله إلا الله؛ أصل الأصول لما قدمنا أن الإسلام وسائر الشرائع الربانية مبنية عليها، أما دلالة القرآن، فقد تقدم أدلة اشتراط العلم، ومما تقدم قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩).

وقوله تعالى: [٣٥] ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦).

وما قاله ابن جرير في تفسيرها ونقله عن مجاهد وقتادة.

والتقليد ليس بعلم لأن العلم عند أهله هو حكم الذهن الجازم المطابق لموجب -أي لحجة قاطعة-.

[٣٦] وأما السنة؛ فقد مر في أدلة اشتراط العلم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة"[١].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "فمن لقيته من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة"[٢].

ولا يقين للمقلد.

قال الإمام الغزالي: "أما اليقين؛ فشرحه: أن النفس إذا أذعنت

---

[١] أخرجه مسلم (٢٦).

[٢] أخرجه مسلم (٣١).

للتصديق بقضية من القضايا، وسكنت إليها فلها ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يتيقن ويقطع به، وينضاف إليه قطع ثان، وهو أن يقطع بأن قطعها به صحيح، ويتيقن بأن يقينها فيه لا يمكن أن يكون به سهو ولا غلط ولا التباس، فلا يجوز الغلط في يقينها الأول، ولا في يقينها الثاني، ويكون صحة يقينها الثاني كصحة يقينها الأول، بل تكون مطمئنة آمنة من الخطأ، بل حيث لو حكى لها عن نبي من الأنبياء أنه أقام معجزة وادعى ما يناقضها فلا تتوقف في تكذيب الناقل، بل تقطع بأنه كاذب، أو تقطع بأن القائل ليس بنبي، وأن ما ظن أنه معجزة فهي مخرقة.

وبالجملة [٣٧] فلا يؤثر هذا في تشكيكها، بل تضحك من قائله وناقله، وإن خطر ببالها إمكان أن يكون الله قد أطلع نبيا على سر به انكشف له نقيض اعتقادها، فليس اعتقادها يقينا. مثاله: قولنا الثلاثة أقل من الستة، وشخص واحد لا يكون في مكانين، والشيء الواحد لا يكون قديما حادثا موجودا معدوما ساكنا متحركا في حالة واحدة.

الحالة الثانية: أن تصدق بها تصديقا جازما ... فيه ولا تشعر بنقيضها ألبته، ولو أشعرت بنقيضها تعسر إذعانها للإصغاء إليه، ولكنها لو ثبتت وأصغت وحكي لها نقيض معتقدها عمن هو أعلم الناس عندها كنبي أو صديق أورث ذلك فيها توقفا، ولنسم هذا الجنس اعتقادا جزما، وهو أكثر اعتقادات عوام المسلمين واليهود والنصارى في معتقداتهم وأديانهم، بل اعتقاد أكثر المتكلمين في نصرة مذاهبهم ... فإنهم قبلوا المذهب والدليل جميعا، بحسن الظن في الصبا، فوقع عليه نشؤهم، فإن

المستقل بالنظر الذي يستوي ميله في نظره إلى الكفر والإسلام عزيز.

الحالة الثالثة: ..."[1].

والمقصود بيان حقيقة اليقين، ليعرف معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "مستيقناً بها قلبه" وأن مجرد التقليد لا يرقي الاعتقاد إلى اليقين.

[٣٨] ومن السنة أيضاً حديث سؤال القبر، وفيه: "وأما المنافق والكافر -وفي بعض الروايات والمرتاب- فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول كما يقول الناس، فيقال له لا دريت ولا تليت، ويضرب بطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين". والحديث في الصحيحين وغيرهما من طرق عن جماعة من الصحابة ﷺ منهم: أم المؤمنين عائشة، وأختها أسماء، وأنس، والبراء، وأبو سعيد، وجابر، وأبو هريرة ﷺ[2].

وفي بعض رواياته: "أن المؤمن يقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله".

---

(١) المستصفى (ص: ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥)، عن أسماء عن عائشة، وأخرجه البخاري (١٢٧٣)، ومسلم (٢٨٧٠)، عن أنس، وأخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، والترمذي (١٠٧١) عن البراء بن عازب، وأخرجه أحمد (١١٠١٣) عن أبي سعيد، وأخرجه أحمد (١٤٧٦٤)، والطبراني في الأوسط (٩٠٧٦) عن جابر، وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة (١٠٧١).

وفي حديث البراء: "فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت".

ومعنى هذا أنه قرأ القرآن وتدبره وتأمل ما فيه من الحجج، فحصل له اليقين، ولم يقل: سمعت الناس يقولون شيئا فقلته، كما يقوله المرتاب. ولا يخفى أي الرجلين المقلد.

[٣٩] وأما أقوال أهل العلم فكثيرة، ولنقتصر على عبارة الآمدي، قال: "اختلفوا في جواز التقليد في المسائل الأصولية المتعلقة بالاعتقاد في وجود الله تعالى، وما يجوز عليه، وما لا يجوز عليه، وما يجب له، وما يستحيل عليه، فذهب عبيد الله بن الحسن العنبري والحشوية والتعليمية إلى جوازه ...

وذهب الباقون إلى المنع، وهو المختار لوجوه:

الأول: أن النظر واجب ... ودليل وجوبه؛ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...﴾ الآية (آل عمران: ١٦٤) قال عليه السلام: "ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها"."[١]. توعد على ترك النظر والتفكر فيها، فدل على وجوبه.

---

[١] أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، وغيره.

الثاني: الإجماع من السلف منعقد على وجوب معرفة الله تعالى وما يجوز عليه وما لا يجوز، فالتقليد إما أن يقال: إنه محصل للمعرفة، أو غير محصل لها.

القول بأنه محصل للمعرفة ممتنع لوجوه:

الأول: أن المفتي بذلك غير معصوم، ومن لا يكون معصوماً لا يكون خبره واجب الصدق، وما لا يكون واجب الصدق فخبره لا يفيد العلم.

الثاني: أنه لو كان التقليد يفيد العلم، لكان العلم حاصلا لمن قلد في حدوث العالم ولمن قلد في قدمه، وهو محال لإفضائه إلى الجمع بين كون العالم حادثاً وقديماً.

الثالث: [٤٠] أنه لو كان التقليد مفيدا للعلم، فالعلم بذلك إما أن يكون ضرورياً أو نظرياً، لا جائز أن يكون ضرورياً، وإلا لما خالف فيه أكثر العقلاء، ولأنه لو خلا الإنسان ودواعي نفسه من مبدأ نشئه لم يجد ذلك من نفسه أصلاً، والأصل عدم الدليل المفضي إليه، فمن ادعاه لابد له من بيانه.

الوجه الثالث من الوجوه:

الأول: أن التقليد مذموم شرعاً، فلا يكون جائزاً، غير أنا خالفنا ذلك في وجوب اتباع العامي للمجتهد فيما ذكرنا من الصور فيما سبق لقيام الدليل على ذلك، والأصل عدم الدليل الموجب للإتباع فيما نحن فيه، فنبقى على مقتضي الأصل.

وبيان ذم التقليد؛ قوله تعالى حكاية عن قوم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣) ذكر ذلك في معرض الذم لهم".

ثم ذكر المعارضات وأجاب عنها، إلى أن قال: "قولهم: إن التقليد عليه الأكثر والسواد الأعظم، قلنا: ذلك لا يدل على أنه أقرب إلى السلامة، لأن التقليد في العقائد المضلة أكثر من الصحيحة، على ما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦).

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤).

وقال عليه السلام: "تفترق أمتي ثلاث وسبعين فرقة، واحده ناجية والباقي في النار"[١].

[٤١] وقال قوم: بل يكفي التقليد بشرط الجزم التام، قال بعضهم: بحيث لو رجع القائل أو تبين خطأ الناقل لما رجع المقلد.

أقول: وفيه إشكال، إذ كيف يحصل مثل هذا الجزم لمجرد التقليد؟! راجع ما تقدم عن الغزالي في شرح اليقين.

وتقدم في كلام الآمدي نقل الإجماع على وجوب معرفة الله تعالى وما يجوز عليه، وما لا يجوز.

---

[١] إحكام الأحكام (٤: ٣٠٠-٣٠٦).

[٤٢] وقال القاضي زكريا: "ومحل الخلاف في وجوب النظر في أصول الدين وعدمه؛ النظر في غير معرفة الله تعالى، أما هي فالنظر فيها واجب إجماعاً، كما ذكره التفتازاني وغيره"[١].

أقول: ومن أمعن النظر في كلامهم واستدلالهم، وتشنيع بعضهم على بعض؛ يظهر له أن أصل النزاع إنما هو فيما نسب إلى بعض المعتزلة من إيجاب النظر على طريقة المتكلمين، بحيث تكون للناظر ملكة يقتدر بها على تقرير الأدلة وتحريرها في كل مسألة، وإبطال شبه المخالفين، ومن لم يكن كذلك فهو مقلد، قال بعضهم: وكافر.

والحاصل: أن علماء السلف لما حرموا النظر في علم الكلام؛ عارضهم المخالفون بإدعاء وجوبه، لما قال بعض علماء السلف إن النظر في علم الكلام كفر، أو مظنة الكفر؛ عارضهم المخالفون بزعم أن من لا يعرف علم الكلام فهو مقلد ولا إيمان لمقلد، وأشاعوا هذه المقالة حتى استقر في كثير من الأذهان أن التقليد مرادف لعدم النظر في علم الكلام، وبهذا صار التقليد يطلق على معنيين، كما أن النظر كذلك.

فعامة القائلين بوجوب النظر إنما يعنون النظر على طريقة السلف، [٤٣] وهو أمر متيسر لكل أحد، حتى العامة، والقائلون بأن النظر لا يجب، أو هو حرام؛ أنما يعنون: النظر على طريقة المتكلمين.

---

(١) حاشية البناني على جمع الجوامع (٢: ٢٥١).

والقائلون بأنه لا يكفي التقليد؛ إنما يعنون التقليد بمعناه الحقيقي؛ وهو: العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلا حجة.

والقائلون بأن يكفي التقليد؛ إنما عنوا به التقليد بمعناه المخترع؛ وهو: الاقتصار على النظر على طريقة السلف، بدون نظر في علم الكلام.

وعلى هذا لا يكون هناك خلاف حقيقي في أن التقليد بمعناه الحقيقي لا يكفي في أصول الدين، ولاسيما أصل الأصول؛ وهو لا إله إلا الله، وقد علمت مما تقدم دلالة الكتاب والسنة على ذلك، والله أعلم.

واعلم أنه لا فرق في التقليد بين أن يكون لعالم واحد، وأن يكون لجماعة من العلماء [ملحق : ٤٣] وإن اشتهر أنهم أهل السنة، وأن مخالفهم من أهل البدعة:

أولاً: لأن اشتهار أن هذا قول أهل السنة جميعهم قد يكون غير صحيح، ويكون جماعة من أئمة السنة على خلافه، بل قد يكون القول الذي زعموا لك أنه قول أهل السنة؛ إنما هو قول طائفة من المتأخرين، ويكون قول سلف هذه الأمة -الذين هم أهل السنة في الحقيقة- على خلافه، وسيأتي قريباً قول ابن مسعود وحذيفة وغيرهما، "أنها ستنتشر البدع ويألفها الناس، حتى إذا ترك منها شيء قالوا: قد تركت السنة" وأن ذلك في حكم المرفوع، على أنها ستأتي أحاديث كثيرة تفيد هذا المعنى.

ثانياً: أن قول أهل السنة وحدهم ليس بإجماع، فلا يكون حجة كما هو مقرر في أصول الفقه، قال الإمام الغزالي: "والمبتدع إذا خالف، لم ينعقد الإجماع دونه إذا لم يكفر، بل هو كمجتهد فاسق، وخلاف

المجتهد الفاسق معتبر ... والمبتدع ثقة يقبل قوله، فإنه ليس يدري أنه فاسق ...[١].

وإذا لم يكن حجة مطلقاً فكيف يكون حجة في العقائد التي لا يصح بناؤها إلا بالحجج القطعية المفيدة لليقين.

ثالثاً: أن أهل السنة إنما حصل لهم الشرف باتباع الكتاب والسنة، فإنما يكون تقليدهم فيما يجوز فيه التقليد أولى، لأن الظاهر أن قولهم موافق للكتاب والسنة، فإذا فرض أنه تبين بالبحث والتحقيق أنهم قالوا في مسألة خلاف ما يدل عليه الكتاب والسنة؛ فلا قيمة لقولهم فيها، وإنما ننبهك على هذا لأن من طبع الإنسان أنه إذا عرف في طائفة أنهم على الحق في كثير من المسائل، وعرف في طائفة أخرى أنهم على باطل في كثير من المسائل، ثم ذكرت له مسألة اختلفت الطائفتان فيها فإنه يتسرع إلى الحكم بأن الحق فيها مع الطائفة الأولى، ولو لم يعرف لهم حجة، بل قد تتلى عليه الحجج الموافقة للطائفة الثانية، وتكون قوية ولا يعرف [ملحق: ١١٢] حجة للطائفة الأولى، ولكنه لا يستطيع دفع ذلك الوهم عنه، وهذا من أشنع الغلط، وفي الحديث: "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها" أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث أبي هريرة مرفوعاً، قال الترمذي: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه،

---

[١] المستصفى (ص: ١٤٥).

وإبراهيم بن الفضل المدني المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه" وأخرج الديلمي وابن عساكر نحوه من حديث علي عليه السلام، كما في المقاصد الحسنة للسخاوي.

أقول: ومعناه صحيح يشهد له الكتاب والسنة، ومما يشهد له من السنة؛ حديث أحمد وغيره في اليهودي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: إنكم تشركون وتنددون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فنهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه عن ذلك، وسيأتي هذا الحديث وما في معناه، إن شاء الله تعالى.

وحديث الحكمة يشير إلى أمور منها:

أن الحق كثيرا ما يوجد عند من ليس من أهله، فضلاً عمن أسيئت سمعته، ولهذا قال: "فهو أحق بها" يريد: فهو أحق بها ممن وجدها عنده، وذلك صريح في أنه وجدها عند من ليس من أهلها، بل قوله: "ضالة المؤمن ..." الخ صريح في أنه قد توجد الحكمة عند كافر، ولهذا يكون المؤمن أحق بها ممن وجدها عنده، إذ لو وجدها عند مؤمن لكان كل منهما حقيقا بها، وإذا أمكن وجودها عند كافر، فإمكان وجودها عند مبتدع أو فاسق أولى.

ومنها: أنه قد لا يوجد الحق في بعض المسائل عند من اشتهر بالحق، لأن من شأن الضالة أنها تقع في محل غير مناسب لها، فلا توجد إلا فيه، ولا توجد في المحل المناسب لها، فمن اقتصر على طلبها في المواضع المناسبة لها لم يظفر بها.

ومنها أنه لا ينبغي للمؤمن أن لا يستنكف عن طلب الحق عند من اشتهر بخلاف الحق، ولا عن قبوله منه، فإن من ضل خاتمه -مثلاً- فوجده في كناسة، أو بيد مشرك، أو مبتدع، أو من يلابس القاذورات - مثلاً- لم يمنعه ذلك من أخذه، ولو امتنع لعد أحمق.

ومنها أنه ينبغي للمؤمن أن يتعرف الحق من حيث هو حق، ولا يلتفت إلى حال من قاله، حتى لو اختلف عليه ولي وفاجر، أو إمام وجاهل، لم يحمله ذلك على تلقي كلام الولي أو العالم بالقبول، بدون تحقق أنه الحق، كما أن من ضل خاتمه -مثلاً- فلقيه ولي وفاجر، أو إمام وجاهل، بيد كل منهما خاتم؛ يقول له: أرى أن هذا خاتمك، لم يلتفت إلى جلالة الولي أو الإمام، ودناءة الفاجر أو الجاهل، بل يتأمل الخاتمين، فأيهما عرف أنه خاتمه أخذه، وإن كان هو الذي بيد الفاجر أو الجاهل.

ومنها أن ترك الأخذ بقول ولي أو إمام لا يكون تحقيرا له، ولا استخفافا بحقه، فإن من عرف أن خاتمه هو الذي بيد الفاجر أو الجاهل [ملحق: ١١٣] فأخذه، وترك الذي بيد الولي أو الإمام؛ لم يعد مهينا لهذين، ولا مسيئا إليهما، كما أنه لا يعد معظماً مبجلا لذلك الفاجر أو الجاهل، وإن كان عليه شكره، ومن أمعن في تدبر الحديث ظهر له أكثر مما ذكرنا.

ومما يحسن ذكره هنا قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ (المائدة: ٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ

اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

تقول العرب: جرمه بغضي أن يظلمني، أو على أن يظلمني، أي: جعله بغضي يكسب ظلمي الذي هو جرم، أي: ذنب.

ومن العدوان وترك العدل أن ترد قول العالم بدون حجة، ولكن لأنك تسيء الظن به، أو لأن كثيرا من الناس، أو أكثرهم يخالفونه ويدعون عليه أنه يخالف الحق في بعض المسائل، وكما أن هذا عدوان على ذلك العالم، فهو عدوان على الحق أيضاً، لأن عليك أن تطلبه بالحجة والبرهان، فتركت ذلك، وعدوان على نفسك أيضاً لأنك ظالم لها.

والحاصل: أن طالب الحق إذا اختلف عليه العلماء كان عليه أن ينصب نفسه منصب القاضي، فيسمع قول كل واحد منهم وحجته، ثم يقضي بالقسط، فكما أن القاضي إذا اختصم إليه ولي وفاجر، أو مؤمن وكافر؛ ليس له أن يقضي للولي أو المؤمن بدون حجة، ولا أن يسمع منه ويعرض عن خصمه، ولا أن يمتنع عن الحكم للفاجر أو الكافر إذا توجه له الحق، فكذلك طالب الحق في المسائل المختلف فيها، ولعلك قد بلغك ما روي عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في أيام خلافته "أنه رافع يهوديا إلى القاضي شريح، وبيد اليهودي درع، فادعى أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ أنها درعي، فأنكر اليهودي ولم يكن لأمير المؤمنين بينة، [ملحق:١١٤] فقضى القاضي لليهودي، فلما رأى اليهودي ذلك أسلم، واعترف بأن الدرع درع المؤمنين، فلما رأى أمير المؤمنين إسلامه

واعترافه؛ وهب له الدرع. والقصة ثابتة في كتب الحديث والتأريخ"[1].

وبعض الناس يتوهم أن مثل هذا الحكم إنما هو من باب طرد القواعد، وإلا فلا ريب في صحة قول أمير المؤمنين، وبطلان قول اليهودي.

وفيه أنه يجوز خلاف ذلك بجواز أن يكون أمير المؤمنين وهبها أو باعها ثم نسي، أو اشتبهت عليه درع بدرع، أو نحو ذلك. فتدبر، والله أعلم.

واعلم أن أكثر العلماء المنتسبين إلى المذاهب لم ينصبوا أنفسهم منصب القضاة، وإنما نصبوا أنفسهم منصب المحامين؛ كل عن المذهب المنتسب إليه.

فعلى طالب الحق أن ينزلهم منازلهم، فلا يعدهم قضاة يقبل قولهم في تأييد المذهب المنتسبين إليه، وتخطئة غيره، بل عليه أن يعرف أنهم محامون عن مذاهبهم، فلا يسمع من أحد منهم إلا كما يسمع القاضي من المحامي، وروينا من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام؛ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: "إذا تقاضى إليك رجلان، فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر، فسوف تدري كيف تقضي" قال علي:

---

[1] انظر: سنن البيهقي (١٠: ١٣٦).

فما زلت قاضياً بعد"[١].

واشتهر من قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: "لا تنظر إلى من قال، وانظر إلى ما قال" وسيأتي كثير مما يؤيد هذا المعنى.

وقال الإمام الغزالي: "الغلطة الثالثة: سببها سبق الوهم إلى العكس، فإن ما يرى مقرونا بالشيء؛ يظن أن الشيء أيضا -لا محالة- مقرونا به [ملحق:١١٥] مطلقا، ولا يدري أن الأخص أبدا مقرون بالأعم، والأعم لا يلزم أن يكون مقرونا بالأخص، ومثاله: نفرة نفس السليم -وهو الذي نهشته الحية- عن الحبل المبرقش اللون، لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصورة، فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى، وكذلك تنفر النفس عن العسل إذا شبه بالعذرة، لأنه وجد الأذى والاستقذار مقرونا بالرطب الأصفر، فتوهم أن الرطب الأصفر مقرون به الاستقذار، ويغلب الوهم حتى يتعذر الأكل، وإن حكم العقل يكذب الوهم، لكن خلقت قوى النفس مطيعة للأوهام، وإن كانت كاذبة، حتى إن الطبع لينفر عن حسناء سميت باسم اليهود، إذ وجد الاسم مقرونا بالقبح، فظن أن القبح أيضا ملازم للاسم، ولذا تورد على بعض العوام مسألة عقلية جليلة فيقبلها،

---

[١] أخرجه أحمد (١٢١٠)، وأبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١)، وحسنه، وقواه ابن المديني، وصححه ابن حبان (٥٠٦٥)، وله شاهد عند الحاكم من حديث ابن عباس. كذا في بلوغ المرام.

فإذا قلت: هذا مذهب الأشعري، أو الحنبلي، أو المعتزلي، نفر عنه إن كان يسيء الاعتقاد فيمن نسبته إليه، وليس هذا طبع العامي خاصة، بل طبع أكثر العقلاء المتسمين بالعلوم، إلا العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقا، وقواهم على اتباعه"[1].

أقول: ومما يوضح ما قاله الغزالي؛ أنك قد ترى من يشبه صديقاً لك، فتميل إليه نفسك، مع أنك لم تره قبل ذلك، وترى من يشبه بغيضاً لك، فتنفر نفسك عنه، وترى من يشبه مخوفا لك، فتخافه، وقس على هذا، حتى أن الإنسان ليميل إلى سمي صديقه، وينفر عن سمي بغيضه، ونحو ذلك.

وقد يكون عهدك بصديقك أو بغيضك أو مخوفك بعيداً، أو تكون مشابهة هذا له غير واضحة، فيخفي عنك السبب فتبقي متعجبا؛ ما بال [ملحق: ١١٦] نفسي مالت إلى هذا الشخص مع أني لم أره قبل الآن، وما لها نفرت عن هذا مع إني لم أره قبل الآن؟! وأكثر الناس يوجهون ذلك بتعارف الأرواح أو تناكرها، وهذا وإن كان صحيحاً في الجملة؛ إلا أن الغالب ما تقدم. وأنت إذا تذكرت وتفكرت عرفت صحة ما ذكرنا، وهذا الباب واسع، حتى لقد ترى الشخص فتظنه عالماً، وما ذلك إلا لمشابهة بينه وبين رجل عالم قد عرفته قبل ذلك.

---

(١) المستصفى (ص: ٤٨).

فأما ما ذكره الغزالي؛ أن الإنسان قد تذكر له مسألة عقلية جليلة فيقبلها، فإذا قيل له: هذا قول الأشعرية، وكان يسيء الظن بهم، نفر عنها، فقد يكون لما ذكر بأن يكون هذا الإنسان طالب علم، وقد عرف مسائل أخطأ فيها الأشعرية، فلما نسبت هذه المسألة إليهم نفرت نفسه عنها لمشابهتها لتلك المسائل، في أن الجميع من قول الأشعرية، فتوهم أن المشابهة في هذا الأمر تشعر بالمشابهة في الخطأ، وقوي هذا المعنى في وهمه حتى غلب ما قام لديه من دليل على صحة قولهم في تلك المسألة، وقد يكون طالع مذهب الأشاعرة فظهر له أن الغالب فيما يخالفون فيه المعتزلة؛ الخطأ، فاجتمع عنده القياس الوهمي السابق، مع الحمل على الغالب، وقد يكون سمع كثيراً ممن يحسن الظن بهم؛ يذمون الأشعرية، وقد يكون وجد آباءه وأشياخه على الاعتزال، ونشأ عليه، فصار يكره أن ينسب الغلط إلى مذهبه ومذهب آبائه وأشياخه، وهذا هو التعصب، وهو أوخم هذه الأمور، فلقد بلغ كثير من الناس إلى ما يظهر منه اعتقاد العصمة في فرد من أفراد الأمة، فإنك تجد كثيراً من المقلدين للشافعي مثلاً، لا يجوزون الخطأ عليه.

فإن قيل: أنهم لا يصرحون باعتقاد العصمة، قلت: نعم، ولكن ألا تراهم كلما عرض عليهم قول من أقوال الشافعي اعتقدوا أنه الحق، ولا يترددون فيه، ولو خالف القرآن، أو خالف الأحاديث الصحيحة، أو خالف أكابر الصحابة، أو خالف جمهور الأمة، فلولا أنهم يعتقدون له العصمة لكانوا إذا بينت لهم الجهة على خلافه خضعوا لها.

ولقد كثر اعتقاد العصمة في كثير من أفراد الأمة، فضلاً عن الطوائف؛ كالأشعرية، والمعتزلة، ونحوها. ومع هذا فلا نقول فيمن لم يصرح باعتقاد العصمة؛ أنه يعتقدها وإنما وقعوا فيما وقعوا فيه بالتعصب ومحبة النفس، فإن أحدهم يحب نفسه حتى لا تطاوعه نفسه إلى الاعتراف بأن آباءه أو مشايخه أو أهل مذهبه أخطَئُوا، فلذلك تجده لا يميل إلى الاعتراف بأن أمامه أخطأ، وإن قامت الحجة عليه، بل يذهب يحرف الحجج ويؤولها، وليس هذا بالتقليد الذي أجازه العلماء في الفروع، وأنكره بعضهم، وإنما التقليد المجوز أن تأخذ بقول مجتهد لا تعلم حجته، ولكن قد قام عندك دليل يفيد الظن بأن قوله صواب، فإذا أخبرت بدليل أقوى من الدليل الأول يدل على أن ذلك المجتهد أخطأ، وأن الصواب قول مجتهد آخر؛ لزمك أن ترجع إلى قول الآخر، فإن منعك التعصب، فعليك أن تكتفي بقول: لعل لإمامي جوابا [ملحق: ١١٧] عن هذا الدليل.

واعلم أن هذا لا أراه ينجيك، لما تقرر في الأصول من وجوب اعتقاد أن الدليل الظاهر على ظاهره، والعمل بمقتضى ذلك حتى يتم البحث، فإن ظهر بالبحث أن هناك دليلا آخر يوجب تخصيص الأول، أو تأويله عمل به من حين ظهوره، ذكر أهل الأصول هذه المسألة في بحث الأمر وبحث العام.

ولا فرق بين المقلد وغيره، لأن قول إمامه، وإن كان شبه قرينة على أن لذلك الدليل مخالفاً؛ فهذه القرينة معارضة بقول من قال من المجتهدين بظاهر ذلك الدليل، والتفاوت بين المجتهدين يسير، لا يقاوم الدليل الظاهر

من الكتاب والسنة.

والمقصود أن قولك: لعل لإمامي جوابا عن هذا الدليل؛ لا ينجيك، ولكنه أهون من أن تعمد إلى الأدلة المخالفة لمذهبك فتحرفها وتؤولها وتبدلها، والعياذ بالله. هذا مع أن التقليد المجوز إنما هو في فروع الفقه، فأما أصول الدين فلا يغني فيها التقليد المحض.

ولو جاز التقليد في أصول الدين؛ لكان سلف الأمة أولى بأن يقلدهم الناس، فإن لهم مزايا يعز وجودها فيمن بعدهم:

منها: قربهم من عهد النبوة.

ومنها: بعدهم من التقليد لغير المعصوم، فكان الصحابة ﷺ لما علموا أن أمور الدنيا ربما يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها رأيا يكون غيره أولى منه؛ لا يمنعهم علمهم بعظيم قدره صلى الله عليه وآله وسلم وتفانيهم في محبته وتوقيره عن الإشارة عليه بخلاف رأيه، وهذا كثير في الأحاديث.

وثبت في حديث جابر في شأن الجمل الذي اشتراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه، قال جابر: "كنا نراجعه مرتين في الأمر إذا أمرنا به، فإذا أمرنا الثالثة لم نراجعه"[١].

ومن كان له اطلاع على الأحاديث وجد المراجعة ثلاثا موجودة في

---

[١] أخرجه أحمد (١٤٩٠٧).

أحاديث كثيرة، يكفي بعضها في تواتر هذا المعنى. فأما في أمور الدين فكانوا يعلمون عصمته فيها، فلم يكونوا يراجعونه في شيء منها إلا نادرا، حيث يعلمون أنه صلى الله عليه وآله وسلم استند إلى اجتهاده، كما راجعه عمر ﷺ في الصلاة على ابن أبي المنافق"[١]؛ لأن عمر فهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما استند في ذلك إلى رأيه.

ثم كان أصاغرهم يخالفون أكابرهم في أمور الدين مع احترامهم لهم، وهكذا التابعون وأتباعهم، والأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة، وغيرهم؛ يخالفون أكابر الصحابة فضلا عن غيرهم، ولم يكن يخطر ببال العالم منهم أن مخالفته من تقدمه فيها احتقار أو سوء أدب في حقه، بل كان أحدهم يعترف بأن من فوقه أفضل وأعلم منه، ولا يمنعه ذلك من مخالفته إذا ترجح له خلاف قوله.

ومنها: الإخلاص، فكان أحدهم إذا سئل عما لا يعلمه حق العلم، لم يتوقف عن قول: "لا أدري"، وإذا أخطأ في شيء ثم وقف عليه، لم يتوقف عن قوله: "أخطأت"، ولا يتكلم في علم لم يتقنه، بل يقول: "لا خبرة [٤٤] لي بهذا العلم"، ولا يبالي بأن ذلك قد ينقص مكانته في قلوب الناس، ويعظم مكانة غيره من معاصريه ومخالفيه. وحسبك ما كان بين أمير المؤمنين علي وبين معاوية من النزاع، ولم يمنع ذلك معاوية أن يستفتي

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١٢١٠)، وصحيح مسلم (٢٤٠٠).

أمير المؤمنين عما أشكل عليه من الأحكام، كما في قضية الرجل الذي قتل آخر، زاعماً أنه وجده مع امرأته، وغير ذلك"[١].

والعلوم كالصنائع، قد يكون الرجل نجاراً ولا يحسن من الصنائع غيرها، فلا يمنعه ذلك أن يقال: إنه صانع ماهر، فهكذا قد يكون الرجل ماهراً في العربية فقط، كسيبويه، ولا يمنعه ذلك أن يقال: إنه عالم علامة إمام.

وكان أهل القرون الأولى من الورع والمعرفة، بحيث أن العالم بفن لا يتعاطى الكلام في غيره، والعامة لا يسألون في كل علم إلا من عرفت له الإمامة فيه، فكان الناس في بغداد في زمن المأمون وما بعده؛ من أحب أن يسأل عن شيء من الحديث وفقهه سأل الإمام أحمد وأضرابه، ومن أحب أن يسأل عن شيء من الرأي والقياس سأل أصحاب الإمام أبي حنيفة، ومن أحب أن يسأل عن شيء من العربية سأل أصحاب الكسائي وأضرابهم، ومن أحب أن يسأل عن شيء من الورع وأمراض القلب سأل أضراب بشر الحافي وأصحابه، ومن أحب أي يسأل عن شيء من [٤٥] المغازي والأخبار سأل أصحاب الواقدي وأمثالهم، وقس على ذلك.

وقد كان جماعة من أئمة الحديث المضروب بهم المثل، إذا سئل أحدهم عن مسألة فقهية يقول للسائل: سل الفقهاء.

---

(١) انظر: سنن البيهقي (٨: ٢٣٠).

ولكن في العصور الوسطى تغير الحال، فكم من عارف بفن خاص تعاطي الكلام في غيره، واغترت العامة بشهرته، فقلدوه في جميع العلوم.

وبالجملة فمزايا السلف كثيرة، وحسبك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم بيمينه ويمينه شهادته"[(١)].

والحديث في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ﷺ، وفي ألفاظه اختلاف، واللفظ الذي ذكرناه لمسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود وغيرهما، عن العرباض بن سارية ﷺ قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع فأوصنا، فقال: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإذ كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٩)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٨٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٢)، والدارمي (٩٥)، =

[٤٦] وفي سنن أبي داود وسنن الدارمي وغيرهما، عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: "يفتح القرآن على الناس حتى يقرأه المرأة والصبي والرجل، فيقول الرجل: قد قرأت القرآن فلم أتبع، والله لأقومن به فيهم لعلي أتبع، فيقوم به فيهم فلا يتبع، فيقول: قد قرأت القرآن فلم أتبع، وقد قمت به فيهم فلم أتبع، لأحتظرن في بيتي مسجدا لعلي أتبع، فيحتظر في بيته مسجدا فلا يتبع، فيقول: قد قرأت القرآن فلم أتبع، وقمت به فيهم فلم أتبع، وقد احتظرت في بيتي مسجدا فلم أتبع، والله لآتينهم بحديث لا يجدونه في كتاب الله ولم يسمعوه عن رسول الله لعلي أتبع. قال معاذ: فإياكم وما جاء به، فإن ما جاء به ضلالة"[١].

وفي سنن الدارمي أيضاً عن الحسن، قال: "سننكم والله الذي لا إله إلا هو بينهما بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي ..."[٢].

وفيها أيضاً عن ابن مسعود ﷺ قال: "كيف أنتم أذا لبستكم فتنة

والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: حسن صحيح، والحاكم (١: ١٧٤)، وقال: صحيح ليس له علة، وأقره الذهبي، وقد صححه ابن حبان أيضاً (٥).

[١] أخرجه أبو داود (٤٦١١)، والدارمي (١٩٩).

[٢] أخرجه الدارمي (٢١٦).

يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، إذا ترك منها شيء [٤٧] قيل: تركت السنة ..."[1].

أقول: وهذا الموقوف له حكم المرفوع لأنه مما لا مجال للرأي فيه.

وفي كتاب ابن وضاح عن حذيفة ﷺ أنه "أخذ حجرين، فوضع أحدهما على الآخر، ثم قال لأصحابه: هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور؟ قالوا: يا أبا عبد الله ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً، قال: والذي نفسي بيده لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور، والله لتفشون البدع حتى إذا ترك منها شيء قالوا تركت السنة".

وهذا الموقوف له حكم المرفوع أيضاً لأنه لا مجال للرأي فيه.

ومن أعظم مزايا السلف؛ ما نبه عليه ابن الحاج رحمه الله، قال ما معناه: "كان في عهد السلف إذا ابتدعت العامة بدعة قام العلماء في إبطالها، وأما علماء الخلف فإنهم، إذا ابتدع أحد من العامة والأمراء والأغنياء بدعة قام العلماء في الترغيب فيها، والانتصار لها وتوجيهها.

أقول: وقد صدق وبر، ومن أراد من أمرائنا وأغنيائنا فليجرب بأن يحدث بدعة، ثم يستعين بالعلماء والمتصوفين، فسيجدهم أسرع ما يكون

---

(١) أخرجه الدارمي (١٨٦)، ونحوه في المستدرك (٤/٥١٤-٥١٥)، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

إلى الترغيب فيها، وتحريف الكتاب والسنة في سبيل تحسينها، وتضليل أو تكفير من قد يتعرض لردها، [٤٨] ولعل الأعلم الأتقى منهم هو الذي يلزم نفسه السكوت، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبهذا هلكت الأمم السابقة، وقد قص الله تعالى في كتابه عن اليهود والنصارى ما فيه أعظم العبر، وفي الكتب الموجودة بيد اليهود والنصارى الآن، ويسمونها بالتوراة أشياء كثيرة من هذا القبيل.

وأما النصرانية فمن تتبع تاريخها منذ رفع عيسى عليه السلام؛ تبين له أنه كان لا يزال في القرون الأولى عارفون بالحق، ولكنهم مغلوبون على أمرهم، وكانت العامة والملوك والأئمة المضلون يحدثون المقالات، فيجدون من العلماء والرهبان من ينصرها، ويكفر أو يضلل من يخالفها، وهذا حال جميع الأمم.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي؛ إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"[١].

---

(١) صحيح مسلم (٥٠).

[٤٩] وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال فمن"[١].

وروى البخاري نحوه عن أبي هريرة، وفيه: "فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك"[٢].

وروى الشافعي بسند صحيح -كما في الفتح- عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لتركبن سنن من كان قبلكم حلوها ومرها"[٣].

وفي الفتح: وأخرج الطبراني من حديث المستورد بن شداد ﷺ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تترك هذه الأمة شيئاً من سنن الأولين حتى تأتيه"[٤].

قال في الفتح: "قلت: وقد وقع معظم ما أنذر به صلى الله عليه وآله

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٦٩)، وصحيح (٢٦٦٩).
(٢) صحيح البخاري (٦٨٨٨).
(٣) فتح الباري (١٣: ٣٠١).
(٤) المعجم الأوسط (٣١٣) وانظر: (فتح الباري (١٣: ٣٠١).

وسلم، وسيقع بقية ذلك"[١].

وفي المستدرك عن حذيفة ﷺ قال: "أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، وليصلين نساء وهن حيض، ولتسلكن طريق من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، وحذو النعل بالنعل، لا تخطئون طريقهم ولا يخطئكم، حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة، فتقول إحداهما: ما هي الصلوات الخمس، لقد ضل من كان قبلنا، إنما قال الله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ (هود: ١١٤) لا تصلوا إلا ثلاثاً، وتقول الأخرى إيمان المؤمنين بالله كإيمان الملائكة، ما فينا كافر ولا منافق، حق على الله أن يحشرهما مع الدجال". قال الحاكم صحيح الإسناد وأقره الذهبي[٢].

أقول: وقد وُجدت الطائفتان، فإن بالهند طائفة يسمون أنفسهم أهل القرآن، يقولون: إنما الواجب ثلاث صلوات، أو صلاتان، وأما الطائفة الأخرى؛ فغلاة المرجئة، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عن الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا

---

[١] فتح الباري (١٣: ٣٠١).

[٢] المستدرك (٤: ٥١٦).

نبي الله! اجعل لنا هذا ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط، -وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها- فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [٥٠] "الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ (الأعراف: ١٣٨) إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم"[١].

وقال أيضاً: حدثنا حجاج، حدثنا ليث -يعني ابن سعد- حدثني عقيل بن خالد، عن ابن شهاب، عن سنان بن أبي سنان الدؤلي ثم الجندعي، عن أبي واقد الليثي، فذكره؛ وفيه: فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ (الأعراف: ١٣٨) إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة"[٢].

وأخرج الطبراني عن كثير بن عبد الله بن عمرو عن عوف عن أبيه عن جده نحوه.

وفي المستدرك عن حذيفة، ذكروا عنده ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ

---

(١) مسند أحمد (٢١٩٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٩٤٧)، وكلا السندين رجالهم رجال الصحيحين، والترمذي (٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح.

اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤). فقال رجل إن هـذا في بـني إسرائيل، فقال حذيفة: "نعم الإخوة بنو إسرائيل، أن كان لكم الحلو ولهم المر، كلا والذي نفسي بيده، حتى تحذو السنة بالسنة حذو القذة بالقذة"[١].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها"[٢].

وقد روي نحوه من حديث ابن مسعود، وأنس، وأبي هريرة، وعمرو بن عوف المزني، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم.

وأخرج الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يأتي على الناس زمان يجتمعون في المساجد ليس فيهم مؤمن"[٣].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وفي فتح الباري: "قال ابن بطال: أعلم صلى الله عليه وآله وسلم أن

---

(١) أخرجه الحاكم (٢: ٣٤٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٢) صحيح مسلم (١٤٦).

(٣) المستدرك (٤: ٤٨٩).

أمته ستتبع المحدثات من الأمور والأهواء، كما وقع للأمم قبلهم، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخر شر، والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، وإن إنما يبقي قائماً عند خاصة من الناس"[١].

أقول: يشير [٤٩] إلى الحديث المشهور: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[٢].

وقد استدل به وبغيره على عصمة مجموع الأمة، فبني على ذلك حجية الإجماع، وفيها نزاع كثير، وعلى كل حال، فأصول العقائد إنما تبني على الحجج القطعية، وقلما يتفق ذلك في الإجماعات المعروفة، إلا ما كان منها على وفق ظواهر الكتاب والسنة، كما يأتي.

بل قيل إن الإجماع -أي وحده- لا يكون حجة قطعية أصلاً، والقائلون بأنه قد يكون حجة قطعية؛ يشترطون أن يعلم بالعلم القطعي أن

---

(١) فتح الباري (١٣: ٣٠١).

(٢) وهو في الصحيحين وغيرهما من رواية جماعة من الصحابة ﷺ، منهم: ثوبان، وجابر بن عبد الله، ومعاذ، وأبو أمامة، وأبو هريرة، وسعد بن أبي وقاص، وجابر بن سمرة، وعقبة بن عامر، وسلمة بن نفيل، وقرة بن إياس، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية بن أبي سفيان، انظر: البخاري (٣٤٤١)، ومسلم (١٩٢٠)، وانظر: فتح الباري (١٣: ٢٩٣)، قال البخاري في صحيحه: "وهم أهل العلم"، وقال ابن المديني: "هم أصحاب الحديث"، وقال الإمام أحمد: "إن لم يكونوا أهل الحديث، فلا أدري من هم"، وكذا قال يزيد بن هارون".

أهل العصر محصورون في عدد كذا، ثم ينقل ذلك القول عن كل فرد منهم بالتواتر؛ أي: بنقله عن زيد جماعة يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب، وحصوله منهم اتفاقاً، فيحصل العلم القطعي بأن ذلك الرجل قاله كعلم المطلع على أخبار العالم في هذا العصر أن باريس اسم مدينة للفرنسيس، وينقله عن عمرو جماعة كذلك، وعن خالد كذلك، حتى يستغرق جميع أفراد ذلك العصر، ويعلم قطعاً أنهم استمروا على ذلك القول إلى أن ماتوا، وأن كل واحد منهم قاله غير مكره، ويعلم قطعاً أنه لم يخالفهم أحد قبل انقراض عصرهم، وأنه لم يكن قبلهم في الأمة من يقول بخلاف قولهم، وأن يتسلسل النقل أيضاً بالتواتر [٥٠] التفصيلي القطعي، في كل درجة إلى غير ذلك من الشرائط المسطورة في كتب الأصول، فإن لم تجتمع فغايته أن يكون حجة ظنية بشرطه، فلا يصلح للتمسك في أصول العقائد، إلا إذا انضم إليه أدلة أخرى من ظواهر القرآن، وعدة من الأحاديث، بحيث يكون كل فرد منها مفيدا للظن، ولكن مجموعها يفيد القطع.

وإذا كان هذا حال الإجماع؛ فما بالك بقول الأكثر؟!

فإن قيل: فأين الأحاديث الآمرة بالتمسك بالجماعة والسواد الأعظم؟ قلت: فما تصنع أنت بحديث الطائفة وغيره، -وقد مر كلام ابن بطال- ثم ما تصنع إذا دل كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على معنى، وقول الأكثر على خلافه، وهذا كثير.

لا يخرج إلا أحد أمرين:

الأول: أن يقال: إن أحاديث الجماعة والسواد الأعظم خاصة بما إذا لم يوجد دليل من الكتاب ولا من السنة، وعلى هذا يدل قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩).

والأدلة في هذا من الكتاب والسنة كثيرة، وعلى [٥١] ذلك كان عمل الصحابة ﷺ، فقد جاء عن أبي بكر ﷺ أنه كان إذا عرضت حادثة؛ يقضي بالكتاب، وإن لم يجد فبالسنة، فإن لم يجد شاور الناس[(١)].

وعن عمر ﷺ "أنه كان يقضي بالكتاب، فإن لم يجد فبالسنة، فإن لم يجد فبما قضى به أبو بكر، فإن لم يكن شاور الناس[(٢)].

وعلى هذا يدل كتابه إلى شريح"[(٣)].

وروي نحو ذلك عن ابن مسعود[(٤)].

وعن ابن عباس أنه "كان إذا سئل عن الأمر فكان في القرآن أخبر

---

(١) انظر: سنن الدارمي (١٦١)، وإعلام الموقعين (١: ٦٢).

(٢) إعلام الموقعين (١: ٦٢).

(٣) انظر: سنن النسائي (٥٣٩٩)، وسنن الدارمي (١٦٧)، وإعلام الموقعين (١: ٦١).

(٤) انظر: سنن النسائي (٥٣٩٧)، (٥٣٩٨)، وسنن الدارمي (١٦٥)، ومستدرك الحاكم، (٤: ١٠٦).

به، وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر، فإن لم يكن قال فيه برأيه"[١].

وفي سنن البيهقي من طريق ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن بكير بن عبد الله أخبره عن يزيد بن أبي حبيب، عن مسلمة بن مخلد أنه قام على زيد بن ثابت، فقال: يا ابن عم! أكرهنا على القضاء، فقال زيد: "اقض بكتاب الله ﷻ، فان لم يكن في كتاب الله ففي سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فان لم يكن في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فادع أهل الرأي، ثم اجتهد واختر لنفسك ولا حرج"[٢].

وعلى هذا كان عمل أئمة التابعين وعلماء السلف، كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة؛ ترى أحدهم إذا ظفر بدلالة من كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم قال بها، وإن كان جمهور الأمة على خلافها.

الأمر الثاني: ما نقله الشاطبي في الاعتصام عن ابن جرير الطبري؛ وحاصله: أن أحاديث السواد الأعظم خاصة بمسألة الإمارة، والمعنى أنه إذا

---

[١] أخرجه الدارمي (١٦٦)، والحاكم (١: ٢١٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي وفي طبقات ابن سعد (٢: ٣٦٦): أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: كان ابن عباس ... فذكر نحوه.

[٢] السنن الكبرى للبيهقي (١٠: ١١٥).

اجتمع أكثر المسلمين على تأمير أحدهم؛ وجب عليهم وعلى غيرهم طاعته[١].

أقول: وهذا هو الذي يدل عليه سياق تلك الأحاديث، وقد بين في بعضها أن المراد الطاعة في غير معصية الله تعالى، وقد دلت على ذلك الآية السابقة، وبين في بعض الأحاديث أن الخروج على الأمير لا يجوز؛ [٥٢] إلا أن يكفر كفراً بواحاً، أو يترك الصلاة، وعلى هذا أو ما في معناه يحمل عمل الحسين بن علي عليهما السلام، ثم خلاف ابن الزبير وأهل المدينة، ثم ابن الأشعث ومن خرج معه من الأئمة، كسعيد بن جبير، والشعبي، وغيرهما.

وبالجملة فالنظر في هذه المسألة مبني على الأصل الإسلامي المشهور، وهو أنه إذا تعارضت مفسدتان ولم يكن بد من ارتكاب أحداهما؛ وجب ارتكاب الصغرى لدرء الكبرى.

ومن هنا يعلم عذر أهل السنة بعد القرن الأول في حظر الخروج على السلطان ما دام مسلماً، فإن التجارب علمتهم أن نتيجة الخروج تكون أعظم فسادا وشراً وضراً مما كان قبله.

والمقصود: أن أحاديث الجماعة، والسواد الأعظم، لا حجة فيها على أن قول الأكثر يكون حجة شرعية في المسائل العلمية، ولاسيما فيما

---

(١) نقل في الاعتصام أقوالا أخرى فراجعها إن أحببت (١: ٤٨٠).

يطلب فيه العلم القطعي من أصول الدين.

هذا؛ مع أنه إذا فرض ضلال الأكثر في أصل من أصول الدين الكلية، فقد خرجوا بذلك عن اسم الأمة، فلا يصدق عليهم الجماعة، ولا السواد الأعظم، لأن المراد جماعة المسلمين والسواد الأعظم منهم، كما هو ظاهر. والله أعلم.

وليس غرضي مما تقدم الحكم على أكثر الأمة بالضلال، وإنما مقصودي أن يعلم الناظر أن ذلك أمر محتمل في نفسه، فلا يصده حسن الظن عن تدبر كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه سلف الأمة. [ملحق: ٥٢] فأما حديث البخاري وغيره، عن عقبة بن عامر في صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على شهداء أحد وخطبته بعد ذلك، وقوله: "وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي" فقال الحافظ في الفتح: أي على مجموعكم، لأن ذلك قد وقع من البعض، أعاذنا الله تعالى[١].

وأشار في موضع آخر إلى أنه خاص بالصحابة ﷺ، لأنهم المخاطبون وعبارته: "ووقع من ذلك في هذا الحديث إخباره ... وبأن أصحابه لا يشركون بعده، فكان كذلك"[٢].

---

[١] فتح الباري (٣: ٢١١).

[٢] فتح الباري (٦: ٦١٤).

وفي صحيح مسلم من طريق أبي سفيان، عن جابر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم".

قال الأبي: "يعارضه ما يأتي في الأشراط من أمر دوس، ويجاب: أن الإياس المذكور هو قبل قرب قيام الساعة، وعبادة دوس من الأشراط، أو يقال: إن ذلك الإياس إنما هو من الشيطان، ولا يضره عدم صدقه"[(١)].

ويعني بأمر دوس، ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة"[(٢)].

وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدونها في الجاهلية.

وأخرج مسلم وغيره من حديث عائشة قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى" فقلت: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣) أن ذلك تاما. قال: "إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فتوفي كل من في قلبه مثقال حبة خردل من

---

(١) إكمال إكمال المعلم (٧: ٢٠٦).

(٢) صحيح البخاري (٦٦٩٩)، وصحيح مسلم (٢٩٠٦).

إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم"[1].

أقول: هو صريح في أنه بعد بعث الريح يعم الكفر، وتعبد اللات والعزى، وأما قبل ذلك فلا يعم، ولا تعبد اللات والعزى، ولكنه يقع من بعض الناس الكفر بغير ذلك، كما بينته الأحاديث الأخرى، والله أعلم.

وأما حديث أحمد عن شداد بن أوس، وفيه: "... قلت: يا رسول الله! أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا، ولكن يراؤن بأعمالهم والشهوة الخفية ..." ففيه: عبد الواحد بن زيد البصري مجمع على ضعفه كما في تعجيل المنفعة ولسان الميزان. والله أعلم.

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٠٧).

فصل

[٥٣] وإذا كان الأمر كما علمت في تقليد العلماء؛ فما بالك بتقليد المنسوبين إلى الخير والصلاح بدون أن يكونوا أئمة في العلم، وقد كان في السلف الصالح كثير من الزهاد والعباد، فلم يكن الناس يرجعون إليهم، ولا إلى أقوالهم في الأمور العلمية، وإنما كانوا يرجعون إليهم في دقائق الورع، وترقيق القلوب، ومداواة النفوس، ونحو ذلك.

وأنت خبير أن التقليد في المسائل الظنيات شرطه؛ أن يكون لمجتهد مسَلَّم له الاجتهاد، وأن عامة الأولياء الذين شاع بين الأمة تقليدهم كانوا مقلدين، ومن قيل إنه بلغ رتبة الاجتهاد منهم لم يعترف له أهل عصره بذلك.

ولما بحثت عن أسباب تقليد الناس لمن يظنون به الخير والصلاح؛ وجدت أنه قد سرى إلى أذهانهم اعتقاد العصمة لكثير من أولئك، حتى لقد يغلو بعضهم، فيثبت لبعض الأولياء كمالات لا يثبتها للأنبياء، وينزهه عن أشياء لا ينزه عنها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولقد ينقل له نقلاً صحيحاً، أو متواتراً، أو يشاهد بعينيه أن فلاناً الذي يعتقد فيه؛ يترك الصلاة، ويشرب الخمر، ويفعل ويفعل، فيقول: نعوذ بالله من فساد العقيدة، ومن حرمان بركة الصالحين، إنما كان [٥٤] سيدي فلان يتستر من الناس، لئلا يعلموا منزلته عند الله، أو يختبر الناس ليظهر الموفق الذي لا تتزلزل عقيدته من المحروم الذي يغتر بالظواهر، فكان يظهر للناس أنه

عندهم، ولم يُصَلِّ، مع أنه في الحقيقة بمكة، أو بالمدينة، أو بجبل قاف، أو نحو ذلك، ويظهر لهم أنه يشرب الخمر، والواقع أن الخمر كانت تستحيل في يده إلى شراب طهور!

ومنهم من يعترف بفعل سيده فلان بعض تلك الأعمال، ويقول: فعلها وفعل غيرها، لأنه قد وصل إلى الله تعالى، وتخلص من حيطة التكليف، فإن الشريعة إنما فرضت لأجل الوصول، فمن وصل ارتفعت عنه التكاليف!

وأحسن الغلاة حالا من يقول: فعل ذلك الولي هذه الأمور لحكم لا نعلمها، أو لعله ألهمه الله ﷻ إباحتها له، أو رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأذن له فيها، أو أمره بها!

وأقربهم من يقول: لعل ذلك الصالح فعل هذه الأمور وهو في حال الغيبوبة عن هذا الكون، والاستغراق في أنوار التجليات!

وأضرهم على الإسلام والمسلمين من يقول: فعل ذلك القطب لهذه الأمور يدل على مشروعيتها، وأن فعلها يقرب إلى الله تبارك وتعالى، [٥٥] وما خالف ذلك من ظواهر الكتاب والسنة له تأويل يعلمه أولياء الله تعالى، كيف لا وهم أعرف بالله وبكتابه ورسوله، وهم دائماً حاضرون عند الله تعالى يعلمهم ما لا يعلم غيرهم، ومشاهدون للوح المحفوظ، والملائكة تنزل عليهم، ويجتمعون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم متى شاؤوا!

وقد يتعدى بعضهم هذا الحد فيقول: إن الولي إذا استحسن شيئاً؛

كان عند الله تعالى حسناً، لأن الله تعالى يحبه، فيحب كل ما أحبه.

وفي طبقات الصوفية ومناقب الأولياء قصص كثيرة مما قدمنا الإشارة إليه، وتجدهم عند ذكر شيء منها يعقبونه بالتعوذ بالله تعالى من سوء الاعتقاد في الصالحين، ومن حرمان بركتهم، ويتأولون فعلهم بشيء مما تقدم.

واغتنم الفساق هذا الأمر، فصار بعضهم يتظاهر بزي المتصوفة، ثم يفعل ما بدا له، بل اغتنم ذلك أعداء الإسلام الملحدون، فصاروا يتظاهرون بزي المتصوفة، ويستعملون الألفاظ الشائعة بين المتصوفة، ثم يصرحون بكفرهم وإلحادهم جهاراً، قائلين في أنفسهم: من ضل بهذا الكلام فقد اصطدناه، [٥٦] ومن لم يضل به فلا علينا، لأن من كان راسخ العقيدة في الإسلام سيحمل كلامنا على تأويلات بعيدة، أو يقتصر على زعم أن كلامنا على غير ظاهره، وأنه إنما يفهمه أهل الذوق والمعرفة، وعلى كل حال فإن اعتقادهم نية الصلاح لا يتزلزل، وتبقى كتبنا متداولة بينهم، يضل بها كل يوم جماعة.

أقول: وقد صدق ظنهم، فصار الضلال بكتبهم كثيرا، ولا يستطيع أحدٌ الإنكار عليهم؛ إما خوفاً من سطوتهم الروحية -إن كان يعتقد فيهم- وإما خوفا من أكثر الناس.

وهكذا أميت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله المستعان.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فقوله: ﴿تَأْمُرُونَ ... ﴾ الخ في معنى بيان السبب في الخيرية، فدل ذلك على أن من ترك ذلك فلا نصيب له في الخيرية.

وقد نظرت في الأمر الباعث للغلاة على اعتقاد العصمة في غير الأنبياء، فوجدته الولاية فيهم ونظرت في سبب اعتقاد الولاية، فإذا هو ما شاع بينهم من ظهور بعض الغرائب على أيدي أولئك، فأحببت أن أبين لك حال الخوارق؛ هل تدل على ولاية من ظهرت على يده؟ ثم أبين لك حال الولاية.

[٥٧] اعلم أولا: أنني بحمد الله تعالى لا أنكر الولاية، ولا الكرامات، وأني بفضل الله ﷻ أحب كل من عرف بالخير والصلاح والولاية، وأرجو الله تبارك وتعالى أن ينفعني بمحبتي لهم.

وأعلم أيضاً أنني على يقين بأن ما أكتبه هاهنا مرضي عند أولياء الله تعالى، لأن فيه تبرئة لهم عما يظنه بهم الجاهلون، وينسبه إليهم الغافلون، وتمييزا لهم عمن يتستر بدعوى أنه منهم وهو أبعد الناس عنهم.

فصل

واعلم أن الباعث على تقليد الصوفية والغلو فيهم أمران:

الأول: ما ينقل عن أحدهم من الخوارق.

الثاني: اعتقاد أنهم يطلعون على الغيب.

فأما الثاني فسيأتي الكلام عليه في الطريق الرابع.

وأما الأول؛ فتقرير ما قام بأنفس العامة من الاحتجاج به أن يقال: كما أن الخارقة إذا وقعت على يد مدعي النبوة دلت على صدقه، فكذلك إذا وقعت على يد الصالح دلت على ولايته، وإذا ثبتت ولايته؛ ثبت أنه كان على حق؛ فثبت أن كل ما جاء عنه حق.

فأقول مستعيناً بالله ﷻ: اعلم أن الخوارق المنقولة عن صلحاء المسلمين إذا وزناها بما توزن به سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجدنا غالبها لا يثبت ولا تستبعدن الكذب في اختلاق الكرامات، فإن الناس قد كذبوا على ربهم، فنسبوا إليه الابن والبنات والشركاء، وادعى بعضهم الألوهية، وبعضهم النبوة، وأنه يوحى إليه، وكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -كما تقدم- مع أن الكذب عليه كذب على الله ﷻ، لقوله تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

والكذب على الله ﷻ كفر بواح قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٣٢).

[٥٨] وقد صرح بعض أهل العلم بأن الكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفر، وسيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى.

وقال أهل العلم -والعبارة لابن الصلاح في مقدمته-: "والواضعون للحديث أصناف، وأعظمهم ضرراً قوم من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث احتساباً زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركوناً إليهم، ثم نهضت جهابذة الحديث بكشف عوارها، ومحو عارها، والحمد لله"[1].

وفي صحيح مسلم عن الإمام يحيى بن سعيد القطان، قال: "لم نر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث"[2].

وذكر غيره أن أكثر الأحاديث المكذوبة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وضعها أصحابها تعصباً لمذاهبهم.

أقول: فهكذا كثير من الخوارق المنقولة عن الصالحين اخترعها متبوعوهم زاعمين أن ذلك يقربهم إلى الله ﷻ وإليهم، بل قد يقول بعضهم: إن الولي الفلاني أهل لأن تجري على يده جميع الخوارق فكل خارقة [٥٩] تخيلتها؛ صح لك أن تنسبها إليه، ولا يكون ذلك كذباً، ويقول: إن لذلك الولي الحظ الكامل من وراثة النبي صلى الله عليه وآله

---

[1] مقدمة ابن الصلاح (ص: ١٩).

[2] مقدمة صحيح مسلم (١: ١٢).

وسلم، وقد قال صاحب البردة:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن قدر رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

زاعماً أن هذا حجة على أن للإنسان أن ينسب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء من الخوارق، سواء رويت أم لم تروَ.

وقد يكون الشيخ المنسوب إليه الخارق؛ خيِّراً في نفسه ولكنه ابتلي بأولاد وأتباع يحبون أن يأكلوا بسببه الدنيا، فيخترعون الخوارق، ويدَّعونها له ويُلَبِّسون على الشيخ نفسه، فيقول له هذا: رأيتك يا سيدي في المنام كذا وكذا، ويقول له الآخر: وقعت لي شدة فاستغثت بك فجئت وأنقذتني منها، وهكذا لا يزالون به حتى يعتقد في نفسه أنه من أهل الكرامات.

وفي المثل الفارسي: "يبران في يرند ومريدان في يران"، ومعناه المشايخ لا يطيرون ولكن المريدين يطيرونهم.

[٦٠] فأما إذا كان الشيخ نفسه يميل إلى الشهرة، وبعد الصيت، ومحبة الدنيا؛ فالأمر أوضح، وهذه أمور قد شاهدنا بعضها.

وقد يتعصب المريد لشيخه على شيخ آخر في عصره، فيحرص على أن ينسب لشيخه الخوارق والكرامات، وكثيرا ما يفعل المريدون ذلك بعد موت الشيخ، ليكون لهم بذلك جاه وشهرة، وليحملوا الناس على كثرة

زيارة ضريحه، وبذل أموالهم على سبيل النذر وغيره، فيتمتع بها أولئك الفجار.

ومن وقف على كتب القادرية والرفاعية؛ عرف إلى أي حد يصل التعصب بين أتباع المشايخ، وكثيراً ما تكون الغرائب المنقولة حيلاً دبرها أتباع الشيخ، بحضرته أو عند قبره، وقد وقفنا على بعض ذلك.

وأما سبب انتشارها بين الناس؛ فهو أن للطباع البشرية ولوعا بذكر العجائب والغرائب، كما تراه منتشراً بينهم من أخبار الجن، والغيلان، والكيمياء، وعجائب المخلوقات، وغالب ذلك ما لا أصل له، وإنما يختلق الإنسان شيئاً من ذلك مدحاً لنفسه، أو لمن له علاقة به، [٦١] أو تكون جرت له قصة توهم فيها خارقاً، كمن يخيل له بعض الخيالات في النوم ويستيقظ بسرعة، فيتوهم أنه لم يزل مستيقظاً، وأن الأمر الذي تخيل له كان يقظة أو كان في ظلمة وخوف؛ فتوهم شيئاً، فذهب يحكيه على أنه أمر واقع، أو يكون احتال عليه بعض الناس بحيلة أوهمته تلك الواقعة.

والغالب في هؤلاء أنهم إذا حكوا الحكاية وأراد بعض العقلاء أن يناقش فيها؛ حملهم ذلك على أن يسددوا مواضع الخلل والاحتمال فيها بالكذب.

ثم يتلقى الناس تلك الحكايات، وينشروها؛ لحرصهم على الإغراب والتعجيب، وكثيراً ما يكملها الحاكي بالكذب إذا رآها غير وافية بالتعجيب، ويدافع عنها إذا قوبلت بالتكذيب، فيزعم أن الذي أخبره ثقة، أو أن الحكاية متواترة، أو نحو ذلك.

فأما إن حكيت تلك الغريبة على أنها كرامة؛ فإن الدواعي إلى نقلها ونشرها أشد لما تقدم، ومقابلتها بالشك أو التردد بعيد جدا عند العامة، وكثير من المنتسبين إلى العلم، لأنهم يعتقدون أن الشك في مثل ذلك؛ شك في قدرة الله ﷻ، وفساد عقيدة، فترى أحدهم يُكره نفسه على التصديق بذلك؛ خوفاً من الكفر وفساد العقيدة، ولا يسمع أحدا يكذبها أو يستبعدها، أو يتردد في صحتها [٦٢] إلا ناله ما يكره.

ولما صار أكثر المنتسبين إلى العلم في القرون المتأخرة يتزلفون إلى العامة، وإلى من تعتقد فيه العامة؛ جاروهم على هواهم، وأحسنهم حالاً من يعتصم بالسكوت.

والحاصل: أن من أراد أن يعلم في شيء من تلك الخوارق المحكية عن بعض المعتقد فيهم أثابتة أم لا؛ فعليه أن يختبرها بما تختبر به سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومعجزاته.

ومن كان له اطلاع على علم الحديث وكلام أهله، والكتب التي ألفت في الموضوعات علم أن كثيرا من الموضوعات؛ قد اغتر بها أئمة أكابر؛ كالغزالي، وإمام الحرمين، والزمخشري، والبيضاوي، وغيرهم، فأدرجوها في كتبهم.

بل إن أئمة الحديث ليوردون في كتبهم -التي لم يلتزموا فيها الصحة- كثيراً من الأحاديث الموضوعة، ولا ينبهون على وضعها، مكتفين بأنهم لم يلتزموا الصحة، وإن على من رأى حديثاً في كتبهم؛ ينبغي له أن يبحث عن درجته.

ويقع هنا كثيراً في مؤلفات: ابن منده، وأبي نعيم، والخطيب، وابن عساكر، وغيرهم بل وقع بعضه في الكتب التي قيل إنها خاصة بالصحاح، ولاسيما المستدرك.

و لم يعد أحد من العلماء ذلك دليلاً على صحتها، بل صرحوا بوضعها، واعتذروا عن أولئك الأكابر.

فكذلك لا ينبغي أن يستدل على صحة شيء من هذه الغرائب، بإدراج بعض العلماء المشهورين لها في كتبهم، على أن كثيرا منهم يتسامحون في ذلك لزعمهم: أن ما كان من باب المناقب والفضائل يجوز التساهل في روايته؛ لأنه لا يبنى عليه حكم لا قطعي ولا ظني.

[٦٣] وقد نقل نحو هذا من الأئمة المتقدمين، ولكن شرطوا أن لا يشتمل على شيء من الأحكام، وأن لا يبني عليه شيء من الأحكام.

وسيأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى، وقد حققت هذا البحث في رسالة مستقلة، والحمد لله.

فصل

فإذا صح وثبت وقوع شيء من الغرائب عن رجل من المسلمين، كان عليك حينئذٍ أن تعرف من أي الأقسام هو، فقد قسم أهل العلم الغرائب إلى قسمين: خوارق وغيرها، وذكروا أن الخوارق على أربعة أضرب: معجزة، وكرامة، واستدراج، وإهانة.

فالمعجزة مخصوصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والكرامة بالأولياء والصالحين. وأنكرها المعتزلة، والأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني -من كبار أئمة أهل السنة- قال: "كل ما جاز تقديره معجزة لنبي؛ لا يجوز ظهور مثله كرامة لولي، وإنما مبالغ الكرامات؛ إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية من غير توقع المياه، أو نحو ذلك مما ينحط عن خرق العادات.

وقال الإمام القشيري -وهو من أئمة أهل السنة العارفين بالتصوف-: "لا تنتهي الكرامة إلى نحو ولد دون والد، وقلب جماد بهيمة".

قال التاج السبكي: "وهذا حق يخصص قول غيره: ما جاز أن

يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي"[١].

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في باب غزوة الرجيع في الكلام على مقتل خبيب ﷺ، وقول المرأة: "لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله خبيبا".

قال الحافظ: "قال ابن بطال: هذا يمكن أن يكون الله جعله آية على الكفار وبرهانا لنبيه؛ لتصحيح رسالته، قال: فأما من يدعى وقوع ذلك له اليوم بين ظهراني المسلمين؛ فلا وجه له، إذ المسلمون قد دخلوا في الدين، وأيقنوا بالنبوة، فأي معنى لإظهار الآية عندهم؟ ولو لم يكن في تجويز ذلك إلا أن يقول جاهل: إذا جاز ظهور هذه الآيات على يد غير نبي، فكيف نصدقها من نبي؟ والفرض أن غيره يأتي بها لكان في إنكار ذلك قطعا للذريعة ... إلى أن قال: إلا أن يكون وقوع ذلك مما لا يخرق عادة، ولا يقلب عينا، مثل أن يكرم الله عبدا بإجابة دعوة في الحين، ونحو ذلك مما يظهر فيه فضل الفاضل وكرامة الولي، ومن ذلك حماية الله تعالى عاصما لئلا ينتهك عدوه حرمته. انتهى.

والحاصل: أن ابن بطال توسط بين من يثبت الكرامة ومن ينفيها، فجعل الذي يثبت ما قد تجري به العادة لآحاد الناس أحيانا، والممتنع ما

---

[١] حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٦: ١٨٠).

يقلب الأعيان مثلا، والمشهور عن أهل السنة إثبات الكرامات مطلقا، واستثنى بعض المحققين منهم كأبي القاسم القشيري، ما وقع به التحدي لبعض الأنبياء، فقال: ولا يصلون إلى مثل إيجاد ولد من غير أب ونحو ذلك، وهذا أعدل المذاهب في ذلك، فإن إجابة الدعوة في الحال، وتكثير الطعام والماء، والمكاشفة بما يغيب عن العين، والإخبار بما سيأتي، ونحو ذلك قد كثر جدا، حتى صار وقوع ذلك ممن ينسب إلى الصلاح كالعادة، فانحصر الخارق الآن فيما قاله القشيري، وتعين تقييد قول من أطلق ان كل معجزة وجدت لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي"[1].

وفي شرح المقاصد: "ثم المجوزون ذهب بعضهم إلى امتناع كون الكرامة بقصد واختيار من الولي، وبعضهم إلى امتناع كونها على قضية الدعوى، حتى لو ادعى الولاية الولي، واعتضد بخوارق العادات؛ لم يجز، ولم يقع، بل ربما سقط عن مرتبة الولاية ... وبعضهم إلى امتناع كونها من جنس ما وقع معجزة لنبي؛ كانفلاق البحر، وانقلاب العصا، وإحياء الموتى، قالوا: وبهذه الجهات تمتاز عن المعجزات.

وقال الإمام: هذه الطرق غير سديدة، والمرضي عندنا؛ تجويز جملة خوارق العادات في معرض الكرامات، وإنما تمتاز عن المعجزات بخلوها عن دعوى النبوة، حتى لو ادعى الولي النبوة صار عدوا لله، لا يستحق

---

(١) فتح الباري (٧: ٣٨٣).

الكرامة، بل اللعنة والإهانة"[1].

والاستدراج ما يجريه الله ﷻ لبعض الدجالين، كالدجال الأكبر، فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة عدة عجائب تقع معه، وذلك فتنة وابتلاء وامتحان واختبار من الله ﷻ لخلقه، ليمتاز المؤمن الموقن عن علم ومعرفة من غيره، فإن المؤمن الموقن عن علم ومعرفة؛ يميز ما هو حجة حقيقية يرتضيها الشرع والعقل، وما ليس كذلك، فتلك العجائب لا تخدش في يقينه؛ للبراهين القاطعة على كذب الدجال، فيعلم المؤمن حينئذ أن تلك العجائب من قبيل الاستدراج.

وأما غيره فإن العجيبة عنده [٦٤] هي أقوى الحجج، فإذا رآها خضع لها والعياذ بالله تعالى.

فإن قيل: فما الفرق بين المعجزة والاستدراج، حيث قلتم: إن المعجزة توجب العلم اليقيني بصدق صاحبها، وأن الاستدراج لا يدل على صدقه، بل قد يدل على كذبه؟

قلت: قد تولى الإمام الغزالي -رحمه الله- وغيره من علماء الأمة بيان الفرق، وحاصله: أن المعجزة إنما تفيد الصدق بمعرفة القرائن، مثل أن تكون سلسلة النبوة لم تختم، وأن يكون مدعي النبوة محمود السيرة، وأن لا يأتي بما يكذب العقل تكذيباً قاطعاً، ولا يأتي بما يكذب خبراً ثابتاً عن

---

[1] حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٦: ١٨١، ١٨٢).

الله ﷻ ثبوتاً قطعياً، وأن يكون عامة ما يأتي به مما تتضافر الفطر والعقول والشرائع على الشهادة بأنه حق إلى غير ذلك، بخلاف الاستدراج؛ فإنه يصحبه براهين قطعية على كذب الدجال، إذا ادعى دعوى يستشهد عليها بالعجيبة، فأما إن لم يدع ولم يستشهد، فلا إشكال أصلاً. والله أعلم.

والإهانة: ما يجريه الله تعالى تكذيبا للدجال، كما نقل أن مسيلمة الكذاب بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسح بيده على رأس أقرع؛ فنبت شعره، وتفل في بئر كان ماؤها ملحا؛ فعذب، ففعل مسيلمة مثل ذلك؛ فازداد رأس ممسوحه قرعا، وماء بئره ملوحة.

وقد بقي ضرب خامس؛ وهو الابتلاء؛ أعني: ما يجريه الله ﷻ ليبتلي به المؤمنين ويختبرهم، أيغترون به، ويركنون إليه، فيقول أحدهم: أنا ولي لله تعالى محبوب له، بدليل أنه أجرى على يدي الكرامة، أم يثبت على ما تقتضيه الشريعة، وكما يكون ابتلاء لمن وقع على يده، فهو كذلك ابتلاء لغيره. والله أعلم.

ومن أعظم الابتلاء؛ أن يمكن الله تعالى الدجال من استعمال غرائبه في نفع من يوافقه، والإضرار بمن يخالفه، مع أن المخالف على الحق، ولكن ليتبين حال المخالف؛ أعلى يقين بأمره، أم لا؟ ويتبين حال غيره، أيعتصمون بالحجج الحقيقية، أم يغترون بتلك الظواهر؟

وفي أحوال الدجال الأكبر كثير من هذا فاحفظه وتدبره، فإنه مهم جدا.

ومما يشهد له قصة لبيد بن الأعصم اليهودي في إضراره بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان ذلك سبب نزول المعوذتين. والله أعلم.

فصل

[٦٥] وأما القسم الثاني من الغرائب؛ فيقع بكسب الإنسان وتسببه، وقد تسمى خوارق؛ لخفاء أسبابها، وجهل غالب الناس بها.

فمنها: الشعبذة؛ وهي عبارة من أعمال، تظن أول الأمر خارقة، فإذا عرفت أسبابها تبين أنه حيل بمعونة خاصية يجهلها أكثر الناس، أو خفة اليد وسرعة الحركة إلى حد لا يثبته الناظر، أو بآلة يخفيها المشعوذ وعمل خفي قد أعده من قبل، أو مساعدة شخص آخر مختبئ أو ظاهر، والنظارة لا يحسبون له علاقة بالمشعوذ، أو غير ذلك.

وللمشعبذ مهارة في تخليط النظارة، وصرف ظنونهم وأبصارهم إلى غير ما يريده.

[٦٦] وقريب من الشعبذة، ما يسمى الآن بالألعاب الرياضية، كرفع الأثقال العظيمة، والمشي على سلك دقيق ممدود بين جدارين أو نحوهما، والإمساك عن التنفس مدة طويلة، وغير ذلك مما لا يستطيع الإنسان فعله ابتداء، ولكن أصحابه تمرنوا عليه زماناً حتى سهل لهم.

ومن هذا القبيل الإمساك عن الأكل مدة طويلة، وتناول بعض السموم، وإدخال حديدة في موضع خاص من البدن، وقد رأيت فقراء يزعمون أنهم رفاعية؛ زعموا أنهم يأتون بالخوارق، فكان أحدهم يدخل حديدة في طرف عينه اليمنى، ثم يرفع بها حدقته رفعاً يسيراً، وهذا عمل بسيط، وهو يأبي أن يغرز الحديدة في نفس الحدقة، أو يبرز الحدقة أكثر مما

كان يبرزها، فأخبرناهم أن هذا ليس بشيء، فتقدم آخر وجعل يجـــذب جلد بطنه، ثم يغرز فيما انجذب من الجلد مسلة، ولكنه يأبى أن يغرزها في حشاه، بحيث تخرق الصفاق، بل يأبى أن يغرزها في موضع آخـــر مـــن جلده، ثم تقدم الثالث -وكان أهمهم- [٦٧] فأبرز حنجرته وحلقومه إلى الأمام إبرازاً فاحشاً، ثم غرز حديدة في جانب عنقه الأيمن، ومـــرت وراء الحلقوم، حتى نفذت من الجانب الأيسر، ولكن لحقته صعوبة شـــديدة، وساعده أصحابه، وبعد نفاذها سال دم وتألم الرجل، وحاول أصحابه أن يكتموا ذلك، ولكن كان ظاهراً، فقيل لهم: إن كان هذا كرامة! فلم هذا العناء كله؟ فزعموا أنه كان في النظارة امرأة حائض! وسئلوا هل يمكـــن هذا أن يغرز الحديدة في بطنه، أو في ثغرة نحره، أو غير ذلك؟ فأجابوا: أنه ليس له إجازة في غير ما فعل.

وفي اليمن فقراء كثيرون هذه صناعتهم؛ أن يطوفوا البلاد للسؤال، ويعملون بعض أعمال، يوهم أحدهم أنه يغرز الحديـــد في عينـــه، أو في حلقه، أو في بطنه، أو نحو ذلك، ويوهم الناس أنه يتحامل على الحديـــدة بأقصى قوته، وتتم حيلهم على النساء والصبيان ونحوهم، ومنـــهم مـــن يضرب كتفه بالسيف، ولكنه يقيس قوة يده بالضرب بقـــدر أن يـــدنو السيف من كتفه أو يلامسه ملامسة خفيفة، وقد يجاوز بعضهم هـــذا إلى حد أنه يشق أعلى الجلد فيسيل الدم.

والحاصل: أن العاقل إذا تأمل صنيعهم، وأمعن النظر؛ تبين لـــه أن عملهم كله مغالطة.

[٦٨] ومن الغرائب؛ ما يكون عن قوة غريبة للنفس فاشتهر ذلك الإصابة بالعين، وقد تكون قوة الإصابة بالعين اكتسابية. قال في شرح المقاصد: "وقالوا: إن كان العين في بني أسد، وكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام، فلا يمر به شيء ويقول فيه: لم أر كاليوم؛ إلا عانه"[(١)].

وفوق الإصابة بالعين درجات كثيرة تكتسب بالرياضة، فإنه كما أن القوى الجسمية يمكن تربيتها بالرياضة حتى تصير للمرتاض قوة لم تكن له من قبل، ولا تكون بغير المرتاض، -كما مر في الشعبذة والألعاب- فكذلك القوى النفسية؛ يمكن تربيتها بالرياضة المختصة بها.

وهذا الأمر معروف من القدم بين اليونان وأهل الهند والصين، وغيرهم.

والفلاسفة القدماء فريقان:

فريق يذهبون إلى اكتساب العلوم والمعارف بإعمال العقل والفكر، ويقال لهم الْمَشَّاءُونَ.

وفريق يذهبون إلى اكتسابه برياضة النفس وترقيتها، ويقال لهم: الإشراقيون.

قال غير واحد: فالمشاءون كالمتكلمين من المسلمين، والإشراقيون كالمتصوفين.

---

(١) شرح المقاصد (٢: ٢٠٧).

وفي رسائل ابن سينا وغيره؛ كثير من طرق الإشراقيين ويسميها هو تصوفاً. وقال البيروني: إن اشتقاق التصوف من كلمة يونانية، ومعناه: الحكمة، ومنها قيل: فيلسوف، وأصله باليونانية: فيلا سوفا، أي: محب الحكمة، فعربت هذه الكلمة بالصاد، ونسب إليها الصوفي.

أقول: وأعلم أن أهل الرياضة من الأمم تختلف أغراضهم، فالحكماء إنما يقصدون أن تصفوا أنفسهم، وتنكشف لهم بعض الحقائق الكونية، والمعارف الربانية، رغبة في العلم والمعرفة، [٦٩] فإذا حصلت لهم قوى غريبة لم يأنسوا بها، ولا يلتفتون إلا إلى ما يرونه معيناً لهم على مطلوبهم، ولكن كثيراً من الناس إنما يرتاضون طلبا لتحصيل القوة الغريبة، ومنهم من يكون نيته أولا؛ تحصيل المعرفة، ولكن إذا حصلت له القوة الغريبة اغتر بها، وعكف عليها.

وأساس هذه الرياضات عندهم؛ الجوع، والسهر والعزوبة، والخلوة، وقطع الشواغل، وجمع الفكر في شيء واحد، وأن لا يأكل روحاً، ولا ما خرج من روح، كالبيض، والسمن، واللبن، وغير ذلك، وإتعاب الجسد، وأعمال أخرى لها قواعد مخصوصة عندهم، كرياضة التنفس، فينظم الطالب تنفسه على كيفية مخصوصة، يواظب عليها حتى تصير له عادة، ومنها: أن يوجه همته عند استنشاق الهواء إلى أن يمر به على طريق مخصوص يمر على أعضاء مخصوصة، وغير ذلك.

ثم إنهم يزيدون على هذا المقدار أشياء تناسب غرض الطالب وعقيدته، فمن كان غرضه تحصيل المعرفة وتصفية النفس؛ يضيف إلى

ذلك المحافظة على الشريعة التي يعتقدها حقاً.

فالصابئة يضيفون تعظيم الكواكب، ودعائها، والتبخير بالبخورات الخاصة وغير ذلك.

والوثنيون تعظيم الأصنام [٧٠] والعكوف عليها، ونحو ذلك.

وهكذا كل فريق بحسب اعتقاده.

ومن كان غرضه تحصيل القوة الغريبة؛ فإنه يقتصر على ما يظنه كافياً في تحصيلها، حتى إن منهم من يستعجل حصول تلك القوة، ويرى أنها لا تحصل له إلا إذا أصلح نيته، ولكنه قد يحصل له مثلها بمعونة الشياطين، فيسعى في الأعمال الخبيثة في اعتقاده، ويبالغ فيها، فربما حصل له شيء من القوة بسبب الرياضة إن كان ارتاض، ولكنه يظنها ما حصلت له إلا بتلك الأعمال الخبيثة، وأنه إن ترك الأعمال سلب تلك القوة.

ومنهم من تستولي عليه الشياطين حقيقة، فيساعدوه على بعض ما يريد ليطيعهم، ويعمل على تطويع الناس لهم، والعياذ بالله.

والمقصود: أن حصول تلك الآثار؛ إنما هو في الغالب يتجه لما قدمنا ذكره من الجوع والسهر ونحوها، فإذا صحب ذلك نوع مما يراه المرتاض عبادة فإنما يساعد على حصول تلك الآثار من حيث هو رياضة، ولذلك لا يختص حصول تلك الآثار دين من الأديان، ولكن الناس لجهلهم بالأسباب الحقيقية يستدلون على صحة الدين بحصول تلك الآثار للمرتاضين العاملين به، بل قد يستدل المرتاض نفسه بذلك، وهو خطأ

كما علمت. والله أعلم.

[٧١] وأعلم أن هذه الرياضة ليست بمذمومة على الإطلاق، فقد جاء الإسلام بالنهي عن الإسراف في الأكل والشرب، وبمشروعية الصيام، وقيام الليل، والتفكر، والاعتكاف، وغير ذلك مما يتضمن طرفا من الرياضة، وإن لم تكن الرياضة هي المقصود من ذلك، على أنه لا يبعد أن تكون مقصودة في الجملة.

وعلى كل حال فإن القدر الذي تضمنته العبادات المشروعة في الإسلام من الرياضة؛ مفيد في تهذيب الأخلاق، وتقوية العزم، وتصفية النفس، وغير ذلك، إلى حد لا يبلغ القوى الغريبة، بل جاءت أحاديث كثيرة في النهي عن الغلو في العبادات؛ فثبت النهي عن مواصلة الصوم، وعن صوم الدهر، وعن قيام جميع الليل أبدا، وأخرى في النهي عن الغلو وعن التشديد على النفس، ومجاوزة ما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عهده، فكان الصحابة ﷺ وعامة التابعين؛ واقفين عند الحدود الشرعية في ذلك، ولكنه بعد ذلك نشأ أفراد لهم رغبة في الخير، وفي عبادة الله ﷻ؛ يتأولون ما ثبت عن الشارع من النهي عن الزيادة في العبادات، بأن ذلك كان شفقة منه على الناس لئلا يشق عليهم، أو خشية أن يكون الإمعان في العبادة داعيا إلى السآمة والملل، أو لئلا تضعف أجسامهم عن الجهاد والعمل في إعزاز الإسلام، ونحو ذلك من التأويلات.

وربما بالغ بعضهم [٧٣] في العبادات ونحوها مما ورد في الشرع

استحباب طرف منه، حتى يبلغ بهم الحال إلى مشابهة أهل الرياضات كما كانوا يبالغون في تجويع أنفسهم لأنهم لا يجدون طعاما حلالا صـــرفا لا شبهة فيه، وفي مناقب الزهاد أشياء من ذلك، وفي القرن الثاني والثالث بدأ هؤلاء والمبالغون يذكرون أن للجوع فائدة في تصفية النفس.

ثم اطلع المسلمون على فلسفة اليونان ووجدوها على طريقين:

إعمال العقل، ورياضة النفس، فنقلوا ذلك وعملوا به.

وقد عورضوا في الأولى معارضة شديدة، يعلمها من له إلمام بتاريخ الإسلام.

وأما الثاني؛ فلم يلق كبير معارضة، لأن أصحابه ألحقوا كل طرف منه بما يشابهه في الإسلام، وقد قدمنا أن الإسلام تضمن طرفاً من الرياضة، وأن بعض الراغبين في الخير بالغوا في ذلك، ولم تبق على الناقلين صعوبة، إلا في بعض الأمور؛ كالعزوبة، وأن لا يأكل من روح ولا ما خرج مـــن روح، ورياضة التنفس، فألحقوها بالإسلام بضرب من التمحل[1]، فقالوا: إن الزواج يشغل عن أداء الحقوق، ويحمل على الحرص على الدنيا مـــن حلها وغير حلها، ولاسيما على أمثالنا من الضعفاء، فأما النبي صـــلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فكانت عندهم قوة ليست عنـــدنا، وذكـــروا حديثاً نسبوه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "خياركم في المائتين كل

---

[1] التمحل: التكلُّف.

خفيف الحاذ" قالوا: يا رسول الله! وما الخفيف الحاذ؟ قال: "الذي لا أهل له ولا ولد"[(١)].

وأما منع الأكل من روح أو ما خرج من روح، فاستشهدوا له بما نقل عن عمر ﷺ أنه قال: "إن لهذا اللحم ضراوة كضراوة الخمر"[(٢)] [٧٣] وغير ذلك.

وأما رياضة التنفس فاخترعوا لها نوعا من الذكر، بقولهم: هو الله، الله هو، على نظام مخصوص، واخترعوا بدل جمع الهمة وحصر الفكر في شيء معين؛ حصر المريد همته في تصور الشيخ، ونحو ذلك.

واعلم أن العاملين بالرياضة من المسلمين على أقسام:

فقسم منهم يرى أنها علم من العلوم، وصناعة من الصنائع، تختلف أحكامها في الشريعة باختلاف الغرض منها، فمن كان غرضه منها تهذيب نفسه، وتقوية إدراكه، وتحصيل قوة يستعين بها على معرفة ربه؛ فلا بأس

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٥١٣)، وابن عدي في الكامل (١: ١٤١)، وابن الجوزي في العلل (٢: ٢٣٥)، وغيرهم، وفيه: رواد بن الجراح قال ابن الجوزي: قال الدار قطني: " تفرد به رواد، وهو ضعيف وقد ادخله البخاري في الضعفاء وقال: كان قد اختلط لا يكاد يقوم حديثه، وقال أحمد بن حنبل: حدث رواد عن سفيان أحاديث مناكير"، وقال ابن عدي: "عامة ما يرويه لا يتابعه الناس عليه"، وقال ابن أبي حاتم كما في العلل لابنه (٢: ١٣٢): "هذا حديث باطل"، وقال في موضع آخر (٢: ٢٤٠): "هذا حديث منكر".

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٧٣).

بها عند هؤلاء، ومن كان غرضه تحصيل قوة يستعين بها على أغراضه الدنيوية من الجاه والشهرة ونحو ذلك فيه وبال عليه.

وقسم منهم توهم أنها عبادات، إما بناء على ما تقدم من أن الشريعة جاءت بشيء مما يشبهها، وأن أفرادا من الراغبين في الخير بالغوا في ذلك إلى أن قربوا منها، وإما استناداً إلى كلام المتأخرين من المتصوفين الذين يزعمون أن تلك الأعمال عبادة إسلامية بدون تأويل.

وقسم ليس لهم اعتقاد ثابت في الشريعة، ورأوا أن هذه الرياضة طريقة من طرق الحكماء، توصل إلى زيادة المعرفة والقوة الغريبة، ولكنهم يراءون الناس بزعم أنهم يعتقدون [٧٤] أنها عبادة.

ثم لما كان مقرراً عند جمهور الأمة أن الله ﷻ يكرم صالحي عباده بأن يخرق لهم العادة أحياناً، وقد نقل شيء من ذلك عن بعض الصحابة والتابعين، وكان أكثر الناس يجهلون أن الرياضة من شأنها ترقية قوى الناس إلى حد الغرائب، صاروا يسمون كل ما يظهر أو ينسب إلى المرتاضين من الغرائب؛ كرامات، مع أنها محتملة لذلك، ومحتملة أن تكون من آثار الرياضة.

وقد قال الصوفية أنفسهم؛ بأن السالك يمر على مرتبة السحر الحال يكون صاحبها، بحيث لا يريد شيئاً إلا كان في الحال، وأنه إن وقف عليها هلك. ذكره غير واحد منهم: عبد الكريم الجيلي في "الإنسان الكامل" في الباب السادس والثلاثين، وفي كتب الغزالي نحو ذلك. والله أعلم.

ومن الغرائب ما يكون بمساعدة الشياطين؛ إما لمشاكله بينهم وبين

نفس ذلك الإنسان، كابن صياد الثابتة قصته في الصحيحين وغيرهما[1].

وإما بسعي ذلك الإنسان فيما يرضى الشياطين حتى يساعدوه، كما في كهان العرب، وكان في زمن الحجاج رجل يقال له: عبد الله بن هلال، ويلقب صديق إبليس؛ كان يعمل الغرائب، وكان يترك صلاة العصر إرضاء لإبليس حتى يساعده[2].

وكثير من الناس في الهند وغيرها في عصرنا هذا يسلكون هذه الطريقة، أي: التقرب إلى الشياطين. وإما لقصد الشياطين أن يضلوا ذلك الإنسان ويضلوا به وقصة الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله تعرض الشيطان له مشهورة وأشباها كثيرة.

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار: "حدثني محمد بن داود، قال: حدثنا أبو الربيع الزَّهْراني، قال: حدثنا أبو عَوَانة، عن المغيرة بن إبراهيم في الرجل يرى الضوءَ بالليل؟ قال: هو من الشيطان، لو كان هذا فضلاً لأوثر أهلُ بدر"[3].

وعن السلف آثار أخرى في هذا المعنى، كما روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها لمن يصعق عند سماع القرآن من الشيطان وغير

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١٢٨٩)، ومسلم (٢٩٣٠).

(٢) انظر ترجمة في لسان الميزان (٣: ٣٧٢).

(٣) عيون الأخبار (٤: ٣٠١).

ذلك، وفي مقابلها آثار كثيرة عن التابعين فمن بعدهم في تحسين الظن لمن ظهر على يده شيء من الغرائب، وكان واقفاً عند حدود الله تعالى متحققا بالكتاب والسنة بلا تحريف ولا تأويل يخالف به العلماء، والله أعلم.

فأما السحر؛ فمنه ما يكون بالرياضة، ومنه ما يكون بالتقرب من الشياطين، ومنه ما يكون بغير ذلك. وسنتكلم عليه فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

فصل

[٧٥] واعلم أن الخوارق والغرائب متقاربة، يلتبس بعضها ببعض، غير أن المعجزة تمتاز بما قدمنا، وكذلك الإهانة ممتازة كما مر.

فأما الكرامة؛ فذكر أهل العلم أنها تمتاز بوقوعها على يد المسلم العالم بالشريعة، العامل بها.

قال الشعراني في كتابه "تنبيه المغترين": "من أخلاق السلف الصالح ﷺ؛ ملازمة الكتاب والسنة كلزوم الظل للشاخص، ولا يتصدر أحدهم للإرشاد إلا بعد تبحره في علوم الشريعة المطهرة، بحيث يطلع على جميع أدلة المذاهب المندرسة والمستعملة، ويصير يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج القاطعة أو الراجحة الواضحة، وكتب القوم مشحونة بذلك كما يظهر من أقوالهم وأفعالهم.

وقد كان سيد الطائفة؛ الإمام أبو القاسم الجنيد ﷺ يقول: كتابنا هذا -يعني القرآن- سيد الكتب وأجمعها، وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها، وطريقتنا -يعني طريق أهل التصوف- مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة ويفهم معانيها؛ لا يصح الاقتداء به، وكان ﷺ يقول: ما نزل من السماء علم؛ وجعل الله بغير [٧٦] نبي إليه سبيلا إلا وجعل لي فيه حظا ونصيباً.

وكان ﷺ يقول لأصحابه: لو رأيتم رجلاً قد تربع في الهواء؛ فلا تقتدوا به حتى تروا صنعه عند الأمر والنهي، فإن رأيتموه ممتثلا لجميع

الأوامر الإلهية، مجتنبا لجميع المناهي؛ فاعتقدوه واقتدوا به، وإن رأيتموه يخل بالأوامر ولا يجتنب المناهي؛ فاجتنبوه" انتهى[١].

وفي الأنوار: "ومن ادعى الكرامات لنفسه بلا غرض ديني؛ فكاذب يلعب به الشيطان" نقله ابن حجر في الأعلام وأقره[٢].

وقال الشاطبي: "قال أبو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء؛ فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة"[٣].

وقال الحافظ ابن حجر في الكلام على غزوة الرجيع من فتح الباري: "ووراء ذلك كله؛ أن الذي استقر عند العامة أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك؛ من أولياء الله تعالى، وهو غلط ممن يقوله، فإن الخارق قد يظهر على يد المبطل من ساحر وكاهن وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق، وأولى ما ذكروه؛ أن يختبر حال من وقع له ذلك، فان كان متمسكا بالأوامر الشرعية والنواهي؛ كان ذلك علامة ولايته، ومن لا فلا"[٤].

---

(١) تنبيه المغترين (ص: ٦).

(٢) الإعلام بقواطع الإسلام (ص: ٥٤).

(٣) الاعتصام (١: ٦٨).

(٤) فتح الباري (٧: ٣٨٣).

أقول: والتمييز بين الكرامة والابتلاء والغرائب التي قدمناها؛ صعب جداً، كثيراً ما يشتبه على من جرت الواقعة على يده، فضلاً عن غيره.

وأقصى ما يمكن أن تمتحن تلك الواقعة، مع النظر في جميع ما يتعلق بها، وتوزن بالكتاب والسنة، فإن وجد فيها مخالفة ما لظاهر من ظـــواهر الشريعة؛ كان الظاهر أنها ليست بكرامة، وإلا كانت محتملة، وهذا -والله أعلم- مراد الجنيد وأبي يزيد.

فأما أمرهما بالاعتقاد والاقتداء؛ فإنما ذلك لكون ذلك الرجل عالمـــاً عاملاً [٧٧] بحسب الظاهر، ومن كان كذلك كان أهلا أن يعتقـــد فيـــه، ويقتدى به، وإن لم يظهر على يده شيء. فظهور تلك الواقعة مع سلامتها عن الدلالة على مخالفته للشريعة؛ إن لم يزده، لم ينقصه، فتدبر.

وعلينا إذا رأينا من ظهر على يده شيء من ذلك، وهـــو معتـــصم بالشريعة، واقف عند حدودها، ولم يتعاط شيئاً في أسباب الغرائـــب، أن نظن تلك الظاهرة كرامة، وهذا مجرد ظن لا يكون حجة على القطع بأنه ولي لله تعالى.

وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال: أثنى رجل على رجل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: "ويحك قطعت عنق صاحبك -يقولهـــا مرارا- إن كان أحدكم مادحا لا محالة، فليقل: "أحسب كذا وكذا، إن

كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله، ولا يزكي على الله أحدا"[١].

وفي صحيح البخاري وغيره؛ حديث سعد بن أبي وقاص، وقوله في رجل: إنه لمؤمن. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أو مسلم ..." الحديث[٢].

وحديث الأنصارية التي قالت في عثمان بن مظعون بعد وفاته: فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "وما يدريك أن الله أكرمه ..." الحديث. وفيه: "والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي"[٣].

وفي مسند أحمد وغيره، عن شقيق، ومسروق، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول "إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه" فخرج فبلغ عمر ﷺ، فجاء عمر فدخل عليها، فقال لها: بالله منهم أنا؟ فقالت: لا ولن أبرأ أحدا بعدك"[٤].

[٧٨] وبالجملة؛ الأدلة في هذا كثيرة، وحاصلها: النهي عن القطع، فأما الظن وما يتبعه من الثناء المبني على الظاهر بدون نص على القطع؛

---

(١) صحيح البخاري (٢٥١٩)، وصحيح مسلم (٣٠٠٠).

(٢) صحيح البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (١١٨٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٥٣٢).

فلا حرج فيه، وإذا ظننا في إنسان أنه ولي لله تعالى بما ظهر لنا من علمه وعمله، واستقامته على الصراط الشرعي؛ فلا يلزم من ذلك أن نجعل قوله حجة، لأن ولايته لم تثبت بالقطع، ولو ثبتت فهي لا تقتضي العصمة.

وقد سئل الجنيد؛ أيزني العارف؟ فسكت قليلا ثم قال: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ (الأحزاب: ٣٨).

وهب أننا ظننا برجل أنه معصوم، أو كالمعصوم؛ فإنما ذلك عن التعمد، فأما عن الخطأ؛ فلا شبهة في عدم عصمته، إذ لا تمنعه تقواه وورعه أن يخطيء، فيقول أو يعمل ما يظنه حقا وهو في نفس الأمر باطل، وكذلك لا يمنعنا اعتقاد أنه أخطأ من حسن الظن به، وظن أنه كان صالحاً فاضلاً، أو ولياً لله ﷻ، فإن المجتهد إذا أخطأ لم يأثم، بل هو مأجور، كما ورد في الحديث وأشار إليه القرآن في قصة داوود وسليمان، فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ (الأنبياء: ٧٩).

واعلم أن كثيرا من مسائل العقائد لا تخرج عن هذا، فإن كثيرا من الأعمال والأقوال يعد كفرا، ومع ذلك ينقل شيء منه عن بعض الأكابر ولا يمنع ذلك من اعتقاد فضلهم وصلاحهم وولايتهم، فإن إنكار آية من القرآن كفر، ومع ذلك فقد قال ابن مسعود ﷺ: إن المعوذتين ليستا من القرآن، ولم يقدح ذلك في جلالته، لما كان له من العذر. وأمثلة ذلك كثيرة، لعلنا نفرد لها فصلا، وقد قدمنا ما يتعلق بهذا.

وحاصله: أنه ليس كلما ثبت في العمل أنه كفر أو شرك؛ ثبت أن كل من عمله يكون كافراً أو مشركاً، بل ربما يكون العمل كفراً أو

شركاً ويكون بعض عامليه من أولياء الله ﷻ؛ لأنه كان معذوراً في عمله.

وبهذا يندفع عنك ما تتوهمه؛ إذ تقول لك نفسك: لو كان هذا كفراً أو شركاً؛ لكان فلان وفلان وآبائي ومشائخي كفاراً، وأنت لا تستطيع أن تتصور ذلك. وبهذا التوهم تتجنب النظر إلى الأدلة بالعدل والإنصاف.

وقد غلط كثير من الناس فصاروا إذا ظهر لهم في أمر أنه كفر تعدوا الحدود، وأعلنوا بتكفير جماعة من أئمة الدين والأولياء والصالحين، وهذه حماقة شيطانية.

نعم لا يلزم من عذر بعض العاملين أن يعذر جميعهم، فإن للعذر شرائط. فلا يخدعنك الشيطان فتقول إذا كان أولئك معذورين، فأنا معذور، وعلى فرض أن هذا العمل كفر أو شرك؛ فإنك إنما تعذر إذا بحثت وحققت وبذلت وسعك، ثم تبين لك أنه ليس ذلك العمل بكفر ولا شرك، بشرط أن تكون أهلا للبحث والنظر، وإلا فإنه يتعين عليك الاحتياط، ولعلنا نوضح هذا المعنى.

وإنما قدمنا هنا الإشارة إليه؛ مخافة أن يمنعك التوهم المذكور عن النظر في رسالتنا هذه نظر الطالب للحق من حيث هو حق، والله الموفق.

وأنت خبير أن سادة الأولياء هم الصحابة ﷺ، ولم يجعل قول أحد منهم حجة كما تقدم.

وكثيراً ما نجد المنسوبين إلى الولاية يختلفون فيما بينهم، ويخطئ بعضهم بعضاً، وقد ينسب كل منهما رأيه إلى الكشف، وقد يقول

أحدهم قولاً ينسبه إلى الكشف ثم يرجع عنه، وينسب رجوعه إلى الكشف أيضا، وفي ذلك دلالة على أن الكشف يخطيء.

وفي أبيات لابن عربي:

واعتصم بالشرع في الكشف فقد فاز بالخير عبيد قد عصم

وسبب الخطأ في الكشف يُعلم مما قدمنا في الخوارق والغرائب، وأزيدك هاهنا فائدة جليلة:

[٧٩] اعلم أن الكشف -وإن ثبت أنه صحيح- فالأغلب أنه يكون له تأويل كتأويل الرؤيا، يوكل ذلك التأويل إلى فهم المكلف، والبرهان على ذلك؛ مكاشفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى ليلة أسري به الفطرة في صورة اللبن، والشهوات في صورة الخمر، وأشياء كثيرة رآها، وهي من باب التمثيل تحتاج إلى تأويل.

وكذلك رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فقد رأى يوسف عليه السلام الكواكب والشمس والقمر ساجدين له، وكان تأويل ذلك سجود أبويه وإخوته.

وقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ ...﴾ (الأنفال: ٤٣)، فرآهم قليلا وليسوا في الواقع قليلا، ولكن ذلك كناية عن الذلة وأنهم سيغلبون.

ورأى أنه في درع حصينة، فأولها المدينة.

ورأى بقرا تنحر فأولها بمن يقتل من أصحابه.

ورأى سوارين من ذهب فأولها بالكذابين؛ مسيلمة والأسود، وأمثال ذلك كثير[١].

وإنما يكون الظاهر حجة في الأوامر التكليفية التي كلف الله العباد أن يتدبروها ويعملوا بما فيها، فأما ما عدا ذلك فهو على ما وصفت.

هذا مع أن رؤيا الأنبياء وحي، فأما رؤيا غيرهم فإنها كما جاء [٨٠] في الحديث؛ محتملة أن تكون صادقة، وأن تكون من حديث النفس، وأن تكون من الشيطان.

والكشف عند التحقيق ضرب من الرؤيا، غاية الأمر أن الروح إذا قويت وضعف الجسد صارت الروح تعمل في اليقظة مثل ما تعمل غيرها من الأرواح في النوم، والبرهان على هذا حديث البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات" قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة"[٢].

فلو كان الكشف أقوى من الرؤيا لكان أولى بأن يستثنيه.

ثم رأيت في فتح الباري نقلا عن الطيبي: "... فلا يظهر على غيبه إظهارا تاما وكشفا جليا إلا لرسول يوحى إليه مع ملك وحفظة ... وأما الكرامات؛ فهي من قبيل التلويح واللمحات، وليسوا في ذلك

---

(١) انظر: كتاب التعبير في صحيح البخاري، وكتاب الرؤيا في صحيح مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٩)، عن أبي هريرة، وأخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس.

كالأنبياء"[١].

فأما حديث الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "ولقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر"[٢]. وفي رواية "فإن عمر بن الخطاب منهم"[٣].

فقد تتبعنا سيرة عمر رضي الله عنه؛ فلم نجد له من هذا القبيل إلا الفراسة وصدق الظن، و لم يكن ذلك مطردا له، بل كان ربما أخطأ، و لم يكن يحتج في الشريعة بمجرد ظنه، بل كان يقضي القضاء ثم يرجع عنه لحديث يبلغه، أو لرأى يبدو له، أو غير ذلك.

وهكذا لم يقل أحد من الصحابة ولا من بعدهم أن قول عمر يكون حجة لحديث التحديث، وقد وجدنا صغار الصحابة وأئمة التابعين والأئمة الأربعة المجتهدين وأضراهم؛ كثيرا ما يخالفون عمر لأدلة ظنية، بل لم يكن أحد من الصحابة يحتج في قليل ولا كثير [٨١] بالكشف، بل لا يكاد يصح، بل لا يصح عن أحد منهم دعوى الكشف لنفسه أو لغيره منهم، والله المستعان.

---

[١] فتح الباري (١٣: ٣٦٤).

[٢] أخرجه البخاري (٣٤٨٦).

[٣] أخرجه مسلم (٢٣٩٨).

وقصة "يا سارية الجبل" لم تصح، وإن قال بعض المتأخرين إن لها طرقا تبلغ بها درجة الحسن لغيره، ومع ذلك ففيها: أن عمر سئل بعد أن قال: يَا سَارِيَةُ! الْجَبَلَ، فأجاب: إنه شيء جرى على لسانه لم يلق له بالا، وسيأتي بقية الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

وهكذا نجد نقل الكرامات عنهم قليلا، والنادر من ذلك القليل؛ صحيحاً، مع أنهم خير الأمة، وأقربها من الله تعالى ورسوله، وأولاها بكل فضل، ولا يبلغ أحد ممن بعدهم مد أحدهم ولا نصيفه، وعمل ما عمل، ولقد ينقل لواحد من أفراد الأمة بعد القرون الفاضلة أضعاف أضعاف ما نقل عن مجموع الصحابة ﷺ، وأكثر من ذلك، وأنت إذا كنت قد تدبرت ما قدمنا؛ فقد علمت السبب الحقيقي في ذلك، والله أعلم.

وأغرب من ذلك؛ أنك تجد الصحابة وخيار التابعين، ومن يليهم من العارفين؛ كانوا شديدي الخوف من الله ﷻ، والمقت لأنفسهم واتهامها بالغرور والرياء وغير ذلك، مع أن منهم من مدحه الله ﷻ في كتابه وبشره بالجنة على لسان رسوله، وكثر ثناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه، وكان ممن ورد فيهم: "اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم" فلا تجد أحدا منهم ادعى لنفسه الخير والصلاح، وأن الله يحبه، وأنه من المقربين، ونحو ذلك.

[٨١: ب] وفي الصحيحين عن عائشة قالت: صنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئا فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فحمد الله، ثم قال: "ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه،

فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية"[(١)].

وفي رواية لمسلم: فغضب حتى بان الغضب في وجهه[(٢)].

وفي معنى ذلك أحاديث أخرى.

وفي الموطأ عن زيد بن أسلم، عن أبيه أن عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مه! غفر الله لك. فقال له أبو بكر: "إن هذا أوردني الموارد"[(٣)].

وجاء عن عمر ﷺ أنه أخذ تبنة من الأرض، فقال: "ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أخلق، ليتني لم أك شيئاً، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسياً منسياً".

وعن علي عليه السلام أنه كان يقول في مناجاته بالليل: "آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق".

وعن ابن مسعود أنه قال له رجل عنده: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إلي. فقال عبد الله بن مسعود: "لكن هاهنا رجل ود أنه إذا مات لا يبعث" يعني نفسه.

وعنه قال: "لو تعلمون ما أعلم من نفسي حثيتم على التراب".

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٥٠)، وصحيح مسلم (٢٣٦٥).

(٢) صحيح مسلم (٢٣٦٥).

(٣) انظر: الموطأ وبهامش شرحه المنتقى للباجي (٧: ٣١٢).

وعنه قال: "لو وقفت بين الجنة والنار، فقيل لي: اختر نخيرك، من أيهما تكون أحب إليك، أو تكون رمادا؛ لأحببت أن أكون رماداً".

فهو إن خير بين أمرين، أحدهما؛ أن يكون رمادا، الثاني؛ أن يقض له بما يستحقه من الجنة أو النار، فهو يختار الأول، أي: أن يكون رماداً؛ لأنه لو اختار الثاني؛ لا يدري لعله يقضى له النار.

وعن ابن عمر قال: "لو علمت أن الله يقبل مني سجدة واحدة، أو صدقة درهم، لم يكن غائب أحب إلي من الموت، ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧).

وروى ابن سعد في الطبقات عن أبي الوازع قال: قلت لابن عمر: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم. قال: فغضب، وقال: "إني لأحسبك عراقيا، وما يدريك ما يغلق عليه ابن أمك بابه؟".

وعن أبي ذر قال: "والله لوددت أن الله ﷻ خلقني يوم خلقني شجرة تعضد، ويؤكل ثمرها".

[٨١: ج] وعن أبي الدرداء قال: "أخوف ما أخاف؛ أن يقال لي يوم القيامة: أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت؛ لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها الآمرة؛ هل ائتمرت؟ والزاجرة؛ هل ازدجرت؟".

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ دخل عليها ابن عباس وهي محتضرة، فبشرها، وذكر فضائلها. فقالت: "دعني عنك يا ابن عباس، فوالذي نفسي بيده، لوددت إني كنت نسياً منسياً".

وعن زين العابدين علي بن الحسين بن علي عليهم السلام؛ أنه حج،

فلما أحرم واستوت به راحلته؛ أصفر لونه وانتفض، ووقع عليه الرعـــدة، ولم يستطع أن يلبي، فقيل له: مالك لا تلبي؟ فقال: "أخـــشى أن أقـــول: لبيك، فيقال لي: لا لبيك" فقيل له: لابد من هذا. فلما لبى غشي عليـــه، وسقط عن راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه[1].

وعن محمد بن علي بن الحسين أنه كان يقول في جـــوف الليـــل: "إلهي! أمرتني لم آتمر، وزجرتني فلم أزدجر، هذا عبد بـــين يـــدك، ولا اعتذر".

وعن الفضيل بن عياض قال: "لو خيرت بين أن أعـــيش كلبـــاً أو أموت كلباً ولا أرى القيامة؛ لاخترت أن أعيش كلباً أو أموت كلبا، ولا أرى القيامة".

وعنه قال: "أخذت على يد سفيان بن عيينة في هذا الوادي، فقلت: إن كنت تظن أنه بقي على وجه الأرض شر مني ومنك؛ فبئس ما تظن".

[٨١: د] وعن بشر الحافي أنه قال: "شهرني ربي في الدنيا، فليتـــه لا يفضحني في القيامة، ما أقبح بمثلي يظن بي ظن، وأنا على خلافـــه، إنمـــا ينبغي لي أن يكون أكثر ما يظن بي أني أكره الموت، وما يكره الموت إلا مريب، ولولا أني مريب، لأي شيء أكره الموت".

وعنه؛ لقيه سكران وجعل يقبله، ويقول: يا ســـيدي. فلمـــا ولى،

---

[1] ذكرت هذه القصة في ترجمة علي بن الحسين من تهذيب التهذيب (٧: ٢٦٩).

تغرغرت عينا بشر بالدموع، وقال: "رجل أحب رجلاً على خير توهمه، لعل المحب قد نجا، والمحبوب لا يدرى ما حاله".

وعنه قال: "ربما رفعت يدي في الدعاء فأردها، أو قال: فأستلها، أقول: إنما يعمل هذا من كان له عنده وجه".

وعن السري السقطي -فيما حكاه الجنيد عنه- قال: "ما أرى لي على أحد فضلاً. قيل: ولا على المخنثين؟ قال: ولا على المخنثين".

وعنه -فيما حكاه الجنيد أيضا عنه- قال: "ما أحب أن أموت بحيث أعرف، أخاف أن تقذفني الأرض، فافتضح".

قال الجنيد: وسمعت سريا يقول: "إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرتين مخافة أن يكون قد اسود وجهي".

وعن أبي عبد الله البراثي قال: "حملتنا المطامع على سوء الصنائع، نذل لمن لا يقدر لنا على ضر ولا نفع، وتخضع لمن لا يملك لنا رزقاً ولا موتا ولا حياةً ولا نشوراً، وكيف أزعم إني أعرف ربي حق معرفته؛ وأنا أصنع ذلك، هيهات هيهات".

وعن الجنيد قال: "كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة [٨١: هـ] يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام! ما الشكر؟ فقلت: أن لا تعصي الله بنعمه. فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد: فأنا أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي".

وعن الربيع بن خثيم أنه كان إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال:

"أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا".

وقال: "أدركنا أقواما كنا في جنوبهم لصوصاً".

وعن داوود الطائي أنه وعظ رجلاً ثم قال: "إني لأقول لك هذا وما أعلم أحداً أشد تضييعاً مني".

وعن سفيان الثوري رآه رجل يكثر البكاء، فقال له: يا أبا عبد الله! أراك كثير الذنوب. فرفع شيئاً من الأرض، فقال: "والله لذنوبي أهون عندي من ذا، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت".

وعن هرم بن حيان، قال: "والله لوددت أني شجرة من هذه الشجر، أكلتني هذه الراحلة، ثم قذفتني بعراً، ولم أكابد الحساب، إني أخاف الداهية الكبرى؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار".

وعن الحسن البصري؛ بكى مرة، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: "أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي".

وعنه قال: "لقد أدركت أقواماً ما أنا عندهم إلا لص".

وعن مالك بن دينار، قال: "رأيت أبا عبد الله مسلم بن يسار في منامي بعد موته فسلمت عليه، فلم يرد السلام، فقلت: ما يمنعك أن ترد علي السلام؟ فقال: أنا ميت، فيكف أرد عليك السلام؟ قال: قلت له: فماذا لقيت بعد الموت؟ قال: فدمعت عينا مالك عند ذلك، وقال: لقيت والله أهوالا؛ زلازل عظاما شدادا، [٨١:و] قال: فقلت: فما كان بعد ذلك؟ قال وما تراه يكون من الكريم؟ قبل منا الحسنات وعفا لنا عن السيئات وضمن عنا التبعات، قال: ثم شهق مالك شهقة خر مغشياً عليه،

قال: فلبث بعد ذلك أياماً مريضاً من غشيته، ثم مات".

وقال صالح المري: "وقف مطرف بن عبد الله بن الشخير، وبكر بن عبد الله المزني بعرفة، فقال مطرف: اللهم لا تردهم اليوم من أجلي، وقال بكر: ما أشرفه من مقام وأرجاه لأهله لولا أني فيهم".

وعن العلاء بن زياد أنه قال: "إنما نحن قوم وضعنا أنفسنا في النار، فإن شاء الله أن يخرجنا منها أخرجنا".

وعن محمد بن واسع أنه قال: "لو كان يوجد للذنوب ريح، ما قدرتم أن تدنوا مني من نتن ريحي".

وعنه أنه لما مرض كثر عواده، فقال لرجل: "أخبرني ما يغني هؤلاء إذا أخذ بناصيتي وقدمي غدا وألقيت في النار، ثم تلا هذه الآية: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (الرحمن: ٤١)".

وعن مالك بن دينار أنه قال له محمد بن واسع: يا أبا يحيى! إن كنت من أهل الجنة فهنيئاً لك. فقال مالك: "ينبغي لنا إذا ذكرنا الجنة أن نخزى".

وعنه أنه قال: "والله لو وقف ملك بباب المسجد، وقال: يخرج شر من في المسجد، لبادرتكم إليه".

وعنه أنه قال له رجل: يا مرائي! فقال: "متى عرفت اسمي؟! ما عرف اسمي غيرك".

وعنه لما حضرته الوفاة قال: "لولا أني أكره أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد قبلي؛ [٨١: ز] لأوصيت أهلي أن إذا أنا مت أن يقيدوني، وأن يجمعوا

يدي إلى عنقي، وأن ينطلقوا بي على تلك الحال حتى أدفن، كما يصنع بالعبد الآبق".

وقال عبد الواحد بن زيد: "إن حبيبا أبا محمد، وهو العجمي؛ جزع جزعاً شديداً عند الموت، فجعل يقول بالفارسية: أريد أن أسافر سفراً ما سافرته قط ... ثم أوقف بين يدي الله، فأخاف أن يقول لي يا حبيب هات تسبيحة واحدة سبحتني في ستين سنة لم يظفر بك الشيطان فيها بشيء، فماذا أقول وليس لي حيلة؟ أقول: يا رب قد أتيتك مقبوض اليدين إلى عنقي" قال عبد الواحد: هذا قد عَبَدَ الله ستين سنة مشتغلا به، و لم يشتغل من الدنيا بشيء قط، فأي شيء وحالنا! واغوثاه بالله".

وعن بشر بن منصور قال: كنت أوقد ناراً بين يدي عطاء السلمي في غداة باردة، فقلت له: يا عطاء! يسرك الساعة لو أنك أمرت أن تلقي نفسك في هذه النار ولا تبعث إلى الحساب؟ فقال لي: "إي ورب الكعبة" قال: ثم قال: "والله مع ذلك لو أمرت لخشيت أن تخرج نفسي فرحاً قبل أن أصل إليها".

وقال عبد الواحد بن زيد: ربما سهرت مفكرا في طول حزن عتبة الغلام، ولقد كلمته ليرفق بنفسه فبكى وقال: "إنما أبكي على تقصيري".

وعن سهل التستري أنه قال: "أول الحجاب الدعوى، فإذا أخذوا في الدعوى حرموا".

وعنه أنه قال: "ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب من الافتقار".

[٨١: ح] وعن شاه بن شجاع الكرماني أنه قال: "لأهل الفضل فضل ما لم يروه، فإذا رأوه فلا فضل لهم، ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها، فإذا رأوها فلا ولاية لهم".

وعن يحيى بن معاذ الرازي أنه قال: "ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من ربه العفو".

وعنه أنه قال: "لا يفلح من شمت منه رائحة الرياسة".

وقال: "ذنوب مزدحمة على عاقبة مبهمة، ثم قال: إلهي سلامة إن لم تكن كرامة".

وعن محمد بن أسلم الطوسي أنه كان يقول: "والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت نفساً تصلى إلى القبلة شرا عندي من نفسي".

وعن إبراهيم بن أدهم؛ أنه كان ناطورا في كَرْمٍ، فمر به رجل فقال: ناولنا من هذا العنب. قال إبراهيم: "ما أذن لي صاحبه". فقلب الرجل السوط، فجعل يقنع رأس إبراهيم، فطأطأ إبراهيم رأسه وقال: "اضرب رأساً طالما عصى الله".

وعن رابعة العدوية قال لها رجل ادعي فالتصقت بالحائط وقالت من أنا يرحمك الله أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطر.

وعن شقيق البلخي أنه قال: "مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة، وهو يخاف أن تحمل شوكاً، ومثل المنافق كمثل رجل زرع شوكاً، وهو يطمع أن يحصد تمراً".

وعن أبي سليمان الداراني أنه قال: "من حسن ظنه بالله، ثم لا يخاف

الله؛ فهو مخدوع".

وعنه أنه قال: "ربما مثل لي رأسي بين جبلين من نار، وربما رأيتني أهوى فيه حتى أبلغ قرارها، وكيف تهنأ الدنيا من كانت هذه صفته".

وعنه أنه قال: "إنما ارتفعوا بالخوف، فإن ضيعوا نزلوا، وينبغي للعاقل وإن بلغ أعلى درجة، [٨١: ط] أن يفزع قلبه بأسفل درجة من ذكر الموت في المقابر والبعث".

وعنه أنه قال: "ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك، وغيرك يفت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد، ولا خير في قلب يتوقع قرع الباب يتوقع إنساناً يجيئه يعطيه شيئاً".

وقال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: إن فلاناً وفلاناً لا يقعان على قلبي، قال: "ولا على قلبي، ولكن لعلنا أتينا من قلبي وقلبك، فليس فينا خير، وليس نحب الصالحين".

وعن الجنيد أنه قال: "لولا أنه يروى أنه يكون في آخر الزمان؛ زعيم القوم أرذلهم، ما تكلمت عليكم ".

والزعيم هو الرئيس، يعني: أني إذا تكلمت عليكم أجعل نفسي رئيسكم، فأنا أخاف من ذلك أن يلزم منه تزكيتي لنفسي، ولكن هذه الرواية دفعت الخوف لأنها تشعر بأني إذا تكلمت عليكم فأنا أرذلكم.

وعن ذي النون المصري أنه قال: "من يطأطأ لقط رطبا، ومن تعالى لقي عطبا".

وعن أبي يزيد البسطامي قال: "لو صفت لي تهليلة؛ ما باليت بعدها

بشيء".

وعنه أنه قال: "ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر".

وعن أبي بكر الهلالي أنه قال: "رموا هممهم إلى أعلى الفضائل، وضيعوا الفرائض، فلا إلى هممهم وصلوا، ولا قاموا بقليل ما به وكلوا، ومن قام بقليل ما وكل به؛ أؤتمن على الكثير، ومن لم يقم بقليل ما وكل به؛ لم يؤتمن على قليل ولا كثير".

وسئل يوسف بن أسباط عن غاية التواضع فقال: "أن تخرج من بيتك فلا تلقي أحداً إلا رأيت أنه خير منك".

وعنه قال: "خرجت سحرا لأؤذن فإذا علي ليل فقعدت فإذا أسود في يده حجر يريد أن يضربني، ووراءه شيء أبيض بيده حجر يريد أن يصرفه عني، فقلت: هذان شيطانان يريدان أن يرياني أني رجل صالح، فقلت: كلاكما شيطان؛ فطارا".

وعن حذيفة بن قتادة المرعشي أنه قال: "إن لم تخش أن يعذبك الله على أفضل عملك فأنت هالك".

وقال: "لو جاءني رجل فقال لي: والله الذي لا إله إلا هو، ما عملك عمل من يؤمن بيوم الحساب. لقلت له: يا هذا! لا تكفر عن يمينك فإنك لم تحنث".

وجاء سعيد بن عبد العزيز إلى سليمان الخواص بصرة، وقال له: تنفق هذا وأنا أحلف لك بين يدي الله تعالى أنه حلال، فقال: "لا حاجة

لي فيها" فقال له: ما ترى ما الناس فيه؟ دعوة. فصرخ سليمان صرخة، ثم قال: "مالك يا سعيد! فتنتني بالدنيا، وتفتني بالدين، مالي والدعاء، من أنا؟!".

وعن فتح الموصلي قال: "كبرت علي خطاياي وكثرت، حتى لقد آيستني من عظيم عفو الله، ثم قال: وإني آيس منك، وأنت الذي جدت على السحرة بعد أن غدوا كفرة فجرة ... ولم يزل يقول وإني آيس منك، حتى سقط مغشيا عليه"[1].

فأما من ذكر من أهل البيت والصحابة فمقامه معروف، وأما من ذكر من غيرهم فعامتهم ممن عرف بالعلم والعمل والزهد والصلاح، واشتهر بالولاية، ونقلت عنهم كرامات كثيرة.

وكثير من الناس يقول في الآثار المتقدمة؛ أنها من باب التواضع، وهذا حق، ولكن ليس المراد بالتواضع؛ أن يخبر المرء عن نفسه بخلاف ما يعتقده؛ فإن هذا كذب، وقد كان السلف أبعد الناس عن الكذب مطلقاً.

وفي ترجمة القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق من تهذيب التهذيب: "وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: رأيت القاسم يصلي، فجاء إليه أعرابي، [٨١: ي] فقال له: أيما أعلم، أنت أو سالم؟ فقال: سبحان

---

(١) ما لم أنسبه من هذه الآثار فهو من كتاب صفة الصفوة، وعامتها في الحلية لأبي نعيم بأسانيدها.

الله. فكرر عليه، فقال: ذاك سالم فاسأله. قال ابن إسحاق: كره أن يقول: أنا أعلم من سالم فيزكي نفسه، وكره أن يقول سالم أعلم مني فيكذب، قال: وكان القاسم أعلمهما.

وأنت ترى في هذه الآثار المتقدمة؛ أن منهم من أقسم بالله تعالى وأكد اليمين.

وفي الآثار المتقدمة الحكم على الناس بأن المدعي محروم، ومن رأى لنفسه فضلاً فلا فضل له، ومن رأى لنفسه ولاية فلا ولاية له، ومن حسن ظنه بالله ثم لا يخاف الله فهو مخدوع، وأن الذين ارتفعوا إنما ارتفعوا بالخوف، فإذا ضيعوا نزلوا، وأن من تعالى لقي عطبا، وأنه ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، وأن التواضع؛ أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا إلا رأيت أنه خير منك، وأنه من لم يخش أن يعذبه الله تعالى على أفضل عمله فهو هالك، وقول الفضيل بن عياض لسفيان بن عيينة: "إن كنت تظن أنه بقي على وجه الأرض شر مني ومنك فبئس ما تظن".

فهذه الآثار تصرح بأن على كل إنسان أن يعتقد في نفسه النقص والتقصير، ويظهر ذلك، ويطهر نفسه من العجب وظن أنه صالح أو فاضل، ومن لم يصنع ذلك فهو متكبر، والمتكبر هالك، فكيف بمن تعدى حسن الظن بنفسه إلى الدعوى والشطح؟! فانظر حال السلف، وحال من بعدهم.

[٨٢] فقد جاء بعد ذلك أقوام يتغالون في مدح أنفسهم وإطرائها،

حتى أن بعضهم ليفضل نفسه على الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ومنهم من يتجاوز ذلك فيزعم أنه العالمين، أو أن رب العالمين لا يقدر على مخالفته، ونحو ذلك ما يسمونه الشطح، ويعدونه من علامات الولاية.

وأقل ما يدل عليه هذا؛ فضل علم السلف على علم الخلف؛ فإن ميزان العلم الخشية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

وفي كتب الزهد والرقائق كلمات كثيرة عن السادة الصوفية في وجوب مقت النفس، وسوء الظن بها، وذم من يزكي نفسه، أو يظن بها خيرا، ولكن أكثر هذه الكتب يشتمل على أدوية وسموم، وإلى الله المشتكي.

وليس مقصودي الطعن في أحد من أولياء الله تعالى والعلماء به - أعوذ بالله من ذلك- وإنما المقصود بيان فضل السلف على الخلف، وإذا لم تثبت العصمة للسلف كما مر، فأولى عن ذلك أن لا تثبت للخلف، فإذا لم يكف في أصول العقائد تقليد أحد من السلف؛ فتقليد الخلف أولى أن لا يكفي.

وأعلم أن الله تعالى قد يوقع بعض المخلصين في شيء من الخطأ، ابتلاء لغيره؛ أيتبعون الحق ويدعون قوله، أم يغترون بفضله وجلالته؟ وهو معذور، بل مأجور لاجتهاده وقصده الخير وعدم تقصيره، ولكن من تبعه مغتراً بعظمته بدون التفات إلى الحجج الحقيقية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يكون معذوراً، بل هو على خطر

عظيم.

[٨٣] ولما ذهبت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى البصرة قبل وقعة الجمل؛ أتبعها أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ ابنه الحسن وعمار بن ياسر رضي الله عنهما لينصحا الناس، فكان من كلام عمار لأهل البصرة أن قال: "والله إنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم بها؛ ليعلم إياهُ تطيعون أم هي"[١].

ومن أعظم الأمثلة في هذا المعنى؛ مطالبة فاطمة عليها السلام بميراثها من أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ابتلاء عظيم للصديق ﷺ، ثبته الله ﷻ فيه.

وأهل العلم إذا بلغهم خطأ العالم أو الصالح وخافوا أن يغتر الناس بجلالته؛ ربما وضعوا من فضله، وغبروا في وجه شهرته، مع محبتهم له ومعرفتهم بمنزلته، ولكن يظهرون تحقيره لئلا يفتتن به الناس.

ومن ذلك ما ترى في مقدمة صحيح مسلم من الحط الشديد على البخاري في صدد الرد عليه في اشتراط ثبوت لقاء الراوي لمن فوقه، حتى لقد يخيل إلى القارئ ما يخيل إليه، مع أن منزلة البخاري في صدر مسلم رفيعة، ومحبته له وإجلاله أمر معلوم في التاريخ وأسماء الرجال.

---

[١] أخرجه البخاري (٦٦٨٧).

وقد يكون من هذا كثير من طعن المحدثين في أبي حنيفة رحمه الله تعالى.

[٨٤] ولعل مما حملهم على هذا؛ علمهم بأن العامة وأشباه العامة يغترون بفضل القائل في نفسه، فإذا قال لهم العلماء: إنه أخطأ مع جلالته وفضله، قالوا: قد خالفتموه وشهدتم له بالجلالة والفضل، فقوله عندنا أرجح من قولكم بشهادتكم، وهكذا قال بعض الناس لعمار ﷺ لما قال مقالته المتقدمة آنفاً: "فنحن مع الذي شهدت له بالجنة يا عمار". يعنون أم المؤمنين.

وبالجملة؛ فمن علم القاعدة الشرعية في تعارض المفاسد؛ لم يعذل العلماء في انتقاصهم من يخافون ضلال الناس بسببه، ولو علم محبو المطعون فيه هذا المعني لما وقعوا فيما وقعوا فيه من ثلب أولئك الأكابر حمية وعصبية، والله المستعان.

فصل

وكثيرا ما يحتج أهل زماننا وما قرب منه بآيات من كتاب الله تعالى، ويفسرونها برأيهم بما لم ينقل عن السلف، ولا تساعده اللغة العربية ولا البلاغة القرآنية، وقد عظم البلاء بذلك حتى إنك لتجد العجمي الذي لا يعرف من العربية إلا بعض المفردات، ولا يستطيع أن يكتب سطرين أو ثلاثة بدون لحن، وهو يفسر القرآن [٨٥] برأيه.

وهكذا يصنعون بالأحاديث الثابتة، مع أنهم يشددون النكير على مخالفهم إذا احتج عليهم بآية أو حديث، وأوضح تفسيرها بالحجج الصحيحة، ونقل عن تفسير السلف ما يوافق قوله، أو يشهد له، ويقولون: إن الفهم من الكتاب والسنة خاص بالمجتهدين، فأما إذا خالف أحد قول إنسان يعتقدون فيه الإمامة أو الولاية؛ فإنهم يكفرونه أو يضللونه، ويشددون عليه النكير، ويقولون: انظروا إلى هذا الضال المضل، يزعم أنه فهم من الكتاب أو السنة ما لم يفهمه الإمام فلان، أو الشيخ فلان، أو نحو ذلك.

ومن البلاء العظيم؛ أن هؤلاء الجهال هم في نظر العامة هم الرؤساء في الدين، وذلك مصداق حديث الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً،

اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا"[١].

نعم قد بقى في الناس أفراد من العلماء مصداقاً لحديث الصحيحين: "لا تزال [٨٦] طائفة من أمتي قائمة على الحق" وهو مبين لحديث ابن عمرو، والله أعلم.

ولكن يكاد يكون وجود أولئك الأفراد كعدمهم، لأنهم غرباء، لا ترى العامة إلا أنهم مبتدعون ضلال، والرياسة الدينية بيد غيرهم.

والمقصود هاهنا؛ النصيحة للمسلمين أن لا يغتر أحد منهم بأحد ممن يحتج بالكتاب والسنة على الأمور المشتبهة، وعليه أن ينظر لنفسه إن كان أهلاً، أو يطلب العلم لتصير له أهلية، أو يعمل بالاحتياط، فإنه لا عسر فيه، والله أعلم.

---

(١) صحيح البخاري (١٠٠)، وصحيح مسلم (٢٦٧٣).

فصل

وكثيرا ما يحتجون بالأحاديث الموضوعة والضعيفة، وكذلك بالآثار المكذوبة عن السلف، أو التي لم تصح، فمنهم من يكتفي بذكر الحديث أو الأثر ونقله عن كتاب معروف ولا يبين حاله من صحة وعدمها، إما لجهله بهذا العلم الجليل؛ وهو معرفة علوم الحديث، وإما لأنه لما رأي ذلك الحديث أو الأثر موافقا لهواه اعتقد صحته، وإما لغير ذلك.

ومنهم من يحكي عن بعض [٨٧] المتأخرين؛ كالسبكي، وابن حجر، وابن الهمام، والسيوطي، ونحوهم؛ أنهم صححوا ذلك الحديث أو الأثر، أو حسنوه، ويكون جهابذة العلم من السلف قد ضعفوا ذلك الحديث، أو حكموا بوضعه، وهم أجل وأكمل من المتأخرين، وإن كان بعض المتأخرين أولي علم وفضل وتبحر، ولكننا رأيناهم يتساهلون في التصحيح والتحسين، ويراعون فيه بعض أصول الفن، ويغفلون عما يعارضها من الأصول الأخرى، وفوق ذلك أن السلف كانوا أبعد عن الهوى.

ومن هنا قال ابن الصلاح: "إن باب التصحيح والتحسين قد انسد، ولم يبق فيهما إلا النقل عن السلف". وهذا القول خطأ، ولكنه يعين على ما نريده؛ وهو وجوب الاحتياط فيما يصححه المتأخرون أو يحسنونه.

وهكذا جماعة من المتقدمين لا يغتر بتصحيحهم؛ كالحاكم وابن حبان، بل والترمذي؛ ولاسيما تحسينه.

وهؤلاء أئمة كبار؛ ولكن الحاكم كان همه في كثرة الجمع ليرد على

من قال من المبتدعة: أنه لم يصح عند أهل الحديث إلا ما في صحيحي البخاري ومسلم، كما ذكر هذا مقدمة مستدركه، فجمع و لم يحقق و لم ينتقد، وكان عزمه أن ينظر في الكتاب مرة [٨٨] أخرى ليخرج منه ما ليس من شرطه، ولكنه لم يتمكن من ذلك كما ذكره السخاوي في فتح المغيث[1].

وقد انتقد أحاديثه الذهبي وابن دقيق العيد، وطبع كتاب الذهبي مع المستدرك، ولكني وجدته يتسامح أيضاً، فكثيرا ما يكون في الحديث رجل مدلس و لم يصرح بالسماع، أو رجل اختلط بآخره وإنما أخرج له الشيخان أو أحدهما مما سمع منه قبل الاختلاط، أو رجل ضعيف قد انتقد الأئمة مسلما أو البخاري في الرواية له في الصحيح، أو رجل عن رجل كان يضعف في روايته عنه وإنما روى له الشيخان مما رواه عن غيره، أو رجل كان يضعف في حفظه وإنما أخرج له الشيخان أو أحدهما مما حدث به من كتابه، أو رجل ضعيف أخرج له الشيخان أو أحدهما في المتابعات والشواهد إلى غير ذالك.

وفي شروط الأئمة الخمسة للحازمي بسنده إلى سعيد بن عمرو هو البرذعي قال: "شهدت أبا زرعة ... وأتاه ذات يوم وأنا شاهد رجل بكتاب "الصحيح" من رواية مسلم، فجعل ينظر فيه، فإذا حديث عن

---

[1] فتح المغيث (ص: ١٣).

أسباط بن نصر، فقال أبو زرعة: ما أبعد هذا من الصحيح يدخل في كتابه أسباط بن نصر ؟! ثم رأى في كتابه قطن بن نسير وصل أحاديث عن ثابت فجعلها عن أنس، ثم نظر فقال: يروي عن أحمد بن عيسى المصري في كتابه "الصحيح"! قال لي أبو زرعة: ما رأيت أهل مصر يشكون في أن أحمد بن عيسى وأشار أبو زرعة بيده إلى لسانه كأنه يقول: الكذب ... فلما رجعت إلى نيسابور في المرة الثانية ذكرت لمسلم بن الحجاج ... فقال لي: إنّ ما قلت صحيح، وأنا أدخلت من حديث أسباط بن نصر، وقطن وأحمد؛ ما قد رواه الثقات عن شيوخهم، إلا أنه وقع لي عنهم بارتفاع ..."[1].

أقول: وقد وافقه البخاري على الإخراج لأحمد بن عيسى، وعذره عذره، وقد قال أبو داود: كان ابن معين يحلف أنه كذاب. وقد تأول ابن حجر في تهذيب التهذيب ذلك بما حاصله: أنه كان يكذب في السماع لا أنه يضع الحديث اختلاقا؛ وهذا لا يدفع الجرح، والله أعلم.

ومع هذا يسكت الذهبي عن بيان ذلك، وهكذا يسكت عن علل أخرى تكون في الأحاديث، والله المستعان.

وأما ابن حبان؛ فمن أصله كما نبه عليه في كتابه الثقات أن المجهول إذا روى عن ثقة وروى عنه ثقة، ولم يكن حديثه منكرا؛ فهو ثقة يذكره

---

[1] شروط الأئمة الخمسة (ص: ٢٣-٢٤).

في ثقاته، ويخرج حديثه في صحاحه، ووافقه على هذا شيخه ابن خزيمة، إلا أنه أشد احتياطا منه، وكذلك الدارقطني.

ويظهر لي أن الكعبي العجلي صاحب الثقات كذلك.

وهذا قول واه مخالف لما عليه جمهور الأئمة، والأئمة المجتهدون وجهابذة الفن والنظر الصحيح يأباه.

وأما الترمذي فله اصطلاح في التحسين والتصحيح؛ وهو أن الحديث إذا روي من طريقين ضعيفين فأكثر يسميه حسناً، والأئمة المجتهدون وغيرهم [٨٩] من الجهابذة؛ لا يعملون بهذا الإطلاق، بل يشترطون أن تحصل من تعدد الطرق مع قوة رواتها؛ غلبة ظن للمجتهد بثبوت الحديث، فإن لم تحصل هذه الغلبة فلا أثر لتعدد الطرق، وإن كثرت.

والمتأخرون يعرفون هذا الشرط، ولكنهم كثيراً ما يتغافلون عنه، وربما توهم أحدهم أنه قد حصلت له غلبة ظن، وإنما حصلت له من جهة موافقة ذلك الحديث لمذهبه، أو لمقصوده، والله المستعان.

بل إن في الصحيحين أو أحدهما؛ أحاديث قد انتقدها الحفاظ، مثل حديث البخاري (٦١٣٧) حدثنا محمد بن عثمان، حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان بن بلال، حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا

أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته".

فهذا الحديث قد تكلم فيه الذهبي في الميزان في ترجمة خالد بن مخلد، ولم يخرجه الإمام أحمد في المسند.

وخالد بن مخلد، قال فيه الإمام أحمد: له أحاديث مناكير.

وقال ابن سعد: كان متشيعا، منكر الحديث في التشيع مفرطا، وكتبوا عنه للضرورة.

وقال صالح جزرة: ثقة في الحديث إلا أنه كان متهما بالغلو، وقال الأعين: قلت له: عندك أحاديث في مناقب الصحابة؟ قال: قل في المثالب أو المثاقب! [ملحق: ٨٩].

وقال أبو حاتم: يُكتب حديثه ولا يحتج به.

وذكره الساجي والعقيلي في الضعفاء.

وقال ابن معين ما به بأس.

وحاصل القول فيه: أنه صدوق يهم ويخطئ، ويأتي بالمناكير ولا سيما في التشيع، فإنه كان غالياً فيه، ومثل هذا يتوقف عما انفرد به، ويرد ما انفرد به مما فيه تهمة تأييد لمذهبه، وقد تفرد بهذا الحديث كما ذكره الذهبي، وكذا الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح.

وفي هذا الحديث تهمة تأييد لمذهب غلاة الرافضة في الاتحاد

والحلول، وإن لم ينقل مثل ذلك عن خالد، وقد أُسندت إلى هذا الحديث بدع وضلالات تصطك منها المسامع، والله المستعان.

وفي سنده أيضاً؛ شريك بن عبد الله بن أبي نمر، وحاصل كلامهم فيه: أنه صدوق يخطئ، وقال الحافظ في الفتح -بعد أن نقل كلام الذهبي، والكلام في شريك-: "ولكن للحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً" ثم ذكر الحافظ تلك الطرق، وعامتها ضعاف، إلا أنه ذكر أن الطبراني أخرجه من طريق يعقوب بن مجاهد عن عروة عن عائشة، وأن الطبراني أخرجه عن حذيفة مختصراً، قال: "وسنده حسن غريب"[1].

أقول: أما رواية حذيفة فمع الغرابة؛ هو مختصر، وكأنه ليس فيه تلك الألفاظ المنكرة، وينبغي النظر في سنده، فإن الحافظ ربما تسامح في التحسين، وكذا ينبغي النظر في سند الطبراني إلى يعقوب بن مجاهد، فأخشى أن يكون فيه وهم، فإن المشهور رواية عبد الواحد بن ميمون عن عروة، وعبد الواحد متروك الحديث.

وبالجملة؛ فاقتصار الحافظ على قوله: إن تلك الطرق "يدل مجموعها على أن له أصلاً" ظاهر في أنه ليس في شيء منها ما يصلح للحجة، ودلالة مجموعها على أن له أصلا لا يكفي في إثبات هذه الألفاظ المنكرة، ولو علم البخاري -رحمه الله- أن من تلك الألفاظ ما يزعمه الملحدون؛

---

[1] فتح الباري (١١: ٣٤١).

لما ذكر هذا الحديث في صحيحه، وهذا من المهمات، فإن كثيرا من الأئمة قد يقبل الحديث لأنه يحمله على معنى له شواهد وعواضد؛ بمعونتها يستحق القبول، فيجيء بعض الناس يحتج بالحديث على معنى منكر، قائلاً: قد قبله فلان من الأئمة! فليتنبه لهذا.

ومما ينبغي التنبه له أيضاً: أن الشيخين أو أحدهما قد يوردان في الصحيح حديثاً ليس بحجة في نفسه، وإنما يوردانه لأنه شاهد لحديث آخر ثابت، ثم قد يكون في هذا الحديث الذي ذكراه شاهدا؛ زيادة لا شاهد لها، فيجيء من بعدهما يحتج به بالنسبة لتلك الزيادة، وربما حمل الحديث على معنى آخر غير المعنى الذي فهمه صاحب الصحيح وبني عليه أنه شاهد للحديث الآخر.

وبالجملة فمن أراد الاحتجاج بالحديث لا يستغني عن النظر في إسناده، بعد أن يكون له من المعرفة ما يؤهله لهذا الأمر، وإلا أوشك أن يضل ويضل والله الموفق.

ومن أهل زماننا وما قرب منه؛ من يترقى فيذكر الراوي وبعض ما قيل فيه من جرح أو تعديل، ولكن كثيرا منهم، أو أكثرهم؛ يكون زمامه بيد الهوى، فإن كان الحديث موافقا له؛ نقل ما قيل في الرجل من الثناء، وأعرض عما قيل من الجرح، وإن كان مخالفا لهواه؛ نقل ما قيل فيه من الجرح وسكت عن الثناء.

وأكثرهم ليس عندهم من التبحر في العلم، وممارسة الفن؛ ما يؤهلهم للترجيح ومعرفة العلل.

وأعظم ما عند أحدهم أن يتمسك بظاهر قاعدة من قواعد الفن، فإن كان الحديث موافقاً له؛ تمسك بقولهم: "إن الجرح لا يقبل إلا مفسراً"، أو "إن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يلتفت إليه"، أو [٩٠] "إن المتصلب في مذهب يجب التأني في قبول كلامه في أهل المذهب الآخر"، أو نحو ذلك.

وإن كان مخالفاً له تمسك بقولهم: "الجرح مقدم على التعديل ونحوها".

فأما جهلهم بالعلل فحدث عنه ولا حرج، وغاية أحدهم أن ينقل عن بعض أهل العلم تعليل الحديث، أو يتنبه هو للعلة -إن تنبه- ثم يعمل في ذلك عمله في الجرح والتعديل، فإن كان الحديث موافقا له؛ تمسك بقولهم: "المثبت مقدم على النافي"، أو "زيادة الثقة مقبولة"، أو "إن من الأئمة من يقبل المرسل والمنقطع مطلقاً"، أو "إن تصحيح بعض العلماء للحديث؛ يدل أنه علم أن المدلس قد سمع الحديث ممن عنعنه عنه"، أو يدل "أن الراوي سمع هذا الحديث من شيخه قبل الاختلاط".

وإن كان مخالفاً له قال: "إن النافي كان أحفظ من المثبت"، "والساكتين جماعة والذي زاد واحد"، وأعل بالإرسال، والانقطاع، وبعنعنة المدلس، واختلاط الشيخ، ولم يعرج على ما يخالف ذلك، أو أشار إليه، ونقل رده عن بعض العلماء، وهكذا.

وهذه القواعد منها ما هو ضعيف، ومنها ما ليس بكلي، ومنها المختلف فيه، والعالم المتبحر الممارس [٩١] للفن هو الذي يصلح أن يحكم

في ذلك؛ بشرط براءته عن الهوى، والتجائه إلى الله تعالى دائماً أن يوفقه لإصابة الحق.

وكثيرا ما يحتج المتأخرون بالحديث مع اعترافهم بضعفه، ولكن يستندون إلى ما قاله النووي -وتبعه كثير ممن بعده من الشافعية والحنفية وغيرهم-: "إن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال بشروط" ذكرها الحافظ ابن حجر وغيره، وقد عارضه القاضي أبو بكر ابن العربي مؤلف أحكام القرآن، وشرح الترمذي، وغيرهما، بأن الفضائل إنما تتلقى من الشارع، فإثباتها بالضعيف؛ اختراع عبادة وشرع في الدين لما لم يأذن به الله، ومما شُرط لجواز العمل أن لا يعتقد السنية أي الاستحباب ذكره الخطيب الشربيني في شرح المنهاج[1].

ورده ابن قاسم بأنه لا معنى لجواز العمل في فضائل الأعمال إلا أنه يكون مطلوباً طلباً غير جازم وكل ما كان كذلك فهو سنة ...[2].

[3][٣٩٧] يجيء في القرآن بهذا المعنى أن المراد الرؤساء الذين يطيعونهم

---

(١) مغني المحتاج (١: ٢٤٠).

(٢) انظر حواشي الشرواني على التحفة.

(٣) [هنا سَقْطٌ، وهذا الجزء استله الشيخ -رحمه الله- من الكتاب وجعله في جزء مفرد، وسماه: "أحكام الحديث الضعيف". وقد سبق الكلام عليه في المقدمة].

ويتدينون بما يخترعون لهم على أنه من الدين[(١)].

فيعلم من هذه الآية[(٢)]، ومما قبلها أنَّ شرع الدين خاص بالرب، فمن ادعى أن له حقا أن يشرع، وأن ما شرعه يكون دينا؛ فقد ادعى الربوبية، ومن قال في شخص أن له حقاً أن يشرع، وأن ما شرعه يكون ديناً؛ فقد اتخذه رباً، وجعله شريكا لله ﷻ، وذلك تأليه له وعبادة وشرك بالله تعالى.

وقد مر قول الزجاج، ونقله ابن هشام في المغني؛ أن المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ...﴾ الآية (الأنعام: ١٥١) قال: "الأصل أبين لكم ذلك لئلا تشركوا، وذلك لأنهم إذا حرم عليهم رؤساؤهم ما أحلّه الله سبحانه وتعالى فأطاعوهم أشركوا؛ لأنهم جعلوا غير الله بمنزلته"[(٣)].

وبعد؛ فقد ثبت أن اليهود كانوا يعلمون أن حد الزاني المحصن الرجم، وأن ذلك في التوراة حق، فشرع لهم أحبارهم الاكتفاء بالجلد والتحميم، فاتخذوا ذلك دينا، يزعمون أن الله يحبه ويرضاه.

---

(١) [المراد قوله ﷺ: "اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا" كما سبق (ص: ١٠٨)].

(٢) [المراد قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله﴾ (التوبة: ٣١)].

(٣) مغني اللبيب (١: ٩٤).

وأما النصارى فأمرهم أظهر، فقد ثبت عندهم أن عيسى عليه السلام أخبرهم أنه لم يبعث لنسخ التوراة، وإنما بعث لتثبيتها، [٣٩٨] ثم خرج أحبارهم فأبطلوا أحكام التوراة التي كان عيسى نفسه يعمل بها، كالختان، وتحريم لحم الخنزير، وتحريم السبت، وغيرها؛ زاعمين أن ما شرعه بولس وغيره يكون دينا يحبه الله ويرضاه.

وهكذا مشركو العرب كانوا يزعمون أن ما شرعه عمرو بن لحى وأضرابه دين يحبه الله ويرضاه، ولما كان يوم الفتح أخرجت من الكعبة صورتا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بهما قط"[١].

فقد زعم المشركون أن الاستقسام بالأزلام دين يحبه الله ويرضاه، حتى صوروا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام؛ مع علمهم بأنهما لم يستقسما بها قط، وإنما أحدثها بعض الرؤساء.

وقال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِـلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٩٣) (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ (آل عمران: ٩٣، ٩٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٤).

[٣٩٩] وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة: ١٠٣).

والقرآن يقسم الكفر إلى قسمين: الكذب على الله، والتكذيب بآياته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٨).

وفي القرآن آيات أخرى بمعناه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام إنكاري، أي: لا أحد أظلم منه، فعلم من ذلك أن ذلك يكون شركاً؛ لأنه لو لم يكن شركا لكان الشرك أعظم منه؛ لقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ (النساء: ٤٨).

فأما أرواح الموتى؛ فعبادتها من جنس عبادة الجن عند بعض الناس، ومن جنس عبادة الملائكة عند آخرين، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

القبور والآثار

[٤٠٠] عبادة القبور والآثار؛ إنما تكون تعظيما للقبور أو صاحب الأثر، على نحو ما تقدم في شأن الأصنام، حيث تعبد تعظيما للأشخاص التي هي تماثيل لهم، فأما الفصل بين ما يكون شركا من احترام القبور والآثار، وما لا يكون شركاً، بل قد يكون مشروعاً، فسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الجن

كان أهل الجاهلية يتعوذون برؤساء الجن من شر عامتهم كما تقدم، ونجد الآن كثيرا من الناس ينذرون للجن، ويذبحون لأجلهم، ويصنعون لهم الأطعمة، ثم يضعونها في الصحاري بالليل، ويزعمون أن الجن يأكلون ذلك، وينفعون مقربه، أو يكفون عنه الإضرار به، أو يدفعون عنه ضرر بعضهم، أو يبينون لهم بواسطة الكاهن شيئا مغيباً؛ كسرقة، أو حال رجل غائب، أو حقيقة مرض وعلاجه، أو نحو ذلك.

والمعزمون كثيراً ما يفزعون إلى ذلك إذا أوتوا بمصاب، وربما يفزعون إلى عبادة الكواكب، [٤٠١] وأحسنهم حالاً من يعتمد الأوفاق المبنية على الحساب، ومراعاة النجوم، ونحو ذلك، وسيأتي قول الشهرستاني إن ذلك كله مأخوذ عن الصابئة، وإنما يحمل المعزمين على ذلك أنه ليس لديهم من الإيمان والتقوى ما يرعب الشياطين ويطردها، فهم يلجأون إلى ترضى الشياطين، والتقرب إليهم، وفعل ما يحبون، وإن

كان في ذلك ذهاب الدين، والله والمستعان.

وقد رأيت من يعتقد أن التقرب إلى الجن شرك بمثل ما مر، ولكنه إذا مرضت زوجته أو ابنه، وقال له المعزم يعمل كما يعمل الناس من التقريب للجن؛ أقدم على ذلك إما مرتابا في عقيدة -وهو الغالب- وإما بائعا دينه بما يرجوه من منفعة عاجلة بشفاء مصابه، وإما قائلا غلبتنا النساء.

فأما عامة الناس فإنهم يزعمون أن حصول النفع حجة للجواز، بل وللاستحباب، وقد يبالغ بعضهم فيدعي الوجوب؛ كأنهم لا يعلمون أن السحر تحصل بسببه منفعة للساحر وغيره ممن يريد الساحر نفعه؛ وهو مع ذلك كفر.

وعباد الأصنام يزعمون أنه يحصل لهم منافع بعبادتها، وهكذا عباد الشياطين؛ تساعدهم الشياطين [٤٠٢] بأعمال كثيرة، وتلك المنافع عارضة سرعان ما تزول وتعقبها مضار شديدة، وعلى فرض أنها دامت للإنسان مدة حياته؛ فحسبه ما يلقاه من غضب الله ﷻ وعذابه بعد مماته.

ولعلك قد سمعت بمن يترك الصلاة المفروضة من المسلمين، ثم يبدو له أن يحافظ عليها، فيصلي عدة صلوات، ثم يدعها زعما أنه عرضت له مصائب ومضار، فلما ترك الصلاة زالت تلك المضار، حتى أن من هؤلاء من يقول: الصلاة نحس، والسبب في هذا الأمر؛ أن الله ﷻ غني عن عباده، لا يقبل إلا طيباً، وهؤلاء الجهال إنما يحملهم على الصلاة الرغبة في أن تحصل لهم منافع دنيوية؛ فيقدمون عليه على سبيل التجربة بلا يقين ولا

إيمان ولا إخلاص، فيبتلي الله ﷻ إخلاصهم بما يصيبهم من الامتحان، فأما من ثبت وكان عنده إيمان وتصديق؛ فإن تلك الأمور التي يراها مصائب تزول عنه، بل تنقلب منافع وفوائد، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ [٤٠٣] مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ (محمد: ٣١).

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (١٥٥) (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) (١٥٦) (أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٧)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (١٦٥) (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ) (١٦٦) (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ (آل عمران: ١٦٧)، نزلت هذه الآية فيما أصاب المسلمين يوم أحد؛ إذ قتل منهم حمزة عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سبعين، وقلَّ رجلٌ من سائر المسلمين إلا أصابه جرح، حتى لقد جرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأبي هو وأمي، فكسرت رباعيته، وجرحت

[٤٠٤] شفته، وجبهته، ووجنته، ودخل فيها حلقتان من حلق المغفر، وقد أخبر تعالى أن ذلك بإذنه ليبلوهم، فكما كان الابتلاء هنالك بواسطة المشركين، فهكذا قد يكون الابتلاء بواسطة الشياطين، كأن يشرع المسلم في عمل صالح، فتعدو عليه الشياطين بالإيذاء والإضرار، وكل ذلك بإذن الله تعالى، فإذا ثبته الله تعالى وصبر؛ جبر الله تعالى مصابه، وأثابه عليه، وإن كف عن ذلك العمل الصالح؛ فقد تبين كذبه، فإن اندفعت عنه تلك المصائب بعد؛ فلهوانه على الله تعالى، وهكذا قد يقدم على العمل السيئ؛ فتناله منافع وفوائد دنيوية، فإن تداركه الله ﷻ؛ علم أن ذلك ابتلاء، فكف عنه وزهد في تلك المنافع، وإلا فكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨).

[٤٠٥] ومن دقائق هذا الباب؛ أن العبد إذا أراد الرجوع إلى طاعة الله تعالى أحب الله تعالى أن يطهره مما سبق من ذنوبه، وأن يبتليه ليتبين ثباته وصدقه، ويوافق ذلك طمع الشياطين في هذا الرجل أنهم إذا آذوه وأضروا به؛ ترك ذلك العمل الصالح، فعن هذا يناله ما يناله، فإذا وفقه الله تعالى وثبته؛ كان ما أصابه من الشياطين تطهيرا لما سبق من ذنوبه، وزيادة له في رفع درجاته، وسرعان ما تزول تلك المضار بزوال سببها، ويجبره الله تعالى ويرفعه، وإن جزع من تلك المضار؛ فترك ذلك العمل الصالح، فقد ترتفع عنه المضار، وذلك شر له عاجلاً وآجلاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وربما تصيب تلك المضار من لا ذنب له سابقاً، ولا يراد ابتلاؤه في

نفسه، وإنما يراد بذلك ابتلاء غيره، وهذا كما جرى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد، إنما أريد بذلك ابتلاء المسلمين ورفع درجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

[٤٠٦] ويحكى إن رجالاً كانوا يضيعون الفرائض، ويرتكبون المنكرات، ويدعون مع ذلك أنهم من الصالحين، فينكر عليهم رجال من أهل العلم والدين، فتصيب هؤلاء المنكرين مصائب يعدها الناس كرامات لمرتكبي المنكرات، وأنت إذا تدبرت ما سبق؛ علمت الحقيقة، والله المستعان.

وفي قصة أيوب النبي عليه السلام ما يعينك على فهم ما قدمناه.

والمقصود هاهنا؛ أن الدين كما يعرفه أهل العلم: وضع إلهي سائق لذوى العقول إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، وشرعه خاص بالله تعالى، وأما ما جاء في بعض الآثار مما يوهم أن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يشرع؛ فليس على حقيقته، ولكن الله تعالى ربما يخير رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في أمر بعينه، ويعلمه أنه إذا اختار أن يكون شرعاً لأمته فقد شرعه الله ﷻ، وهذا كما في حديث الحج؛ إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم: "أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا" فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم: "لو قلت نعم [٤٠٧] لوجبت..." الحديث[١].

وكما في الحديث الآخر: "لو لا أن أشق على أمتي؛ لأمرهم بالسواك عند كل صلاة"[٢].

وقد أكمل الله الدين وأتمه في حياة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ونزل في عصر يوم المنحر من حجة الوداع قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنحو ثلاثة أشهر: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣)، فما لم يكن ديناً في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لا يكون ديناً بعده.

والكلام على هذه الآية، وهذا المعنى، ونقل كلام السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الدين؛ مبسوط في موضع آخر.

فالدين إنما يؤخذ من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يقل أحد من أهل العلم: إن الدين يؤخذ بالتجربة، ولكن كثيراً ممن يظن بهم الصلاح، وهم عن حقيقة الدين غافلون، أخذوا يشرعون في دين الله ﷻ بغير إذنه، ويعتمدون في ذلك على التجربة.

ولقد دار بيني وبين بعض الناس كلام -سأذكره مع زيادة في جوابي- سألني عن وضع أظفار الإبهامين على [٤٠٨] الشفتين والعينين

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٧)، ومسلم (٢٥٢).

عندما يقول المؤذن: أشهد أن محمدا رسول الله؟ فقلت: بدعة، وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما نقوله عند سماع الأذان وبعده، فنجد أكثر الناس تاركين لذلك، محافظين على هذا الفعل، وهذا شأن البدع؛ لأن الشيطان يحرص على أن يشغل الناس بها ويقنعهم بها عن العبادات، فقال السائل: فهل ورد حديث في هذا الفعل؟ قلت: قد روي في ذلك حديث نص الأئمة على أنه كذب موضوع، ليس من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، على أنه لو لم يكن موضوعا وكان ضعيفاً؛ لما جاز العمل به إجماعا، أما على القول بأن العمل بالضعيف لا يجوز مطلقا فواضح، وهذا هو الحق كما حققناه في موضع آخر.

ونقل الإجماع على خلافه سهو، وأما على قول من زعم أن الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال؛ فلجواز العمل عندهم شرائط، منها؛ اندراج ذلك الفعل تحت عموم ثابت، وهذا الفعل ليس كذلك. فقال السائل: إذا كان قد روي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فينبغي أن يقبل. قلت: نعم، إذا كانت الرواية صالحة [٤٠٩] للاعتماد، فأما إذا لم تكن صالحة؛ فإنه يجب اطراحها، هذا حكم الإسلام؛ لأن الناس قد كذبوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمداً وخطأً. قال السائل: فقد كان رجل يعتاد هذا الفعل حتى قال رجل من علماء الوهابية إن هذه بدعة؛ فصدقه وترك ذلك الفعل، ثم أصابه وجع في عينيه، فاختلف إلى الأطباء يداوي عينيه، ودام على ذلك مدة والوجع باق، حتى قيض له رجل من المتصوفة ساءله حتى أخبره أنه كان يعتاد هذا

الفعل حتى نهاه عنه ذلك الوهابي، فقال له: أخطأت بموافقة الوهابي، ارجع إلى ما كنت تفعله، فعاد لذلك الفعل، فلم يثبت أن ذهب عنه الوجـــع. قلت: هذه تجربة والدين لا يؤخذ بالتجربة.

وقد أخرج أبو داوود وغيره، عن زينت امرأة عبد الله بن مسعود، أن عبد الله رأى في عنقي خيطا، فقال: ما هذا؟ فقلت: خيط رقي لي فيه. قالت: فأخذه وقطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله أغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن الرقي والتمائم والتولـــة شرك" فقلت: لم تقول هكذا؟ لقد [٤١٠] كانت عيني تقـــذف، وكنـــت اختلف إلى فلان اليهودي فإذا رقاها سكنت. فقال عبد الله: إنما ذلـــك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقى كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي: كما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شـــفاء لا يغـــادر سقماً" وسيأتي هذا الحديث وبسط الكلام عليه في بحث الرقى إن شـــاء الله.

قلت: وقد عظمت المصيبة بهذا الأمر، فتجد كثيراً من أهل الخـــير والصلاح يعرض عن كتاب الله تعالى، والأذكار المأثورة عن النبي صـــلى الله عليه وآله وسلم، ويواظب على الأحزاب والأوراد المنقولة عن بعض المشهورين بالصلاح؛ اعتمادا على فضائل ومنافع ذكرت لتلك الأحزاب والأوراد، ولو استغنى بكتاب الله ﷻ، وبالأذكار الثابتة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لكان خيراً له، فإن الفضائل التي تذكر لتلك الأحـــزاب

والأوراد ليست مما يعتمد عليه؛ لأنها من زعم رجل من أفراد الأمة ليست ثابتة عن الله ﷻ، ولا عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، على أن كثيراً منها ينكرها الشرع -إذا عرفت حقيقة الشرع- ولبعضها هيئات تدخل في البدع المنكرة، ولعلك إذا تدبرت رسالتي هذه؛ علمت أن الأمر أشد من ذلك، والله المستعان.

الكواكب

[٤١١] أما قوم إبراهيم عليه السلام فقد قال الشهرستاني في الملل والنحل: "أصحاب الهياكل والأشخاص، وهؤلاء من فرق الصابئة، وقد أدرجنا مقالتهم في المناظرات جملة ونذكرها هاهنا تفصيلا:

اعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أنه لابد للإنسان من متوسط، ولابد للمتوسط من أن يرى فيتوجه إليه، ويتقرب به، ويستفاد منه؛ فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع فتعرفوا:

أولا: بيوتها ومنازلها.

وثانيا: مطالعها ومغاربها.

وثالثا: اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها.

ورابعا: تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها.

وخامساً: تقدير الأمور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها.

فعملوا الخواتيم، وتعلموا العزائم، والدعوات، وعينوا ليوم زحل – مثلا– يوم السبت، وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختموا بخاتمة المعمول على صورته وهيئته وصنعته، ولبسوا اللباس الخاص به، وبخروا ببخوره الخاص، ودعوا بدعواته الخاصة، وسألوا حاجتهم منه -الحاجة التي تستدعي من زحل، من أفعاله وآثاره الخاصة به– فكان يقضي حاجتهم، [٤١٢] ويحصل في الأكثر مرامهم.

وكذلك رفع الحاجة التي تختص بالمشتري في يومه وساعته وجميع

الإضافات التي ذكرنا إليه، وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب، وكانوا يسموها أربابا آلهة، والله تعالى هو رب الأرباب وإله الآلهة.

ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب.

فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيات، ويتقربون إلى الروحانيات تقربا إلى الباري تعالى؛ لاعتقادهم بأن الهياكل أبدان الروحانيات، ونسبتها إلى الروحانيات كنسبة أجسادنا إلى أرواحنا، فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات، وهي تتصرف في أبدانها تدبيرا وتصريفا وتحريكاً، كما يتصرف في أبداننا، ولا شك أن من تقرب إلى شخص؛ فقد تقرب إلى روحه.

ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منه العجم، وهذه الطلسمات المذكورة في الكتب، والسحر، والكهانة، والتنجيم، والتعزيم، والخواتيم، والصور، كلها من علومهم.

وأما أصحاب الأشخاص فقالوا: إذا كان لابد من متوسط يتوسل به وشفيع يتشفع إليه.

والروحانيات -وإن كانت هي الوسائل- لكننا إذا لم نرها بالأبصار، ولم نخاطبهم بالألسن؛ لم يتحقق التقرب إليها إلا بهياكلها، [٤١٣] ولكن الهياكل قد ترى في وقت ولا ترى في وقت، لأن لها طلوعا وأفولا وظهوراً بالليل وخفاء بالنهار، فلم يصف لنا التقرب بها، والتوجه إليها، فلابد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا، فنعكف عليها ونتوسل بها إلى الهياكل، فنتقرب بها إلى الروحانيات،

ونتقرب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى، فنعبدهم ليقربونا إلى زلفى.

فاتخذوا أصناما أشخاصا على مثال الهياكل السبعة، كل شخص في مقابلة هيكل، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل -أعني: الجوهر الخاص به، من الحديد وغيره، وصوروه بصورته على الهيئة التي تصدر أفعاله عنه- وراعوا في ذلك الزمان والوقت والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية، من اتصال محمود يؤثر في نجاح المطالب التي تستدعى منه، فتقربوا منه في يومه وساعته، وتبخروا بالبخور الخاص به، وتختموا بخاتمه، ولبسوا ثيابه، وتضرعوا بدعائه، وعزموا بعزائمه، وسألوا حاجتهم منه، فيقولون: كان يقضي حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها، [٤١٤] وذلك هو الذي أخبر التنزيل عنهم بأنهم عبدة [الكواكب و] الأوثان.

[فأصحاب الهياكل: هم عبدة الكواكب] إذ قالوا بإلهيتها كما شرحنا.

وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان؛ إذ سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقد ناظر الخليل عليه الصلاة والسلام هؤلاء الفريقين، فابتدأ بكسر مذاهب أصحاب الأشخاص، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ٨٣).

وتلك الحجة أن كسرهم قولا بقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٥، ٩٦).

ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية، ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام لا من غيره؛ كان أكثر الحجج معه، وأقوى الإلزامات عليه؛ إذ قال لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٧٤).

وقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾ (مريم: ٤٢) لأنك جهدت كل الجهد، واستعملت كل العلم، حتى عملت أصناما في مقابلة [٤١٥] الأجرام السماوية، فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعا وبصرا، وأن تغني عنك، وتضر وتنفع، وإنك بفطرتك وخلقك أشرف درجة منها؛ لأنك خلقت سميعا بصيرا ضارا نافعاً، والآثار السماوية فيك أظهر منها في هذا المتخذ تكلفا، والمعمول تصنعا، فيا لها من حيرة، إذ صار المصنوع بيديك معبودا لك، والصانع أشرف من المصنوع، ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾ (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ (مريم: ٤٤ – ٤٥).

ثم دعاه إلى الحنيفية الحقة: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ (مريم: ٤٣)، ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مريم: ٤٦)

فلم يقبل حجته القولية، فعدل عليه السلام إلى الكسر بالفعل، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ﴾ (الأنبياء: ٥٨). ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ (الأنبياء: ٥٩). ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣).

[٤١٦] ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ) (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٤ - ٦٥)، فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم كما أفحمهم بالقول حيث أحال الفعل منهم وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم وإلا فما كان الخليل كاذبا قط.

ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل، وكما أراه الله سبحانه وتعالى الحجة على قومه قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥)، فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين تشريفا له على الروحانيات وهياكلها، وترجيحا لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة، وتقريراً أن الكمال في الرجال، فأقبل على أبطال مذهب أصحاب الهياكل، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ (الأنعام: ٧٦) على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام؛ بل فعله كبيرهم هذا، وإلا فما كان الخليل عليه السلام [٤١٧] كاذبا في هذا القول، ولا مشركاً في تلك الإشارة.

ثم استدل بالأقوال والزوال والتغير والانتقال بأنه لا يصلح أن يكون ربا إلها، فإن الإله القديم لا يتغير، وإذا تغير؛ احتاج إلى مغير، وهذا لو اعتقدتموه ربا قديما، وإلها أزليا، ولو اعتقدتموه واسطة، وقبلة، وشفيعاً، ووسيلة، فالأفول والزوال أيضاً يخرجه عن الكمال، وعن هذا ما استدل عليهم بالطلوع، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص؛ لما عراهم من التحير بالأفول، فأتاهم

الخليل عليه السلام من حيث تحيرهم، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته، وذلك أبلغ في الاحتجاج.

ثم لما ﴿رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧) فيا عجبا لمن لا يعرف ربا! كيف يقول: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧) رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد، ونهاية المعرفة، والواصل [٤١٨] إلى الغاية والنهاية كيف يكون في مدارج البداية؟!

دع هذا كله خلف قاف، وارجع إلى ما هو شاف كاف، فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم؛ من أبلغ الحجج، وأوضح المناهج، وعن هذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ﴾ (الأنعام: ٧٨) لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك، وهو رب الأرباب الذين يقتبسون منه الأنوار، ويقبلون منه الآثار، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩)[١].

ومما قاله البحاثون عن آثار بابل: أنه يعلم منها أنهم كانوا يعترفون بوجود الله ﷻ، واسمه عندهم "إل" وإن كل ما سواه من روحانيين وكواكب وغيرها فهم خلقه وعبيده، ثم يؤلهون زحلاً والمشترى والمريخ

---

[١] الملل والنحل (٢: ٥٠).

والزهرة وعطارد، وعندهم أن لزحل صورة ثور برأس إنسان وجناحي طائر، وللمريخ صورة أسد برأس إنسان وجناحي طائر، وهكذا، ثم يمثلون لها تماثيل بتلك الصور التي تخيلوها، ويعبدون تلك التماثيل[1].

[٤١٩] وفيه أيضاً أنهم كانوا يصفون المشتري بالرب العظيم، والملك، وملك الآلهة، والإله المجيد، والقاضي، والقديم، وقاضي الآلهة، ورب الحروب، وملك السماء، ورب الأبدية العظيم، ورب الكائنات، ورئيس الآلهة، وإله الآلهة، والمريخ بإله الحرب والصيد، الرجل العظيم، البطل القدير، ملك الحرب، المهلك، جبار الآلهة، ومن صفاتهم للزهرة ملكة الآلهة والإلهات، ولعطارد رب الأرباب الذي لا مثيل له.

واستدل صاحب التفسير المذكور بهذه الأوصاف المتناقضة ظاهرا؛ بأنهم كانوا يطلقون هذه الصفات على سبيل المبالغة في المدح.

قال: وقصارى الأمر وحماداه أن هؤلاء الصابئين كانوا أولا يعبدون الله تعالى، ولله ملائكة موكلون بالكواكب، فالله هو المعبود، والملائكة يعلمون بأمره، والكواكب كأنها أجسام لتلك الأرواح، فعبادة الملك يتقربون بها إلى الله ﷻ، والكواكب حجابه أو جسمه أو نحو ذلك، فهو رمزه، والتماثيل في الأرض مذكرات بالكواكب إذا غابت عنهم.

[٤٢٠] إذن؛ العبادات في نظرهم كلها راجعات إلى الله تعالى كما

---

(١) انظر: تفسير الجوهر لطنطاوي جوهري (١٠: ٢٠٥-٢٠٦).

قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣). فإذا عبدوا زحل أو المشتري؛ فقد أرادوا بذلك أنهما ملكان، ثم اعتبروا الكواكب، ثم التماثيل[١].

أقول: وما ذكره من أن "إل" عندهم اسم الله ﷻ؛ يبينه ما جاء عن سلف الأمة أن إيل: اسم الله ﷻ بالسريانية، وهي لغة القوم، وجاء عن ابن عباس أن معناه الرحمن، وربما يشهد له ما جاء في القرآن حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ (مريم: ٤٥). وعلى ذلك سمي يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام إسرائيل.

وروي عن ابن عباس وغيره أن معنى إسرائيل عبد الله، وفي التوراة والإنجيل الموجودين الآن التصريح بأن إيل اسم الله تعالى، وقد اختلف أهل العلم في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿هذا ربي﴾ (الأنعام: ٨٦، ٨٧، ٧٨)، فعامة الخلف يتأولنه على نحو ما مر عن الشهرستاني، والمنقول عن السلف أنه على ظاهره.

وقد ذكر ابن جرير قول السلف، ثم قال: "وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس وعمن روى [٤٢١] عنه، من أن إبراهيم عليه السلام قال للكواكب أو للقمر: ﴿هذا ربي﴾...

---

[١] انظر: تفسير الجوهر لطنطاوي جوهري (١٠: ٢٠٨).

وقال آخرون منهم: بل ذلك كان منه في حال طفولته، وقبل قيام الحجة عليه. وتلك حال لا يكون فيها كفر ولا إيمان...

قال أبو جعفر: وفي خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: ﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾، الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول في ذلك؛ الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه"[1].

أقول: ومما يشكل على القول الأول؛ أن كل عاقل يعلم منذ حداثته بوجود الكواكب والشمس والقمر، وأنها تطلع وتأفل، فكيف يغفل إبراهيم عليه السلام عن كون الكوكب الذي رآه تلك الليلة سيأفل، أو أن القمر سيظهر بعده، وأنه أعظم منه وأنه سيأفل، وأن الشمس ستطلع بعدهما وهي أكبر منهما، وأنها ستأفل؟

وقد يجاب بما رواه ابن جرير وغيره عن ابن إسحاق؛ أن أم إبراهيم وضعته في مغارة لا يرى فيها السماء، ولم تخرجه حتى كبر؛ فأخرجته ليلاً، فرأى الكوكب وجرى ما جرى، وعلى هذا فيقوى القول [٤٢٢] بأنه كان حينئذ في عهد الطفولة، فيهون الأمر في حمل الكلام على ظاهره، مع أنه عليه السلام كان حينئذ ساعياً في طلب الحق، محبا لإدراك الحقيقة، ليس في قلبه غير ذلك.

---

(١) تفسير ابن جرير (١١: ٤٨٥).

وعلى كل حال فالظاهر أن نظره عليه السلام في الكواكب كان بعد إنكاره عبادة الأصنام، كما يدل عليه الترتيب القرآني، حيث ذكر إنكاره على أبيه عبادة الأصنام، ثم عقبه بقصة النظر في الكواكب، وكأن أباه كان اعتذر إليه بأنه إنما يعبد الأصنام لأجل الكواكب، فانتقل إلى النظر في الكواكب، والظاهر أن المراد بالرب في قوله: ﴿هذا ربي﴾ (الأنعام: ٧٦، ٧٧، ٧٨) المعبود، لا بمعنى الخالق القديم الواجب الوجود، فإن القوم -كما تقدم- كانوا يعترفون بأن الله ﷻ هو الرب القديم الواجب الوجود، وإنما يشركون به غيره، ويشهد لهذا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٧٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (الزخرف: ٢٧).

[٤٢٣] فالاستثناء في هاتين الآيتين؛ يدل على أن القوم كانوا يعبدون الله تعالى ويشركون به غيره، إذ الأصل في الاستثناء الاتصال.

ثم رأيت في تفسير ابن جرير ما لفظه: "حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: سمعت ابن زيد يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، قال ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، ويعرف أن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٧٧)؟

قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون"[١].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿... فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩).

قال ابن جرير: "حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: في قول قوم إبراهيم لإبراهيم: تركت عبادة هذه؟ فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ فقالوا: ما جئت بشيء! ونحن نعبده ونتوجهه! فقال: لا ﴿حَنِيفاً﴾!! قال: مخلصاً، لا أشركه كما تشركون"[٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢).

[٤٢٤] كأن محاجتهم له -والله أعلم- كانت بذكر الروحانيين،

---

[١] تفسير ابن جرير (١٦: ٢٨٩).

[٢] تفسير ابن جرير (١١: ٤٨٨).

وكذا التخويف كان بهم، وهذا يدل أنهم كانوا يزعمون للروحانيين قدرة على النفع والضر، وأنه يخشى أن يضروا من ينهى عن عبادتهم، وقد يجوز أن يكونوا لم يثبتوا للروحانيين إلا الشفاعة -أي: سؤال الله تعالى أن ينفع أو أن يضر- وسيأتي تحقيق المقام إن شاء الله تعالى في الكلام على عبادة الملائكة.

فأما بلقيس وقومها فإنهم سبأ، وقد قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (١٢) (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (١٣) (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (١٤) (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) (١٥) (فَأَعْرَضُوا [٤٢٥] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) (١٦) (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) (١٧) (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ) (١٨) (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (١٩) (وَلَقَدْ

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) (٢٠) (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) (٢١) (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) (٢٢) (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (سبأ: ٢٣).

يؤخذ من ذكر قصة سبأ عقب قصة سليمان؛ أن بينهم وبينه علاقة، وكأن ذلك إشارة إلى قصة صاحبة العرش فإنها ملكتهم.

[٤٢٦] وقولهم: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ يدل على اعترافهم بالله تعالى، وتعقيب قصتهم بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لمشركي العرب: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ أي: الملائكة كما يدل عليه السياق -وقد تقدم بيانه- يشعر بأن شرك سبأ كان مشابهاً لشرك قريش، فيؤخذ من ذلك أن سبأ كانوا يعبدون الشمس لأجل الملائكة، كما مر في الصابئة، والله أعلم.

وفي فهرست ابن النديم في ذكر ديانات الهند: "منهم أهل ملة الدينكيتية؛ وهم عباد الشمس قد اتخذوا لها صنما على عجل، ويزعمون أن الشمس ملك من الملائكة يستحق العبادة والسجود، فهم يسجدون لهذا الصنم ...

أهل ملة الجندريهكنية؛ وهم عباد القمر، يقولون: إن القمر من

الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، ومن سننهم؛ أن اتخذوا له صنما على عجل ... ولا يقطرون حتى يطلع القمر، ثم يأتون صنمه بالطعام والشراب واللبن، ويرغبون إليه، وينظرون إلى القمر ويسألونه حوائجهم ... وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار؛ أخذوا في الرقص [٤٢٧] واللعب والمعازف بين يدي القمر والصنم"[١].

أقول: والوثنيون في الهند إلى الآن إذا طلعت الشمس استقبلوها وحنوا رؤوسهم إليها، وطبقوا أيديهم ووضعوها على جباههم، وهي تحية يحيون بها ملوكهم وأكابرهم، والعوام من المسلمين في الهند يحيون بها أو بنحوها قبور صالحيهم، ومن المسلمين من يعملها عقب كل صلاة يفرغ منها، فينحرف عن القبلة ويستقبل بغداد لموضع قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني، أو يستقبل أجمير لموضع قبر الشيخ معين الدين الجشتي، ويمكث ساعة رافعا يديه يدعو، ثم ينحني ويذهب، ومنهم من يشير بتلك الإشارة على معنى التحية، وأهل العلم لا يصنعون ذلك ولا ينكرونه، والله المستعان.

---

[١] الفهرست لابن النديم (ص: ٤٨٨-٤٨٩).

عبادة أشخاص لا وجود لها

أما قوم هود؛ فقوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم﴾ (الأعراف: ٧١) يدل أنهم كانوا يعبدون أشخاصاً لا وجود لها لما سلف في تفسير آيات النجم.

وقال تعالى حكاية عنهم [٤٢٨] ﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (٥٣) (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: ٥٤).

وهذا يدل أنهم كانوا يعتقدون في آلهتهم نوعاً من القدرة على النفع والضر، وكأنه على معنى أنهم -أي: الآلهة- يسألون الله تعالى أن ينفع أو يضر، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) (١٣) (إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (فصلت: ١٤).

فقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ (هود: ٥٠) ظاهر في أنهم كانوا يعبدون الله تعالى، ولكنهم يشركون به.

وابتداء الرسل بهذا يدل أن المرسل إليهم لم يكونوا يجحدون وجود الله ﷻ، بل قول المرسل إليهم: ﴿لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (فصلت: ١٤) صريح في أنهم كانوا يعترفون بأن الله ﷻ ربهم، ويعترفون بوجود الملائكة

عليهم السلام، وقد ذكر الله ﷻ في سورة الأحقاف خبر عاد، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ [٤٢٩] الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (٢٧) (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً﴾ (الأحقاف: ٢٨).

وذكر المفسرون أن المراد بما حولهم عاد وثمود وغيرهم، وهو ظاهر، وقال الراغب: وقوله: ﴿قُرْبَاناً آلِهَةً﴾ (الأحقاف: ٢٨) فمن قولهم: قربان الملك؛ لمن يتقرب بخدمته إلى الملك، ويستعمل ذلك للواحد والجمع، أي: لأنه في الأصل مصدر.

أقول: وقولهم: ﴿لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ (فصلت: ١٤) قد يؤخذ منه أنهم كانوا يعبدون الملائكة، ولكن كانوا ينعتوهم بصفات كاذبة، فلذلك قضى عليهم أنهم كانوا يعبدون أشخاصاً لا وجود لها، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً﴾ (الأحقاف: ٢٨) أنهم كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣) وأن قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ﴾ (هود: ٥٤) أرادوا به: أن الآلهة تسأل الله تعالى أن يصيبك بسوء، والله أعلم.

وقد ورد في التواريخ أنه كان للقوم أصنام، فإن ثبت فإنها كانت تماثيل للأشخاص التي تخيلوها وزعموا أنها الملائكة، والله أعلم.

المصريون

أما في عهد إبراهيم عليه السلام؛ ففي حديث الصحيحين في ذكر [٤٣٠] الذي أراد اغتصاب سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال: ادعي الله ولا أضرك. فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت، فأطلق[١].

وقد قال ابن هشام والسهيلي: إن هذا الجبار كان ملك مصر، وقد يشهد لذلك أن هاجر التي أعطاها لسارة من القبط.

وفي التوراة الموجودة الآن بأيدي أهل الكتاب: "وحدث جوع في الأرض، فانحدر إبرام "إبراهيم" إلى مصر ... وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي إنك أختي ... فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت إلى بيت فرعون ... فضرب الرب فرعون ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبرام"[٢].

[٤٣١] فقول الجبار لسارة: ادعي الله لي؛ صريح في أنه يعترف بربوبية الله ﷻ.

---

[١] أخرجه البخاري (٣١٧٩)، وبمعناه في مسلم (٢٣٧١)، وزاد مرة ثالثة.

[٢] سفر التكوين صحاح (١٢: ١١-١٥).

المصريون في عهد يوسف عليه السلام

قال تعالى حكاية عن عزيز مصر: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٢٩).

المتبادر أنه أراد استغفري الله ﷻ.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (٣٠) (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١).

فالنساء اللاتي تدعوهن امرأة العزيز لابد أن يكن من نساء عظماء مصر، وقولهن: ﴿حَاشَ لِلّهِ﴾؛ صريح في اعترافهن بربوبية الله ﷻ، ووجود الملائكة.

وقال تعالى حكاية عن النسوة: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) (٥١) (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) (٥٢) (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي [٤٣٢] إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

فقولهن ﴿حَاشَ لِلّهِ﴾ صريح في اعترافهن بالله ﷻ كما سبق.

وقد قال بعض المفسرين: إن قول: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ...﴾ الخ؛ من

كلام امرأة العزيز، وعليه ففيه الدلالة على معرفتها بربوبية الله ﷻ، ولكن الصحيح أنه من كلام يوسف عليه السلام.

وفي التوراة التي بيد أهل الكتاب الآن ذكر قصة رؤيا الملك وتعبير يوسف إياها له، ثم قال: "فحسن الكلام في عيني فرعون وفي عيون جميع عبيده، فقال فرعون لعبيده: هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله؟ وقال ليوسف: بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك؟!"[(١)].

فيعلم مما تقدم، ومن قوله تعالى حكاية عن يوسف: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) (مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ (يوسف: ٤٠) أن القوم كانوا يعترفون بربوبية الله ﷻ، ويعبدونه، ولكنهم يعبدون معه أشخاصا لا وجود لها، والظاهر أنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الملائكة، ولكن ينعتونهم بنعوت لا وجود لها، وقبل الكلام على المصريين في عهد فرعون ننقل ما قاله البحاثون في الآثار المصرية.

قال طنطاوي الجوهري في تفسيره في ذكر ديانات المصريين القدماء أنهم يقولون: الخالق للخلق للسموات والأرض لم يخلقه أحد، [٤٣٣] الواجب الوجود لنفسه، الكائن منذ الأزل، الروح الطاهر الكامل في جميع أوصافه، الكلي الحكمة والقداسة، وهذا الإله لم يصنعوا له رسما، ولم يكن

---

(١) التكوين الإصحاح (٤١ فقرة: ٢٧).

له اسم عندهم، ولا يبيحون التلفظ باسمه، ويقولون: إن كل ما سواه من الآلهة ليس إلا صفة له، أو قسما من الطبيعة التي خلقها.

وكانوا يقولون: إن العبادة للآلهة الصغيرة هي لله تعالى، أي: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (الزمر: ٣) وإذا كان الله لا يجوز التلفظ باسمه؛ فوجب أن تقدم العبادة للآلهة الصغيرة، لأن الله أكبر من أن نعبده نحن.

ولما كانت الآلهة الصغيرة المعروفة عند العامة ليست مقصودة لذاتها، بل هي رمز لخالقها؛ أجازوا أن يسمى الواحد من هذه الآلهة باسم الآخر؛ لأنها مرجعها كلها إلى الإله الأول[1].

وقال في موضع آخر نقلا عن مجلة الشباب المسلمين (ص: ١٢٣): "قال المؤرخ شمبليون فيجياك: قد استنبطنا من جميع ما هو مدون على الآثار صحة ما قاله المؤرخ جامبليك وغيره؛ من أن المصريين كانوا أمة موحدة لا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيئاً، غير أنهم [٤٣٤] أظهروا صفاته العلية إلى العيان مشخصة في بعض المحسوسات. راجع كتاب "الأثر الجليل لقدماء وادي النيل" لأحمد بك نجيب"[2].

وقال العلامة مسبرو: من تأمل في الآثار الباقية إلى الآن بالديار

---

[1] انظر: تفسير الجوهر لطنطاوي جوهري (١٠: ٢٠١).

[2] مجلة الشباب المسلمين (ص: ١٢٣).

المصرية، واللوحات الدينية المنقوشة بالهياكل، وما على الورق البردي؛ هالته كثرة هذه الآلهة المصورة عليها ... كانوا يقولون: إنه الله ﷻ ... إله واحد لا شريك له ... ثم عددوا صفاته العلية، وميزوها بالأسماء، واشتقوا منها نعوتا شخصوها في المحسوسات، وكل شيء نافع، وكلها ترجع إليه، ولأجل التمييز جعلوا لكل اسم تمثالاً..."[(١)].

وفي جريدة البلاغ تاريخ (٤) رجب سنة (١٣٥٣) مقالة من قلم أحمد يوسف بالمتحف المصري تحت عنوان: "الدين في عقيدة قدماء المصريين" جاء فيها ما لفظه: "... وهم وإن كانوا قد اتخذوا آلهة لكل قوة من القوي الحيوية؛ إلا أنهم كانوا يجمعون في كل ذلك فكرة في إله واحد هو الإله الأكبر، فكانوا مرة يجعلونه [٤٣٥] -رع- في عقيدة القسم الأدنى -الوجه البحري- ومرة -آمون- في عقيدة القسم الأعلى -الوجه القبلي- ومرة يوفقون بين العقيدتين؛ فيجمعون الإلهين معا تحت اسم واحد "أمون - رع" ومن ذلك العبارة المشهورة التي كانت مبدأ من مبادئ الأسرة الثانية عشر، حوالي سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد، وهي: اعمل ما يرضي الله وما يحبب فيك الناس. والعبارة الأخرى التي وردت في نصائح الحكيم -آني- لابنه -خنس حتب- من الأسرة الثانية والعشرين نحو سنة (٩٤٠) قبل الميلاد، والأثر موجود بالمتحف المصري تحت رقم

---

(١) (١١: ٦٧-٦٨).

(٢٥٠٥) وفيها يقول: "بيت الله يدنسه الصخب، ادع بقلب ودود ربك ذا الكلمات الخفية؛ ينجز ما تطلب، ويسمع ما تقول، ويقبل ما تقرب.

وهناك أدلة أخرى كثيرة في هذا الموضوع لعلنا نحسن في اختيارنا منها نشيدا جليل الشأن وضع للإله -آمون رع- الذي ذكرناه وهو محفوظ بالمتحف المصري تحت رقم (B ٢٥٠٥) في ورقة بردية من الأسرة الثامنة عشرة قبل عصر الملك اختانون الذي نادى بتوحيد العبادات، والذي سنتكلم عنه في مقالنا القادم [٤٣٦] -إن شاء الله تعالى- ونقتطف من هذا النشيد ما نصه بالحرف: سلام عليك يا من يسمع دعوة الملهوف، أنت الرحيم بمن يدعوك، يا مغيث المستضعف من المتجبر، يا من يحكم بين الضعيف والقوي، أنت الواحد الأحد، بارئ كل ما كان، أنت الذي انسل من ناظريه بني الإنسان، الذي أوجد الآلهة بكلمة منه، الذي خلق العشب غذاء للماشية، وشجرة الحياة لبني الإنسان، الذي يعول أسماك النهر، وطيور السماء، ومدبر الهواء لما هو في البيضة، مغذي الحية، ومطعم البعوضة، وكل زاحف وطائر، كذلك تنحني الآلهة لجلالك ممجدة مشيئة خالقها، مهللة عند دنوها من بارئها، قائلة لك: مرحى يا أبا آباء جميع الآلهة، ناشر السماء، وباسط الأرض، صانع ما هو كائن، وخالق الكائنات، يا مليكا، رئيس الآلهة، نحن نقدس مشيئتك؛ لأنك أنت الذي خلقتنا، نحن نباركك؛ لأنك صورتنا، نحن نسبح بحمدك؛ لأنك أنت الذي عنيت بأمرنا ..." اهـ.

أقول: يُعلم مما نقلناه عن البلاغ؛ أن القوم وإن كانوا يعترفون

بربوبية الله تعالى إلا أنهم كانوا يشركون بـــه أشخاصـــاً غيبـــيين [٤٣٧] يعترفون بأنهم من خلقه، وقد دل القرآن على أن أولئك الأشـــخاص لا وجود لهم، والظاهر ما قدمناه أنهم كانوا يزعمون أنهم الملائكة، ولكنهم ينعتونهم بنعوت لا تنطبق على الملائكة، وأما ما قاله أولئك المؤرخـــون: أنهم إنما كانوا يعبدون الله ﷻ، ولكنهم يعددون صفاته، فيعبدونه بعنوان كونه مجري الشمس -مثلاً- ونحو ذلك، فهذا تخرص قد يكون تـــأويلاً لبعض حكمائهم، والحق ما قدمناه؛ أنهم كـــانوا يعبـــدون الملائكـــة، ثم يعبدون المحسوسات على أنها رموز للملائكة.

وأما قول الشيخ طنطاوي: أن القوم لم يكونوا يعبدون الله تعـــالى، ولا يذكرون اسمه؛ فهذا لا ينطبق على حالهم في عهـــد إبـــراهيم عليـــه السلام، ثم في عهد يوسف، فقد دل القرآن كما سلف على أنهم كـــانوا يعبدونه ويسمونه، وكذا ما مر عن البلاغ يدل على ذلك، إلا أنه يحتمل أنهم فعلوا ذلك بعد يوسف عليه السلام، ويؤيد هذا ما يأتي في حالهم في عهد موسى عليه السلام.

المصريون في عهد موسى عليه السلام

[٤٣٨] قال الله تبارك وتعالى في فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى) (٢١) (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى) (٢٢) (فَحَشَرَ فَنَادَى) (٢٣) (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤).

وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

وقال سبحانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (١٦) (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (١٧) (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) (١٨) (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (١٩) (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) (٢٠) (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (٢١) (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (٢٢) (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) (٢٣) (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ) (٢٤) (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) (٢٥) (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) (٢٦) (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) (٢٧) (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) (٢٨) (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ [٤٣٩] إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩).

فهم كثير من الناس من هذه الآيات أن فرعون ادعى أنه رب العالم،

وهنا غلط حتما، فإن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤)، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٨) إنما خاطب به قومه.

وقوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩) خطاب لموسى، وهو يراه من رعيته، ولم يرد بقوله: ﴿رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤) إنه قديم واجب الوجود.

قال الشهرستاني في الملل والنحل: "ويشبه أن يكون دعوى اللعينين نمرود وفرعون؛ أنهما إلهان أرضيان كالآلهة السماوية الروحانية دعوى الإلهية من حيث الأمر يريد استحقاق العبادة لا من حيث الفعل والخلق وإلا ففي زمان كل واحد منهما من هو أكبر سنا منه وأقدم في الوجود عليه"[1].

ولم يجئ في كلام فرعون ما يدل على زعمه أنه يعلم الغيب، أو يخلق، أو يرزق، أو يحيي، أو يميت، أو له قدرة غير عادية، فضلا عن أن يدعي أنه واجب الوجود.

بل في كلامه الاعتراف بخلاف ذلك، وفي كلام قومه معه ما هو ظاهر في أنهم لم يكونوا يزعمون له شيئا من ذلك، قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) (٣٤) (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم [٤٤٠] بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) (٣٥) (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي

---

(١) الملل والنحل (٢: ٨).

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (الشعراء: ٣٤-٥٦).

[٤٤١] ولو كان يدعي القدرة لما استأمر قومه، ولما قال له قومه: ﴿ابعث في المدائن حاشرين ...﴾ الخ، بل كانوا يقولون: أنت القادر أبطل سحره، أو ألهم السحرة أن يجتمعوا، أو نحو ذلك.

وكذا أمره لهامان أن يبني له الصرح؛ صريح في اعترافه بالعجز.

وقوله للسحرة: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ مع أنه هو الذي طلبهم ووعدهم صريح في اعترافه بأنه لا يعلم الغيب، وأمثال ذلك

كثيرة، فلا نطيل بها.

وقال ﷻ: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٥١ - ٥٣).

يمكن أن يكون قوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ بياناً لقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ إذا كانت القصة واحدة، وعلى كل حال فهذه الآية تدل أنه لم يدَّعِ مُلك العالم فضلا عن ربوبيته العظمى، وأنه لم يدع ربوبية في مصر أكثر من كونه ملكها، وعلى هذا فيمكن أن يكون أراد بربكم؛ ملككم، أو الملك مع الألوهية [٤٤٢] على ما يأتي.

وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤) "أي: أعلى كل من يلي أمركم". قال الشيخ زاده في حواشيه: "يريد أنه لم يرد بقوله: ﴿أنا ربكم﴾ أنا خالق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، فإن العلم بفساد ذلك ضروري، ومن شك فيه وجوزه كان مجنوناً، والمجنون لا يبعث إليه رسول يدعوه إلى الحق، بل الرجل كان دهرياً منكراً للصانع والحشر والجزاء، وكان يقول: ليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر أو نهي، أو يبعث إليكم رسولا، ولا يحتاج الخلق إلا إلى من يلي أمرهم ويحكم بينهم على أمر ينتظم به معاشهم ومعادهم، ولا يجرى بينهم البغي والاعتساف، وذلك الذي يلي أمركم أنا لا غيري" -

كذا قال-: "ومعادهم" ولم يرد به البعث بعد الموت، لقوله: إن الرجل كان ينكره.

أقول: حاصل كلامهم: أن فرعون أراد بقوله: "ربكم" أي: ملككم، وهو معنى معروف في اللغة، وقد كان المصريون يستعملون كثيراً كلمتهم التي ترجمها القرآن بلفظ "رب" في الملك، جاء في قصة يوسف قوله: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً...﴾ الخ (يوسف: ٤١).

وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ...﴾ الخ (يوسف: ٤٢).

وقوله للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسأله ...﴾ الخ (يوسف: ٥٠).

والرب في هذه المواضع كلها بمعى الملك أي: ملك مصر.

وقوله: إن فرعون كان دهرياً ينكر الصانع فيه نظر.

فأما اعتقاده في نفسه؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً) (١٠١) (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ [٤٤٣] رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً﴾ (الإسراء: ١٠٢).

وهذا نص أن فرعون كان يعلم ربوبية الله تعالى، وأنه أنزل تلك الآيات بصائر، وهكذا كان قومه، قال تعالى لموسى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) (١٣) (فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ

مُّبِينٌ) (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ (النمل: ١٤).

أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ قال: "يقينهم في قلوبهم".

ثم قال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ قال: "استيقنوا أن الآيات من الله حق، فلمَ جحدوا بها؟ قال: ﴿ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾"[1].

وأما ما كانوا يظهرونه، ففي قول فرعون: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٥٣) ما يظهر منه أنه كان يعترف بوجود الملائكة.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ [٤٤٤] وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ) (وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

---

[1] تفسير ابن جرير الطبري (١٩: ٤٣٦).

هَاد) (وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) (أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) [٤٤٥] (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) (تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) (فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر: ٢٨-٤٤).

أخبر الله تعالى عن هذا المؤمن؛ أنه متصف حينئذ بكتمان إيمانه، فعلم من ذلك أنه إنما حاجهم بأمور كانوا يسلموها ويعترفون بها، وإنما صرح بإيمانه فيما بعد، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ...﴾ الآيات، ولهذا -والله أعلم- لم يذكر هنا كتمان الإيمان كما ذكر أولا.

فإذا ثبت هذا علم أن القوم كانوا يعترفون بوجود الله ﷻ [٤٤٦] وربوبيته، وأنه لا ناصر من بأسه، ويؤكد ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ (غافر: ٣٤).

والظاهر من هذه الآيات أن فرعون وقومه كانوا لا يزالون على ما كان عليه سلفهم من الاعتراف بربوبية الله تعالى وإشراك الملائكة، وهذا الذي يقرب في القياس ومجاري العادات، ولكن قد قدمنا أن القوم بعد يوسف بالغوا في تعظيم الله تعالى في زعمهم إلى حد أن قالوا: لا ينبغي للناس أن يجترئوا بعبادته ﷻ مباشرة، ولا يذكروا اسمه، وإنما عليهم أن يعبدوا الملائكة فحسب، ثم الملائكة هم الذين يصلحون لعبادة الله ﷻ، ولهذا -والله أعلم- كان أكثر ما جاء في محاورة موسى لهم ذكر الله تعالى بعنوان "رب" نحو: "رب العالمين"، "ربك"، "ربكم"، كأنه عليه السلام لم يرد أن يجاهرهم بالخلاف في هذه المسألة الجزئية؛ وهي ذكر الله ﷻ باسمه العلم، فكأن فرعون بنى على زعم من قبله، فقال: كما أنه ليس للناس أن يعبدوا الله ﷻ مباشرة، كذلك لا ينبغي لعامة الناس أن يعبدوا الملائكة، لأن الملائكة أعظم من أن تعبدهم العامة، وإنما على العامة أن ينظروا من كان من الناس [٤٤٧] أقرب إلى الملائكة فيعبدوه، وهو يعبد الملائكة، والملائكة يعبدون الله ﷻ، ثم ادعى أن أقرب الناس إلى الملائكة هم الملوك، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥١-٥٢).

فزعم أن كمال خلقه، والبسط له في الدنيا حتى صار ملكاً؛ دليل على أنه مرضي عند الله ﷻ وعند الملائكة، وأنه أقرب إلى ذلك من رعيته؛ إذ لو لم يكن ذلك ما جعلتهم الآلهة رعية له، نافذاً فيهم حكمه، وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢) يريد أن الله ﷻ كملني وملكني ونقص موسى و لم يملكه، فهذا دليل أني عند الله ﷻ وملائكته خير من موسى وأرضى منه، فلو أراد الله تعالى أن يرسل رسولاً من البشر أو يوحى إلي أحد منهم لكنت أنا أقرب وأولى بذلك من موسى.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٥٣) يريد أن الرسالة أمر عظيم، فلو أراد الله تعالى أن يرسل موسى [٤٤٨] لفعل به مثل هذه الأمور العظيمة، كأن فرعون كان يزعم أن الرسالة أعظم من الألوهية، فإن الألوهية عنده إنما هي أن يعمد الناس إلى من دلت القرائن على أنه مرضي عند الله تعالى؛ فيعظموه تعظيماً للملائكة، وأما الرسالة فإنها أعظم من ذلك، فإنها تستدعي أولاً: رؤية الرسول للمرسل، وسماع كلامه.

ولهذا -والله أعلم- قال لموسى أولاً: وما رب العالمين؟ يريد أن الرسول لابد أن يعرف ذات من أرسله، فلما عدل موسى إلى قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢٤). قال فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: ٢٥) أي: إني أنا أسأله عن الذات فيجيبني بالصفة التي يعرفها كل أحد.

وقال أخيراً: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (الشعراء: ٢٧) أي: لأنه يجيب بغير ما يسأل عنه، ويزعم أنه رسول من رب العالمين، وهو بشر مستضعف، ولا يعرف أن الإرسال يتوقف على رؤية الرسول لمن أرسله مواجهة له، ومعرفة به.

وهكذا قول فرعون: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) (أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ (غافر: ٣٦-٣٧). يريد -والله أعلم- كما قاله البيضاوي: "إن يرى فساد قول موسى بأن إخباره عن إله السماء متوقف على اطلاعه ووصوله إليه لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان".

قال الشيخ زاده في حواشيه: "يعني: أن فرعون لم يقصد أن يبني له هامان بناء رفيعا يصعد منه إلى السماء، لأن فرعون ليس من المجانين الذين لا يعلمون امتناع ذلك ببداهته، وإلا لما صح من الله تعالى أن يرسل إليه رسولا ويكلفه الإيمان به والامتثال لأمره"[1].

[٤٤٩] أقول: وحاصله: أنه لم يرد بناء الصرح، وإنما أراد أن يفهم الناس ما يزعمه من كذب موسى عليه السلام، فكأنه قال: كلكم يعلم أنني -وأنا الملك- لا استطيع أن أصل إلى السماء، وأني لو بنيت بناء كأعلى الأبنية لم أصل إلى السماء ولم أقارب، أفلا تعجبون من موسى

---

(١) حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي (٣: ٢٣٤).

يدعي أنه رسول، والرسول لابد أن يكون قد وصل إلى مرسله، ولا يشك عاقل في أن موسى لم يصل إلى الله تعالى.

فأما احتجاجه بالنعم الدنيوية على رضا الله تعالى؛ فشبهة لأهل الجهل معروفة، قال تعالى في شأن قريش: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) (أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ (الفرقان: ٧-٨).

وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ [٥٠] مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً) (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً) (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً) (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً) (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ (الكهف: ٣٢-٣٦).

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ) (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت: ٤٩-٥٠).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ

رَبِّي أَكْرَمَنِ) (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (الفجر: ١٥-١٦).

قد يخطر شيء من هذا لخيار الناس، ففي الصحيحين عن عمر رضي [٤٥١] الله عنه قال: فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف، فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت في بيته شيئا يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله! ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي وكان متكئا، فقال: "أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا". فقلت: يا رسول الله! استغفر لي ..."[1].

وفي رواية: فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا في ناحية الغرفة، وإذا أُفَيْقٌ معلق. قال: فابتدرت عيناي. قال: "ما يبكيك يا ابن الخطاب؟" قلت: يا نبي الله! ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩).

جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصفوته، وهذه خزانتك، فقال: "يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟" قلت: بلى[1].

ويروى أن معاوية حاور الحسين بن علي عليهما السلام في شأن يزيد فقال: إن أباه حاكم أباك إلى الله ﷻ فحكم لأبيه على أبيك، وقال الشاعر، أظنه كُثَيِّراً:

وإني لذو وجدٍ إذا عاد وصلها وإني على ربي إذا لكريم

وهكذا زعْمُ المشركين أن الرسالة أعظم من الألوهية أمر معروف، ولذلك يؤلهون الجمادات، ويستبعدون أن يكون الرسول إلا من الملائكة، وقد مضى طرف من هذا في شأن قوم نوح.

وأما ما قدمناه من أن فرعون شرع لقومه أنهم يعبدونه وهو يعبد الملائكة، فالبرهان عليه قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ [٤٥٢] مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧). نصت الآية على أنه كان له آلهة.

وأما هم فقد قال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٨)

---

[1] أخرجه مسلم (١٤٧٩).

وقراءة من قرأ: "وإلهتك" -إن صحت- لا تدفع ما تقدم، بل هو معنى آخر لا يدفع معنى القراءة المجمع عليها، ومن زعم أن المراد بآلهته أصنام على صورته كان أمر قومه بعبادتها، فقد أبعد، لأنها لا تكون آلهته، بل تكون آلهة لقومه، وذلك مخالف لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ فقولهم: "ويذرك وإلهتك" من باب الترقي، أي: يذر أن يعبدك، بل ويذر أن يعبد معبوداتك، ويترقي إلى عبادة معبود معبوداتك، فهو يترفع أن يعبدك بل ويترفك[1] أن يساويك ولا يقنع إلا بمساواة آلهتك.

والحاصل: أن فرعون أقام نفسه مقام الأصنام، -كما مر عن الملل والنحل- فكما أن أهل الأصنام يعبدونها تقربا إلى الملائكة بدون أن يثبتوا لها قدرة تنافي كونها جمادا، فكذا فرعون شرع لقومه أن يعبدوه تقربا إلى الملائكة بدون أن يثبت لنفسه أو يثبتوا له قدرة تزيله على كونه إنساناً.

وفي فهرست ابن النديم عند ذكر ديانات أهل الهند: "ومنهم أهل ملة يقال لها: الراحمرنية، وهم: شيعة الملوك، ومن سننهم في دينهم [٤٥٣] معونة الملوك، قالوا: الله الخالق تبارك وتعالى ملكهم، وإن قتلنا في طاعتهم مضينا إلى الجنة ..."[2].

---

(١) ويترفك: يقال: (أترف فلان) أي: أصر على البغي، وأترفته النعمة أفسدته وأبطرته، والترف الإفرط في التنعم. انظر: المعجم الوسيط (١: ١٧٦)، كتاب الأفعال (١: ١١٨).

(٢) الفهرست لابن النديم (ص: ٤١٢).

وفيها في مذاهب أهل الصين: "قال: وعامتهم يعبدون الملك، ويعظمون صورته، ولها بيت عظيم في مدينة بغران"[١].

أقول: قد اشتهر قريب من هذا في رعاع الشام بالنسبة إلى خلفاء بني أمية، كانوا يزعمون أن الخليفة لا يحاسب ولا يعاقب، وأن طاعته فريضة على الناس وإن أمر بمعصية الله ﷻ، وفي ترجمة الحجاج من تهذيب الكمال للمزي: "وكان يزعم أن طاعة الخليفة فرض على الناس في كل ما يرومه، ويجادل على ذلك".

قلت: وعن هذا -والله أعلم- كفره أئمة السلف.

---

(١) الفهرست لابن النديم (ص: ٤١٣).

العرب وتأليه الإناث الخياليات

قد علمت أن العرب كانوا يزعمون أن لله -تعالى الله عن قولهم- بنات، وإنهن الملائكة، ويجعلون لها تماثيل، أو تذاكير من الجمادات، ويعبدونها، فنجد القرآن ينوع محاجتهم، فتارة يؤنبهم على عبادة الأصنام، وتارة ينفي عليهم نسبة [٤٠٤] الولد إلى الله ﷻ، وتارة يوبخهم على أنهم لم يكتفوا بنسبة الولد إليه حتى خصوا الإناث -مع كراهيتهم لأنفسهم البنات- وتارة يبين لهم أنهم إنما يعبدون العدم، وتارة يعلمهم بأنه على فرض أن تكون موجودة لا تستحق أن تعبد؛ لاعترافهم بأنه ليس لها من الأمر شيء، وتارة يعلمهم بأنهم إنما يعبدون الشياطين -على المعنى الذي تقدم فيما سبق، وسنوضحه إن شاء الله تعالى في الكلام على تفسير عبادة الشياطين- وتارة يفندهم في قولهم الملائكة إناث، وتارة يبطل استحقاق الملائكة أن يعبدوا، وتارة يذكر أنهم إنما يعبدون من سول لهم ذلك الفعل من الشياطين، أو الرؤساء، أو الأهواء.

فأما الأصنام؛ فقد علمت أنهم إنما كانوا يعبدونها على أنها تماثيل وتذاكير لتلك الإناث الوهميات، ويحتمل في بعض أصنامهم غير ذلك مما سبق، وأما الإناث الوهميات فكانوا يزعمونها بنات لله -تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا- وقد احتج عليهم القرآن بقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ (الأنعام: ١٠١). وقدمنا أن هذا يدل على أنهم لم يكونوا يثبتون لله صاحبة؛ إذ لو كانوا يزعمون أن له صاحبة لما كان في

هذا حجة عليهم. هذا [٤٥٥] هو الظاهر، وأيده ما روي أن الصديق لما قال لهم: فمن أمهم؟ لم يمكنهم الجواب، وقد سبق ذلك، و لم يثبت ما يعارض هذا.

وقدمنا أن الظاهر من تعظيمهم لله ﷻ، واعتمادهم في دينهم على الأقيسة الفاسدة؛ أنهم إنما كان مستقراً في أذهانهم أن العقم نقص؛ أرادوا أن ينزهوا الله ﷻ عنه، فرأوا أنهم إن أثبتوا له ولدا ذكرا لزم من ذلك إثبات شريك له في ملكه، وكانوا يتحاشون ذلك، وقد صح أنهم كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك له إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك[1]. وروي أن أول من قال ذلك عمرو بن لحي.

قال السهيلي: "وذكر أبو الوليد الأزرقي في أخبار مكة: أن عمرو بن لحي ... وكانت التلبية من عهد إبراهيم: لبيك لا شريك لك لبيك، حتى كان عمرو بن لحي، فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال عمرو: لبيك لا شريك لك، فقال الشيخ: إلا شريكا هو لك، فأنكر ذلك عمرو، وقال: ما هذا؟ فقال الشيخ: قل تملكه وما ملك،

---

(١) ثبت ذلك في صحيح مسلم (١١٨٥) ولفظه عن ابن عباس قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ويلكم قد قد" فيقولون: إلا شريكا هو لك؛ تملكه وما ملك. يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت".

فإنه لا بأس بهذا، فقالها عمرو، فدانت بها العرب"[١].

والمقصود: أنهم رأوا أن إثبات الولد الذكر يلزم منه إثبات الشريك في الملك، فأما البنات فلا يلزم هذا فيهن؛ لما اعتادوه فيما بينهم أن البنات لا يرثن من آبائهن، ولا يقاتلن، ولا يخاصمن، وإنما هن كلٌّ على الرجال، وليس لهن من الأمر شيء، وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: "... قال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، قال: فبينما أنا في أمر آمره؛ إذ قالت لي امرأتي لو صنعت كذا وكذا، فقلت لها: وما لك أنت ولما هاهنا، وما تكلفك في أمر أريده، فقالت لي: عجبا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يظل يومه غضبان ..."[٢].

فرأوا أنهم إذا أثبتوا لله ﷻ بنات كانوا قد نزهوه من ذلك النقص العظيم وهو العقم، ولم يلزمهم إثبات شريك له في ملكه، على أن الظاهر من حالهم أنهم كانوا متحيرين في إثبات البنات لله ﷻ، يكادون لولا التقليد والاستكبار [٤٥٦] يعتذرون بأنهم إنما يريدون بنات مجازاً، أي: محبوبات مقربات عنده، ولهذا -والله أعلم- كان اعتمادهم على أنهم

---

[١] الروض الأنف (١: ١٦٦).

[٢] أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩).

يعبدون الملائكة، فكأنهم يقولون: سلمنا أنه ليس له ولد لا ذكر ولا أنثى، وسلمنا أن الملائكة ليسوا بنات لله تعالى، ولا إناث، ولكنهم عباد مقربون عنده يشفعون لديه، ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (الزمر: ٣).

ولهذا -والله أعلم- كان غالب محاجة القرآن لهم إنما هو في عبادة الملائكة كما يُعْلَم مما تقدم.

ومن هنا يعلم أن شركهم ليس مداره على قولهم: بنات الله، وقولهم: الملائكة إناث، بل شركهم ثابت ولو لم يقولوا ذلك، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف: ١٥-٢٠).

فوبخهم الله على قولهم: إن لله ولد، ثم على قولهم: إن ذلك الولد إناث، ثم على قولهم: الملائكة إناث، ثم على قولهم: ﴿لو شاء [٤٥٧] الرحمن ما عبدناهم﴾. فدل أن كل أمر من هذه منكر على حدة.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ

فيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٩-٢٩) في آيات أخر قد تقدم بعضها في سياق الآيات في عبادة الملائكة يُعْلَمُ منها أن شرك القوم ثابت ولو لم يقولوا بنات الله ولا قالوا الملائكة إناث.

والمقصود من هذا: أن لا يتوهم أن تأليههم للملائكة وعبادهم إياهم قوامه اعتقادهم فيهم أنهم بنات الله ﷻ [٤٥٨].

وبعد؛ فقد علمت أنهم وغيرهم من الأمم ألَّهُوا الأصنام وعبدوها، مع أنهم لم يعتقدوا فيها أكثر من أنها تستحق التعظيم؛ لأنها قد جعلت تماثيل وتذاكير ورموزا للملائكة أو للكواكب أو لرجال صالحين، وإن قوما ألهوا الكواكب وعبدوها ولم يعتقدوا فيها أكثر من كونها أجساداً أو مظاهر للملائكة، إلى غير ذلك مما تقدم. فثبت بذلك أن تأليه الشيء وعبادته لا يتوقف على زعمهم أنه واجب الوجود، أو أنه الخالق، أو خالق آخر، أو ابن الخالق، أو نحو ذلك، والله أعلم.

تفسير عبادة الملائكة

قد علمت مما سبق أن أصل شرك العرب هو عبادهم للملائكة، وكذلك قوم هود وصالح وقوم إبراهيم والمصريون كما مر، ومثلهم اليونان والهند، وقد مر طرف من شرك الهند عند ذكر الكواكب وغيرها، ولم أقصد الاستيعاب؛ إذ لا داعي إليه، ولا رأيت لهم ذكرا خاصاً في القرآن، وعامة عباد الملائكة ينعتونهم بنعوت كذبها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ذلك ما مر عن العرب في قولهم: الملائكة بنات الله.

وكثير من الأمم يزعمون أن الملائكة ذكور وإناث يتناكحون ويتناسلون، وأتباع أرسطو يزعمون أن [٤٠٩] الملائكة هم العقول العليا التي توهموها وبنوها على أصلهم الباطل؛ أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وبنوا على ذلك فظائع من الكفر والشرك؛ إلا أن قولهم كان محصوراً في أدمغة أفراد محدودين قد انقرضوا بحمد الله تعالى.

واعلم أن عباد الملائكة ما عدا أتباع أرسطو فريقان: فريق يزعمون أن الملائكة يتصرفون باختيارهم، وفريق لا يثبتون للملائكة اختيارا إلا في الشفاعة؛ مع تردد منهم في إثبات الاختيار في الشفاعة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

فأما الفريق الأول؛ وهم أكثر أمم الشرك، كاليونان والهند والمصريين القدماء، فكأنهم قاسوا الملائكة على البشر، فرأوا أنه كما أن البشر يتصرفون في الدنيا بالقدرة التي خلقها الله ﷻ لهم باختيارهم

وإرادهم، يستطيع كل منهم نفع غيره وضره في دائرة قدرته المحدودة، فالملائكة كذلك؛ إلا أن قدرهم أعظم، قالوا: وكما أن الإنسان يتذلل لإنسان آخر إذا احتاج إليه، ويسأل منه أن ينفعه، أو يدفع عنه الضر، وإن كان البشر لا يستطيعون نفع من يريد الله تعالى ضره، ولا ضر من يريد الله ﷻ نفعه، [٤٦٠] فكذلك نتذلل نحن للملائكة وندعوهم؛ لأنا محتاجون إليهم لينفعونا، أو يدفعوا عنا الضر، وإن كنا نعلم أن الملائكة لا يستطيعون نفع من يريد الله تعالى ضره، ولا ضر من يريد الله تعالى نفعه، وإذا جاز الأول فجواز الثاني أولى؛ لأن قدر البشر متقاربة، وقدرة الملائكة أعظم من قدرة البشر، فأما إذا كان المقصود من التذلل للملائكة ودعائهم أن يعينوا على ما هو خير وطاعة لله ﷻ؛ فلا شبهة في أن ذلك يكون عبادة لله ﷻ، وقد أدحض الله تعالى شبهة هؤلاء، وبرهن على بطلان ما زعموه بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) وقد تقدم إيضاح ذلك فارجع إليه.

وأما الفريق الثاني: فمنهم مشركو العرب، فإنهم كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبر إلى غير ذلك، وفي كتاب الله تعالى الشهادة عليهم بذلك في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) (فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ [٤٦١] الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣١-٣٢).

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٤-٨٩).

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١-٦٣).

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: ٢٥).

[٤٦٢] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون﴾ (الزمر: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩).

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف: ٨٧).

ففي هذه الآيات أن المشركين كانوا معترفين بوجود الله ﷻ، وأنه

الذي يرزقهم من السماء والأرض، والذي يملك السمع والأبصار، والذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، والذي يدبر الأمر، والذي له السماوات والأرض، وأنه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وأنه بيده ملكوت كل شيء، وأنه يجير ولا يجار عليه، وأنه الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر، وأنه الذي ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، وأنه العزيز الحكيم [٤٦٣].

وفي القرآن آيات كثيرة تشهد على المشركين باعترافهم بتفرد الله ﷻ بما تقدم من الصفات وغيرها، وإن لم يكن ذلك مثل ما تقدم في الصراحة، منها قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٥٩-٦٤).

[٤٦٤] قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل:

٥٩). إلزام لهم وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم؛ إذ من المعلوم أن لا خير فيما أشركوه رأساً حتى يوازن بينه وبين ما هو مبدأ كل خير".

قال الشيخ زاده في حواشيه: "يعني: أن الآية بظاهرها وإن دلت على أن المقصود الموازنة بينه تعالى وبين الأصنام ولا وجه له ضرورة أن أحدا من العقلاء لا يزن المخلوق العاجز بالخالق القادر على كل شيء في معنى الخيرية، بل المقصود إلزام المشركين ..." [(١)].

أقول: الأولى حمل ما في قوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ على ما يعم جميع معبوديهم من الملائكة وغيرهم.

فإن قيل: لو أريد هذا؛ لكان الظاهر أن يقال: أم من يشركون، تغليباً للعاقل على غيره؛ لأن الغالب أن تكون "مَن" للعقلاء و"ما" لغيرهم.

قلت: غلب هنا غير العاقل تنبيها على أن معبوديهم من الملائكة وغيرهم إذا وزنوا بالله ﷻ لم يكونوا شيئاً، والكلام من باب التنزيل، أي: أن المشركين لما جعلوا مع الله ﷻ شركاء نزلوا منزلة [٤٦٥] من يزعم أنهم مثله في الخيرية، وإلا فالقوم معترفون بأن الله ﷻ خير، وهذا مثل قول المؤذن: الصلاة خير من النوم. نزل المؤثر للنوم على الصلاة منزلة من يزعم أن النوم خير، وإلا فالمسلمون المخاطبون بالأذان لا يشكون أن الصلاة

---

(١) حواشي الشيخ زاده (٢: ٤٩٣).

خير من النوم.

وقال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ...﴾ (النمل: ٦٠). والهمزة لتقريرهم، أي: حملهم على الإقرار بالحق على وجه الاضطرار، فإنه لا يتمالك أحد ممن له أدنى تمييز ولا يقدر على أن لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات"[١].

وقال في قوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ وقيل: المراد نفي أن يكون معه تعالى إله آخر فيما ذكر من الخلق وما عطف عليه، لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفي فقط، كيف لا وهم لا ينكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ (لقمان: ٢٥) [٤٦٦] بل بإشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الألوهية"[٢].

وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (النمل: ٦٤). والكفرة وإن أنكروا الإعادة؛ فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها، قال الشيخ زاده: "ولما ورد أن يقال: كيف يمكن إلزام الكفرة تذكر نعمة الإعادة وما يترتب عليها، وهم منكرون للإعادة؟ أجاب عنه بأنهم وإن

---

(١) تفسير أبي السعود (٢: ٢٨٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٢: ٢٩٠).

أنكروا إلا أنهم لما لم يكن لهم عذر في إنكارها نزلوا منزلة من أقر بها، فتوجه إليه الإلزام"[١].

أقول: ولم لا يقال إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس المراد به الإعادة بعد الموت، بل أمر آخر، كما قيل في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (العنكبوت: ١٩).

قال البيضاوي: إخبار بالإعادة بعد الموت معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لا على ﴿يبدئ﴾، فإن الرؤية غير واقعة، ويجوز أن يؤول بالإعادة [٤٦٧] بأن ينشئ في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوهما، ويعطف على يبدئ"[٢].

وعلى هذا فلا إشكال؛ لأن المشركين يقرون بأن الله تعالى يعيد الخلق بهذا المعنى، والله أعلم.

وقال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (النمل: ٦٤). أي: برهاناً عقليا أو نقلياً يدل على أن معه تعالى إلها، لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى كما قيل، فإنهم لا يدعونه صريحاً، ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية، وإن كان منها في الحقيقة

---

[١] حواشي الشيخ زاده (٢: ٤٩٤).

[٢] حواشي الشيخ زاده (٣: ٨).

فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له"[١].

والحاصل: أن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وما بعدها تقريري، أي: أم الذي خلق السماوات والأرض خير مما تشركون؟ ولا ريب أن هذا لا يصح؛ إلا إذا كانوا يقرون بأن الله تعالى هو وحده الذي خلق السماوات والأرض، وأنه لا حظ لشركائهم [٤٦٨] في ذلك، وهكذا يقال في الباقي.

ولهذا احتاج المفسرون إلى تأويل قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (النمل: ٦٤). وقد علمت أن الإعادة إذا حملت على ما يقع من إعادة الخلق مرة بعد مرة في الدنيا كان الكلام على ظاهره، والله أعلم.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، فإن كل آية ذكر الله تعالى بها نفسه بأنه الخالق أو الرازق أو غير ذلك من نعوت الكمال، وكان مساق الكلام على إقامة الحجة على المشركين؛ فهي من هذا القبيل؛ إذ لو لم يكن المشركون يقرون بأن الله ﷻ هو وحده ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ...﴾ الخ (الأنعام: ٩٦)، لكان ذكر ذلك دعوى فقط لا تكون حجة عليه في إبطال شركهم، والحكيم لا يحتج بما هو دعوى مجردة.

ومن هذا القبيل الفاتحة؛ فلولا أن المشركين يعترفون بأن الله ﷻ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ) (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لما كان في ذلك

---

[١] تفسير أبي السعود (٢: ٢٩١).

حجة عليهم يثبت بها ما تضمنه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ [٤٦٩] وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإن قلت: فإنهم لا يؤمنون بيوم الدين. قلت: لكنهم لو قيل لهم: إذا فرض أن يوم الدين حق؛ فمن يكون مالكه؟ لقالوا الله، فتدبر هذا المعنى حق تدبره، ثم اقرأ القرآن تجده مملوءا بالحجج على أن المشركين كانوا يعترفون بالله ﷻ وصفاته وإنما نازعوا في انفراده باستحقاق العبادة، والله أعلم.

وقد مر في أثناء الرسالة ما يتعلق بما ذكرناه، منه كلام ابن جرير على آية: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢).

قال: "وأحسب أن الذي دعا مجاهدا إلى هذا التأويل، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم -الظن منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانية ربها، وإشراكها معه في العبادة غيره. وإن ذلك لَقولٌ! ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها، فقال جل ثناءه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ [٤٧٠] لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف: ٨٧). وقال ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١).

فالذي هو أولى بتأويل قوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾- إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله ﷻ، وأنه مبتدع الخلق وخالقهم

ورازقهم، نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين"[١].

ونسبة ابن جرير هذه الغفلة إلى مجاهد مع جلالة مجاهد تهون عليك نسبة مثل هذه الغفلة إلى غيره، حتى أنه قد يقع فيها ابن جرير نفسه في بعض المواضع.

وفي تفسير ابن جرير عند قول الله ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦). قال ابن جرير: "عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ ...﴾ الآية، قال: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون.

عن عكرمة ... قال: تسألهم: من خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره".

ثم ذكر نحو عن الشعبي ومجاهد.

وفي رواية عن مجاهد: "إيمانُهم، قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان، مع شرك عبادتهم غيرَه.

وأخرج عن قتادة قال: "... هذا إنك لست تلقى أحدا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته"

وأخرج نحوه عن عطاء، ثم قال: "حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: سمعت ابن زيد يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ ...﴾ الآية،

---

(١) تفسير ابن جرير (١: ٣٧١).

قال: ليس أحدٌ يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربـــه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَـــالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء :٧٥-٧٧)؟ قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون.

قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبِّي تقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"؟ المشركون كانوا يقولون هذا[١].

وفي تصريح مجاهد بما سمعت -وهو ثابت عنه من عدة طرق- مـــا يبين بطلان ما اتهمه به ابن جرير؛ من أنه ظن أن العرب لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها، إلا إن كان غفل عن ذلك غفلة، كما قد تقع الغفلة عن ذلك من غيره كثيرا كما تقدم، والله أعلم.

والحاصل: أن شرك العرب انحصر في قولهم: ﴿مَـــا نَعْبُـــدُهُمْ إِلَّـــا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣).

وقولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَـــؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨). وسيأتي إيضاح شبهتهم وإبطالها إن شاء الله تعالى في فصل شبهات المـــشركين، وقد مر شيء من ذلك في الكلام على قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

---

(١) تفسير ابن جرير (١٦: ٢٨٩).

تفسير عبادة الشياطين

[٤٧١] قد لوحنا فيما تقدم إلى أن عبادة الشياطين لها وجوه:

الأول: طاعتهم في شرع الدين، وهم في ذلك قريب من الأحبار والرهبان، وقد تقدم ما يتعلق بهم، ولم يعذر الله المشركين بكونهم لا يعلمون أنهم يطيعون الشياطين؛ لأن الحجة قد قامت عليهم بأن الشيطان يوسوس للإنسان بالأفعال السيئة، فلما كان إذا وقع في أنفسهم تخيل أن عبادة الأصنام ونحوها دين ينفع عند الله تعالى، ونحو ذلك من التخيلات، وهم يعلمون أنه ليس على ذلك برهان، ولا أنزل الله به من سلطان؛ فقد ظهر أن تلك التخيلات من وسوسة الشيطان، فغفلتهم عن ذلك تقصير منهم لا يعذرون به.

الوجه الثاني: كانوا يعبدون إناثا غيبيات يزعمون أنهن بنات الله تعالى، وأنهن الملائكة، فرأت الشياطين أنه لا إناث غيبيات إلا منهم، ولذلك عمدت شيطانة فتسمت بالعزى، ولزمت الصنم المجعول للعزى كما تقدم، وقس على ذلك.

الوجه الثالث: أن من عادة الشياطين اعتراض العبادات الباطلة، [٤٧٢] حتى تكون في الصورة كأنها لهم، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره في حديث المواقيت، النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها، وقال: "فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار" وكذا قال في غروبها: "فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها

الكفار"[١].

فالمراد -والله أعلم- أن الشيطان إذا علم من أهل قطر أن منهم من يعبد الشمس؛ رقب وقت عبادتهم لها، فانتصب بينهم وبينها؛ ليكون سجودهم لها، كأنه في الصورة له، فإذا انتهى وقت عبادتهم لها، فارق ذلك الموضع وانتقل إلى القطر الآخر. تدبر.

بل أن الشيطان يحاول أن يعترض العبادات التي يعبد بها الله ﷻ، ولكنه لا يستطيع الاعتراض ما لم يقصر العابد، فمن ذلك أنه يعترض الصلاة؛ ليقوم أو يمر بين المصلي وبين القبلة، ولذلك شرعت السترة في الصلاة، أي: أن يصلى المصلي إلى جدار أو سارية أو نحو ذلك، حتى يكون ذلك حجابا بينه وبين الشيطان؛ فلا يستطيع الشيطان المرور بينه وبين السترة، يمنعه الله ﷻ من ذلك؛ لأن المصلى قد احتجب منه بما يقدر عليه، وهذا كما يمنع الشيطان من فتح الباب المغلق، [٤٧٣] وكشف الإناء المغطي، ولو بعود معروض عليه.

والقانون في هذا؛ أن العبد إذا فعل ما يقدر عليه، وتوكل على الله ﷻ، كفاه الله تعالى ما لا يقدر عليه، فأما إذا قصر فيما يقدر عليه؛ فلا حق له أن يكفى، فالعبد يستطيع أن يغطي إناءه ولو بعرض عود عليه، فيكون بهذا قد فعل ما يقدر عليه مما فيه دفع ما للشيطان، وإن كان

---

[١] أخرجه مسلم (٨٣٢).

بحسب العادة لا يكفي للدفع، ولكنه يوفي ما عليه حتى يستحق أن يدفع الله ﷻ عنه ما لا يستطيعه، والله أعلم.

فالشياطين تدخل في الأصنام أو تقف دونها؛ ليكون تعظيم الأصنام كأنه للشيطان، وهكذا تفعل في كل ما يعبد من دون الله ﷻ.

ورأيت في فتوى للسيد العلامة الجليل عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأمير اليماني قال فيها: "ذكر شيخنا الإمام عبد الخالق المزجاجي -رحمه الله تعالى- أنه رأى الشياطين في قبة الشيخ أحمد بن موسى بن العجيل في بيت الفقيه متخللة بين الناس، ورأى القبر ليس فيه إلا الشياطين، قال: رأى ذلك يقظة بشحمة عينه -رحمه الله تعالى-، والإمام عبد الخالق [٤٧٤] من أجلّة علماء الحنفية بمدينة زبيد باليمن، وكان من كبار الصالحين رحمه الله تعالى.

وقد يستبعد تمكن الشياطين من قبور الصالحين، ولا بُعد فيه، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة -أو كلمة نحوها- ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه فأخذته"(١).

وفي صحيح مسلم، عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمعناه يقول: "أعوذ بالله منك"، ثم قال: "ألعنك بلعنة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩)، ومسلم (٥٤١).

الله" ثلاثا، وبسط يده كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: "إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة"[1].

[٤٧٥] لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إلا إلى سترة، ومن صلى إلى سترة لم يستطع الشيطان أن يقطع عليه صلاته، ولكنه يحتال بأن يسوق إنساناً أو حيواناً يمر بين المصلي وبين السترة، فإذا قصر المصلي في دفع ذلك المار استطاع الشيطان أن يمر معه؛ لأن المصلي قد قصر فيما يقدر عليه، كما تدل عليه أحاديث السترة؛ منها الحديث الصحيح في الأمر بدفع المار وتعليل ذلك بأن معه القرين، وكذا حديث: "يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود"، فلما سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما بال الكلب الأسود من غيره؟ أجاب بقوله: "الكلب الأسود شيطان"، وجاء في حديث آخر: "إن المرأة تقبل بصورة شيطان" وفي حديث: "أن الحمار إذا نهق فإنه رأى شيطاناً".

فعلى هذا المعنى تراءى عدو الله بشهابه لرسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤٢).

وآله وسلم؛ علما منه أنه إذا تراءى بحيث يراه المصلي وَكَلَ الدفعَ إلى المصلي؛ لأنه يقدر على الدفع حينئذ، وارتقع المنع الذي توجبه السترة؛ لأنها إنما تكفي للمنع الذي لا يقدر عليه المصلي، تدبر.

[٤٧٦] وأما رؤية الإمام عبد الخالق القبر ليس فيه إلا الشيطان؛ فوجهه أن المقبور لا يبقى له تعلق بقبره إلا ما دام الجسد لم يبل، فإذا بلي الجسد لم يبق للميت علاقة بالقبر؛ لأن الجسد قد بلي وفني، والروح قد طارت إلى مستقرها، فليس القبر بعد البلى إلا كالنعش الذي وضع عليه الميت برهة ثم فارقه، ولهذا نص العلماء على أنه لا تبقى للقبر حرمة بعد البلى، وعلى ذلك العمل بالحرمين وغيرهما من عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليوم؛ إذا بلى المقبور حفر القبر ودفن فيه غيره، وقد بسطنا الكلام على ذلك في رسالتنا عمارة القبور.

فإن قلت: هذه الوجوه التي ذكرتها في تفسير عبادة الشياطين كلها إلزامات وبضرب من التأويل، ولاسيما الثاني والثالث، للقطع بأن المشركين إنما كانوا يعبدون إناثاً غيبيات، هن عندهم بنات الله والملائكة، وليس الشياطين بنات الله ولا ملائكة، وللقطع بأن من يسجد للشمس – مثلاً– لا يقصد عبادة الشيطان المنتصب دونها.

قلت: صدقت، ولكن قوى هذان الوجهان بمعاضدة [٤٧٧] الوجه الأول، فيقال: إنه ليس في الوجود إناث غيبيات هن بنات الله وملائكته، وإنما في الوجود إناث غيبيات هن من الشياطين، فلما كانت عبادتهم لتلك الإناث باطلة، وهن عدم محض؛ كان أقرب من تحول له العبادة من أمر بها

فأطيع، وهم الشياطين، وهكذا لما كانت عبادة الشمس باطلة، وإنما أمـــر بها الشيطان فأطيع؛ قوى حقه في اعتراضها، لأنه يقول: أنا أولى بعبادهم من الشمس؛ لأني أمرهم فأطاعوني، والشمس لم تأمر، و لم تطع.

تفسير عبادة الهوى

عبادة الهوى من قبيل عبادة الأحبار والرهبان، والوجه الأول في عبادة الشيطان، فهي طاعته فيما لا ينبغي أن يطاع فيه إلا الرب.

تنقيح المناط:

بعد تدبر ما قدمناه؛ نستطيع أن نقول مدار التأليه والعبادة على أمرين:

الأول: الطاعة في شرع الدين، والمراد بالدين الأقوال والأفعال التي يطلب بها النفع الغيبي، والمراد بالنفع الغيبي ما كان على خلاف [٤٧٨] العادة المبنية على الحس والمشاهدة، فمن هذا طاعة الموحدين لربهم ﷻ في شرع الدين، ومنه طاعة قوم فرعون لفرعون فيما شرعه لهم من تعظيمه، زاعما أن ذلك يفيدهم رضا الملائكة، ورضا الملائكة يفيدهم رضا الله ﷻ، فتحصل لهم بسبب ذلك المنافع الغيبية التي ترجى من الله ﷻ، ومنه طاعة أهل الكتاب للأحبار والرهبان فيما يشرعوه لهم، فإنهم كانوا يزعمون أن ما شرعه الأحبار والرهبان يكون دينا يفيد من عمل به رضوان الله تعالى، فتحصل له المنافع التي ترجى منه سبحانه، ومثل ذلك طاعة العرب لعمرو بن لحي وأضرابه، ومن طاعة المشركين للشيطان والهوى، فإنهما يوسوسان لهم بأن فعل كذا دين يفيد من التزمه رضوان الله تعالى، وحصول النفع الذي يرجى منه سبحانه، أو حصول النفع الغيبي من غيره.

الأمر الثاني: الخضوع أو التعظيم على وجه التدين، أي: على أنه دين يطلب به النفع الغيبي، فمن هذا خضوع المسلمين وتعظيمهم لربهم ﷻ، ومنه تعظيم المشركين للأصنام والناس والكواكب وأرواح الموتى والملائكة وغير ذلك.

[٤٧٩] ويمكن اندراج الأمر الأول في الثاني؛ لأن الطاعة خضوع وتعظيم.

ثم نقول: الخضوع والتعظيم على سبيل التدين إما أن يكون أنزل الله تعالى به سلطانا، أو لا، فما أنزل الله تعالى به سلطانا فهو عبادة له ﷻ وحده لا شريك له، وإن كان في الصورة لغيره، كطاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وطاعة المسلمين أولي الأمر منهم فيما يتعلق بمصالحهم ولا يخالف الشريعة، وطاعة الأبوين فيما لا يخالف الشريعة، وكذلك توجه المسلمين في صلاتهم إلى جهة القبلة، وحجهم البيت والطواف به، واستلام الركن، وغير ذلك، وكذلك إكرامهم نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم على الوجه الذي رضيه لهم وأقرهم عليه، وإكرام الصالحين والوالدين والعلماء وغيرهم على الوجه الذي ثبت في الشريعة الأمر أو الإذن به، فكل هذا طاعة وتعظيم لله ﷻ، ومما أنزل الله تعالى به سلطانا، ما كان مما يقطع به العقل الصريح، كاعتقاد وجوده [٤٨٠] ﷻ، واتصافه بصفات الكمال، وتنزهه عن النقائص، ونحو ذلك، فإن العقل الصريح سلطان من الله ﷻ، وإنما الشأن كل الشأن في التمييز بين العقل الصريح وبين التوهم المستحوذ على النفس بمعونة تقليد أو عادة أو استدلال

ناقص، وغالب عقائد الفلاسفة من هذا الثاني.

وأما ما لم ينزل الله تعالى به سلطانا فهو عبادة لغيره، وإن كان في الصورة له سبحانه؛ لأن التدين به ولم ينزل الله به سلطانا طاعة لمن شرعه، والطاعة في شرع الدين عبادة للمطاع إذا لم ينزل الله ﷻ سلطانا بطاعته، وكذلك إذا كان التعظيم في الصورة لغيره تعالى، والنفع مطلوب منه ﷻ، كمن يعظم صنما يزعمه رمزاً لله تعالى، ويطلب بتعظيمه ثواب الله ﷻ، وذلك أنه مع كونه تديناً بطاعة من شرعه، فهو تدين بتعظيم غير الله تعالى بغير إذنه.

[٤٨٠: ب] وتحرير العبارة في تعريف العبادة أن يقال: "خضوع اختياري يطلب به نفع غيبي".

فقوله: "خضوع" يتناول ما كان بالطاعة، وما كان بالتعظيم.

وقوله: "اختياري" يخرج به المكره ونحوه على ما يأتي تفصيله في الأعذار إن شاء الله تعالى.

وقوله: "يطلب به" أي: من شأنه ذلك، فيدخل ما يكون الخاضع طالبا بالفعل؛ بأن يكون له اعتقاد أو ظن أو احتمال أن ذلك الخضوع سبب لنفع غيبي، أو يكون في حكم الطالب بأن يكون المعهود في ذلك الفعل أنه يطلب به نفع غيبي؛ كالسجود للصنم، وفعله الخاضع عناداً، -كما مر في فرعون وقومه- أو خوفاً من ضرر لا يبلغ حد الإكراه، -كما مر في أوائل الرسالة في المستضعفين الذين عرضوا أنفسهم لأن يكرهوا على الكفر رغبة عن الهجرة التي فيها خروجهم من بيوتهم وأموالهم

وأهليهم- أو مداهنة لأنه أولى مما قبله، ويدل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٤٠). أو طمعا في نفع دنيوي، كمن يجعل له مال عظيم على أن يسجد لصنم، وهذا أولى من الخائف، أو هزلا ولعبا، كما تدل عليه آية الإكراه على ما تقدم أوائل الرسالة، والفقهاء يثبتون الردة بذلك.

وقوله: "نفع" أريد به ما يشمل دفع الضرر.

وقوله: "غيبي" قد تقدم تفسيره.

وهذا تعريف للعبادة من حيث هي، فإن أريد تعريف عبادة الله ﷻ زيد: "بسلطان" أو تعريف عبادة غيره، زيد: "بغير سلطان" وقد يكون الفعل عبادة لغير الله ﷻ ولكن فاعله معذور، فلا يحكم عليه بالشرك كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

[٤٨٠: ج] وأما الإله؛ فهو المعبود، فمن عبد شيئا؛ فقد اتخذه إلها وإن لم يزعم أنه مستحق للعبادة، وذلك كالطامع في النفع الدنيوي ونحوه مما مر، ومن زعم في شيء أنه مستحق للعبادة فقد عبده بهذا الزعم؛ لأنه يتضمن خضوعا من شأنه أن يطلب به نفع غيبي، وبذلك جعله إلها، وهكذا من أثبت لشيء تدبيراً مستقلاً بالخلق والرزق ونحوهما، فإن هذا التدبير هو مناط استحقاق العبادة على ما مر تحقيقه، وكذا من أثبت لشيء أنه يشفع بلا إذن، وأن شفاعته لا ترد ألبته؛ لأن ذلك في معنى

التدبير المستقل، فأما معنى إله في كلمة الشهادة فهو: "مستحق للعبادة" وإن شئت فقل: "من يستقل العقل الصريح بإدراك استحقاقه أن يخضع له طلباً للنفع الغيبي" فالله تبارك وتعالى مستحق للعبادة، يستقل العقل الصريح بإدراك استحقاقه أن يخضع له طلبا للنفع الغيبي، وكان المشركون يزعمون أن الأصنام وغيرها مما يعبدونه كذلك، ولم يكونوا يزعمون مثل ذلك في الكعبة والحجر الأسود؛ لأنهم كانوا يرون أن احترامهما إنما هو لأمر الله ﷻ، فلذلك لم يسموا الكعبة إلها، ولا أطلقوا على احترامهم لها عبادة، فشهادة ألا إله إلا الله بلفظها تنفي أن يكون أحد غير الله ﷻ مستحقا للعبادة، وتتضمن بمعونة القرائن الالتزام بأن لا يتخذ غير الله ﷻ معبوداً، فمن قالها ثم عرض له اعتقاد أو ظن أو احتمال أن شيئا غير الله ﷻ يستحق العبادة فقد نقض شهادته بلا خفاء، ولكنه لا يؤاخذ بذلك ظاهرا إلا أن يظهره لما مر في أوائل الرسالة ...

[٤٨٠: د] وكذا ينقض شهادته إن زعم ذلك بلسانه، ولو كان يعلم خلافه كما مر في فرعون وقومه، ومن شهد بها ثم عبد غير الله ﷻ فقد نقض شهادته بالنظر إلى الالتزام؛ وإن لم يكن له اعتقاد ولا ظن ولا احتمال ولا زعم أن ذلك الشيء يستحق العبادة، وقد مر الكلام على الالتزام أوائل الرسالة فارجع إليه.

وأما من كان عنده سلطان من الله ﷻ إن يخضع لشيء من المخلوقات طلبا للنفع الغيبي فخضع له طاعة لله ﷻ؛ فهذا موافق للشهادة لا مخالف لها، لكن بشرط أن يكون خضوعه لذلك المخلوق هو الخضوع

الذي عنده به من الله تعالى سلطان، فأما إذا كان عنده سلطان بضرب من الخضوع فارتكب أشد منه بدون سلطان طالبا بذلك النفع الغيبي؛ فقد نقض التزامه، لأن الإذن بضرب من الخضوع لا يدل على الإذن بكل خضوع، ولا شك أن الله تبارك وتعالى أمر بإكرام الأُناس الصالحين الذين عبدهم قوم نوح، وبإكرام المسيح وأمه، وبإكرام الملائكة، ولكن لَمَّا تجاوز الناس الإكرام المأذون فيه إلى غيره على الوجه المتقدم؛ كان ذلك شركاً بالله ﷻ.

فالحاصل: أن الخضوع لغير الله ﷻ طلباً لنفع غيبي إن كان بسلطان من الله ﷻ فتلك عبادة لله ﷻ، قال تعالى: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠). وإن كان بغير سلطان من الله ﷻ فتلك عبادة لغير الله ﷻ. هذا ما أدى إليه النظر.

[٤٨٠: هـ] ومما يوافقه؛ قال أبو محمد بن حزم: "وقال تعالى مثنيا على قوم ومصدقا لهم في قولهم: ﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ (الأعراف: ٨٩) فقال النبيون عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم قول الحق الذي شهد الله ﷻ بتصديقه؛ أنهم إنما خلصوا من الكفر بأن الله تعالى نجاهم منه ولم ينج الكافرين منه، وأن الله تعالى إن شاء أن يعودوا في الكفر عادوا فيه، فصح يقينا أنه تعالى شاء ذلك ممن عاد في الكفر، وقد قالت المعتزلة: في هذه الآية معنى هذا إلا أن يأمرنا الله بتعظيم الأصنام كما أمرنا بتعظيم الحجر الأسود والكعبة.

قال أبو محمد: "وهذا في غاية الفساد؛ لأن الله تعالى لو أمرنا بذلك لم يكن عودا في ملة الكفر، بل كان يكون ثابتا على الإيمان وتزايدا فيه"[١].

وفي تفسير روح المعاني في الكلام على هذه الآية: "وقال الجبائي والقاضي: المراد بالملة: الشريعة، وفيها ما لا يرجع إلى الاعتقاد، ويجوز أن يتعبد الله تعالى عباده به"[٢].

أقول: كأنهما أرادا إنما يرجع إلى الاعتقاد ولا يتغير حاله، فلا يجوز أن يأمر الله تعالى الناس أن يعتقدوا أن معه ربا آخر قديما مثلاً؛ لأن ذلك باطل في نفسه، بخلاف تعظيم الأصنام مثلاً، فإنه إنما قبح لأنه شرك، فإنْ أَمَرَ الله تعالى به لم يبق شركاً.

فأما قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨)، فالمراد بالفحشاء كما قال ابن جرير: "قبائح الأفعال ومساويها" وذكر أن المراد [٤٨٠: و] بالفاحشة؛ أنهم كانوا يطوفون بالبيت وهم عراة، ونقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير

---

[١] الفصل في الملل (٣: ٨٣).

[٢] روح المعاني (٣: ٨٢).

والشعبي، ولم يذكر قولاً غيره[١].

أقول: واحترام الجمادات ليس من قبائح الأفعال ومساويها، وإنما كان تعظيم الأصنام من قبائح الأفعال ومساويها لأنه عبادة لغير الله ﷻ، فلو أنزل الله ﷻ به سلطانا لزال هذا المعنى، وبزواله يزول القبح، وقولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ لم يكونوا يقولون ذلك في عبادة الأصنام وغيرها من آلهتهم، ولو قالوا ذلك لم يسموها آلهة، ولا سموا تعظيمها عبادة، كما لم يسموا الكعبة والحجر الأسود على ما مر، وإنما كان مستندهم في الشرك اتباع آبائهم، قال تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ) (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢١-٢٣).

ومما يوافق ما تقدم أيضاً ما مر في الكلام على آيات النجم عن الشهرستاني، وفيه: "فنعلم قطعاً أن عاقلاً ما لا ينحت خشبا صورة ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وخالق الكل ... ولكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وربطوا حوائجهم بها من غير إذن وحجة وبرهان وسلطان من الله تعالى؛ كان عكوفهم ذلك عبادة ..."

ومما يدل عليه -زيادة على ما مر- قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ

---

[١] انظر تفسير ابن جرير (١٣: ٥٢٤).

إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ... وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣). [٤٨٠: ز] فقيَّد الإشراك المحرم بأن يكون ما لم ينزل به -أي بإشراكه- سلطانا، فيفهم منه أن إشراك ما نزل به سلطانا ليس بمحرم، وفيه احتمالان:

الأول: أن يقال: إنما سماه إشراكا بالنظر إلى الحال الراهنة للمشركين في تعظيم ما لم ينزل الله ﷻ بتعظيمه سلطاناً، فلا ينافي أنه لو أنزل به سلطانا لا يبقى حينئذ إشراكا.

الثاني: أن يقال: ليس المراد بالإشراك هاهنا الشرك الذي هو منافٍ للإيمان، وإنما المراد أن تجعلوا نصيبا من الطاعة والخضوع اللذين يطلب بهما النفع الغيبي، وعلى هذا فالقيد على ظاهره، أي: ذلك الْجَعْل إنما يكون محرما بذلك القيد، ولعل هذا أولى من أن يقال: إن القيد لا مفهوم له؛ لأن الإشراك لا يكون إلا حيث لم ينزل الله تعالى به سلطاناً، والله أعلم.

وإيضاح الاحتمال الثاني أن طاعة الرسول والخضوع له حق؛ مع أنها بالنظر إلى الظاهر خضوع لغير الله ﷻ، وكذلك احترام الكعبة والحجر الأسود فيها بحسب الظاهر خضوع لغير الله ﷻ، وعلى هذا الظاهر تدخل طاعة الرسول واحترام الكعبة والحجر الأسود في قوله تعالى: ﴿وأن تشركوا بالله﴾ إذا لم يحمل الإشراك فيها على الشرك المنافي للإيمان، وإنما تخرج بقوله: ﴿ما لم ينزل به سلطانا﴾ والله أعلم.

وقال الله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا

بالله ما لم ينزل به سلطانا﴾ (آل عمران: ١٥١).

وقال سبحانه حكاية عن إبراهيم: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾ (الأنعام: ٨١).

وعن هود: ﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان﴾ (الأعراف: ٧١).

[٤٨: ح] وعن يوسف: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (يوسف: ٤٠).

وقال ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (الحج: ٧١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ أَنزلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٣٥).

إن قدرنا أن في قوله: ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ في آيتي الأعراف ويوسف: بشركها، أو بتعظيمها فهما مما نحن فيه، وإن قدرنا بوجودها فلا.

وكذا آية الحج إن قدرنا ما لم ينزل بعبادته فمن هذا الباب، وإن قدرنا ما لم ينزل بوجوده فلا، وعلى تقدير بوجود في الآيات الثلاث فيكون المراد الأشخاص المتوهمة، ولعله أظهر، والله أعلم.

وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٧).

قال البيضاوي: ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة أخرى لإله لازمة له، فإن

الباطل لا برهان له، جيء بها للتأكيد، وبناء الحكم عليه تنبيها على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع، فضلا عما دل الدليل على خلافه"[١].

أقول: ويأتي فيه الاحتمالان اللذان قدمنا ذكرهما في آية الأعراف، فتدبر، والله الموفق.

وأما قول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ... (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا [٤٨٠: ط] أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٠) فالمراد أن يأمرهم من عند نفسه، فأما لو أمره الله ﷻ أن يأمرهم بطاعته واحترامه بالسجود له مثلاً لكان ما يأمرهم به طاعة لله ﷻ، وعبادة له، لا عبادة لهذا البشر المبلغ عن الله ﷻ، وكذلك إذا أمره الله تعالى أن يأمر الناس باحترام الملائكة والنبيين بالسجود لهم -مثلا- فإنه لا يكون السجود لهم من باب اتخاذهم أربابا، بل يكون طاعة لله ﷻ، وعبادة له، وإقرارا بربوبيته، فتدبر.

وقد مر الكلام على هذه الآيات في الكلام على تفسير تأليه المسيح عليه السلام.

فأما الطاعة والخضوع والتعظيم بغير تدين فليست من العبادة في شيء، فمن أطاع إنسانا، أو شيطاناً، أو هوى في معصية الله تعالى، وهو

---

[١] حواشي الشيخ زاده على تفسير البيضاوي (٣: ٤٠٨).

يعلم أنها معصية لله تعالى، ولم يزعم أن تلك الطاعة دين تنفعه عند الله ﷻ، ولا تفيده نفعاً غيبيا، ولا كانت تلك المعصية شركا؛ فليس بمشرك.

وبهذا الفرق تعلم الجواب [٤٨١] الصحيح عما زعمه الخوارج: أن المعاصي شرك؛ لأن فاعلها مطيع للشيطان، فهو عابد له، واحتجوا بالآيات التي سقناها في ذكر عبادة الشياطين، وغفلوا أن تلك الآيات جاءت في ذكر طاعة الشيطان تديناً يطلب منه النفع، والعاصي من المسلمين لا يطيع الشيطان كذلك.

وقد قرأت في حواشي الشيخ زاده على البيضاوي باللفظ [م:٤٨١]: "فإن قيل: كيف يجوز أن يكون الشيطان سبباً لزلة آدم ومخالفته لأمر الله تعالى؛ مع أن طاعة الشيطان كفر، وذلك لا يتصور من الأنبياء؟

فالجواب: أنه لا يكفر بذلك ... وإنما يكفر إذا قصد طاعة الشيطان ومخالفة الرب ... ولا يقصد المؤمن بما بلي به من العصيان طاعة الشيطان ومخالفة الرب ... وكذا حال آدم وحواء ... لكنهما ما أكلا من الشجرة موافقة له، ولا قبلا منه النصيحة، ولا صدقاه في ذلك، بل أكلا على الشهوة لميلان الطبع[1]".

أقول: ارجع إلى الآيات التي ذكرناها في شأن عبادة الشياطين، مع ما معها من الآثار؛ يتبين لك أن الله ﷻ أخبر بعبادة الشياطين، واتخاذهم

---

(١) حواشي الشيخ زاده على تفسير البيضاوي (١: ٢٦٥).

شركاء وآلهة من دون الله عن قوم لم يكونوا يقصدون طاعة الشياطين، بل كانوا يبغضونها ويذمونها، حتى كان أشد ما يذمون به النبي صلى الله عليه وآله وسلم قولهم: كاهن، أو مجنون، وقد تواتر عنهم أنهم كانوا يرون أن الكاهن يستعين بالشياطين، وأن المجنون هو من استولت عليه الشياطين، فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (الشعراء: ٢١٠).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (التكوير: ٢٥).

وبين المفسرون أن ذلك رد عليهم في قولهم في النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنه كاهن، وفي القرآن إنه كهانة، وكذا لم يكونوا يقصدون مخالفة الرب تعالى، بل قد أخبر الله تعالى عنهم بقولهم في آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣)، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨)، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ (الزخرف: ٢٠)، فالصواب ما قدمناه.

ثم آيات القرآن في أن آدم وحواء عليهما السلام قبلا وسوسة اللعين وأكلا من الشجرة على أمل الخلد، ولكننا نقول: لم يطلبا بذلك نفعا غيبياً، ألا ترى لو أن رجلا أصيب بمرض مهلك في العادة، فقيل له: تناول من هذا الدواء وإلا هلكت؛ فتناوله لئلا يهلك جريا مع الأسباب، مع علمه أن ما سبق في علم الله ﷻ لا يتبدل لم يكن طالبا نفعاً غيبيا.

وهكذا من قيل له: كما جرت عادة الله ﷻ بأن من لم يأكل الطعام يموت، فكذلك جرت عادته بأن من لم يتناول هذا الدواء لا يعيش أكثر من خمسين سنة إلا نادراً، وأن من أكل منه يعيش سبعين سنة أو

أكثر غالباً، فإنه إذا تناول من ذلك الدواء ليعيش سبعين سنة أو أكثر جريا مع الأسباب مع علمه بأن ما سبق في علم الله تعالى لا يتبدل؛ فإنما يكون طالباً نفعاً عادياً، ولم يكونا قد شاهدا أحداً مات، بل شهدا الملائكة المخلدين، فلذلك قوي عندهما أن طول البقاء أمر عادي.

فأما أن يكونا ملكين؛ فإنهما لم يريدا ذلك، وكيف يريده آدم وقد سجدوا له، ولم يذكر إبليس أن يكونا ملكين إلا حيث ذكر علة النهي، وذلك قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠).

فأما الترغيب والإطماع فإنما كان بالخلود كما قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (فأكلا منها ...﴾ الآية (طه: ١٢٠-١٢١). وقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا ...﴾ الخ (الأعراف: ٢٠)، أراد به أنه لا سبب للنهي إلا هذا، ولم يصرح بأن ذلك نقص أو كمال، كأن الخبيث قال في نفسه: إن حملهما كلامي على سوء الظن بربها بأن يقولا: نهانا عن الأكل منها لئلا يحصل لنا ما هو خير لنا وكمال من الملكية أو الخلود، فذلك الذي أبغي، وإلا فليس ذلك بمانعهما عن تصديقي؛ إذ لعلهما يقولان: لعل ربنا كره لنا أن نكون ملكين؛ لأن في ذلك نقصاً، فإن لآدم مزية على الملائكة بدليل السجود، ولأننا إذا صرنا ملكين حرمنا عن التمتع بنعيم الجنة، لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، ولعل الخلود يورثنا نقصا لا نعلمه الآن، ولكن مهما يكن من نقص فإننا نرضى به لأنفسنا على أن يحصل لنا الخلود.

هذا ما لعل الخبيث قاله في نفسه، فأما هما فإنهما لم يسيئا الظن بربهما قطعا، كيف و لم يجوزا صدق إبليس حتى قاسمهما بربهما تعالى، وإنما جوزا صدقه لاحتمال نقص في الملكية والخلود لأجله نهاهما ربهما عن الشجرة رحمة بهما، ولكن غلبتهما شهوة الخلود، فلم يباليا بالنقص، فطلبا بأكل الشجرة طلب طول البقاء من الجهة العادية التي قررناها أولا و لم يطلبا الْمَلَكية، ولكن لعلهما قالا: إن فرض صدق إبليس في أن الأكل من الشجرة ربما أورث الملكية، فإنما يكون ذلك بفعل الله تعالى، ولسنا نقصد ذلك ولا نطلبه، على أنه إن كان ذلك فقد حصل لنا الخلود أيضاً.

هذا؛ وقد يقال: إن العادة في الجنة أوسع منها في الدنيا، فلعلهما قد شاهدا من تأثير المطعومات في الجنة ما يجعل سببية الشجر لأن يكون آكلها ملكا من قبيل الأسباب العادية هنالك.

وفوق هذا كله فإننا نقول: إن إخبار إبليس ومقاسمته إياهما مع ظنهما أنه لا يقسم مخلوق بالله ﷻ على كذب قام في حقهما مقام خبر الواحد، فكما أننا نقول: من بلغه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خبر واحد يفيد غلبة الظن بأن هذا الفعل يكون سبباً لنفع غيبي، ففعله طلبا لذلك النفع؛ فإن فعله يكون عبادة لله ﷻ وإن فرض أن ذلك المخبر كاذب في نفس الأمر، ولكن إذا كان دليل خفي على كذبه فقد يلام العامل لعدم احتياطه، والله أعلم.

وهكذا السجود للعظماء وللأبوين مع علم الساجد بأنه عاص بذلك السجود، وأنه لا يفيده رضوان الله تعالى، ولا نفعاً غيبياً ليس

بشرك، وبهذا ينحل الإشكال الذي حكاه القرافي عن شيخه العز بن عبد السلام، قال ابن حجر الهيثمي في كتابه الإعلام بقواطع الإسلام: "واستشكل العز بن عبد السلام الفرق بين السجود للصنم وبين ما لو سجد الولد لوالده على جهة التعظيم حيث لا يكفر، والسجود للوالد كما يقصد به التقرب إلى الله تعالى، كذلك قد يقصد بالسجود للصنم كما قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣)، ولا يمكن أن يقال: إن الله شرع ذلك في حق العلماء والآباء دون الأصنام.

قال القرافي في قواعده: كان الشيخ يستشكل هذا المقام ويعظم الإشكال فيه، ونقل هذا الإشكال الزركشي وغيره، ولم يجيبوا عنه، ويمكن أن يجاب عنه بأن الوالد وردت الشريعة بتعظيمه، بل ورد شرع غيرنا بالسجود للوالد كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً﴾ (يوسف: ١٠٠)، فكان شبهة دارئة لكفر فاعله"[1].

أقول: في هذا غفلة؛ فإن الآية ليس فيها السجود للوالد وإنما هي في سجود أخوة يوسف وأبويه له، نعم؛ يمكن أخذ السجود للوالد منها من باب أولى، وذكر في السجود للعالم أنه ثبت لجنسه في غير شرعنا، وذلك كسجود الملائكة لآدم.

[٤٨٢] فالحق إن إطلاق علماء المذهب أن السجود للأبوين ونحوهما

---

[1] الإعلام بقواطع الإسلام (ص: ١٢).

لا يكون ردة محمول على ما إذا سجد لهما غير متـــدين بالـــسجود، ولا زاعم أنه يفيده نفعاً غيبياً، بل سجد بجاذب طبعي أو عادي أو غـــرض، كمن يسجد لسلطان ليؤمره أو يصله بمال أو نحو ذلك، فهذا لا مـــشابهة فيه لسجود المشركين لآلهتهم كما لا يخفى، فأما من سجد لأبويه تـــديناً يطلب به نفعا غيبيا فهذا هو عمل المشركين سواء.

ومما تدل على هذه التفرقة ما نقله ابن حجر الهيثمـــي في كتابـــه المذكور عن الروضة، ولفظه: "وليس من هذا ما يفعله كثيرون من الجهلة الظالمين؛ من السجود بين يدي المشايخ، فإن ذلك حرام قطعا بكل حال، سواء أكان للقبلة أو لغيرها، وسواء السجود لله أو غفل، وفي بعض صوره ما يقتضي الكفر عافانا الله من ذلك"[١].

فأما سجود الملائكة لآدم، وسجود آل يعقوب ليوسف فذاك طاعة لله ﷻ، كان عندهم بذلك من الله سلطان.

فإن قلت: وكيف يكون الشيء كفراً وقد كان مثله إيماناً؟ قلـــت: ليس السجود للمخلوق بأمر واحد، بل بثلاثة أمور:

إن أنزل الله به سلطانا كان إيمانا.

وإن لم ينزل به فإن لم يقصد به التدين كان معصية.

وإن قصد به التدين كان كذبا على الله تعالى وشركا.

---

[١] الإعلام بقواطع الإسلام (ص: ١٣).

أولا ترى أن آدم وأولاده لصلبه كانوا يستحلون نكاح الأخت، ولو استحله مسلم لحكم عليه بالردة إجماعاً، وهكذا لو ترك المسلم أحدى الصلوات الخمس بعد شرعها منكراً لوجوبها لكان مرتداً، ومن تركها قبل شرعها نافيا لوجوبها [٤٨٣] لا حرج عليه، بل من تركها بعد شرعها جاهلاً لوجوبها معذورا لا حرج عليه، وذلك كقريب العهد بالإسلام.

فإن قيل: إن الحكم بردة مستحل نكاح الأخت من المسلمين، ومنكر وجوب أحدى الخمس إنما هو لتكذيبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: وهكذا تكفير الساجد لأمه تديناً، فإن التدين بهذا تكذيب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما علم من شريعته بالضرورة، لا يقرب إلى الله تعالى إلا دينه الذي شرعه، وأن كل ما شرعه لهذه الأمة فقد بلغه رسوله، مع العلم بأن السجود للأم ليس في شريعته، وفي ذلك أيضاً كذب على الله ﷻ في زعم الساجد أن سجوده من الدين الذي يحبه الله ويرضاه.

وقد قسم الله ﷻ في كتابه الكفر إلى قسمين: الكذب عليه، والتكذيب بآياته، وقدم الأول، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٣٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ٢١).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي الكلام على هذا المعنى مبسوطا إن شاء الله تعالى.

فصل في القيام

مما يقرب من السجود القيام، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم النهي عنه والكراهة له، فروى الترمذي وأبو داود عن معاوية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من سره أن يتمثل له الرجال قياما؛ فليتبوأ [٤٨٤] مقعده من النار"[١].

وروى أبو داود عن أبي أمامة قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم متكئا على عصا، فقمنا له، فقال: "لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً"[٢].

وأخرج الترمذي عن أنس قال: "لم يكن شخص أحب إليهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهية لذلك"[٣].

وفي صحيح مسلم عن جابر اشتكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلينا وراءه وهو قاعد، وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، فالتفت إلينا فرآنا قياماً فأشار إلينا فقعدنا، فصلينا بصلاته قعودا، فلما سلم قال:

---

[١] أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)، وقال: حديث حسن.

[٢] أخرجه أبو داود (٥٢٣٠).

[٣] أخرجه الترمذي (٢٧٥٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

"إن كدتم آنفاً لتفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهـم قعود، فلا تفعلوا، ائتموا بأئمتكم، إن صلى قائماً فصلوا قياماً، وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً"[١].

جزم ابن حبان بأن هذه الواقعة هي التي في مرض موته صـلى الله عليه وآله وسلم، والمسألة مشهورة، والحق أن هذا الحكم باق لم ينسخ، وقد جاء عن جماعة من الصحابة ﷺ أنهم صلوا قعوداً وهم أئمة، فأمروا من خلفهم بالقعود.

[٤٨٥] وأنت خبير أن المأموم لو قام لا يقوم تعظيماً لإمامه، ولكن في ذلك مشابهة لذلك الفعل، وذريعة إليه، فإذا سقط هذا الركن القطعي، بل صار فعله حراماً دفعاً لهذه الشبهة، فما بالك بالقيام علـى رأس الرجـل أجلالا له، فهذا حرام لا شبهة فيه، ومن فعله تديناً يرجو به الثواب فقد علم حكمه مما تقدم، فأما القيام للقادم فقد علم النهي عنه مما تقدم.

وقد روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت حديثاً جاء فيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يقام لي، إنما يقـام لله تبـارك وتعالى"[٢].

---

[١] أخرجه مسلم (٤١٣).

[٢] أخرجه أحمد (٢٢٧٨٥)، وسنده ضعيف، وفيما مضى كفاية، مع أن الأصل المنـع مـن تعظيم المخلوق إلا بما أذن الله تعالى به.

وقد وهم جماعة من العلماء فأجازوا القيام للعالم والصالح استناداً إلى الحديث الصحيح: أنه لما جيء بسعد بن معاذ على حمار، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأنصار: "قوموا إلى سيدكم" وآثار أخرى في القيام إلى القادم، ولا أدري كيف خفي عنهم أن القيام إلى القادم غير القيام له، فالقيام إليه يراد منه المشي إليه لاستقباله والترحيب به ونحو ذلك، فالإكرام إنما وقع بالاستقبال والترحيب والقيام وسيلة إلى ذلك، و لم يقع الإكرام بنفس القيام، وأما التعظيم بنفس القيام فهو قيام للشخص لا قيام إليه، والمحذور [٤٨٦] إنما هو القيام للشخص؛ لأنه يضارع القيام لله ﷻ في الصلاة، ولذلك قال ابن أبي ذئب لما أُمر أن يقوم للخليفة: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال الخليفة: دعوه فلقد قامت كل شعرة في جسدي.

ومما يوضح لك أن القيام للمشي إلى القادم ليس تعظيماً له بنفس القيام؛ أنك قد تهدد خادمك بقولك: لأقومن إليك. أي: لكي أضربك مثلاً، فالقيام إلى الشخص قد يكون لإهانته، وقد يكون لإكرامه.

فعلم من ذلك أن القيام في قولك: قمت إلى فلان وسيلة لغيره وليس مقصود لذاته، بخلاف القيام للشخص؛ فإنه تعظيم لا محالة، وقد يتردد النظر في من دخل عليك وأراد أن يصافحك، هل يجوز القيام حتى لا تكون مصافحته لك وهو قائم وأنت قاعد مذلة له أو تعظيماً لك؟

ومن عادات العرب في اليمن أنهم إذا كانوا جلوساً فدخل إنسان فصافحهم لم يقوموا، ولكن يقول الجالس عند المصافحة: والقائم عزيز.

ثم رأيت أبا داود رحمه الله قد أشار في السنن إلى الفرق الذي ذكرته، فإنه قال: "باب ما جاء في القيام" فأورد حديث "قوموا إلى سيدكم، أو إلى خيركم" وحديث عائشة أنها قالت: "ما رأيت أحدا كان أشبه سمتا وهديا ودلا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فاطمة - كرم الله وجهها- كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها وقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها"[١].

ثم قال أبو داود بعد أبواب: "باب الرجل يقوم للرجل يعظمه بذلك" فذكر فيه حديث أبي مجلز قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإني سمعت رسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "من أحب أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار"[٢].

وحديث أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متوكئا على عصا، فقمنا إليه، فقال: "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا".

وللنووي رسالة في هذه المسألة، ومال إلى الجواز في بعض الصور،

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢١٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩).

وتعقبه ابن الحاج فأجاد، ولخص ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري[١].

ومن عجيب ما قاله النووي؛ أنه قال في الجواب عن حديث أنس: "إنه صلى الله عليه وآله وسلم خاف عليهم الفتنة إذا أفرطوا في تعظيمه، فكره قيامهم له لهذا المعنى، كما قال: "لا تطروني" و لم يكره قيام بعضهم لبعض"[٢].

أقول: فقضية هذا أنه يتعين على رأي النووي المنع من القيام لمن ينسب إلى الصلاح في الأزمنة المتأخرة، فإن احتمال غلو العامة فيهم أقرب بدرجات كثيرة من احتمال غلو الصحابة في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ أولاً: لعلم الصحابة ومعرفتهم بخلاف عامة هذه الأزمان.

ثانياً: لأنه لو قارب أحد منهم الغلو لمنعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين له، بخلاف المنسوبين إلى الصلاح في هذه الأزمان، فإن أكثرهم جهال يفرحون بتعظيم الناس لهم، بل الغلو في المنسوبين إلى الصلاح أمر واقع، فأما القيام عند قراءة قصة المولد فهو أمر وراء ما نحن فيه بمراحل، والله المستعان.

---

(١) فتح الباري (١١: ٥١).

(٢) فتح الباري (١١: ٥٣).

فصل في الدعاء

[٤٨٧] ومن الأعمال التي عدها القرآن شركاً دعاء غير الله ﷻ، ووقع في تفسير الدعاء وتوجيه كونه شركا اضطراب للمفسرين وغيرهم أحوجني إلى بسط الكلام في هذا المقام.

فأقول مستعيناً بالله ﷻ: أهل اللغة متفقون على أن أصل الدعاء بمعنى النداء، إلا أن الراغب ذكر فرقاً لفظياً فيه نظر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء﴾ (البقرة: ١٧١).

وروي عن مجاهد أنهما بمعنى، وكذا قال غيره، قالوا: والمسوغ للعطف تغاير اللفظين، ويلوح لي فرق آخر بينهما؛ وهو أن الدعاء مأخوذ في مفهومه طلب ما، بخلاف النداء؛ فإنه غير مأخوذ في مفهومه وإن كان لازما له، فتأمل.

ولعل هذا الفرق هو السبب في مجيء الدعاء بمعنى السؤال، قال صاحبا اللسان والقاموس: "الدعاء الرغبة إلى الله ﷻ" زاد شارح القاموس: "فيما عنده من الخير [٤٨٨] والابتهال إليه بالسؤال".

وهذا يشعر باختصاصه به تعالى، ومعروف في اللغة والاستعمال أنه لا يقال: دعوت الأمير بمعنى سألته، فإن جاء ما يوهم ذلك فالدعاء بمعنى النداء، وأما السؤال فإنما فهم من القرينة، ويوضح لك ذلك أنك تقول: دعوت الله أن يعطيني، كما تقول: سألته أن يعطي، ولا تقول: دعوت

الأمير أن يعطيني، بل تقول: دعوته ليعطيني، أو إلى أن يعطيني، ولكن جاء كثيرا في القرآن أن المشركين يدعون آلهتهم بأنواعهم كما تقدم.

ونقل عن بعض السلف تفسير الدعاء في بعض ذلك بالعبادة، وكاد المفسرون المتأخرون يطبقون عليه، وفيه نظر؛ فإنه لا يعرف في اللغة، ولهذا لم يذكره كثير من أهل اللغة، حتى الذين يتعرضون للمجاز؛ كصاحب القاموس، وصاحب الأساس، وصاحب المصباح، بل لم يذكره الراغب مع أن كتابه موضوع لغريب القرآن، ومن ذكره كصاحب اللسان فإنما ذكره تفسيرا لبعض الكلمات القرآنية، وهذا من أشد العيوب في كتب اللغة، يعمدون [٤٨٩] إلى بعض الكلمات التي جاءت في القرآن، وفسرها بعض السلف بشيء، أو فهموه هم من القرائن، فيثبتون ذلك لغة؛ مع أن السلف كانوا يتسامحون في التعبير ثقة بفهم السامع، فربما فسروا الكلمة بلازمها، أو ببعض ما يدخل تحت عمومها، أو غير ذلك مما تدل عليه في الجملة كما نبه عليه المحققون.

ولذلك كثر الاختلاف عنهم، وأما ما يفهمونه من القرائن فلعلهم يكونون مخطئين، فلا ينبغي أن يجزموا بأن ذلك لغة؛ لأن الناظر في كتب اللغة إذا رأى مثلا: "الحرد": المنع يأخذ هذا على أنه نقل يقيني، ولا يكاد يخطر بباله أن قائل ذلك إنما فهم من الآية وفي هذا ما فيه.

وغاية ما يمكنهم أن يقولوا: إن جَعْلَهُ في تلك المواضع على حقيقته وهو مجرد النداء لا يصح؛ لأن القرآن جعله في تلك المواضع شركا، وجَعْلُهُ بمعنى الرغبة والسؤال [٤٩٠] لا يأتي لما تقدم أن ذلك خاص بالله

ﷻ، ويزيد المتأخرون: أنه نُقِلَ عن بعض السلف تفسير الدعاء في بعض المواضع بالعبادة.

وأقول: إنما كونه في تلك المواضع لا يصلح أن يفسر بمجرد النداء فلا بأس به، وأما كونه لا يصلح أن يفسر بالرغبة والسؤال على وزان دعاء الله ﷻ ففيه نظر.

أولاً: إن الربوبية والألوهية والعبادة كلها في الأصل لله ﷻ، ولكن المشركين استعملوها في شركائهم، فما بال الدعاء لا يكون كذلك، فكما قالوا في العبادة -ولا يقال: عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله تعالى، ومن عبد دونه إلها فهو من الخاسرين، وأما عبدٌ خَدَمَ مولاه فلا يقال: عبده- فكذا يقال في الدعاء، لا يقال بمعنى الرغبة والسؤال إلا في الرغبة إلى الله تعالى، ومن دعا من دونه إلها فهو من الخاسرين، وأما رجل رغب إلى أبيه أو رئيسه فلا يقال: دعاه.

ثم راجعت عبارة الراغب فإذا فيها: "ودعوته إذا سألته، وإذا استعنته، قال تعالى: ﴿قالوا ادع لنا ربك﴾ (البقرة: ٦٨) أي: سله [٤٩١]. وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ...﴾ (الأنعام: ٤٠ -٤١) تنبيهاً أنكم إذا أصابتكم شدة لم تفزعوا إلا إليه. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: ٥٦). ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٣). ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ (الزمر: ٨). ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ (يونس: ١٢). ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٠٦). ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ١٤). هو أن

يقول: يا لهفاه، يا حسرتاه، ونحو ذلك من ألفاظ التأسف، والمعنى: يحصل لكم غموم كثيرة، وقوله: ﴿ادع لنا ربك﴾ سله، والدعاء إلى الشيء: الحث على قصده"[1].

فذكره قوله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٠٦). تحت قوله: ودعوته إذا سألته واستعنته ظاهر في أنه يفسر الدعاء في الآية وأمثالها بالسؤال والاستعانة، ويؤيد ذلك أنه لم يذكر أن الدعاء قد يأتي بمعنى العبادة، ولا ذكر أن الدعاء بمعنى السؤال والاستعانة مختص بالله عز وجل.

[٤٩٢] ومما يشهد له أن القرآن يقرن الدعاء في كثير من تلك المواضع بالسماع والاستجابة لفظا ومعنى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٤).

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ (الإسراء: ٥٦، ٥٧).

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) (إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر: ١٣-١٤).

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ

---

[1] مفردات غريب القرآن للأصفهاني (ص: ١٧٠).

لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ (الرعد: ١٤).

وقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ [٤٩٣] أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ) (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٤-٦).

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ) (وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ (يونس: ١٠٦-١٠٧).

فمن تدبر هذه الآيات تبين له أن الدعاء فيها بمعنى السؤال والاستعانة، ولاسيما في الآيات التي فيها ذكر الاستجابة، وقد قال الراغب: "والجواب يقال في مقابلة السؤال، والسؤال على ضربين:

طلب المقال وجوابه المقال.

وطلب النوال [٤٩٤] وجوابه النوال.

فعلى الأول: ﴿أجيبوا داعي الله﴾ (الأحقاف: ٣١)، وقال: ﴿ومن لا يجب داعي الله﴾ (الأحقاف: ٣٢).

وعلى الثاني قوله: ﴿قد أجيبت دعوتكما فاستقيما﴾ (يونس: ٨٩) أي: أعطيتما ما سألتما.

والاستجابة قيل: هي الإجابة، وحقيقتها التحري للجواب والتهيؤ له، لكن عبر به عن الإجابة لقلة انفكاكها منها، قال تعالى: ﴿استجيبوا لله

والرسول﴾ (الأنفال: ٢٤)، وقال: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (غافر: ٦٠).

وقال ابن جرير في تفسير آية الأعراف: "يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، موبِّخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: ﴿إن الذين تدعون﴾ أيها المشركون آلهةً ﴿من دون الله﴾، وتعبدونها شركًا منكم وكفرًا بالله ﴿عباد أمثالكم﴾، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك. فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سُئل سمع مسألة سائله وأعطى وأفضل، ومن إذا شكي إليه من شيء سمع، فضر من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضر"[1].

[٤٩٥] وقال في تفسير آية الرعد: "وقوله: ﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾ يقول: لا تجيب هذه الآلهة التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهةً بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر"[2].

وأخرج عن علي عليه السلام قال: "كالرجل العطشان يمد يده إلى

---

(١) تفسير الطبري (١٣: ٣٢١).

(٢) تفسير الطبري (١٦: ٣٩٩).

البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه"[١].

وعن مجاهد قوله: ﴿كباسط كفيه إلى الماء﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده، ولا يأتيه أبدا"[٢].

وعنه أيضاً: ﴿ليبلغ فاه﴾ يدعوه ليأتيه وما هو بآتيه، كذلك لا يستجيب من هو دونه"[٣].

فيعلم من تدبر الآيات مع هذه الآثار أن المراد من الاستجابة في الآيات الاستجابة بالنوال، والاستجابة بالنوال إنما تقع في مقابل السؤال كما قال الراغب، فعلم بذلك أن الدعاء في الآيات بمعنى السؤال، أي: سؤال النفع كما هو ظاهر. وذلك المطلوب.

ومما يوضح ذلك أنه ليس مدار استحقاق العبادة على الإجابة بالمقال حتى يحق التشنيع على من عبد من لا يجيبه بالقول، وإنما مدار ذلك على التدبير المستقل بالنفع والضر [٤٩٦] كما قدمناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

فتعين أن يكون المراد بالاستجابة في الآية إجابة بالنفع والضر.

فإن قيل: إذا امتنعت الإجابة بالمقال امتنعت الإجابة بالنوال، فتكون

---

(١) تفسير الطبري (١٦: ٤٠٠).

(٢) تفسير الطبري (١٦: ٤٠٠).

(٣) تفسير الطبري (١٦: ٤٠٠).

الآيات من باب قوله تعالى في شأن العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ (طه: ٨٩).

قلت: في هذه الملازمة نظر، ومع ذلك فإنما تقرب لو كان المراد بالمدعوين في الآيات الأصنام، وليس الأمر كذلك، بل المراد الملائكة كما تقدم إيضاحه في فصل عبادة الملائكة.

فإن قيل: إن ذلك يمكن على هذا أيضا، فيقال: إن الملائكة لا يجيبون داعيهم بالمقال.

قلت: ولكن لا تقوم الحجة على المشركين؛ لأن لهم أن يقولوا: لعلهم يجيبوننا بالمقال ولا يُسْمَعُ كلامهم، كما أن الله تبارك وتعالى إذا أجاب بالمقال لا يسمع جوابه، ولا يقدح ذلك في استحقاقه العبادة، بخلاف ما إذا كان الدعاء بمعنى السؤال، فإن المشركين يعترفون بأن آلهتهم [٤٩٧] لا تضر ولا تنفع بفعلها، وإنما يرجون منها الشفاعة، ويمكن إقامة الحجة عليهم بشأن الشفاعة، فيقول لهم الرسول: ادعوا آلهتكم أن يشفعوا لكم في أن لا يبتلى فلان اليوم بالعمى، وأنا أدعو الله تعالى أن يبتلي فلان اليوم بالعمى، فإن آلهتكم إن كانت عبادتهم حقاً لابد أن يستجيبوا لكم بالشفاعة في هذا، ولابد أن يقبل الله تعالى شفاعتهم فيه؛ لأن هذا يوم له ما بعده، هذا مع أن المشركين كانوا يرتابون في كون آلهتهم تشفع لهم، ولهذا كانوا في الشدائد يخلصون الدعاء لله ﷻ كما يأتي.

ثم اعلم إن تجويز أن يكون المراد بالاستجابة في الآيات الاستجابة بالمقال يوجب أن يفسر الدعاء بمجرد النداء، وقد دلت الآيات وغيرها مما

يأتي أن هذا الدعاء عبادة وشرك، فإذا كان مجرد النداء كذلك فسؤال النفع من باب أولى.

فإن قلت: المفسرون لم يقولوا: إن الدعاء في الآيات جميعها بمعنى النداء، بل قالوا في أكثرها: إنه بمعنى العبادة، ويمكن [٤٩٨] تقرير كلامهم بأن يقال: شُبِّهَتْ عبادة الأوثان بدعاء الله تعالى -الذي هو السؤال- في أن المقصود منها طلب النفع، ثم استعير الدعاء للعبادة والاستجابة ترشيح.

وقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتاب الإشارة والإيجاز: "النوع الحادي والستون: التجوز بالدعاء عن العبادة لمشابهة الداعي للعابد في التذلل والخضوع، وله أمثلة؛ أحدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأعراف: ١٩٤).

الثاني: قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ (فصلت: ٤٨). أي وغاب عنهم ما كانوا يعبدون من قبل.

الثالث: قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر: ٦٠)، معناه: وقال ربكم: اعبدوني أثبكم"[١].

فالجواب: أن الأصل الحقيقة، ولا يجوز العدول عنها إلا لصارف يصرف عنها، ولا صارف هنا، بل مقابلة الدعاء بالاستجابة مؤيد لها، وإخراج الكلام عن ظاهره بغير صارف تحريف للكلم عن مواضعه،

---

[١] الإشارة (ص: ٨٥-٨٦).

وقرمطة لو فتح بابها لعاد الدين لعبة، ولو تتبعت ما جاء في القرآن من ذكر دعاء غير الله تعالى لعلك تجده أكثر من ذكر عبادة غير الله تعالى، وهذا مما يبعد المجاز.

وما قاله الشيخ عز الدين رحمه الله ترده القواعد والأصول والأحاديث الصحيحة كما يأتي.

وإني لأتعجب منه رحمه الله في إدراجه الآية الثالثة؛ مع أنه لا يشك أحد أن دعاء الله تعالى عبادة له.

فإن قلت: حقيقة الدعاء هو النداء، وأنت تزعم أن معناه في الآيات السؤال؛ فهو مجاز على قولك أيضاً لا حقيقة.

فالجواب: أن استعمال الدعاء في السؤال من الله ﷻ حقيقة إن لم تكن لغوية فعرفية وشرعية، وفي هذه الآيات [٤٩٩] وغيرها مما يأتي أن المشركين يدعون آلهتهم كما يدعون الله ﷻ، فثبت بذلك أن المراد بدعائهم آلهتهم هو السؤال منها، لتمثيله بدعاء الله تعالى؛ ودعاؤه هو السؤال منه، وعلى فرض أنه مجاز؛ فمقابلته بالاستجابة قرينة عليه، ولو سلمنا أن الدعاء في الآيات مجاز عن العبادة؛ لكان أقرب أن تكون العلاقة هي الخصوص والعموم، وعليه فهو حجة لنا أيضاً؛ لأن الأخص إنما يطلق على الأعم إذا كان الأخص هو الأهم، أو من الأهم؛ كما نص عليه أهل المعاني.

وعليه فدعاء المشركين آلهتهم أعظم عبادة لها، أو من أعظمها، فثبت بذلك كونه عبادة وزيادة، وعندي أن من فسر الدعاء بالعبادة إنما

حملة على ذلك توهمه أن المراد بالآلهة في الآيات الأصنام، ورأى أن المشركين لا يسألون منها شيئا، فهذا الذي اضطره إلى التأويل، والحق أن المراد الملائكة كما علمت مما تقدم، وعليه فلا حاجة للتأويل على أنه قد قال الله ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) (إِذْ قَالَ [٥٠٠] لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ) (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٦٩-٧٤).

فقوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ ظاهر في أنهم كانوا يدعون الأصنام؛ إذ لو كان الكلام على الفرض، لقيل: إن تدعوهم، أو لو دعوتموهم، أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ ظاهر في أن المراد الدعاء بالكلام.

وقوله: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ظاهر في أنه ليس المراد بالدعاء مجرد النداء؛ بل المراد به التكلم بالسؤال طلبا للنفع واستدفاعا للضر، وكأن القوم كانوا يسألون من الأصنام على نية السؤال من الروحانيين كما تقدم بيانه، يدلك على ذلك أنهم نفوا السماع والنفع والضر عن الأصنام، وقد تقدم كلام ابن جرير في تقرير ذلك.

الدعاء عبادة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

[٥٠١] فكلمة: "إن" في مثل هذا تفيد التعليل على ما صرح به أهل الأصول وغيرهم، وذلك يقتضِ أن الدعاء عبادة، كأنه قال: ادعوني، فإن الدعاء عبادة، ومن استكبر عن عبادتي سيدخل جهنم.

وقد أخرج الإمام أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[١].

وأخرج الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "الدعاء مخ العبادة"[٢].

وقد روى الطبراني في كتاب الدعاء حديث النعمان بن بشير بلفظ:

---

[١] أخرجه أحمد (١٨٤١٥)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والحاكم (١: ٦٦٧) وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي، وأخرجه الحاكم أيضاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ (١: ٦٦٧) بلفظ: "أفضل العبادة الدعاء" وقرأ الآية، وقال الحاكم: صحيح. وأقره الذهبي أيضاً.

[٢] أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، وقال: حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

"العبادة هي الدعاء" ثم قرأ الآية.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَـذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [٥٠٢] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ) (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٤-٦).

لا يخفى دلالة السياق على أن قوله: ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾. أريد بها الدعاء المذكور قبل.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً) (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً﴾ (النساء: ١١٦-١١٧). فجعل الدعاء شركا، والشرك عبادة غير الله ﷻ.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٤٠-٤١). الآية صريحة في أن المراد بالدعاء السؤال.

وقال ابن جرير: "ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهةَ والأندادَ إن أتاكم [٥٠٣] عذاب الله أو أتتكم الساعة بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم وبه تستغيثون وإليه تفزعون دون كل شيء غيره، فيكشف ما

تدعون إليه، يقول: فيفرج عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه عظيم البلاء النازل بكم إن شاء"[(١)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٣٣).

قال ابن جرير: "يقول الله تعالى ذكره: وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر ضر؛ فأصابتهم شدة وجدوب وقحوط دعوا ربهم، يقول: أخلصوا لربهم التوحيد، وأفردوه بالدعاء والتضرع إليه واستغاثوا به منيبين إليه"[(٢)].

[٥٠٤] وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ (يونس: ١٨).

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (يونس: ٢٢).

قال ابن جرير: ﴿دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، يقول: أخلصوا الدعاء لله هنالك، دون أوثانهم وآلهتهم، وكان مفزعهم حينئذٍ إلى الله

---

(١) تفسير ابن جرير (١١: ٣٥٤).

(٢) تفسير ابن جرير (٢٠: ١٠١).

دونها".

ثم أخرج عن قتادة، قال: إذا مسّهم الضرُّ في البحر أخلصوا له الدعاء.

وعن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون، فإذا كان الضر لم يدعوا إلا الله، فإذا نجاهم إذا هم يشركون"[١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (لقمان: ٣٢).

[٥٠٥] قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره: وإذا غشي هؤلاء موج كالظلل، فخافوا الغرق، فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة، لا يشركون به هنالك شيئاً، ولا يدعون معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره.

وأخرج عن مجاهد قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال: المقتصد في القول وهو كافر"[٢].

يريد مجاهد -والله أعلم- أن المراد بالمقتصد: الذي لا يستغيث بغير الله تعالى في قوله، ولكنه كافر في اعتقاده وعمله، وهذا مع ما تقدم في

---

(١) تفسير ابن جرير (١٥: ٥٢).

(٢) تفسير ابن جرير (٢٠: ١٥٧).

تفسيرهم الدين في الآيات بالدعاء يدلك أن المراد بإخلاصهم الدين إنما هو إخلاص الدعاء وحده، فأما الاعتقاد فهو باق حتى في البحر؛ لأنه لم يعرض له ما يزيله، وإنما عرض لهم من الشدة ما اضطرهم إلى الاقتصار على دعاء الله ﷻ، لأنهم واثقون بأن دعاء الله تعالى ينفع، ومرتابون في دعاء غيره، والإنسان عند الشدة إنما يفزع إلى أوثق الأسباب عنده، ولا يتشاغل بما دونها، قال الشاعر:

وإذا نبا بك والحوادثُ جَمَّةٌ زمنٌ حَدَاك إلى أخيكَ الأوثق

والآيات القرآنية في شأن الدعاء كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله تعالى.

أحكام الطلب ومتى يكون دعاء

[٥٠٦] لقائل أن يقول: قد علمنا أن السؤال من الله تعالى والرغبة إليه يسمى دعاء، وأنه عبادة، وأن القرآن قد أثبت أن المشركين يدعون آلهتهم من دون الله، وثبت أن دعاءهم آلهتهم هو السؤال منها، والرغبة إليها، وإن ذلك عبادة لها وشرك بالله ﷻ، ولكن ما هو السؤال الذي إذا وقع لغير الله تعالى كان دعاء وعبادة للمسؤل، وشركا بالله تعالى؟

فالجواب: أمر الله ﷻ عباده أن يدعوه في صلاتهم قائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، ولا نزاع أن المعنى: نعبدك وحدك لا نعبد غيرك، ونستعينك وحدك لا نستعين غيرك، والاستعانة هنا عامة، وروى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك [٥٠٧] بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[١].

وصح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بايع جماعة من أصحابه

---

[١] أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

على أن لا يسألوا الناس شيئاً، فكان سوط أحدهم يسقط وهو على بعيره فينزل فيأخذه لا يقول لأحد ناولنيه"[١].

وجاءت أحاديث كثيرة في تحريم سؤال الناس، أي: أن تسألهم أن يعطوك شيئا من أموالهم، واستثنى في بعضها السؤال من السلطان، والسؤال عند شدة الحاجة، وقد نظرت في وجوه السؤال فوجدته على أقسام:

القسم الأول: ما هو من باب سؤال الإنسان حقا له عند المسؤل، كأن يكون لك دين عند إنسان فتطلبه منه.

الثاني: ما جرت العادة بالتسامح به على نية المكافأة، كقول التلميذ لزميله ناولني الكتاب.

الثالث: سؤال الإنسان ما ليس بحق له، ولا جرت العادة بالتسامح به على نية المكافأة، وذلك كقول من يجد الكفاف [٥٠٨] من العيش لغني لا حق له عليه أعطني ديناراً مثلا. ومن هذا القِسم سؤال الإنسان من ربه تعالى؛ لأنه لا حق له على ربه تعالى.

فأما الأول: فلا يسمى استعانة، ولا يلزمه التذلل والخضوع.

وأما الثاني: فإنه وإن سمي استعانة؛ لكنه لا يلزمه التذلل الخضوع إلا أن فيه رائحة ما من ذلك.

---

(١) انظر: صحيح مسلم (١٠٤٣).

وأما الثالث: فهو الذي يلزمه التذلل والخضوع، وقد يكون السؤال من القسم الأول ولكنه يصحبه تذلل ما فيما يظهر، وذلك كسؤال الناس أنبيائهم عن أمور دينهم، وكذلك سؤال العامة علماءهم عن أمور الدين، وكذلك سؤال المحتاج العاجز حاجته من الغنى.

والحق أن السؤال من الأنبياء والعلماء إنما يصحبه الإكرام والاحترام الذي أمر الله ﷻ به، وأما سؤال المحتاج العاجز فإنما يصحبه التذلل لجهل الأغنياء بما عليهم من الحقوق، ونظير ذلك أن يكون لك دين على جبار فإنك تحتاج [٥٠٩] عند طلبك حقك منه إلى إظهار التذلل.

ومن القسم الأول ما أبيح من سؤال السلطان، فالمراد إباحة أن يسأله من كان له حق في بيت المال، فأما من لم يكن له حق أصلا فسؤاله من السلطان كسؤاله من غيره.

ومن الأول أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس بالصلاة عليه، فإن ذلك حق له عليهم، وفيه معنيان آخران -هما المقصود بالذات، والله أعلم-: تبليغهم أمر الله ﷻ، وإرشادهم إلى ما ينفعهم.

وعلى هذا ما روى من قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك، على أن في صحته مقالاً.

وأما ما روي عن عمر ﷺ أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وبه

بياض، فمروه فليستغفر لكم"[١].

فهذا أمر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأويس، مصداقه من كتاب الله ﷻ قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ (الحشر: ١٠)، فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه أن يبلغوا أويسا هذا [٥١٠] الحكم، ومما يشد هذا قوله: "فمروه فليستغفر لكم" ولم يقل: فاسألوه، أو نحو ذلك، وكأنه إنما خص أويسا تنبيهاً على مزيد فضله؛ لأن الناس كانوا يسخرون منه ويحتقرونه، والله أعلم.

وأما سؤال الصحابة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يستغفر لهم ففيه حظ من القسم الأول؛ لأن الله تعالى قد أمر رسوله بذلك، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد: ١٩).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ (النور: ٦٢).

وقال سبحانه: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ١٢).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٢٥٤٢).

سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣).

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ [٥١١] إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً) (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً) (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً) (أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً) (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ [٥١٢] فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً) (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥).

قال السيوطي في أسباب النزول: "أخرج ابن أبي حاتم والطبراني بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...﴾ (النساء: ٦٠) إلى قوله: ﴿إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾ (النساء: ٦٢).

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة، أو سعيد، عن ابن عباس قال: "كان الجلاس بن الصامت ومعتب بن بشير ورافع بن زيد وبشر يدعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ...﴾ الآية (النساء: ٦٠).

أقول: فقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ﴾ أي: لإظهار التوبة وقبول حكمك في قضيتهم والاعتذار إليك فيما سبق منهم [٥١٣] من إبائهم المحاكمة إليك.

وقوله: ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ﴾ أي: إظهارا للتوبة.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: كما أمره ربه ﷻ بالاستغفار للمؤمنين، لأن أولئك النفر إنما يرجعون إلى الإيمان بتوبتهم، ومن توبتهم المجيء إلى الرسول كما تقدم، والله أعلم.

ومع أن كبار الصحابة كان غالب أحوالهم عدم سؤال الدعاء لأنفسهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما كانوا يسارعون في الخيرات والأعمال الصالحة، عالمين بأن ذلك هو السبب الحقيقي لأن يستغفر لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أمره الله ﷻ، وقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا

فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ [٥١٤] اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (الفتح: ١١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٧٩-٨٠).

وقد يقال: في قول أبناء يعقوب: ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧) إن فيه طلب حق أيضاً، وعلى كل حال فطلب الدعاء من الأنبياء بما فيه صلاح الدين أمر مرغوب فيه في الجملة إذا كان بحضرهم، إلا أن ما قدمناه من صنيع كبار الصحابة يدل أن الأولى عدم الطلب والاكتفاء بعمل الخيرات؛ لأنه يبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدعاء والاستغفار للعامل بدون سؤال [٥١٥] منهم. والله أعلم

وقد روى مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: "سل" فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: "أو غير ذلك؟" قلت: هو

ذاك. قال: "فأعني على نفسك بكثرة السجود ..."[١].

الحديث في صحيح مسلم هكذا مختصرا، وقد أخرجه الإمام أحمد في المسند مطولا وفيه: فقلت: يا رسول الله! اشفع إلى ربك ﷻ فليعتقني من النار"[٢].

وفي رواية أخرى: أسألك يا رسول الله أن تشفع لي إلى ربك فيعتقني من النار. وفيه: فقال: "إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود"[٣].

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يكافئ ربيعة لخدمته إياه، فأمره بسؤال حاجته، فسأله الدعاء له بمرافقته في الجنة، أو بالإعتاق من النار، فكأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تردد في استحقاق ربيعة للمرافقة حينئذ، فقال له: "أو غير ذلك؟" أي سل شيئا [٥١٦] غير ذلك، فلما أبى، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود" أي: حتى تستحق ذلك أو تقارب الاستحقاق، وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يدعو لأحد بما لا يستحقه أصلا وإن سأله، فقد روي أن قائلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يستغفر

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

(٢) انظر: مسند أحمد (١٦٦٢٨).

(٣) انظر: مسند أحمد (١٦٦٢٩).

له، فقال: لا غفر الله لك.

فأما سؤال الدعاء بالمغفرة ونحوها من غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كرهه بعض الصحابة وغيرهم.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصاري، ثنا أبو عون، قال: كنا عند إبراهيم، فجاء رجل، فقال: يا أبا عمران! ادع الله أن يشفيني. فرأيته أنه كرهه كراهية شديدة، حتى رأيتنا عرفنا كراهية ذلك في وجهه، أو حتى عرفت كراهية ذلك في وجهه، ثم قال: جاء رجل إلى حذيفة، فقال: ادع الله أن يغفر لي. قال: لا غفر الله لك. قال: فتنحى الرجل ناحية فجلس، فلما كان بعد ذلك قال: أدخلك [٥١٧] الله مدخل حذيفة، أقد رضيت الآن؟ قال ويأتي أحدكم الرجل كأنه قد أحصى شأنه، كأنه، فذكر إبراهيم السنة فرغب فيها وذكر ما أحدث الناس فكرهه"[١].

ونقل صاحب الاعتصام عن مهذب الآثار للطبري أنه أخرج فيه عن مدرك بن عمران قال: كتب رجل إلى عمر ﷺ أن ادع الله لي. فكتب إليه عمر: إني لست بنبي، ولكن إذا أقيمت الصلاة فاستغفر الله لذنبك ...

وعن سعد بن وقاص أنه لما قدم الشام أتاه رجل فقال: استغفر لي. فقال: غفر الله لك، ثم أتاه آخر فقال: استغفر لي. فقال: لا غفر الله لك

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٦: ٢٧٧).

ولا للأول أبي أنا ...

وعن زيد بن وهب أن رجلاً قال لحذيفة ﷺ: استغفر لي. فقال: لا غفر الله لك. ثم قال: هذا يذهب إلى نسائه فيقول: استغفر لي حذيفة، ترضى أن أدعو الله أن تكن مثل حذيفة ...

وعن ابن علية عن ابن عون قال: جاء رجل إلى إبراهيم فقال: [٥١٨] يا أبا عمران! ادع الله أن يشفيني، فكره ذلك إبراهيم وقطب، وقال: جاء رجل إلى حذيفة فقال: ادع الله أن يغفر لي. فقال: لا غفر الله لك. فتنحى الرجل فجلس، فلما كان بعد ذلك قال: فأدخلك الله مدخل حذيفة، أقد رضيت الآن، يأتي أحدكم الرجل كأنه قد أحصر شأنه، ثم ذكر إبراهيم السنة فرغب فيها وذكر ما أحدث الناس فكرهه.

وروى منصور عن إبراهيم قال: كانوا يجتمعون فيتذاكرون فلا يقول بعضهم لبعض استغفر لنا"[١].

فأما سؤال الدعاء في أمر دنيوي؛ فقد جاء عن بعض الصحابة أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمن ذلك ما هو في مصلحة عامة تتناول السائل وغيره، وهذا قد وقع من بعض أكابر الصحابة، كما روي عن أبي هريرة أو أبي سعيد قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله! لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا، فقال

[١] الاعتصام (١: ٣٠٤).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "افعلوا"، قال: فجاء عمر، فقال: يا رسول الله! إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك ..."[١].

ومنه ما هو لبعض أقارب السائل، كقول أم أنس للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله! خادمك أنس فادع الله له، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته"[٢].

وفي رواية: "فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث دعوات، قد رأيت منها اثنتين في الدنيا، وأنا أرجو الثالثة في الآخرة"[٣].

أقول: الثالثة صرح بها في رواية كما الإصابة[٤].

على أنها لم تصرح بسؤال الدعاء [٥١٩] لمصلحة دنيوية، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له لدينه ودنياه.

ومنه ما هو للسائل نفسه.

وعامة ما ورد من ذلك كان لحاجة أو ضرورة، كما جاء في سؤال

---

[١] أخرجه مسلم (٢٧).

[٢] أخرجه البخاري (٥٩٧٥)، ومسلم (٢٤٨٠).

[٣] أخرجه مسلم (٢٤٨١).

[٤] وهي قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "وأدخله الجنة" انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (١: ١٢٨).

قتادة بن النعمان رد عينه واعتذاره بأن له أزواجا يخاف أن يقال: أعور"[(١)].

وما روي في سؤال الأعمى الدعاء برد بصره، وشكواه أنه ليس له قائد، وأنه قد اشتد تضرره، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخير من يسأله الدعاء أنه إن صبر فهو خير له، فمنهم من اعتذر، ومنهم من اختار الصبر، كما جاء في صحيح مسلم عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي قال: "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك" قالت: أصبر، قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها[(٢)].

وجاء في قصة ثعلبة بن حاطب أنه قال: يا رسول الله! ادع الله أن يرزقني مالا، [٥٢٠] قال: "ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه" قال: والله لئن آتاني الله مالا لأوتين كل ذي حق حقه، فدعا له، فأوتي المال، فكان نهايته أن أنزل الله تعالى فيه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٥: ٤١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٦).

فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ (التوبة: ٧٧)[(١)].

وفي هذا تنبيه على سر عظيم؛ وهو أن الله تعالى أرحم بعباده من أنفسهم، وهو سبحانه أعلم منهم بما يصلحهم، وقد أباح الله ﷻ للعبد أن يدعوه بما شاء، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠).

وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦).

والله تعالى لا يخلف الميعاد، ولكنه إذا علم أن ما سأله العبد يعود عليه بالمضرة لو أوتيه يمنعه إياه، ويجعل إجابته لتلك الدعوة نعمة أخرى للسائل خيراً له مما سأل، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٥٢٠] "لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل"، قيل يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: "يقول: قد دعوت، قد دعوت، فلم أرى يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء"[(٢)].

وفي جامع الترمذي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر: أسباب النزول (ص: ١٠٨)، [وقد ضعَّفَ هذه القصة ابن حزم في المحلى (١١: ٢٠٧)، والذهبي في الميزان (١: ٥)، والعراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣: ٣٣٨)، وابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (ص: ٧٧)، والسيوطي في أسباب النزول (ص: ١٠٨)].

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٥).

وآله وسلم: "ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، أو كف عنه من السوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطعية رحم"[١].

وفي المستدرك عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ما من عبد ينصب وجهه إلى الله في مسألته إلا أعطاه الله إياها؛ إما أن يعجلها، وإما أن يدخرها"[٢].

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطعية رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف [٥٢٢] عنه من السوء مثلها". قالوا: إذاً نكثر. قال: "الله أكثر"[٣].

وفي المسند أيضاً عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثهم قال: "ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨١).

(٢) المستدرك (١: ٦٧٤) وقال الحاكم: صحيح. وأقره الذهبي.

(٣) مسند أحمد (١١١٤٩) وأخرجه الحاكم في المستدرك (١: ٦٧٠) وقال: صحيح وأقره الذهبي.

أو قطيعة رحم"[١].

وأخرج الترمذي من حديث سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين"[٢].

استثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء بإثم أو قطعية رحم لأن الداعي عاص بهذا الدعاء؛ فلا يستحق الإجابة أصلاً، ويلحق بذلك - والله أعلم- من ابتدع في دعائه، إما في نفس الدعاء، وإما فيما يتعلق به؛ كأن تحرى مكاناً، أو زماناً، أو هيئة، يزعم أن ذلك أقرب إلى الإجابة؛ ولم يثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن المغفل ﷺ سمع ابنه يقول: "اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، قال: أي بني! سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء"[٣].

---

(١) مسند أحمد (٢٢٨٣٧).

(٢) سنن الترمذي (٣٥٥٦)، وأخرجه الحاكم (١٨٣٠) وقال: على شرط الشيخين. وأقره الذهبي، وذكر له الحاكم شاهدا من حديث أنس بنحوه.

(٣) مسند أحمد (١٦٨٤٢)، وسنن أبي داود (٩٦)، وسنن ابن ماجه (٣٨٦٤) واللفظ له، =

[٥٢٣] فأما تحرى الدعاء بلفظ معين يحفظه الرجل ويواظب عليه فإن كان ذلك لأنه ثبت في كتاب الله ﷻ أو ورد عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فحسن، ولكن الأولى أن يتتبع أدعية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدعو بكل منها في موضعه كما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصنع، وإن كان لغير ذلك؛ كأن أعجبه لفظه، أو كان قد دعا به مرة فحصل مطلوبه، أو نقل عن بعض الصالحين، أو زعم بعضهم أنه مجرب، أو أن له ثوابا عظيماً، أو أنه علمه الخضر، أو علمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم، أو نحو ذلك؛ فلا أحب أن يتحراه، فإن التحري حق لما ثبت عن الله ﷻ وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق: ٣). وما أخسر صفقة من يدع الأدعية الثابتة في كتاب الله ﷻ، أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا [٥٢٤] يكاد يدعو بها، ثم يعمد إلى غيرها فيتحراه ويواظب عليه، أليس هذا من الظلم والعدوان؟

ومن أشنع الغلط في هذا الباب الاعتماد على التجربة، وما يدريك؟ لعل الله ﷻ لا يرضى لك ذلك الدعاء، ولكنه علم أن حاجتك التي

والحاكم في الدعاء من المستدرك (٥٧٩)، وقال: صحيح الإسناد. وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: صحيح.

دعوت بها إذا أعطيتها عادت عليك بالضرر فأعطاك إياها؛ ليكون ما يحصل لك بها من الضرر عقوبة لك على ذلك، أو أعطاك إياها من باب الاستدراج والعياذ بالله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٢٨).

وجاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لسبطه الحسن بن علي عليهما السلام: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" صححه الترمذي وابن حبان والحاكم، وقد تقدم.

وفي مسند أحمد من حديث أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"[١].

والمقصود أن ثعلبة لو اقتصر على دعائه لنفسه [٥٢٥] بكثرة المال وترك الخيرة لله ﷻ لما ضره ذلك، بل كان الله ﷻ يثيبه على ذلك الدعاء ما يعلم أن له فيه خيراً في أمر معاشه ومعاده، ولكنه لما لم يرض بخيرة الله له، وألح على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو له متكلاً على خيرته لنفسه جرى ما جرى.

فإن قيل: وكيف يدعو له النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما لا خير له فيه؟ فقيه أجوبة:

الأول أن تكثير المال ليس هو شرا بذاته.

---

[١] المسند (١٢٥٧٢).

والثاني أن السائل لما ألح استحق العقوبة، فغاية الأمر أن يكون هذا الدعاء كالدعاء عليه، وهو مستحق لذلك.

والثالث ما جاء في أحاديث الصدقة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعطي من يلح عليه وإن كان غير مستحق، ثم يبين أنه لا خير لهم في ذلك. ففي حديث معاوية عند مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تلحفوا في المسألة، فوالله لا يسألني أحد منكم شيئا فتخرج له مسألته مني شيئا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته"[(١)].

وفي حديث عمر عند مسلم في صحيحه: "إنهم خيروني بين أن يسألوني بالفحش، وبين [٥٢٦] أن يبخلوني، فلست بباخل"[(٢)].

ومما يتعلق بسؤال الدعاء بنفع دنيوي حديث الصحيحين في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فإن فيه: كانوا "لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون" فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: "اللهم اجعله منهم" ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: "سبقك بها عكاشة"[(٣)].

فالحديث يدل على كراهيةٍ مَا للاسترقاء، وحقيقته: سؤالك من

---

(١) صحيح مسلم (١٠٣٨).

(٢) صحيح مسلم (١٠٥٦).

(٣) صحيح البخاري (٥٣٧٨)، وصحيح مسلم (٢١٦).

رجل أن يرقيك، وذلك سؤال لنفع دنيوي، فأما أن يجيئك رجل فيرقيك بدون أن تسأله فلا كراهة فيه، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرقي، وعرضوا عليه رقية، فقال: "ما أرى بها بأساً، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه"[1].

وفي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه"[2].

وهذا الفرق شبيه بالفرق بين سؤال المال وقبول العطاء، ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر ﷺ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني. فقال: "خذه، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا؛ فلا تتبعه نفسك"[3].

وكان ابن عمر وأبو هريرة وغيرهما من الصحابة ﷺ لا يسألون

---

(١) صحيح مسلم (٢١٩٩).

(٢) صحيح البخاري (٤١٧٥)، وصحيح مسلم (٢١٩٢).

(٣) صحيح البخاري (٤١٠٤)، وصحيح مسلم (١٠٤٥).

أحداً، ولا يردون إذا أعطوا، هذا؛ والظاهر أن كراهية الاسترقاء خاصة بما إذا استرقى الإنسان لنفسه، أما استرقاؤه لغيره فلا كراهية، ففي الصحيحين عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة -يعني: صفرة- فقال: "استرقوا لها، فإن بها النظرة"[(١)].

وعلى هذا يحمل حديث الصحيحين عن [٥٢٨] عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو أمر أن يُسْتَرْقَى من العين"[(٢)].

ولفظه: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمرني أن استرقي من العين".

والمراد -والله أعلم-: أن تسترقي لمن كانت تكفله من الصبيان لا لنفسها.

ومن القسم الثالث: سؤال العبد من ربه ﷻ، وهو المسمى دعاء، ومنه كما صرح به القرآن سؤال الملائكة، وسماه القرآن دعاء، وقد تأملنا الفرق بينه وبين سؤال الناس بعضهم بعضا؛ فوجدنا الفرق أن السؤال من الملائكة فيه تذلل لهم وتعظيم يتدين به، أي: يطلب به نفع غيبي، وقد

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٠٧)، وصحيح مسلم (٢١٩٧).

(٢) صحيح البخاري (٥٤٠٦)، وصحيح مسلم (٢١٩٥).

قدمنا أن كل ما كان كذلك فهو عبادة، فإن لم ينزل الله تعالى سلطانا بالأمر أو الإذن به فهو عبادة لغيره.

وأما سؤال الناس بعضهم من بعض ما جرت العادة بقدرهم عليه فمنه ما لا تذلل فيه، ومنه ما كان فيه تذلل، ولكن لا يطلب به نفع غيبي، وإنما كان السؤال من الملائكة سؤالا لنفع غيبي؛ [٥٢٩] لأنهم غائبون عن حِسِّنا ومشاهدتنا، لا نشاهدهم، ولا نشاهد قدرتهم على النفع ومباشرتهم له، كما يشاهد البشر بعضهم بعضاً، فسواء أكان المسؤل من الملائكة هو النفع بالفعل؛ كإنزال المطر -مثلا- أو مجرد النفع بالشفاعة؛ لأن البشر لا يدركون بالحس والمشاهدة أن الملائكة يسمعون دعاءهم، ولا أنهم يشفعون لمن دعاهم، وهذا بخلاف سؤال الدعاء من الإنسان الحي الحاضر، فإن الدعاء نفسه وإن كان نفعاً فليس غيبيا؛ لأننا ندرك بالحس والمشاهدة أن الإنسان الحي الحاضر يسمع طلبنا ويدعو لنا إذا طلبنا منه الدعاء، وهاهنا فروق أخرى بين سؤال الناس بعضهم من بعض ما يدخل تحت قدرتهم، وسؤال الملائكة منها ما تقدم في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) أن البشر لما كانوا في دور ابتلاء وامتحان منحهم الله تعالى شيئاً من الاختيار، فهم يستطيعون أن يعملوا ما أرادوه مما يدخل تحت قدرتهم ولو كان معصية [٥٣٠] لله ﷻ، وأما الملائكة فهم في دور طاعة محضة، فهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦-٢٧).

فسؤال البشر بعضهم بعضاً ما جرت العادة بقدرهم عليه له معنى؛

لأن لهم اختيارا، وكذلك سؤال الملائكة، ألا ترى لو أن ملكا جعل بيد بعض أتباعه مالا، وقال له: فرقه على بعض المستحقين، ثم جعل مالا بيد تابع آخر، وقال له: لا تصرف منه فلسا إلا إذا أمرتك، وقد علمنا أن هذا التابع لا يخالف متبوعه، فإن العاقل منا قد يسأل الأول؛ لأنه مختار، ولا يسأل الثاني، وهكذا في الشفاعة، لو أن ملكاً أذن لبعض أتباعه أن يشفع عنده للمستحقين، ومنع آخر أن يشفع لأحد حتى يأمره الملك أن يشفع له؛ لكان من المعقول أن تسأل الشفاعة من الأول، وأما الثاني فلا؛ لأن الملك متى أمره بالشفاعة فلابد أن يمتثل أمر الملك فيشفع.

[٥٣١] وأيضاً فإن الملك لن يأمر بالشفاعة إلا وقد أحب قضاء تلك الحاجة، وإذ قد أحب قضاءها فلابد أن يقضيها، ولو لم تقع الشفاعة، فأما إذا قال الملك لأحد أتباعه لا تشفع حتى آذن لك، فإن قلنا: إن الإذن هنا بمعنى الأمر فكما تقدم، وإن قلنا: بل بمعنى أنه يقول له: إن شئت فاشفع، فقد يقال: لا معنى للسؤال أيضاً؛ لأن الملك لم يأذن بالشفاعة حتى أراد قضاء تلك الحاجة، وإنما أذن لهذا بالشفاعة إكراما له، فإن شفع فذلك قبول للإكرام، وإن لم يشفع لم يمتنع الملك من قضاء تلك الحاجة، مع أن هذا المأذون له إذا كان طاهر النفس لم يحتمل أن يأبى الشفاعة.

فإن قيل: فيحتمل أن الملك يجعل شفاعة ذلك الرجل شرطاً لقضاء الحاجة، فيقول له: لا أقضيها أو تشفع فيها، قلت: في إمكان هذا في حق الله ﷻ نظر، وعلى فرض وقوعه فالملائكة طيبون طاهرون لا يمتنعون من الشفاعة بعد أن يأذن الله تعالى لهم فيها.

فإن قيل: قد يتوقف الإذن بالشفاعة [٥٣٢] على التعرض للإذن؛ فيحتاج إلى سؤال الشفيع أن يتعرض، كما في حديث الشفاعة أن الخلق يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيذهب فيتعرض للإذن بالسجود والثناء على الله تعالى؛ فيأذن له فيشفع.

قلت: هذا صحيح بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة فأما الملائكة فلا.

أولا: لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٧) يدل أنهم لا يتعرضون أيضاً.

ثانياً: أنه لا سلطان عندنا أن سؤال الشفاعة منهم يحملهم على التعرض لها.

ثالثاً: إن البشر في المحشر يؤتون ضربا من الاختيار، فيكون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اختيار في أن يتعرض للشفاعة، فإذا سئل ذلك؛ فإنما سئل أمرا يقدر عليه باختياره، وأظهر من ذلك أن السؤال في المحشر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم سؤال من حاضر مشاهد يُسْأَلُ منه ما يقدر عليه بمقتضى الحس والمشاهدة، وليس كالسؤال من الملائكة في الدنيا؛ لأنهم غيبيون كما مر.

ومن الفرق أيضاً أن الشرائع مبنية على أن [٥٣٣] للبشر اختيارا، وسؤال بعضهم من بعض مبني على هذا الاختيار، فكما قامت حجة الله تعالى على البشر بهذا الاختيار الثابت بالفطرة والبديهة، وإن أعيا العقلاء بيان عدم مناقضته للقدر، فكذلك قبل سبحانه اعتذارهم بهذا الاختيار عن

سؤال بعضهم من بعض ما يدخل تحت قدرتهم العادية، فلم يجعل ذلك كفرا به، وإن حرم بعضه، وهذا المعنى لا يأتي في سؤال الملائكة.

ومن الفرق أيضاً أن الناس بطبيعتهم معتمدون على ما عرفوه وألفوه من قدرة البشر على نفع بعضهم بعضاً في دائرة قدرتهم، والعادة تكرههم على هذا الاعتماد، حتى إنك ترى إجابة البشر للسائل أقرب فيما ترى العين من إجابة الله ﷿ لداعيه، وهذا المعنى لا يأتي في الملائكة، بل الأمر بالعكس، فإن العاقل إذا أمعن النظر وبحث وتدبر علم كثرة إجابة الله تعالى دعاء من يدعوه و لم ير مثل ذلك في دعاء الملائكة، ولهذا كان المشركون أنفسهم يقتصرون في الشدائد على دعاء الله ﷿.

ومن الفرق أيضاً [٥٣٤] أن السؤال من الإنسان الحاضر ما يقدر عليه عادة ليس فيه ادعاء أنه يعلم الغيب، ولا يلزمه الخضوع القلبي، ولا يمكن أن يعم جميع الحوائج، فيؤدي إلى الإعراض عن الله تعالى، ولا يكاد يؤدي إلى تعظيمه كتعظيم الله ﷿، بخلاف السؤال من الملائكة في ذلك كله.

ومن الفرق في خاصة سؤال الدعاء؛ أن سؤال الدعاء من الأنبياء والصالحين قد تحصل به مصلحة، كأن يخبر المسؤل السائل أن الأمر الذي يطلبه لا يحل له، أو لا خير له فيه، أو نحو ذلك، وهذا أيضاً لا يأتي في الملائكة.

ومنه أيضاً أن الناس كالمفطورين على الخضوع والتذلل لمن يسالون منه، فإن كان بشراً غير معتقد فيه الخير فإن أكثر الناس ينفرون بطباعهم عن الخضوع والتذلل له، وإن كان نبياً حيا حاضراً فإنه لا يقرهم على ما

لا يجوز، والصالح يظن به نحو ذلك، ونحن نرى الناس يأتون إلى من يُظَن به الصلاح [٥٣٥] فيبادرون إلى تعظيمه بما شاءت لهم أنفسهم، وقد يصرون على عمل ذلك، مع منع ذلك الصالح لهم، ونهيه إياهم، وتأذيه بفعلهم، فأما السؤال من الملائكة لو أبيح فليس هناك ما يردع الناس عن التغالي في تعظيمهم حتى يسووهم بالله ﷻ، أو يزيدوا.

ومنها أن سؤال الدعاء من الصالح لا يؤدي غالباً إلى أكثر من زَعْم أنه مستجاب الدعوة، وإن كان قد يجر أحياناً إلى أزيد من ذلك كما تراه في زعم بعض المريدين أن شيخهم نافذ الحكم فيما أراد، وأنه قد أعطاه الله ﷻ كلمة كن، فكل ما أراد أن يكون كان، وكل ما أراد أن لا يكون لا يكون، ولهذا كره السلف سؤال الدعاء من الإنسان الحي أيضاً، كما مر عن عمر وسعد وحذيفة وغيرهم ﷺ، ولكن كثيراً ما يمنع عن هذا الغلو منع الشيخ منه، أو زجره عنه.

فأما السؤال من الملائكة فإنه يسوق إلى اعتقاد أنهم يتصرفون في الكون باختيارهم، ولا يتأتى منهم النهي عن الغلو، وقد وقع قريب من ذلك في شأن أرواح الموتى، والله المستعان.

[٥٣٦] فإن قيل: كيف يكون السؤال من الملائكة دعاء لهم وعبادة، وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يسألون جبريل وغيره من الملائكة عليهم السلام؟

قلتُ: ليس هذا من ذاك، فإن الأنبياء عليهم السلام إنما يسألون جبريل عن بعض المعارف ونحوها سؤال استفهام وهو حاضر مشاهد لهم،

أرسله الله ﷻ ليعلمهم ويخبرهم عما يسألونه عنه، فسؤالهم منه طلب حق، وهذا السؤال لا خضوع معه للمسؤول، ولا هو غائب، ومع ذلك فعندهم من الله تعالى بذلك سلطان.

فإن قيل: فقد جاء في الأثر أن خبيب بن عدي رضي الله تعالى عنه لما أراد المشركون قتله نادى يا محمد! وهو حينئذ بمكة، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة.

وجاء في الأثر أن عمر نادى وهو على منبر المدينة يا سارية! الجبل، وسارية حينئذ بفارس.

وعلّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته أن يقولوا في تشهد الصلاة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ففعلوا ذلك في حياته وبعد وفاته، ولا يزالون على ذلك، ولن يزالوا إلى يوم القيامة.

[٥٣٧] وجاء في حديث الأعمى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علمه أن يقول: "اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد، يا رسول الله، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها، اللهم فشفعه في".

وفي بعض رواياته زيادة: "وإن كان حاجة فعل مثل ذلك".

وروي عن عثمان بن حنيف ﷺ أنه علم رجلاً يقول ذلك في خلافة عثمان ﷺ، وعن بعض التابعين أنه دعا بنحو هذا الدعاء.

فالجواب: أما خبيب؛ فقصته في الصحيح وليس فيها أنه نادى يا محمد، بل قال الحافظ في فتح الباري: "وفي رواية بريدة بن سفيان فقال

خبيب: اللهم إني لا أجد من يبلغ رسولك مني السلام فبلغه"[١].

وفي رواية ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة قال: "ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا ..."

وقال ابن إسحاق أيضاً: "وحدثني بعض أصحابنا قال: كان عمر بن الخطاب استعمل سعيد بن عامر بن حذيم فذكر قصة، وفيها من كلام سعيد: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خبيب [٥٣٨] بن عدي حين قتل وسمعت دعوته ..."[٢]، ولم يفسر الدعوة، وذكر أنه نادى: يا محمد.

وهذه القصة، أعني: قصة سعيد بن عامر؛ هي التي جاء فيها تلك الكلمة، رواها أبو نعيم في الحلية من طريق الهيثم بن عدي، نا ثور بن يزيد، نا خالد بن معدان قال: "استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر بن حذيم، فذكر قصة فيها محاورة بين عمر وسعيد، ذكر فيها من كلام سعيد شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة، وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذعه فقالوا: تحب أن محمدا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وأن محمدا شيك شوكة، ثم نادى: يا محمد".

---

(١) فتح الباري (٧: ٣٨٣).

(٢) سيرة ابن هشام (٢: ٦٢).

وخالد بن معدان لم يدرك عمر، وثور بن يزيد ناصبي، والهيثم بن عدي كذبه ابن معين والبخاري وغيرهما، وهو الذي روى عن هشام بن عروة، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمى ابنيه عبد العزى وعبد مناف.

قال النسائي: محال أن يصدر ذلك من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال ابن حجر في اللسان: هذا من افتراء الهيثم على هشام.

والذي ذكره ابن إسحاق [٥٣٩] عن عاصم بن عمر بن قتادة، وذكره الحافظ عن رواية بريدة بن سفيان هو المعروف من صنيع الصحابة، ففي هذه القصة بعينها في البخاري أن عاصم بن ثابت أمير السرية قال: "أمَّا أنا فلا أنزل على ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك"[١].

ولو صح أن خبيبا قال: يا محمد، فلم يقصد به الاستغاثة، كيف وهو مستعد للموت، مستبشر بالشهادة، ولم يحصل له الإغاثة من القتل، ولا قصد إسماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بدلالة الروايات الأخر، وإنما قال ذلك على ما جرت به عادة المحب المشتاق أن يدعو باسم محبوبه إظهارا لشدة شوقه إليه، ومحبته له، حتى كأنه حاضر لديه، وهذا مجاز كما لا يخفى، والله أعلم.

وأما أثر يا سارية الجبل؛ [٥٤٠] فالجواب عنه ما جاء في القصة

---

(١) فتح الباري (٧: ٣٨١).

نفسها، فإن فيها: فقيل لعمر: ما ذاك الكلام؟ فقال: "والله ما ألقيت له بالا، شيء أتى على لساني"[١].

فبين أنه لم يقصد ذلك الكلام أصلاً، ومع ذلك فإنه أمر لا سؤال يصحبه الخضوع والتذلل، ومع ذلك ففي ثبوت هذه القصة مقال، وأقوى طرقها رواية حرملة، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب، عن ابن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر، وفيها: "ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينا نحن كذلك، إذ سمعنا صوتاً ينادي: يا سارية! الجبل، ثلاثاً، فأسندنا ظهرنا إلى الجبل، فهزمهم الله تعالى. قال: قيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك"[٢].

وقوله: "قيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك" يوافق ما جاء في الرواية السابقة؛ أنه شيء جرى على لسانه بغير اختياره، والله أعلم.

ومع ذلك فحرملة ويحيى بن أيوب ومحمد بن عجلان في كل منهم مقال، وقد عد أهل الأصول من المقطوع بكذبه ما روي آحادا والدواعي متوفرة على نقله، قال المحلي: "كسقوط الخطيب عن المنبر وقت الخطبة"[٣].

---

[١] الخصائص الكبرى (٢: ٤٢٥).

[٢] الإصابة في معرفة الصحابة (٣: ٦).

[٣] شرح المحلي على جمع الجوامع (٢: ٧٩).

أقول: هذه القصة أولى بتوفر الدواعي على نقلها من سقوط الخطيب عن المنبر، هو واضح، والله أعلم.

وبما ذكرناه علم ما في قول الحافظ ابن حجر في الإصابة: "إن إسنادها حسن".

وأما قولنا في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: "فإن قيل: كيف شرع هذا اللفظ وهو خطاب بشر مع كونه منهيا عنه في الصلاة؟ فالجواب: أن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم.

فإن قيل: ما الحكمة في العدول عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: عليك أيها النبي، مع أن لفظ الغيبة هو الذي يقتضيه السياق، كأن يقول: السلام على النبي، فينتقل من تحية الله إلى تحية النبي، ثم إلى تحية النفس، ثم إلى الصالحين؟ أجاب الطيبي بما محصله: نحن نتبع لفظ الرسول بعينه الذي كان علمه الصحابة، ويحتمل أن يقال على طريق أهل العرفان: إن المصلين لما استفتحوا باب الملكوت بالتحيات أذن لهم بالدخول في حريم الحي [٥٤١] الذي لا يموت، فقرت أعينهم بالمناجاة، فنبهوا على أن ذلك بواسطة نبي الرحمة، وبركة متابعته، فالتفتوا فإذا الحبيب في حرم الحبيب حاضر، فأقبلوا عليه قائلين: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

وقد ورد في بعض طرق حديث ابن مسعود هذا ما يقتضي المغايرة بين زمانه صلى الله عليه وآله وسلم فيقال بلفظ الخطاب، وأما بعده فيقال بلفظ الغيبة، وهو مما يخدش في وجه الاحتمال المذكور، ففي الاستئذان

من صحيح البخاري من طريق أبي معمر، عن ابن مسعود بعد أن ساق حديث التشهد قال: "وهو بين ظهرانينا، فلما قبض قلنا السلام -يعني- على النبي". كذا وقع في البخاري.

وأخرجه أبو عوانة في صحيحه، والسراج، والجوزقي، وأبو نعيم الأصبهاني، والبيهقي من طرق متعددة إلى أبي نعيم شيخ البخاري فيه بلفظ: "فلما قبض قلنا السلام على النبي" بحذف لفظ "يعني". وكذلك رواه أبو بكر بن أبي شيبة، عن أبي نعيم [٥٤٢].

قال السبكي في شرح المنهاج بعد أن ذكر هذه الرواية من عند أبي عوانة وحده: "إن صح هذا عن الصحابة دل على أن الخطاب في السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم غير واجب فيقال: السلام على النبي".

قال الحافظ: "قلت: قد صح بلا ريب، وقد وجدت له متابعا قويا، قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، أخبرني عطاء أن الصحابة كانوا يقولون والنبي صلى الله عليه وآله وسلم حي: السلام عليك أيها النبي، فلما مات قالوا: السلام على النبي. وهذا إسناد صحيح. وأما ما روى سعيد بن منصور من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علمهم التشهد فذكره، قال: فقال ابن عباس: إنما كنا نقول السلام عليك أيها النبي إذ كان حيا، فقال ابن مسعود: هكذا علمنا وهكذا نعلم، فظاهره أن ابن عباس قاله بحثا وأن ابن مسعود لم يرجع إليه، لكن رواية أبي معمر أصح؛ لأن أبا عبيدة لم يسمع

من أبيه، والإسناد إليه مع ذلك ضعيف"[١].

[٥٤٣] والحاصل: أن الخطاب فيه ليس على بابه، وإنما هو على التنزيل، أي: تنزيل الغائب منزلة الحاضر للدلالة على استحضاره في الذهن؛ كأن ذلك تنبيه للمصلي على تحرى متابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أقواله وأفعاله، وهذا التحري يحمل على استحضار النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الذهن حتى كأنه حاضر يرشد إلى أعمال الصلاة والمصلي يتابعه.

وقد كان الصحابة يقولون ذلك في حياته صلى الله عليه وآله وسلم سرا بحضرته أو غائبين عنه، وإنما عدل عنه من عدل بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم لئلا يظن الجهال أنه خطاب حقيقي، ورأوا أن توهم ذلك كان بغاية البعد في حياته صلى الله عليه وآله وسلم، أما بحضرته فالمصلي يعلم أنه لو كان خطابا حقيقيا لشرع أن أرفع صوتي، كما أنني لو أردت أن أسأله عن شيء، أو أستأذنه، أو إخباره بشيء كان علي شرعا وعادة أن أخاطبه، بحيث يسمع كما يسمع غيره بحسب العادة، وأما من بعد عنه فكذلك؛ لأنه يقول: لو كان خطابا حقيقيا لكان علي أن لا أقوله إلا بحضرته فأسمعه كما يسمع غيره على ما جرت به العادة، كما لو أردت سؤاله أو استئذانه في شيء، أو إخباره بشيء كان علي أن

---

(١) فتح الباري (٢: ٣١٤).

أذهب إليه فأقرب منه بحيث يسمع صوتي، ثم أرفع صوتي فأكلمه، أما بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم فإنه لم يبق ممكنا لأحد أن يقرب منه فيخاطبه فيسمعه على حسب ما هو معروف في العادة، فلو صرف الإنسان في نفسه أني لو أردت استئذانه، أو إخباره بشيء لكان علي أن أذهب إليه، وأقرب منه، وأرفع صوتي فاسمعه كما جرت به العادة في غيره، فما بقي إلا احتمال ما هو على خلاف العادة، وإذا انفتح هذا الاحتمال لم يكن له حد يوقف عنده.

ورأى الآخرون أن توهم الجهال كونه خطابا حقيقيا بعيد؛ لأن القرائن العقلية والعادية والشرعية الصارفة عن الحقيقة واضحة، والناس يقولون إلى الآن: رحمك الله يا فلان، ويكون فلان قد مات منذ زمان ودفن بعيداً عن القائل بمراحل، والقائل لا يشك أن فلانا لا يسمعه، وإنما أراد رحم الله فلاناً، وذكر الله فلاناً بخير، ولكنه أتى بلفظ الخطاب دلالة على شدة استحضاره فلاناً في ذهنه، والقرينة الدالة على أن الخطاب هنا مجاز هي ما عرفه الناس من العادة أن [٥٤٤] الغائب والميت لا يسمع، وذكر الميت بلفظ الخطاب لا تكاد تخلو عنه مرثية من مراثي العرب، وفي شعر مهلهل كثير منه، مع أنه القائل:

فلو نبش المقابر عن كليب فيخبر بالذنائب أي زير

بل كثيرا ما يخاطبون الجمادات والمعاني، وفي الحديث: "يا أرض ربي

وربك الله"[1].

وفيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم لمكة: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ..." الحديث[2].

وقوله لها: "ما أطيبك من بلد ..."[3].

وقول عمر للحجر الأسود: "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ..." الحديث[4].

ومثل هذا لم يكن يشتبه على أحد في القرون الأولى، ولكن حال الحال، وترأس الجهال، وإلى المشتكي.

وأما حديث الأعمى ففي صحته نظر؛ فإنه تفرد به أبو جعفر الخطمي، فروي عنه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف، وروي عنه عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وآله [٥٤٥] وسلم فقال: يا

---

(١) سنن أبي داود (٢٦٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥)، وقال: حسن غريب صحيح، وابن ماجه (٣١٠٨)، والحاكم (٥٢٢٠)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. وأقره الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٩٢٦)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، والحاكم في المستدرك (١٧٨٧)، وقال: صحيح الإسناد. وأقره الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري (١٥٢٠)، ومسلم (١٢٧٠).

نبي الله! ادع الله أن يعافيني. قال: "إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك، وإن شئت دعوت لك". قال: لا بل ادع الله لي. فأمره أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد! إني أتوجه بك إلى الله في حاجتي هذه فتقضى لي، وتشفعني فيه وتشفعه في. قال: ففعل الرجل فبرئ"[1].

وقوله وتشفعني فيه أراد أني أدعوك أن تجيب دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي دعا لي، فاستجب دعائي هذا، فأطلق على دعائه بإجابة دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم له شفاعة، وكأنه من باب المشاكلة، كقوله تعالى حكاية عن عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (المائدة: ١١٦) -والله أعلم-.

وقوله يا محمد؛ إن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بحضرته فلا حجة فيه للمخالف، وإن كان علمه أن يقول ذلك بعيدا عنه أي: بحيث لا يسمعه عادة فسياق الدعاء ظاهر [٥٤٦] في أنه لا يراد من ذلك إسماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا حقيقة الخطاب، وإنما هو من باب المجاز الذي تقدم ذكره، ومن القرينة على ذلك أنه لم يقع في متن الدعاء طلب شيء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكأن أصل المعنى؛

---

[1] هذا لفظ رواية الإمام أحمد في المسند (١٧٢٧٩).

اللهم إني أتوجه إليك بمحمد في حاجتي، وإنما عدل إلى الخطاب إشارة إلى أنه ينبغي للداعي بهذا الدعاء أن يكون مستحضرا لفضيلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكرامته على ربه حق، كأنه صلى الله عليه وآله وسلم حاضر أمامه؛ وعلى هذا المجاز يحمل ما يروى أن عثمان بن حنيف علم رجلاً هذا الدعاء في خلافة عثمان، وما يروى من دعاء بعض التابعين بنحوه، وعلى كل حال فليس في الدعاء سؤال شيء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما السؤال من الله تعالى.

وأما ما فيه من التوسل؛ -أي: سؤال الله ﷻ بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم- فتلك مسألة أخرى ليس فيها سؤال من غير الله ﷻ، ومن منع من هذا التوسل لم يقل: إنه عبادة لغير الله [٥٤٧] تعالى، ولا شرك، وغايته أن يقول: هو حرام، وممن منع هذا التوسل سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعي؛ إلا أنه استثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم معلقاً ذلك بصحة الحديث، وقد التزم بعض العلماء صحة الحديث وحمله على أنه توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا بذاته، واستدل على ذلك بحديث البخاري رحمه الله عن أنس رضي الله تعالى عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كانوا إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، فقال: "اللهم إن كنا نتوسل

إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا". قال: فيسقون[(١)].

فالمراد التوسل بدعائه لما جاء أن عمر كان يقول هذه الكلمات عندما يرفع العباس يديه يدعو، ولأن قوله: "إنا كنا نتوسل إليك بنبينا .." الخ، ظاهر في أن المعنى: وأن نبينا قد توفي فلا يمكننا التوسل به؛ فلذلك نتوسل إليك بعم نبينا، ومعلوم أن الذي فات بموت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو أن يدعو لهم في حاجتهم تلك، فثبت بذلك أن التوسل به إنما هو التوسل بدعائه للمتوسل بحاجته تلك، [٥٤٨] ولو كان التوسل بذاته، أو بكرامته على ربه، أو بدعائه لأمته في الجملة لما فات ذلك بموته صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا لو جاز سؤال الدعاء والشفاعة منه صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته لما فات المقصود بالموت، ولكانوا يسألون منه الدعاء والشفاعة ثم يتوسلون، وكلام أمير المؤمنين عمر ظاهر في أن توسلهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد فات بموته، وكان يقول ذلك على رؤوس الأشهاد في اجتماعهم للاستسقاء، وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مجتمعون، ولم ينكر ذلك أحد منهم، ومثل هذا إجماع عند جماعة من أهل العلم، والله أعلم.

هذا وقد أخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى

---

(١) صحيح البخاري (٩٦٤).

أرد عليه السلام"[١].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى [٥٤٩] علي نائيا أبلغته"[٢].

وجاءت آثار أخرى يؤخذ منها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمع ما يقع من الأصوات عند قبره بأبي هو أمي، ولكن لم أقف على ما هو صحيح صريح في ذلك، ولم يثبت عن السلف مخاطبته عند القبر إلا بالسلام، وأنت خبير أن السلام ليس فيه سؤال، ولا استعانة، ولا استغاثة، وإنما هو دعاء له صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد اختلف أهل العلم في سماع الموتى؛ فأنكرته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وغيرها سلفا وخلفا، واحتجوا بقوله تعالى لرسوله صلى

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٤١)، وفي سنده حميد بن زياد أبو صخر الخراط قال أحمد ويحيى: لا بأس به وقال يحي مرة أخرى: ضعيف. وكذا قال النسائي.

(٢) ذكره في المشكاة (ص: ٨٧)، ثم رأيته في جزء حياة الأنبياء للبيهقي (ص: ١٢) من طريق العلاء بن عمرو الحنفي ثنا أبو عبد الرحمن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ... فذكره مرفوعاً، ثم قال البيهقي: أبو عبد الرحمن هذا هو محمد بن مروان السدي فيما أرى وفيه نظر.

قلت: هو هو، ففي الميزان في ترجمته العلاء بن عمرو الحنفي، عن محمد بن مروان، عن الأعمش، عن أبي صالح ..." فذكر الحديث ... ومحمد بن مروان السدي الصغير كذاب يضع الحديث.

الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) (وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (النمل: ٨٠-٨١) ومثلها في سورة (الروم: ٥٢-٥٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (الأنعام: ٣٥-٣٦).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) (٢٢) (إِنْ أَنتَ إِلا نَذِيرٌ ...﴾ (فاطر: ٢٣).

[٥٥٠] ولم تقبل عائشة حديث ابن عمر وغيره في وقوف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قتلى المشركين الذين ألقوا في قليب بدر وندائه إياهم بأسمائهم، وقوله: "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا" فقيل له: يا رسول الله! أتخاطب أقواماً قد جيفوا؟ فقال: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" فقالت عائشة: ما قال: إنهم يسمعون ما أقول، إنما قال: إنهم الآن ليعلمون إنما كنت أقول لهم حق، تعني: وأما مخاطبته صلى الله عليه وآله وسلم لهم فلم تكن لكي يسمعوا[١].

---

[١] انظر: صحيح البخاري (٣٧٥٩).

وإنما المقصود منها اعتبار من يسمعه من الأحياء أو يبلغه، وقال جماعة: أما الموتى فلا يسمعون، ولكن الله تعالى أسمع أهل القليب كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال تعالى في آية فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: ٢٢) فدل أن العادة المستمرة عدم سماعهم، ولكن الله تعالى إذا شاء أسمعهم.

وفي صحيح البخاري: قال قتادة: "أحياهم الله -يعني: أهل الطوى- حتى أسمعهم قوله صلى الله عليه وآله وسلم توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً"[١].

وفي فتح الباري: "والجواب عن الآية أنه لا يسمعهم وهم موتى، ولكن الله أحياهم حتى سمعوا كما قال قتادة ... وقال السهيلي ما محصله: إن في نفس الخبر ما يدل على خرق العادة بذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لقول الصحابة له: أتخاطب أقواما قد جيفوا؟ ... ثم قال الحافظ: وقد اختلف أهل التأويل في المراد بالموتى في قوله تعالى: ﴿انك لا تسمع الموتى﴾ وكذلك المراد: ﴿بمن في القبور﴾ فحملته عائشة على الحقيقة، وجعلته أصلا احتاجت معه إلى تأويل قوله: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم"، وهذا قول الأكثر"[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٣٧٥٧).

(٢) فتح الباري (٧: ٣٠٤).

وقال في الجنائز: "وقال ابن التين: لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية؛ لأن المراد أن الموتى لا يسمعون ولا شك، لكن إذا أراد الله إسماع ما ليس من شأنه السماع لم يمتنع، كقوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة ...﴾ الآية (الأحزاب: ٧٢)، وقوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ...﴾ الآية (فصلت: ١١)"[١].

[٤٥١] وقال آخرون: إن الموتى يسمعون الأصوات التي تقع عند قبورهم، واحتجوا بالحديث المذكور، وبحديث الصحيحين: "إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان ..." الحديث[٢].

وبما أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في شهداء أحد: "أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله تعالى، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه"[٣].

وبما أخرج ابن عبد البر، وقال عبد الحق: إسناده صحيح، عن ابن عباس مرفوعا: "ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا

---

[١] فتح الباري (٣: ٢٣٥).

[٢] أخرجه البخاري (١٢٧٣)، ومسلم (٢٨٧٠).

[٣] المستدرك (٢٩٧٧).

فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه".

وأجابوا عن الآيات بتأويلات لا تسمن ولا تغني من جوع، وإذا رجع الأمر إلى التأويل فتأويل ما يصح من تلك الأحاديث توفيقاً بينها وبين الآيات هو المتعين؛ لأن القرآن متواتر بلفظه الموجود، والأحاديث تحتمل خطأ الراوي، أو روايته بالمعنى، ونحو ذلك.

[٥٥٢] فأصح تلك الأحاديث هو حديث قليب بدر، وهو محمول على أن الله تعالى أسمعهم خرقا للعادة، ويليه حديث: "وإنه ليسمع قرع نعالهم" وهو محمول على أن المراد الكناية عن قربهم من القبر، أي: بحيث لو كان يسمع لسمع قرع نعالهم، وقد قيل: إنه إنما يسمع حينئذ لأنها ترد روحه في جسده للسؤال كما جاء في حديث البراء عند أصحاب السنن وصححه أبو عوانة كما في فتح الباري، وفيه نظر[١].

فأما حديث المستدرك؛ فهو من طريق عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. تعقبه الذهبي فقال: كذا قال، وأنا أحسبه موضوعا، وقطن لم يرو له البخاري، وعبد الأعلى لم يخرجا له.

أقول: رواه الحاكم عن عبيد الله بن محمد القطيعي، عن أبي إسماعيل الترمذي، عن عبد العزيز الأويسي، عن سليمان بن بلال، عن عبد

---

[١] فتح الباري (٣: ٢٣٤).

الأعلى، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة، وليس فيهم من ينظر فيه إلا عبد الأعلى، ومع ذلك فقد قال ابن معين: أولاد عبد الله بن أبي فروة كلهم ثقات إلا إسحاق، وذكره ابن حبان في الثقات؛ فأما ذكر ابن حبان في الثقات فلا ينافي الجهالة، وأما قول ابن معين فلا يزيل الشبهة؛ لاحتمال أن يكون لم يستحضر عبد الأعلى عند إطلاقه تلك الكلمة العامة.

ثم رأيت الحاكم أخرج في المغازي من طريق العطاف بن خالد، عن عبد الأعلى هذا، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم زار قبور الشهداء بأحد فقال: "اللهم إن عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء، وأنه من زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة ردوا عليه ..." قال الحاكم: هذا إسناد مدني صحيح. قال الذهبي: مرسل[1].

قلت: وعبد الله بن أبي فروة مجهول، وبالجملة فالظاهر أن هذا الحديث لو كان صحيحا لاشتهر عند أهل المدينة وتناقلوه، والله أعلم.

فإن صح فليس فيه التصريح بأنهم يسمعون، فيحمل على أن الله تعالى يبلغهم سلام من سلم عليهم، وفائدة الوقوف على قبورهم؛ الاعتبار والادكار والتأسي، والله أعلم.

ويؤيد ذلك ما في صحيح مسلم عن مسروق [ملحق: ٥٥٢] قال: سألنا

---

(١) المستدرك (٤٣٢٠).

عبد الله -يعني ابن مسعود- عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: "أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل"[١].

قلت: والآية نزلت في شهداء أحد اتفاقا، وسياق الآيات ظاهر في ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ (آل عمران: ١٦٦) ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ..." الحديث، وفيه: "فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ ...﴾ (آل عمران: ١٦٩)"[٢].

---

(١) صحيح مسلم (١٨٨٧).

(٢) سنن أبي داود (٢٥٢٠)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٦٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأقره الذهبي. وفيه تدليس أبي الزبير؛ فإنه من طريقه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وأما حديث ابن عبد البر؛ فنقل صاحب روح المعاني عن الحافظ ابن رجب أنه قال فيه: [٥٥٣] ضعيف، بل منكر[١].

قلت: وقد عثرت له على علة قادحة بينتها في رسالتي عمارة القبور.

وزيارة القبور والسلام على المدفونين بقول: "السلام عليكم أهل ديار قوم مؤمنين" ثابت وليس هو بصريح في أنهم يسمعون، فيحمل على أن المراد سؤال الله تعالى أن يبلغهم السلام، وإنما أورد الكلام بلفظ الخطاب لحضور ما يُذَكِّر بهم؛ وهو قبورهم، كما نرى الناس إذا رأوا جنازة ميت قالوا رحمك الله، أو غفر الله لك، ولا يريدون بذلك إسماعه، ولا يرون أنه يسمع، وهكذا نرى الناس إذا رأوا صورة يعرفون صاحبها ربما يخاطبون الصورة كأنهم يخاطبون صاحبها فيقولون: ما جاء بك إلى هنا ونحو ذلك.

والحاصل: أن استعمال الخطاب في غير موضعه كثير في اللغة وفي عرف الناس، ومهما يكن في هذا التأويل من خلاف الظاهر فإن [٥٥٤] ارتكابه أهون من ارتكاب تأويل الآيات القرآنية، والله أعلم.

فأما ما تقدم من سماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ففي صحة تلك الآثار نظر، وقد لا يبعد أن تكون تلك الخصوصية له بأبي هو وأمي،

---

(١) روح المعاني (٢١: ٥٧).

ولكن سؤال الموتى على كل حال طلب نفع غيبي؛ لأنه لا يدرك بالحس والمشاهدة أن الموتى يسمعون، أو يضرون وينفعون، أو يدعون ويشفعون، وإن كنا عند قبورهم، وليس عندنا سلطان من الله ﷻ في الإذن بخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو خطاب غيره من الموتى إلا بالسلام ونحوه، فمن تجاوز ذلك إلى السؤال منه صلى الله عليه وآله وسلم، أو من غيره فلا أعلم له سلطانا، وقد أغنى الله المسلمين عن ذلك بكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن قاس الأموات على الأحياء [٥٥٥] فهو كمن قاس الملائكة على البشر، وقد مر الكلام على ذلك.

فأما ما شاع بين الناس أن أرواح الأنبياء والصالحين تتصرف في الكون فلو صح ذلك لم يكن مسوغا لجواز السؤال منها، فإن الملائكة يتصرفون في الكون قطعاً، ومع ذلك فالسؤال منهم دعاء وعبادة لهم وشرك بالله ﷻ كما تقدم، وسائر ما ذكرناه لتوجيه السؤال منهم يأتي مثله في أرواح الموتى، وحسبك من ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

فلو كانت أرواح الموتى تتصرف بهواها لفسد الكون، بل ولهاجت الفتن بين الأرواح، كأن يستغيث أحد الخصمين بروح، والآخر بروح أخرى، فيقوم النزاع بين الروحين، كل منهما تحاول نفع صاحبها، ويتعصب لها جماعة من الأرواح، وهكذا، فإذا كان للأرواح ما يزعمه الجهال من القدرة العظيمة لزم فساد الكون لا محالة، فالحق المقطوع به أنه إن كان لأرواح الموتى تصرف فهو كتصرف الملائكة إنما يكون بأمر الله

تعالى، قال تعالى فيهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ [٥٥٦] بالقوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٧). وعليه فالسؤال من الأرواح كالسؤال من الملائكة سواء، وقد تقدم حكمه، والله الموفق لا إله إلا هو.

فأما الجن؛ فإنهم وإن كانوا يتصرفون بهواهم واختيارهم إلا أن تعرضهم للبشر بالإيذاء بغير الإضلال كالنادر، وقاصر على أمور خفيفة، والناس محفوظون منهم، ولكن ربما ترك الله ﷻ إنسان منهم لحكمة يعلمها، فيستطيعون حينئذ العبث به، وذلك من الابتلاء، فإذا استغاث الإنسان بربه أغاثه منهم، وإن خضع للشياطين هلك.

وقد أغنى الله المسلمين عن سؤال الجن بدعائه تبارك وتعالى، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك"[١].

وفي سنن أبي داود وغيره من حديث ابن مسعود سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن الرقي والتمائم والتولة شرك"[٢].

وسيأتي بسط الكلام عليه إن شاء الله.

قال العلماء: كان يقع في رقى أهل الجاهلية سؤال وتعظيم لغير الله ﷻ، وخاصة الشياطين، فذلك هو الشرك، وسيأتي تحقيق الكلام في الرقى

---

[١] أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

[٢] سنن أبي داود (٣٨٨٣).

إن شاء الله.

نعم؛ لو فرضنا أن إنسانا ظهر له جني فشاهده وشاهد تصرفه؛ فطلب منه ما عرف قدرته عليه، فقد يقال: إن هذا كسؤال الناس بعضهم من بعض، والله أعلم.

وأما السؤال من الإنسان الحي الحاضر فإن كان لما جرت العادة بقدرته عليه فليس دعاء، وإن كان لما لم تجر العادة بقدرته عليه فذلك دعاء؛ لأنه حينئذ سؤال لنفع غيبي.

[٥٥٧] ثم ظهر لي أن هناك فرق بين قدرة الإنسان على الأفعال العادية، وبين قدرته على التأثير بما فيه خرق للعادة، وقدرة الجن على الإضرار بالإنس يتوقف معرفته على العلم بمعنى إذن الله تعالى الذي يتكرر في القرآن.

فأقول: قول الراغب: "الإذن بالشيء؛ إعلام بإجازته والرخصة فيه". وبعد التأمل وجدت إذن الله تعالى نوعين:

الأول: إعلامه المكلف بأنه يجوز له الفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩).

الثاني: إذنه تعالى للأسباب بأن تؤثر، وهذا يتناول الجائز شرعاً وغيره، وهو على ضربين: خاص وعام؛ فالخاص ما ثبت في القرآن بأنه كان أو يكون بإذن الله تعالى وما كان في معناه، والعام ما عداه مما يحدث في العالم.

وبيان الفرق المعنوي بين الخاص والعام يتعلق بمسألة القدر، ولا

أحب أن أقحم نفسي تلك المزلقة، ولكن سأشرف عليها من قرب وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق.

فأقول: أما على رأي القائلين بأن الحوادث كلها إنما تحدث بتعلق قدرة الله تعالى بها حين حدوثها؛ فالاحتراق بالنار إنما يقع بخلق الله تعالى إياه حين ملابسة النار، فالفرق على رأيهم صعب، ولكن يمكن أن يقال على رأيهم: إن الأذن العام؛ ما كان على وفق العادة من كل وجه، كخروج الثمرة من أكمامها عند [٥٥٨] حلول وقتها المعتاد، وحمل الأنثى بعد وقوع الذكر عليها في الوقت لذي جرت العادة بأن مثلها تحمل من مثله، ووضعها عند انتهاء مدة الحمل المعتادة، وهذا النوع يطلق عليه في القرآن بأنه يعلمه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ (فصلت: ٤٧).

والخاص؛ ما جرى على خلاف العادة ولو من وجه، ومن ذلك الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ٩٩-١٠٠).

فالإيمان يتضمن الإيقان بما يرتاب فيه غالب الناس من الغيب، ويقتضي تكليف النفوس ما يشق عليها، ومنعها كثيراً من شهواتها مع كثرة ما يصد عن الإيمان، فمن هذا الوجه كان الاتصاف بالإيمان مما يستغرب عادة، ففيه مخالفة ما للعادة، ومن ذلك الموت، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥). وسياق الآيات في

القتل في الجهاد، فإن الموت هو مفارقة الروح للجسد، والناس لا يدركون الروح، ولا يحسون بها، فمفارقتها الجسد عقب قطع الرأس -مثلاً- وإن جرت به العادة فلا يعلم الناس ما وجه ذلك وما سببه، فمن ثم كان الموت مخالفاً للعادة.

وأما على رأي القائلين بأن الله ﷻ أودع في المخلوقات قوى [٥٥٩] من شأنها التأثير فهي تؤثر بتلك القوة بدون حاجة إلى أن يخلق الله ﷻ ذلك الأثر عند حدوثه ولكنه سبحانه إذا شاء أن يمنع من التأثير منع كما منع النار من الإحراق بقوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩).

فالفرق بين الإذن الخاص والعام على طريقة هؤلاء أن يقال: الإذن العام هو ما كان تأثيراً بمجرد القوة المودعة على ما سمعت، فكون تلك القوة في الأصل من خلق الله، وكونه سبحانه لم يمنعها من التأثير مع قدرته على ذلك إن سمي إذنا فهو الإذن العام، وأما الإذن الخاص فهو بخلاف ذلك، فإما أن يكون بخلقه تعالى الأثر عند حدوثه، وإما أن يكون سبحانه قد نصب موانع تمنع من حدوث الأثر بالقوة المودعة وحدها، ثم يرفع تلك الموانع إذا شاء، فذلك هو الإذن الخاص، والموت والإيمان من الإذن الخاص، ولا يشكل على رأي المعتزلة؛ لأنه يمكن أن يقال: إنما يعذب الله تعالى القاتل بقصده القتل ومباشرته سببه، وإنما يعذب من لم يؤمن؛ لأنه لم يعمل ما يقدر عليه من الحرص على إصابة الحق، وإيثاره على هواه، فلو فعل ذلك لأذن الله تعالى له بالإيمان حتماً كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) وقد مر تفسيرها.

إذا تقرر هذا فاعلم أن كرامات الأولياء وسحر السحرة وتأثير الجن في الإنس بغير الوسوسة كله مما لا يؤثر إلا بإذن خاص من الله تعالى.

أما الكرامات؛ فقد [٥٦٠] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (الرعد: ٣٨) و(غافر: ٧٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٥).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (العنكبوت: ٥٠) والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة.

وكثيرا ما يقرن الخبر عن الآيات التي وقعت للأنبياء عليهم السلام ببيان أنها بإذن الله، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١٠).

وإذا كان هذا حال الرسل عليهم السلام فحال الأولياء في شأن الكرامات أولى وأحرى؛ بأن لا يقع إلا بإذن الله الإذن الخاص.

وأما حال السحر؛ فقال تعالى في السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ

أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (البقرة: ١٠٢).

وأما حال الجن؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة: ١٠).

[٥٦١] وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (سبأ: ١٢).

ومن الحكم في التنبيه على أن ما جرى على يد عيسى عليه السلام من الخوارق إنما كان يقع بإذن الله تعالى، أي: لا كعمل البشر الأحياء لما يقدرون عليه عادة قطع شبهة من يشركه، وكذلك التنبيه على مثل ذلك في السحرة؛ لأن توهم أنهم يعملون باختيارهم كما يعمل الناس ما يقدرون عليه عادة يخشى أن يكون ذلك داعياً إلى الشرك، وهكذا في شأن الجن، فإن توهم أنهم يتصرفون في الإنس وفيما يحس به الإنس تصرف اختيار كتصرف البشر فيما يقدرون عليه عادة يدعو إلى دعاء الجن وإشراكهم، وقد اتضح بحمد الله وتوفيقه الفرق بين سؤال الإنسان من إنسان آخر ما يقدر عليه عادة وبين سؤال من يظن به الصلاح ما لا يقدر عليه عادة، وإنما يقع بإذن الله تعالى، وهكذا سؤاله من السحرة، وعمله مثل عملهم، وسؤاله من الجن، فاندفعت شبهة القائلين كيف يكون سؤالنا الأحياء ما يقدرون عليه عادة غير شرك ويكون السؤال من الجن ونحوه شركا؟ ولا يخفى أن أرواح الموتى إن كان لها تصرف [٥٦٢]

فهو مما لا يقع إلا بالإذن الخاص؛ سواء أكانت صالحة وكان تصرفها كرامة كالصالحين الأحياء، أم كانت طالحة وكان تصرفها إهانة كالشياطين، ولولا خشية الإطالة لسقت الآيات التي جاء فيها ذكر إذن الله تعالى كلها، وبينت أن المراد بذلك كله الإذن الخاص، وأوضحت وجه ذلك، وذكرت كثيراً من الأمور التي تدخل في هذا المعنى، ولكني قد فتحت لك الباب، فإن أحببت الاستيفاء فعليك بالتدبر مع إخلاص النية والاستعانة بالله تبارك وتعالى.

[٥٦٣] وليس من السؤال ما كان المقصود به التعجيز؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (البقرة: ٢٥٨) ولا ما يشبهه مما ليس بسؤال خضوع وتذلل.

وأما السؤال من الجمادات؛ كالأصنام والكواكب فدعاء، وليس منه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أسكن أحد". ونحو ذلك مما هو من قبيل الأمر التكويني، ليس فيه تذلل ولا خضوع لذلك الجماد، وعند القائل سلطان من الله ﷻ بذلك، ومثله ما روي في قصة قارون أن الله ﷻ أوحى إلى موسى عليه السلام: "مُر الأرض بما شئت، فقال: يا أرض خذيهم" ولا ما لم يكن المقصود منه الطلب، وإنما هو تمنٍّ أو نحوه، كقول المغتم بالليل: أصبح ليل. وقول امرأ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ....

وقول المستعجل لليل: اغربي يا شمس. ونحو ذلك، فليس من الدعاء

في شيء، والله أعلم.

ورأيت في بعض الكتب حكاية عن أبي بكر بن عياش القارئ المشهور أنه كان يقول: "يا ملائكة قد طالت صحبتي لكما، فإن كان لكما شفاعة عند الله تعالى فاشفعا لي" ولا أرى ذلك يصح عنه، ولو صح لم يكن حجة، [٥٦٤] ولا يلزم من ذلك شناعة عليه، وإنما الشناعة على من قامت عليه الحجة فأصر، أو وقع في نفسه تردد فلم يحتط لنفسه، وأما من رأى أن عنده سلطانا من الله تعالى و لم يقصر في النظر، ولا خطر له أن ترك ذلك الفعل هو الأحوط، فقد قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق: ٧).

وقد اتفق العلماء على تكفير من أنكر آية من القرآن، أو زاد فيه ما ليس منه، ومع ذلك فقد قال بعض الصحابة ﷺ: إن المعوذتين ليستا من القرآن فلم يكفره غيره من الصحابة بأنه أنكر آية من القرآن، ولا كفر هو غيره لأنهم زادوا في القرآن ما ليس منه.

وزعم رجل منهم من أهل بدر أن الخمر حلال محتجاً بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ﴾ (المائدة: ٩٣). فردوا عليه خطأه و لم يكفروه؛ مع قول العلماء أن مستحل الخمر يكفر.

وهكذا اختلفت الأمة في البسملة، فقال بعضهم: هي آية من القرآن، وقال بعضهم ليست آية من القرآن، و لم يكفر أحد من الفريقين الآخر، مع قولهم بكفر من أنكر آية من القرآن، أو زاد فيه ما ليس منه،

[٥٦٥] وإنما حملهم على عدم التكفير في الأمثلة السابقة ونحوها أن المخطئ فيها معذور.

فأما الاختلاف في العقائد فحدث عن البحر ولا حرج، وقد استقر عند أهل السنة ألا يكفر أحد من المسلمين بخطأ في عقيدة وإن لزم منها ما هو كفر.

وهكذا اتفق أهل العلم على أن ما أحدث في الدين وليس منه فهو بدعة، وأن إنكار السنة الثابتة بطريق ظني ضلال، ثم اختلف الصحابة فمن بعدهم في أشياء لا تحصى، فقال بعضهم: هي من الدين، وقال بعضهم: ليست منه، ومع ذلك لم يحكم أحد منهم على مخالفه بأنه مبتدع أو ضال، وما ذلك إلا لأن كلا منهم يرى مخالفه معذور.

فهكذا نقول في مسألة الدعاء وأمثالها، فنحن وإن قلنا في صورة من صور السؤال ونحوها: إن هذا دعاء لغير الله تعالى، وعبادة وشرك، فليس مقصودنا أن كل من فعل ذلك يكون مشركاً، وإنما يكون شركاً من فعل ذلك غير معذور، فأما من فعلها معذورا فلعله يكون من خيار عباد الله تعالى، وأفضلهم وأتقاهم، ولعله يكون مأجورا على ذلك الفعل نفسه.

وقد وقع الناس في هذا الباب على طرفي نقيض؛ فمنهم من يأخذ قول بعض الأمة وصالحيها كأنه وحي منزل، ويرجع قوله إلى دعوى أن ذلك العالم أو الصالح معصوم كعصمة الأنبياء أو أعظم، فلا يهون عليه أن يسمع قائلا يقول: لعل هذا العالم أو الصالح أخطأ، وإذا حدثته نفسه بأن ذلك العالم أو الصالح أخطأ رأيته يتعوذ بالله تعالى، ويجتهد في طرد ذلك الخاطر عن نفسه، ومنهم من إذا ظهر له في شيء من الأعمال أنه شرك أو لم يظهر له ذلك ولكنه سمع شيخه يقول ذلك بادر إلى الحكم على كل

من فعل ذلك من السلف والخلف بأنهم مشركون، لا فرق بينهم وبين عباد الأوثان، والحق التوسط بين هذين، وأعيذك بالله ﷻ أن يحملك هذا الكلام على [٥٦٦] التهاون بمسألة التوحيد، فتهجم على شيء من الأعمال التي قد قيل: إنها شرك، قائلاً: إن كان في نفس الأمر شركاً فأنا معذور، فإن الخطر عظيم، ولعل عذرك لا يكون من القوة بحيث يقبله الله منك، فانظر لنفسك، فإن شككت في شيء فدعه، فلعل الله يقول لك: لم صنعت كذا وكذا وقد قيل: لك إنه شرك؟ وليس عندك يقين بأنه ليس بشرك، وأنت تعلم أنك لو تركته لما كان عليك إثم ولا حرج، وما مثلك إلا مثل رجل وجد امرأة نائمة على سريره وشك أزوجته هي أم أمه، فقال لنفسه: لاضطجعن معها فإن الاضطجاع من الزوجة مستحب في الشرع، فإن كانت أمي فلم أتعمدها، وقد وقع فلان على أمه معتقداً أنها زوجته فأفتاه العلماء بأنه لا إثم عليه، بل هو مأجور.

واعلم أنه لو لم يكن في اجتناب ما قيل أنه شرك إلا سد باب الاختلاف بين الأمة في هذا الأمر لكان من أعظم القربات عند الله ﷻ.

وأعلم أن من ترك عملا من الأعمال خوفاً أن يكون شركاً أو معصية فهو مأجور على تركه، وعلى فرض أن ذلك الفعل طاعة في نفس الأمر فإن أجره يكتب لهذا التارك؛ لأن الله ﷻ يعلم أنه إنما تركه خوفاً من الله [٥٦٧] تعالى، ومن أقدم على فعل يخاف أن يكون معصية فعليه إثمه وإن كان ذلك الأمر في نفس الأمر طاعة، ولعل لنا عودة إلى هذا البحث إن شاء الله تعالى.

الشبهات وردها

قد مر في تضاعيف الفصول كثير من الشبهات وردها، ونذكر هاهنا ما يحضرنا، وربما وقع تكرار للمناسبة.

شبه عباد الأصنام

إن قالوا: أريت تعظيمنا لأصنامنا التي جعلناها رمزاً لله تعالى، وتعظيم المسلمين الكعبة، والحجر الأسود، وتعظيم العاشق -مثلا- منزل معشوقته غير متدين بذلك، ما الفرق بين هذه الثلاثة حتى زعمتم الأول شركاً، والثاني إيماناً، والثالث ليس بشرك ولا إيمان؟

فالجواب: أن الفرق هو أنكم تعظمون أصنامكم تعظيماً تطلبون به النفع الغيبي، وتلك عبادة، ولم ينزل الله تعالى بذلك سلطانا، فليست عبادة له، بل هي عبادة للأصنام، والمسلمون يصنعون ما يصنعون بالكعبة والحجر الأسود طاعة لأمر الله تعالى [٥٦٨] الذي أنزل به سلطانا، فتلك عبادة لله تعالى، والعاشق لا يطلب بتعظيم منزل معشوقته نفعاً غيبياً، فليس فعله بعبادة أصلاً، وبعبارة أخرى: أنتم كذبتم على الله ﷻ، وكذبتم رسله، والمسلمون صدقوا على الله تعالى، وصدقوا رسله، والعاشق لا صدق ولا كذب، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) (وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٣٢-٣٣).

وأيضاً أنتم تفتاتون على الله ﷻ، أي: بجعل ما هو حق له من شرع

الدين والتعظيم على سبيل التدين لغيره بغير إذنه.

وأيضاً أنتم سويتم الأصنام برب العالمين، حيث زعمتم أنها تستحق العبادة استحقاقا يستقل العقل بإدراكه، وهذا هو التأليه، ولذلك كان مشركوا العرب يعظمون الكعبة والحجر الأسود أشد مما يعظمون أصنامهم، ومع ذلك يطلقون على الأصنام آلهة، ويقولون: إنهم يعبدونها، ولا يطلقون على الكعبة والحجر الأسود لفظ الإله، ولا يقولون: إنهم يعبدونهما، وما ذلك إلا لأنهم يعلمون أن تعظيمهم للكعبة ليس مستندا إلى العقل، وإنما هو مستند إلى أمر الله ﷻ المنقول إليهم بالتواتر عن إبراهيم رسول الله وخليله عليه السلام، فهم يعظمونها طاعة لله ﷻ لأمره الذي [٥٦٩] عندهم به سلطان، وأما تعظيم الأصنام فهو شيء استنبط بالخرص والتخمين، فكما أن العقل يستقل بإدراك استحقاق الله ﷻ للتعظيم، ادعوا أنه يستقل بإدراك استحقاق الأصنام للتعظيم، فصارت عندهم مساوية لله ﷻ في هذا المعنى، ولذلك سموها آلهة، وسموا تعظيمها عبادة لها، فتدبر.

فإن قالوا: يؤخذ من كلامكم أن الله تعالى لو لم ينزل سلطانا بتعظيم الكعبة لكان تعظيمها شركاً، وحينئذ لا يكون هناك فرقا إلا أمر الله وعدمه، وكيف يعقل أن الله تعالى يأمر بشيء لو لم يأمر به لكان شركا، فإنه يتحصل من هذا أنه سبحانه أمر بالشرك، وقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء﴾ (الأعراف: ٢٨).

قلنا: قد علمتم أن قوام الشرك هو الكذب عليه، والتدين بما لم

يشرعه، والافتيات عليه، وتسوية غيره به؛ في أن العقل يستقل بإدراك استحقاقه للتعظيم، وهذه الأمور متحققة فيما لم ينزل به سلطاناً، منتفية عن تعظيم ما أنزل به سلطاناً، فتعظيم الجماد ليس بقبيح في ذاته، حتى يقال: كيف يأمر الله تعالى به، وهو لا يأمر بالفحشاء، وإنما يقبح إذا كان شركاً، وقد علمتم حقيقة الشرك.

[ملحق: ٥٦٧] فمن أشد شبهاتهم؛ زعمهم أن أعمالهم التي ندعي نحن أنها شرك قد جربوها فوجدوا أن حوائجهم قد تقضي بسببها، فيقول عباد الأصنام: إننا قد جربنا فوجدنا أننا كثيراً ما نذهب نعظم الصنم ملتجئين إلى الحي الذي جعل الصنم رمزاً له من ملك أو إنسان أو غيره فتقضي حاجاتنا، ويقول عباد الكواكب: إننا قد جربنا أننا إذا عظمنا زحلاً - مثلا- ودعوناه مع مراعاة الشروط المذكورة في كتب المسلمين أنفسهم؛ كتذكرة داود وغيرها، فقد تقضى حاجاتنا، وهكذا يقول كل فريق من الفرق، وهكذا يقول الذين يدعون الملائكة وأرواح الموتى والجن وغيرهم، ويزيدون على ذلك ذكر حكايات يتناقلونها؛ أن رجلاً استغاث بملك، أو ميت، أو غائب، أو جني؛ فإذا شخص قد ظهر له وأغاثه، أو حصلت له الإغاثة بطريق خارقة للعادة ونحو ذلك.

والجواب عن هذا؛ أن كل إغاثة حصلت لمخلوق فهي من الله ﷻ، وإغاثته ﷻ لمخلوق لا تدل على أنه مؤمن، ولا صالح، ولا أن استغاثته مرضية عند الله تعالى، فإذا عرض لإنسان أمر مهلك فأنقذه الله منه فقد يكون ذلك لأنه لم يحضر أجله فقط، وقد يكون استدراجا له وابتلاء على

ما تقدم في الخوارق، وقد يتراءى له شيطان في صورة الملك الذي توهمه، أو الروح، وغير ذلك، وبحسبك أن كل فرقة من الفرق المختلفة يزعمون أنهم قد تحصل لهم الإغاثة إذا عملوا بما يعتقدونه، أو يعتادونه، مع الاتفاق على أن منهم من هو على الباطل، على أن الحكايات المزعومة موجـــودة عند كل فرقة، والغالب عليها الكذب، ومنها ما هو تخيل وأوهام، ومنها ما هو مكر ودجل من بعض الناس الأحياء على ما تقـــدم في الخـــوارق والغرائب، فإن كان المغتر بهذه الشبهة ممن يلتزم الإسلام فيكفيه أن يعلم أن الحجة إنما هي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن مثل ما وقع له أو سمعه يقع أكثر منه للنـــصارى والـــوثنين، وأن الله تعالى قد بين في كتابه أنه يستدرج بعض الناس، وقد مـــر في الخـــوارق والغرائب ما يكفي.

[٥٧٠] شبه عباد الأشخاص الأحياء

لو قال قوم فرعون: إننا في تعظيمنا لفرعون ظننا أنه مقبول عند الله تعالى، بدليل أنه سوى خلقه وعافاه وملكه؛ فعظمناه لذلك، كما يعظم المسلمون من يظنون به الصلاح منهم، وإنما يظنون بالرجل الصلاح إذا كان محافظاً على طاعة الله ﷻ الطاعة التي أنزل الله بها سلطاناً، وعندهم من الله تعالى سلطان بأن ذلك دليل على الصلاح، ولم يكن عند قوم فرعون سلطان من الله تعالى بأن تسوية الخلقة والمعافاة والتمليك تدل على الصلاح، وإنما يكرم المسلمون صلحاءهم إكراماً عندهم سلطان من الله تعالى به، فلا يسجدون لصالحيهم؛ لأنه ليس عندهم سلطان بشرع السجود للصالحين، وقس على ذلك.

وأما قوم فرعون؛ فعظموه بما لم ينزل الله تعالى به سلطانا، فإن وجد في المسلمين من يغلو في إكرام الصالحين بما لم ينزل الله به سلطانا فهو مخالف لحكم الإسلام، فلا يلتفت إليه.

شبه النصارى في عبادتهم الصليب

وإن قال النصارى: إننا إنما نعظم خشبة الصليب بناء على أن عيسى عليه السلام صلب عليها، وأنتم تعظمون الكعبة والحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم [٥٧١] وغيرها من آثار إبراهيم، وقد نقل عن أصحاب نبيكم أنهم كانوا يعظمون منبره، والرمانة التي كانت عليه، ويعظمون ثيابه والقدح الذي شرب فيه، وشعره الذي كان محفوظاً عندهم، وأنتم تعظمون قبره وآثاره، وقبور من تظنون بهم الصلاح وآثارهم، ونحن إنما نعظم شكل الصليب لأنه يشبه تلك الخشبة، والمسلون الآن يعظمون صورة نعل نبيهم، وصورة البراق كما تخيلوه ...

قلنا: أما أنتم فليس عندكم سلطان من الله تعالى بتعظيم خشبة الصليب، ولا تعظيم صورها، وأما صلاتنا إلى الكعبة، وطوافنا بها، وتقبيلنا الحجر الأسود، وصلاتنا إلى مقام إبراهيم؛ فكل ذلك عندنا به سلطان من الله ﷻ، ولسنا نصنع شيئاً من ذلك لأنها آثار، وإنما نصنع ذلك طاعة لله ﷻ، وامتثالاً لأمره، وأصحاب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم لم يكونوا يصنعون ما يصنعون إلا على سبيل التماس البركة، وكان عندهم سلطان من الله تعالى؛ لأن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أقرهم على ذلك، ولهذا لم يجاوزوا ما أقرهم عليه، فلم يكونوا يركعون ولا يسجدون له صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يقومون له إذا جاءهم وهم جلوس، ولا للمنبر، ولا لرمانته، ولا لغير ذلك من الآثار، [٥٧٢] بل أعظم

ما روي عنهم هو وضع اليد على رمانة المنبر حيث كان صلى الله عليه وآله وسلم يضع يده، وأما ثيابه وشعره فكانوا يغسلونها ويسقون المرضى من غسالتها، وأما القدح فإنما كانوا يحبون الشرب فيه، وكل ذلك عندهم فيه سلطان إما فيه بخصوصه، أو في نظيره، فأما صورة النعل والبراق فخطأ من فاعلها، وبالجملة؛ فالمدار على السلطان، فكل ما أنزل الله به سلطانا فهو حق، وكل ما لم ينزل به سلطانا فهو باطل، وإن وقع فيه بعض المسلمين، ولعل من وقع في ذلك لم تقم عليه الحجة كما قامت عليكم، ومن لم تقم عليه الحجة، ولم يعاند، ولم يصر، فهو معذور إن شاء الله تعالى.

شبهة للنصارى واليهود في شأن الأحبار والرهبان

وإن قال النصارى واليهود: إنكم معشر المسلمين تطيعون علماءكم كما أطعنا أحبارنا ورهباننا؛ قلنا: أما أهل العلم والدين منا فإنهم لا يطيعون في الدين إلا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما يقبلون أقوال العلماء على أنهم رواة مبلغون عن الله ورسوله، ولذلك لا يطيعون أحدا من العلماء تبين لهم أن قوله يخالف كتاب الله وسنة رسوله، وإذا قبلوا قول عالم ثم تبين لهم مخالفته [٥٧٣] لكتاب الله وسنة رسوله تركوه، ومن كان من المسلمين على غير هذه الطريقة فهو على خلاف الشريعة، فلا يلتفت إليه.

قال الشيخ العلامة المحدث الصوفي الفقيه الحنفي ولي الله الدهلوي رحمه الله في كتابه البدور البازغة: "بيان وجوه الإشراك بالله تعالى.

من باب سوء المعرفة داء عضال عمت الأمم غائلتها؛ وهي الإشراك بالله تعالى شيئاً من الناسوت، وتحقيقه أن الإنسان إذا خلى ونفسه أدرك لا محالة أنه يقدر بقدرين ...

ثم إن من طباع النسَمة أنها لا تزال تفتش عن حقائق الأشياء، وتجعل بعضها ممتازة عن البعض؛ وذلك لقوته العلمية، فإذا تفطنت بتأثير عجيب لم تذره سدى، بل ناطه بشرف موجود في مظهره وفضل وعظمة فيه، وأحبه حبا، فإن كان التأثير تأثيرا يبعد عن أبناء جنسه في زعمه تبعه

اعتقادا الشرف المقدس والفضل المتعالي والمحبة السابغة بالضرورة، ثم إن تكرر صدور مثل هذه التأثيرات منه، أو تجشم تكرار ذكرها؛ ارتكزت تلك المحبة وذلك التعظيم [٥٧٤] في قلبه، ودب الإشراك بالله تعالى في عقيدته وهو لا يعلم، وذلك لأن معرفة الإنسان بربه إنما ملاكها معرفة المغايرة الجنسية، فيعرف جنس الناسوت منقهرا بما ليس من جنسه، فلما أثبت له العظمة المقدسة وأحبه حبا مقدسا؛ فقد حكم عليه بتفوقه عن جنس الناسوت في ضمن ذلك وهو لا يشعر، والمرضى بهذا المرض على أصناف: فمنهم من نسي الله تعالى وعظمته واضمحل عنه؛ فجعل لا يعبد إلا الشركاء، ولا يرفع حاجته إلا إليهم، ولا يلتفت إلى الله تعالى لفتة، وإن كان يعلم بالنظر البرهاني أن سلسلة الوجود لابد لها من واحد يستند إليه، ولكن عطل هذا الواحد في التأثير مطلقاً، وعلى هذا المذهب قوم من المجوس والصابئين ...

ومنهم من اعتقد أن الله تعالى هو الشريف السيد، ومنه التأثير في العالم، ولكنه قد يخلع على بعض العباد لباس الشرف والتأليه، ويجعله مؤثراً متصرفا في قسط من العالم، كما أن ملك الملوك قد يخلع على بعض عبيده خلعة الملك، ويملكه على ناحية من ممالكه، فهو ملك الملوك، وهم ملوك، إنما ملكهم [٥٧٥] هو، وكذلك الله إله الآلهة، وهم آلهة لهم قدر عظيم عند الله تعالى، وتصرف في مملكته، وشفاعة إليه، فتلجلج لسانهم أن يسموهم عباد الله تعالى فيسووهم وغيرهم، فعدلوا عن ذلك وسموهم أبناء الله تعالى، ومحبوبي الله ﷻ، ومعشوقي الله سبحانه، وسموا سائر الناس

عباداً لأولئك، فسموا أنفسهم عبد المسيح، وغلام فلان، وغلام فلان، واسغَنْدِيار، وغير ذلك، وعلى هذا المذهب اليهود والنصارى والمشركون والغلاة من منافقي دين محمد صلى الله عليه وآله سلم في يومنا هذا.

ومنهم من اعتقد أن الله هذا "هو" المؤثر في خلقه، ولكن أولئك عباد فنوا في الله، فكان رضا الله تعالى في رضاهم، ورضاهم في رضاء الله تعالى، فهم لا يفعلون فعلاً إلا وفعل الله تعالى داخل اسمه فعلهم، وأولئك لو علموا بأن هذا الاعتقاد شرك وغير مرضي من الله تعالى لم يعتقدوه، ولكن الله تعالى أعمى أبصارهم.

واعلم أن الألفاظ المستعملة في الشرف المقدس، والشرف الناسوتي؛ أكثرها متقاربة، ألا ترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لطبيب: "إنما الطبيب هو الله تعالى، وإنما أنت رفيق"[(١)]، فلم يسوغ إطلاق [٥٧٦] الطبيب على رجل من بني آدم بالمعنى الثاني، وكذلك يقول: "السيد هو الله تعالى"[(٢)]، ثم يقول: "أنا سيد ولد آدم"[(١)] بالمعنى الثاني.

---

(١) الحديث في مسند أحمد (١٧٥٢٧) بلفظ: "أنت رفيق، والله الطبيب".

(٢) الحديث في مسند أحمد وغيره بسند على شرط الشيخين، قال الإمام أحمد ثنا حجاج حدثني شعبة قال: سمعت قتادة قال: سمعت مطرف بن عبد الله بن الشخير يحدث عن أبيه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أنت سيد قريش. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "السيد الله" قال: أنت أفضلها فيها قولا، وأعظمها فيها طولا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ليقل أحدكم بقوله ولا يستجره الشيطان". مسند

=

فكل نبي بعث في قومه زجرهم عن وجوه الشرك؛ فتبرأ قلوبهم عنها، وفهموا ما يقوله وإن أشتبهت الألفاظ، ثم لما انقرض الحواريون من أصحابه ووصاة دينه وحملة علمه، ورفعت الأمانة عن قلوب الناس، خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وحملوا كلام النبي على غير محله، وجعلوا الشفاعة والمحبوبية وغيرهما التي أثبتها النبي لنفسه وللخواص من أمته شفاعة ومحبوبية أخرى، فعند ذلك بطل الدين، وانقلب الزمان زمان جاهلية؛ فيبعث الله نبياً آخر، فأنكر عليهم ونهاهم عن وجوه الشرك، وبذل في ذلك أشد سعي، وأوفر مصادمة.

وأما الدين المحمدي صلى الله عليه وسلم، فلا يزال فيه وصي يحمل الوحي والعلم على وجههما، ولا يكاد يخلط شيئاً بشيء، فإن اتبعوه وأصغوا إليه فازوا، وإن نبذوا قوله وراء ظهورهم خابوا، ولا يزال طائفة من أمته قائمين على الحق لا يضرهم من [٥٧٧] خالفهم وكذلك، "ولذلك" لا يكون في دينه جاهلية، ولا يبعث بعده نبي، والله أعلم بأسراره.

أحمد (١٦٣٥٩)، وله عنده وعند غيره أسانيد أخرى مع خلاف في بعض الألفاظ.

(١) الحديث في مسلم (٢٢٧٨) بلفظ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة".

فصل:

صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: "لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب اتبعتموهم". قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: "فمن"[1].

إلام أصف لك ما أحدثه منافقوا أمته من وجوه الشرك، واغضبوا قلب وصيه، وضيقوا صدر حامل علمه ووحيه، فقد رأينا رجالا من ضعيفي المسلمين يتخذون الأحبار والرهبان أربابا من دون الله تعالى، ويجعلون قبورهم مساجد، ويحجون إلى قبورهم وآثارهم وأتلالهم، كما كان اليهود والنصارى يفعلون ذلك، ورأينا رجالاً منهم يحرفون الكلم عن مواضعه، يقولن: الصالحون لله، والطالحون لي، كما قالت اليهود: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، ويحملون الشفاعة والمحبوبية على غير محملهما، كما حملهما من كان قبلهم، واختطفوا من ملة الهنود وملة المجوس أموراً؛ فلا يزالون عاضين عليها بنواجذهم، وتحزبوا أحزاباً، وقاسوا على المنصوص؛ فضلوا وأضلوا، وهل أنت ملتمس لِمَ كفَّر الله سبحانه اليهود والنصارى في اتخاذهم [٥٧٨] الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله؟ أتراهم يقولون بقدم رجل اعترفوا بأن فلاناً أبوه وفلانة أمه؟ أو وجوب رجل اعترفوا بأنه لم يكن بالأمس شيئاً مذكوراً وانتهاء سلسلة

---

[1] قد تقدم سياق الأحاديث في ذلك وتخريجاتها.

الوجود اعترفوا بأن قبله قروناً كثيراً؟ كلا بل هي تناقضات، وأخبث من يعتقدها يسمى بشرا، أو تراهم يقولون بحلول الله سبحانه ذلك القديم في هذا الحادث؟ فَلِمَ يقولون في محاوراتهم: إن الله تعالى بعث فلاناً وأوحى إليه كذا وكذا؟ ومات فلان، أو يستشفع فلان عند ربه فيستجاب له، أو ما يجرى مجرى هذه الكلمات.

بل الحق أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله تعالى، وتلجلج ألسنتهم أن يشهدوا بأنه من يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح عيسى بن مريم وأمه ومن في الأرض بما أشرب في قلوبهم من اعتقاد الشرف والتأله في المقدسين، كلا بل هو بشر ممن خلق، إنما فضله أنه أوحى إليه، وأمر الناس أن يأخذوا بما أمره، ويجتنبوا ما نهاهم حاكياً عن ربه تعالى، فكل شرف له فإنما هو متشعب من هذه لا غير، وقد [٥٧٩] آتيناك من البينات بما لا يكون للإنسان عذر بعده ولو ألقى معاذيره، فتدبر.

ألا ترى أن مشركي مكة كانوا يذعنون بانصرام سلسلة الوجود إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: ٢٥) وما أغناهم ذلك عن الإشراك بالله، وربما قرع سمعك فيما يسرد من الأخبار أن العلم سيرفع بين يدي القيامة فيتمارى رجلان يقول أحدهما: إياك ستين، ويقول الآخر: إياك سبعين، فيرفعان القضية إلى أعلمهم فيقول: إياك تسعين.

وأقسم بالذي نفسي بيده أنه قد وقع في آيات أخر، فلست أرى

أحدا إلا وفيه الإشراك كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، وكفر الله سبحانه مشركي مكة بقولهم لرجل سخي كان يلت السويق للحاج: إنه نصب الألوهية، فجعلوا يستعينون به عند الشدائد ...

ذكر حديث عدي بن حاتم: [أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عُنُقي صليبٌ من ذهب، فقال: "يا عديّ! اطرح هذا الوثنَ من عنقك" قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أربابًا من دون الله﴾ (التوبة: ٣١)، قال: قلت: يا رسول الله! إنا لسنا نعبدُهم، فقال: "أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟" قال: قلت: بلى. قال: "فتلك عبادتهم". رواه الترمذي (٣٠٩٥).] ثم قال: فقد علمنا أن الشرك ليس بمحصور في العبادة، بل قد يكون بهذا النحو.

ولعل رجلا عريض القفا يقول: وكيف يكون هذا وما سمعنا رجلاً يقول بذلك؟ فنقول له: اعلم أن التحريف ليس هو [٥٨٠] اعتياض لفظ مكان لفظ كما وقف عليه فهوم العامة، بل شأن التحريف أهول من ذلك، وأكثر أنواعه وجودا أن يقلب اللفظ عن ظاهر مراده إلى هواه وهواجس نفسه، فقد أشار عليه الصلاة السلام إلى أنه سيوجد رجال يسمون الخمر بغير اسمها، ويسمون الزنا بغير اسمه، ثم يقولون: هذا ما حرم الله في كتابه، فعليكم به لا بأس، ألست ترى أقواما يقولون: إن المسكر الذي يتخذ من العسل وما يماثله ليس بخمر، ثم أحلوه؟! فأولئك

الذين فيهم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قـــال، وأقوامـــا يقولون: إذا وطئ الرجل أمة ابنه فذلك حلال؟! فأولئك قوم ركسوا على وجوههم، وغرتهم الأماني فسوف يعلمون غدا من الكذاب الأشر، ألست ترى أقواما يذعنون لأقوالهم ويجدون في صدورهم استحلال ما أحلـــوه، حتى إنهم كادوا يسطون بالذين يتلون عليهم آيات الله تعـــالى؟! ألـــست تراهم إذا قيل لهم: دعونا من أقوال أناس قد يـــصيبون وقـــد يخطئـــون، وعليكم بالكتاب وبما حكاه الصادق المصدوق عليه السلام من أمـــر الله تعالى قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَـــارِهِم مُّقْتَـــدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣)، وخطئوا هذا الرأي، بل عسى أن يقتلون [٥٨١] إن استطاعوا، فأولئك هم المشركون حقاً.

ولقد اقشعر جلدي حين بلغني ما يسرد في الأساطير عـــن رجـــل اعترفوا له بالفضل أنه قال لو تجلى الله سبحانه يوم القيامة على غير صورة فلان ما رأيته، فقد حط بالله سبحانه درجته عن فلان، فـــإن صـــدقت الرواية فليس بمعذور عند الله تعالى.

والمنافقون على أصناف ... ومثل منافقي ملة محمد صلى الله عليـــه وسلم ممن يدينون بدين الإسلام ويضمرون في قلوبهم شركاً بالله تعـــالى، وعبادة، واستعانة إلى غير الله تعالى، فهموا رضا الرب محصوراً في رضـــا عبده".

أقول: وما ذكره رحمه الله بقوله: غلام فلان، غلام فلان؛ إشارة إلى بعض المنكرات في الهند في أسمائهم، فإن منها: غلام عبد القادر، غـــلام

جيلاني، غلام سبحاني، غلام رباني، غلام همداني، غلام محي الدين، غلام محبوب، غلام دستكير، غلام غوث، غلام فير، يعنون بهذه العَشَرَة ونحوها: غلام عبد القادر الجيلاني رحمه الله، أي: إن المسمى عبدٌ لعبد القادر، وهكذا يصنعون بأسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي والحسن والحسين عليهم السلام، وأسماء بعض الأولياء، فيقولون: غلام [٥٨٢] محمد، وغلام أحمد، وهكذا، وإذا جاءهم من اسمه عبد القادر فكثيرا ما يتحاشون من إطلاق هذا الاسم، هكذا لئلا يكون ذلك تشبيها لذلك الرجل بالشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله، بل يقولون: غلام عبد القادر، ومن العجب أنك لا تكاد تجد في أسمائهم عبد الله وعبد الرحمن، وأعجب منه أنه إذا كان فيهم من اسمه عبد الرحمن أو عبد الرحيم أو عبد العزيز أو عبد الجبار أو نحو ذلك من أسماء الله ﷻ لا ينادونه بذلك، بل ينادون ذاك الشخص بقولهم: يا رحمن! أو يا رحيم! أو يا عزيز! أو يا جبار! وكذلك يذكرونه إذا ذكروه في كلام أو كتاب، وتجد في أسمائهم كثيراً حبيب الله وحبيب الرحمن، عظمة الله، قدرة الله، فانظر أين بلغ بهم الأمر في الجرأة على الله ﷻ والخضوع للشيخ عبد القادر.

واعلم أن التسمية بإضافة عبد إلى غير الله ﷻ من المنكرات العظيمة، ولم يكن في القرون الأولى شيء من ذلك، فأما عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد صح أنه إنما سمي بذلك لأن عمه المطلب جاء به من المدينة إلى مكة مردفا له، فظن الناس أنه عبد اشتراه، فقالوا: عبد المطلب، فلزمته، فلم يقصد بذلك [٥٨٣] تعظيم المطلب،

ولذلك -والله أعلم- لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكره إطلاق ذلك، بل صح عنه أنه قال: "أنا ابن عبد المطلب" وقد أخرج ابن سعد في الطبقات بسند صحيح عن النزال بن سبرة قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنا وإياكم كنا ندعى بني عبد مناف، فأنتم بنو عبد الله، ونحن بنو عبد الله" زاد في رواية قال مسعر -وهو من قوم النزال-: نحن من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، من بني عبد مناف بن قصي من قريش[(١)].

وقد حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أسماء موتى الجاهلية اسم عبد العزى بن غطفان، فسمى أولاده بني عبد الله بن غطفان، ولذلك لقبوا بني محولة لتحويل اسم أبيهم.

ووقع للصاغاني ثم شارح القاموس وهم عجيب يوهما أن القصة تقتضي أن عبد الله بن غطفان كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ففتشا عنه في معاجم الصحابة فلم يجداه، فتوقفا، وكأن العلماء فهموا أن تحويل أسماء الموتى ليس بحتم، ولذلك لا يزالون يذكرونهم بعبد مناف وعبد العزى وعبد مناة ونحو ذلك، والمقصود أن اسم عبد المطلب لم يقصد به تعظيم، ولا يشعر إذا عرف سببه بتعظيم.

---

(١) طبقات ابن سعد (٦: ٨٤)، وقد أخرجه البخاري في التاريخ الأوسط، ذكره في الإصابة (٦: ٤٩٤).

ثم أُلف هذا الاسم، فسمى به نافلته عبد المطلب بن الحارث بن عبد المطلب، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وروى عنه في ترجمته من تهذيب التهذيب لابن حجر: "قال العسكري: هو المطلب بن ربيعة، هكذا يقول أهل البيت، وأصحاب الحديث يختلفون؛ فمنهم من يقول: المطلب بن ربيعة، ومنهم من يقول: عبد المطلب، وقال أبو القاسم: عبد المطلب، ويقال المطلب، وقال أبو القاسم الطبراني: الصواب المطلب".

أقول: وأهل البيت أدرى به، وقد يجوز أن يكون سمي عبد المطلب باسم جد أبيه، ثم غيره النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فسماه المطلب، وبقي بعض الناس يقول: عبد المطلب؛ لأنه رأى أن هذه التسمية ليس المقصود منها تعظيم المطلب، وإنما سمي هذا باسم جد أبيه، وجد أبيه عرض له هذا الاسم على الوجه الذي قدمناه لم يقصد به تعظيم المطلب، واتباع أهل البيت أولى، فإن هذه التسمية تكون ذريعة إلى غيرها، والله أعلم.

[ملحق: ٥٨٣] ومن عجيب صنع الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن قضى أن يكون اسم أبيه عبد الله، وقضى أن يكون اسم من يؤمن به من أعمامه لا شرك فيه، وذلك حمزة والعباس، وقضى في من سُمي من أعمامه باسم شركي أن يشتهر بكنيته، وذلك أبو لهب وكان اسمه عبد العزى، وأبو طالب وكان اسمه عبد مناف، وذلك والله ليقترن اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من صباه بالخضوع لله وحده، فيقال: محمد بن عبد الله، ولئلا يقترن بكلمة شرك، فيقال: محمد بن فلان، ويذكر اسم فيه

شرك، أو قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمه فلان: ويُذْكَرُ اسم فيه شرك.

فأما جده عبد المطلب فقد علمت أنه لا شرك فيه، وأما جد جده فإنه بعيد لا يكاد يقترن اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذكره، والله أعلم.

ثم رأيت في قصة مبارزة علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أن عَمْراً قال له من أنت؟ قال: علي. قال: ابن عبد مناف؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب.

ومما ينبغي ذكره هنا؛ ما جاء في أن آدم وحواء عليهما السلام سميا ولدهما عبد الحارث، قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٢).

أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس، وسمرة بن جندب، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، والسدي، ما حاصله؛ أن المراد بالنفس الواحدة [ملحق: ٥٨٣] وزوجها: آدم وحواء، وأن إبليس تمثل لحواء لما حملت فخوفها أن يقتل ما في بطنها، أو أن يكون بهيمة، أو أن يولد ميتا، وأنها إن سمته عبد الحارث ولد صالحا وعاش.

وفي الرواية عن السدي أنه كان يقول لها: سميه عبدي وإلا قتلته؛ فأبيا فمات، ثم حملت الثانية فكذلك، ثم حملت الثالثة فقال: إن أبيتما فسمياه عبد الحارث فأطاعاه، وفي أكثر الروايات فأشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة، وقد أنكر جمهور المحققين هذه القصة؛ لأن سياق الآيات يخالفها، ولأن فيها نسبة الشرك إلى صفي الله آدم عليه السلام.

وأما قول من قال أنه شرك في الاسم لا في العبادة ففيه نظر؛ لأن سياق الآيات ظاهر في أنه الشرك الأكبر.

والمقصود هنا النظر في تلك القصة ليفهم معنى قولهم: أشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة.

فأقول: اعلم أن التسمية بعبد الله، وعبد الرحمن، وعبد المسيح، وعبد العزى، وأشباهها؛ قصد بها تعظيم يطلب به نفع غيبي، فهي عبادة حتماً، وأما قولنا لمملوك زيد: هذا عبد زيد فليس كذلك، وكذلك لو توهم في رجل أنه مملوك لزيد فقيل: هذا عبد زيد، ثم لصقت به هذه الكلمة لقباً كما وقع لعبد المطلب كما مر، ولو قيل لرجل: سم ولدك عبد المسيح وإلا لم يعش، فسماه عبد المسيح ليعيش لكان من الأول؛ لأن في هذه التسمية تعظيماً طلب به نفع غيبي، وهو أن يعيش الولد، اللهم إلا أن يكون أعجميا فيقال له: أن المسيح اسم من أسماء الله ﷻ، فإن هذا يعذر، وكذا إذا تسلط عليه إنسان ظالم قال له: سم ولدك عبد المسيح وإلا قتلته فسماه عبد المسيح كارها لذلك عازما على أنه إذا تخلص من سطوة هذا الظالم غير ذلك الاسم؛ فإن هذا يعذر لأنه مكره، وكذا فيما

يظهر لو تمثل له شيطان فقال له: سم ولدك عبد المسيح وإلا قتلته وأنت ترى، فامتنع، فأخذ الولد فخنقه وأبوه يرى، فقال دعه وأنا أسميه بذلك، فإن الشيطان المشاهد لا فرق بينه وبين الإنسان.

ويبقى النظر فيما إذا تمثل له شيطان فقال له: سم ولدك الذي في بطن أمه عبد المسيح وإلا قتلته في بطن أمه، أو قال له: سم ولدك هذا الذي قد ولد عبد المسيح وإلا دخلت في جسده فصرعته، والفرق بين هذا وبين الذي قبله أن تسلط الشيطان على الحمل أو على الإنسان بأن يدخل في بدنه ويصرعه أمر غير محسوس، فهذه الصورة تشبه من جهة الشيطان المتمثل الذي يباشر الإيذاء بالمشاهدة، وتشبه من جهة ما لو أخذ إنسان يعظم الشياطين و لم يشاهدهم لئلا يؤذوه، أو يؤذوا أولاده، وقد يقربها من الأول أن يقع في المحسوس ما يظهر منه قدرة الشيطان المتمثل على ما يهدد به، كأن يهدد بقتل الحمل أول مرة فيموت الحمل، وثانية فيموت، أو بصرع المولود، فيصرع ويموت، ثم يصرع الثاني فيصرع ويموت.

وبعد؛ فالظاهر من الحكايات عن آدم وحواء أنهما لم يعرفا أن الحارث اسم إبليس كما تصرح به حكاية السدي، ويظهر أنهما توهما أن الحارث من أسماء الله ﷻ، ولا مانع من ذلك فقد قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ) (أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (الواقعة: ٦٤). وقد يتوهم في التسمية به سبب لعيش الولد؛ فإن الولد كالزرع، ففي تسميته بعبد الحارث على فرض أن الحارث من أسماء ﷻ اعتراف بأنه هو الذي خلقه ويحييه، وقد يعكر على هذا قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:

.(٣١)

والجواب: أن أسماء الله تعالى لم تدخل في ذلك، كما يدل عليه السياق، حيث قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ..﴾، ﴿... قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ ...﴾ (البقرة: ٣١، ٣٣).

فقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وقوله: ﴿بِأَسْمَاء هَـؤُلاء﴾ صريح في أن المراد أسماء أشخاص حاضرين مشاهدين أشار إليهم ربهم، وليس هو فيهم، ومما يدل على ذلك ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله في دعائه: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، واستأثرت به في علم الغيب عندك".

والحاصل: أن معنى قولهم: "أشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة" أن الحارث لما كان اسما للشيطان كان معنى الاسم عبد الشيطان، ولكنهما لما لم يعلما بذلك لم يكونا معظمين للشيطان، وإذا قلنا بأن تهديد الشيطان المتمثل مع تكرر ما يدل على قدرته على ما هدد به يكون إكراها، فيقال: إنما أشركا في الاسم، وهو شرك لفظي، ولم يشركا في العبادة؛ لأنهما كانا مكرهين، والأول هو المتعين -والله أعلم- هذا ما يتعلق بالآثار، فأما كون هذا المعنى هو معنى الآية؛ فلا ألتزمه، وقد تقدم الكلام على الآيات، والله أعلم.

شبه عبدة الملائكة

عبدة الملائكة فريقان:

الفريق الأول: من يزعم أن الملائكة يتصرفون بهواهم واختيارهم، ومن هؤلاء: وثنيوا الهند، واليونان، والمصريون القدماء، وشبهتهم القياس على البشر، وربما يحتجون علينا بقول بعض المسلمين: [٥٨٤] إن أرواح الأنبياء والأولياء تتصرف في الكون باختيارها، وقد كنت بسطت الكلام على شبهتهم وردها، ثم عدلت عن ذلك؛ لأني وجدت الله تعالى قد سحق شبهتهم ومحقها بحيث لم يبق لها عين ولا أثر، وذلك بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) وغيرها من الآيات، وقد تقدم الكلام عليها، وأما قول بعض المسلمين فخطأ منهم كما تقدم.

الفريق الثاني: من لا يثبت للملائكة اختيارا إلا في الشفاعة على تردد منهم في ذلك، ومن هؤلاء مشركوا العرب، وقد تقدم أن قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) يبطل شبهتهم أيضاً في آيات أخرى، ولكن لا بأس بالإطناب في هذا الباب.

فأقول: شبهة هذا الفريق هي القياس على ملوك الدنيا، كأنهم يقولون: إننا نرى الملك من ملوك الدنيا لا يخلو أن يكون لديه أشخاص مقربون تعرض الناس عليهم حوائجهم، فيعرضها المقربون على الملك، ويسألونه قضاءها، فيقضيها إكراماً لهؤلاء المقربين، ويعد هذا من تمام عظمة الملك؛ لأن من الحوائج ما لا يحسن عرضها على الملك بدون

واسطة، ومن أصحاب الحوائج من لا يليق لمخاطبة الملك، إما لدناءته، وإما لإساءة تقدمت منه، [٥٨٥] ومنهم من لا يستحق أن تقضي حاجته ولكن إذا شفع فيها أحد المقربين قضاها الملك؛ لأن ذلك المقرب يستحق الإكرام.

الجواب

قد أبطل الله ﷻ هذه الشبهة بإخباره أن الملائكة لا يشفعون إلا بعد أن يأذن لهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، فهم بغاية التعظيم لربهم ﷻ، والمحبة له، والاجتهاد في مرضاته، إن أحبوا أن يشفعوا لأحد فإنما ذلك لعلمهم بأن ربهم تبارك وتعالى يحب الشفاعة له ويرضاها، وقد أخبر الله تعالى عن بعض شفاعتهم بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى: ٦).

وبين استغفارهم لمن هو بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ [٥٨٦] الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن

تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (غافر: ٧-٩).

فأنت تراهم إنما شفعوا لمن تاب واتبع سبيل الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وإذا كان الأمر كذلك؛ فطريق التوصل إلى شفاعة الملائكة إنما هي بطاعة الله تعالى، واتباع سبيله، والتوبة من الذنوب، ونحو ذلك، فأما تعظيمهم؛ فإنه لا يحملهم على الشفاعة، بل إذا علموا أن تعظيمهم معصية لله تعالى وكفر به كان أبغض الأشياء إليهم، فهم إلى أن يسألوا الله تعالى تعذيب فاعله أقرب من أن يشفعوا له، وكذا يقال في سؤال الشفاعة منهم.

وأما قياسكم على ملوك الدنيا؛ فغلط واضح، فإن ملوك الدنيا مفتقرون إلى أن يكون لديهم من يبلغ حوائج الناس إليهم.

أولا: لجهل الملك، فلا يتيسر له العلم بحوائج الرعية كلهم.

ثانياً: لعجزه، فلا يستطيع الاستماع من كل أحد.

ثالثاً ورابعاً وخامساً: لفقره، وبخله، ورئائه، فهو لا يقدر، أو لا يريد قضاء الحوائج كلها، ولا يحب أن يعلم الناس أنه فقير، أو بخيل، فهو يرائي الناس بأن يوكل وسائط لسماع [٥٨٧] الحوائج، حتى يقضي منها ما أراد ويترك ما أراد، فيظن العامة أنه ليس به فقر، ولا بخل، ولكن الوسائط لم يبلغوه.

سادسا: لخيلائه لا يحب أن يصل إليه الضعفاء والمساكين.

سابعاً: لخوفه أن يكون في غمار الناس من يريد قتله.

ثامناً: لحقده، فلا يحب أن يتصل به من قد أساء إليه.

تاسعا: لاحتياجه إلى أولئك المقربين؛ ليسعوا في معونته وتأييد ملكه، فهو يوهمهم أنه لم يكن يريد أن يقضي تلك الحوائج لولا شفاعتهم.

عاشرا: لخشيته من رؤوس الناس أن يسعوا في زوال ملكه، فهو يداريهم بأن يمنحهم الرياسة، والإمارة، والوساطة بينه وبين الرعية.

وهناك أسباب أخرى من هذا القبيل:

منها خوف الملك من نفسه أن يغضب في غير موضع الغضب، أو يبخل في غير موضع البخل، أو يكافئ على الإحسان بأقل مما ينبغي، أو يعاقب على الذنب بأشد مما ينبغي، وأشباه ذلك، وكلها نقائص لا يخفى أن الله ﷻ متعال عنها وعن أشباهها.

والمقربون إلى ملوك الدنيا يرون أن لهم حقاً أن يشفعوا إلى الملوك، وأن تقبل شفاعتهم لأمور:

منها علمهم بما تقدم من النقائص في الملوك.

ومنها أنهم يرون لأنفسهم حقا على الملوك، لتأييدهم لملكهم وسترهم عيوبهم، وإظهارهم محاسنهم، وقدرتهم على أن يضروا الملوك إذا أرادوا، وغير ذلك.

[٥٨٨] ولا يأتي هذا في الملائكة؛ لأنهم يعلمون أن ربهم ﷻ مبرأ من كل نقص، غني عنهم وعن غيرهم، قادر على كل شيء، لا يستطيع أحد أن يضره، هذا مع كمال الملائكة في أنفسهم، وخضوعهم الكامل لربهم

سبحانه، وحرصهم على مرضاته.

ورعية ملوك الدنيا بغاية الحاجة إلى أن يكون لهم شفعاء إلى ملوكهم؛ لعلمهم بنقائص الملوك التي تقدمت، ومن عرف الله تعالى علم أنه عالم الغيب والشهادة، فلا يخفى عليه شيء من مصالح عباده، وإذا أراد أمراً فقد علم أنه كائن، وما علم أنه كائن هو كائن لا محالة، ولو شفع إليه الخلق كلهم أن يرجع عما أراده لما أمكن ذلك، وأنه سبحانه أحكم الحاكمين، أرحم الراحمين.

فالحاجة التي يريدها العبد إن كانت مما قد سبق العلم واقتضتها الحكمة والرحمة فيه كائنة ولابد، ويكفي في طلبها طاعة الله ﷻ ودعاؤه والخضوع له كما يقتضيه مقام العبودية، وإلا فلو شفع إليه خلقه كلهم فيها لما حصلت، فأي فائدة للشفاعة مع هذا؟! وما أحمق من يتوهم أن يكون أحد أرحم به من ربه تعالى.

وقولكم: من الحوائج ما لا يحسن عرضها على الملك بدون واسطة لا معنى له بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأنه هو العليم الخبير، الرؤوف الرحيم، فليس من حاجة لا يحسن عرضها عليه، بل إن [٥٨٩] من الحوائج ما يحرم على الإنسان أن يذكرها لمخلوق، ويجب عليه أن يدعو الله ﷻ لها، وذلك كالفواحش إذا وقعت لم يكن له إظهارها لأحد من الناس، ويجب أن يدعو ربه ويقول -مثلا-: يا رب إني ظلمت نفسي بإصابة الفاحشة، فاغفر لي، وكذلك من الأشياء ما يتحاشى من ذكرها للناس، كالأمراض السرية، ولا حرج في أن يذكرها في دعاء الله ﷻ.

فإن كان قصدكم أن من حوائج الناس ما يكون في معصية الله ﷻ؛ فالملائكة أبعد من أن يشفعوا في معصيته، ولو شفعوا لحصول معصيته لكانوا عصاة، فإن وقع منهم ما يوهم الرضا بمعصيته فذلك غضب على ذلك العاصي، ورغبة في بقائه على المعصية؛ ليتم له استحقاق العذاب كما روى في دس جبريل عليه السلام الحمأة في فيّ فرعون -إن صح- وقد تقدم الكلام عليه، ومما يشبه ذلك دعاء موسى وهارون على فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس: ٨٨).

وقولكم: إن من أصحاب الحوائج من لا يليق لمخاطبة الملك لدناءة أو إساءة لا يصح في حق الله ﷻ، فإنه سبحانه البر الرحيم؛ [٥٩٠] لا يأنف من سماع دعاء أحد من خلقه، كيف وهو ربهم وبارئهم، ومن أساء منهم لا يخلو أن يكون جاء تائبا أو غير تائب، فإن كان تائباً فالتوبة تمحو الإساءة السابقة، وتوجب محبة الله تعالى للتائب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) فقال: ﴿يحب﴾ ولم يقتصر على المغفرة، وقدم التوابين على المتطهرين، والتوابين صيغة مبالغة، أي: الذين تكثر توبتهم، وذلك يشعر بكثرة خطاياهم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر

لهم"[1].

وفي صحيح مسلم أيضا عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح"[2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال، سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [٥٩١] "إن عبدا أصاب ذنبا -وربما قال: أذنب ذنبا- فقال: رب أذنبت -وربما قال: أصبت- فاغفره. فقال ربه: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبا -أو أذنب ذنبا- فقال: رب أذنبت -أو أصبت ذنبا- فاغفره. فقال: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا -وربما قال: أصاب ذنبا- قال: قال رب أصبت آخر -أو قال أذنبت آخر- فاغفره لي. فقال: أعلم عبدي أن له

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤٧) وفي صحيح مسلم أيضاً نحوه عن ابن مسعود وعن أبي هريرة وعن النعمان بن بشير وعن البراء بن عازب كلهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي -ثلاثا- فليفعل ما شاء"[١].

وروى الإمام أحمد والدارمي عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرويه عن ربه قال: "ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك، ابن آدم إن تلقني بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة، بعد أن لا تشرك بي شيئا، ابن آدم إنك إن تذنب حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ثم تستغفرني أغفر لك ولا أبالي"[٢].

وإن كان غير تائب فالملائكة والأنبياء والصالحون كلهم لا يحبونه، ولا يحبون أن تقضى حاجته، والله تعالى أرأف به منهم وأرحم، ولذلك سمي نفسه أرحم الراحمين، وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء [٥٩٢] وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وقال تعالى لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٨).

وأخرج البخاري وغيره عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر

---

(١) صحيح البخاري (٧٠٦٨)، وصحيح مسلم (٢٧٥٨).

(٢) مسند أحمد (٢١٥١٠)، وسنن الدارمي (٢٧٨٨).

يقول: "اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٨). وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة نحوه[١].

وروى الترمذي حديث ابن عمر بلفظ آخر وزاد فيه: "فتاب الله عليهم؛ فأسلموا فحسن إسلامهم"[٢].

وفي رواية: "فهداهم الله للإسلام"[٣].

وفي تفسير ابن جرير في الكلام على قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٧٥): "وكان ابن عباس يقول في تأويل ذلك، ما: ما حدثني به محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥) أنه جلّى له الأمر سره وعلانيته، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب، قال الله تعالى: إنك لا تستطيع هذا! فرده الله كما كان قبل ذلك"[٤].

---

(١) صحيح البخاري (٣٨٤٢)، (٤٢٨٣).

(٢) جامع الترمذي (٣٠٠٤).

(٣) جامع الترمذي (٣٠٠٥).

(٤) تفسير ابن جرير (١١: ٤٧٥).

وفيه أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ (القصص: ٨١) "عن ابن عباس فأوحى الله إليه: مر الأرض بما شئت، قال: يا أرض خذيهم! فأخذتهم إلى حقيهم، ثم قال يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى أعناقهم؛ [٥٩٣] فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، ويتضرعون إليه. قال يا أرض خذيهم، فانطبقت عليهم، فأوحى الله إليه: يا موسى! يقول لك عبادي: يا موسى يا موسى فلا ترحمهم؟ لو إياي دعوا لوجدوني قريبا مجيبا"[١].

وإذا اتفق أن يرحم بعض المقربين عاصيا فيدعو له؛ فإنما ذلك لعدم علم ذلك المقرب بحقيقة الحال، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿ولما ذهب عن إبراهيم الروع يجادلنا في قوم لوط) (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ (هود: ٧٤-٧٦).

فالخليل عليه السلام كان يرجو أن يؤمن القوم، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن، ولذلك لما عرض على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم عذاب قومه قال: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"[٢].

---

[١] تفسير ابن جرير (١٩: ٦٣٠).

[٢] الحديث في الصحيحين البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥).

ولو علم إبراهيم أن قوم لوط لا يؤمنون ولا يلدون مؤمنا لدعا عليهم، وكذلك محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين، كما فعل نوح عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ...﴾ (هود: ٣٦). فلذلك -والله أعلم- دعا عليهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٧).

[م: ٥٩٣] ومما يشبه قصة إبراهيم عليه السلام قصة نوح إذ قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧).

ومن ذلك قوله تعالى لخاتم أنبيائه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦).

وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف: ٦).

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ) (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ

استَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٥).

وفي القرآن آيات كثيرة من هذا المعنى.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما أنزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) قال: "يا معشر قريش! -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا"[1].

وفي صحيح مسلم وغيره عن سعد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بمسجد بني معاوية، فدخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها"[2].

---

[1] صحيح البخاري (٢٦٠٢)، وصحيح مسلم (٢٠٤).

[2] صحيح مسلم (٢٨٩٠).

وفي صحيح مسلم وغيره نحوه عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه: "وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد"[١].

وقد جاء نحو هذا الخبر عن أبي نضرة الغفاري عند أحمد وغيره، وهناك روايات أخر في هذا المعنى.

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجليك؛ فإذا هو بذبح متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار"[٢].

وفي الصحيحين وغيرهما عن سهل بن سعد، وأبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ليردن عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن غير بعدي" وصح نحوه من حديث ابن

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٨٩).

(٢) صحيح البخاري (٣١٧٢).

مسعود، وعائشة، وأختها أسماء، وأبي هريرة، وأنس وغيرهم"[١].

ويعلم مما تقدم وغيره أن قوله تعالى في المؤمنين: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الزمر: ٣٤) المراد به ما يشاؤون من نعيم الجنة، أو أنهم إذا شاؤوا ما لم يقضه الله ﷻ بين لهم الحكمة في عدم قضائه؛ فيرجعون عن مشيئتهم الأولى، ويشاؤون ما يوافق الحكمة، أو أنهم يرجعون عن مشيئتهم الأولى إذا علموا أن الله تعالى لم يقض ذلك وإن لم يعلموا الحكمة لعلمهم أن الحكمة فيما قضاه ربهم ﷻ، أو يرجعون عن مشيئتهم الأولى لمحبتهم لربهم ﷻ، وسياق هذه الآية يدل على ما ذكرنا، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الزمر: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (الشورى: ٢٢).

وهكذا قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَسَوْفَ

---

[١] صحيح البخاري (٦٢١٢)، (٦٦٤٣)، وصحيح مسلم (٢٢٩٠)، (٢٢٩١).

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥) قد اغتر بها كثير من الجهلة، وقد كان يكفي لدفع الشبهة عنهم أن يعلموا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لن يرضى ما لا يرضاه الله ﷻ، وقد سبق ذكر قوله يوم القيامة في الجماعة الذين يحال بينه وبينهم: "سحقا سحقا لمن غير بعدي" والأحاديث كثيرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه لعن شارب الخمر، وساقيها، و... ولعن آكل الربا، ومؤكله، وشاهده، وغير ذلك من المعاصي.

وقال تعالى في الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

وفي الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه كان يقول لأصحابه: "أما والله لأنا أخشاكم لله وأتقاكم له"[1].

ومن السبب في عدم شفاعة الملائكة إلا لمن ارتضى ﷻ حبهم لربهم ﷻ، وإجلالهم له، وعلمهم أنه لا ينبغي ارتضاء ما لم يرتضه الله تعالى، وليسوا في ذلك بأولى من خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، وقد خبط الناس في تفسير الشفاعة يوم القيامة، ففرط المعتزلة؛ فأنكروا ما عدا الشفاعة لفصل القضاء التي إنما يراد منها فتح باب الحساب لشدة ما يعتري الناس من طول الموقف، والشفاعة لرفع الدرجات.

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٦)، وصحيح مسلم (١٤٠١).

وأفرط كثير من المتأخرين إلى حد لا دليل عليه، بل ربما وصل بعضهم إلى حد تكذيبه النصوص القطعية، فإن أردت معرفة الحقيقة فعليك أن تجمع الأحاديث الصحيحة وتتدبرها، وتنظر حاصلها، وأنبهك هنا أن حديث أنس في الشفاعة اختصار ستعرفه إذا تدبرت الأحاديث إن شاء الله تعالى.

وقولكم: ومنهم من لا يستحق أن تقضي حاجته، ولكن إذا شفع فيها أحد [٥٩٤] المقربين قضاها الملك؛ لأن ذلك المقرب يستحق الإكرام.

فجوابه: أن الملائكة بغاية التعظيم لربهم ﷻ؛ لعلمهم بأنه وسع كل شيء رحمة وعلما، كما حكى الله تعالى عنهم في كتابه أنهم يقولون: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما﴾ (غافر: ٧) وذلك يقتضي ألا يشفعوا لأحد إلا بأمره، أو بإذنه، وقد صرح بذلك في القرآن -كما تقدم مرارا- فإن شفعوا لهذا الذي فرض أنه غير مستحق لحاجته؛ فإن أمرهم الله بالشفاعة فلم يأمرهم بها حتى جعل برحمته المشفوع له مستحقا، ولابد أن يطيعوا الله فيشفعوا، وعلى فرض أنهم لا يشفعون؛ فقد كفى في حصول الحاجة أن الله ﷻ قد أراد قضاءها، فلابد أن يقضيها شفعوا أم لم يشفعوا، وإن أذن لهم فيها على أنهم مخيرون إن شاء شفعوا وإن شاء لم يشفعوا؛ فالملائكة عباد مطهرون لا يمتنعون من شفاعة قد أذن لهم ربهم فيها، وإن فرضنا إمكان ألا يشفعوا، فالظاهر من حكمة الله ﷻ ورحمته أنه لم يأذن لهم في الشفاعة في تلك الحاجة إلا وقد أراد قضاءها، فلا يمنعه مما أراده عدم شفاعتهم، وعلى فرض أنه لا يقضيها إذا لم يشفعوا؛ فما

الطريق على حملهم على الشفاعة؟ لا سلطان عندكم على أنه يحملهم على الشفاعة تعظيمهم، أو السؤال منهم، بل إنه يعلم من تعظيمهم لربهم ﷻ أنهم يبغضون أن يعظموا، ويدعوا من دونه، وأنهم لا [٥٩٥] يحبون إلا من يعظم ربهم ويبجله، فعلم بذلك أن الطريق إلى تحصيل شفاعة الملائكة هي الاجتهاد في طاعة الله ﷻ، وإخلاص العبادة له سبحانه، فتدبروا ما تقدم، ثم تدبروا ما يأتي.

الحمد لله:

ألم تعلموا قطعا أن الله تعالى مستحق للعبادة؟ قالوا بلى. قلنا: فكيف أقدمتم على أن تسووا به فيها ملائكته، وتشركوهم به، وتجعلوا لهم نصيبا منها بمجرد الخرص والتخمين، وهو احتمال أنهم يشفعون، وليس عندكم علم بأنهم يشفعون، ألا يجوز أن لا يكونوا يشفعون إليه علما منهم بأنه تعالى عالم الغيب والشهادة، أحكم الحاكمين، أرحم الراحمين، مع ما تقدم تفصيله من عدم الحاجة.

فإن قالوا: فقد جاء في القرآن أنهم يشفعون، قلنا: أنتم كذبتم بالقرآن، فإن قالوا: فما بال القرآن ينكر عبادتهم مع إثباته أنهم يشفعون؟ قلنا إنما أثبت لهم القرآن الشفاعة إذا أمرهم الله تعالى بها، كما قال: ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ (الأنبياء: ٢٦) فأثبت أنهم لا يقولون ولا يعملون إلا إذا أمرهم الله تعالى، فشفاعتهم إنما هي امتثال منهم لأمر ربهم ﷻ، فأنى يستحقون أن يعبدوا على هذه الشفاعة التي لا تقع منهم إلا

طاعة لربهم فقط، أوليس المستحق للشكر على هذه الشفاعة هو الآمر بها سبحانه.

فإن قالوا: فقد عبر القرآن في مواضع أخر بالإذن فقال: ﴿من ذا الذي يشفع [٥٩٦] عنده إلا بإذنه﴾ (البقرة: ٢٥٥) إلى غير ذلك، وهذا يشعر بأنهم يريدون الشفاعة، ولكن لا يشفعون حتى يؤذن لهم، ويشعر بأنهم بعد الإذن مخيرون أن يشفعوا أو لا يشفعوا، ونحن نرى أنهم إذا أرادوا الشفاعة كان ذلك مظنة أن يؤذن لهم، فعلى هذا فيستحقون العبادة لأجل إرادتهم، ولأجل اختيارهم لأن يشفعوا بدون إلزام من الله تعالى لهم بالشفاعة. قلنا: فكونهم لا يشفعون إلا بعد إذنه سبحانه ورضاه يدلكم أنه ليس لكم أن تعظموهم إلا إذا أذن الله ورضي، فإذا تحاشى الملائكة مع قربهم من ربهم أن يشفعوا عنده بدون إذنه ورضاه، أفلا ينبغي للبشر مع بعدهم أن يتحاشوا عن أن يسووا بربهم بعض عباده في العبادة، ويجعلوا له شركاء فيها، والخطر في هذا أشد وأعظم؟

ثم يقول: أرأيتم إرادتهم واختيارهم، ما علة وجودهما، أخلق الله إياهما في نفوسهم، أم علمهم بأن فيهما مرضاته، أم رحمتهم للمشفوع له، أم المكافأة للمشفوع له على تعظيمه لهم فيما مضى ومحبته أن يعظمهم فيما بعد؟ فعلى الأول؛ لا يستحقون التعظيم بذلك، بل المستحق للتعظيم على تلك الإرادة وذلك الاختيار هو الخالق لهما، وكذا على الثاني؛ فإن المستحق للتعظيم على تلك الإرادة وذلك الاختيار هو الذي جعل رضاه فيهما حتى حمل الملائكة عليهما، وأما على الثالث؛ فما علة وجود تلك

الرحمة أخلقها الله في نفوسهم أم غير ذلك؟ [٥٩٧] فإن كان الأول فالخالق لها هو المستحق للتعظيم لأجلها، وإن كان غيره فما هو ... إن ذكرتم الأمر الرابع فسيأتي الكلام عليه، وإن ذكرتم أمرا آخر أعاد السؤال في علته حتى ينتهي الأمر إلى خلق الله ﷻ، أو تتحيروا، فإن انتهى إلى خلق الله فهو وحده المستحق للعبادة على ما خلق، وإن انتهى إلى الحيرة فليس لكم أن تسووهم بالله ﷻ فيما هو حق قطعي له من العبادة وتشركوهم به فيها بغير سلطان بين، وليس مع الحيرة سلطان.

فإن قلتم: بل العلة في إرادتهم الشفاعة واختيارهم لها هو المعنى الرابع، أي: مكافأتهم المشفوع له على تعظيمه إياهم فيما سبق، أو رغبتهم أن يعظمهم فيما بعد، قلنا: وما برهانكم على أن هذا هو العلة، لِمَ لا يجوز أن تكون العلة غيره مما مر؟ فإن لم يكن عندهم برهان فقد علمتم أن الإشراك بالله تعالى بناء على مجرد الخرص والتخمين أقبح القبيح.

فإن قالوا: قياساً على الله تعالى، فإنه يحب أن يعظم، قلنا: إنما يحب الله أن يعظم لأن تعظيمه حق، وهو يحب الحق، ولم يثبت بعد أن تعظيم الملائكة حق، بل هو محل النزاع، فإن قالوا: فقياسا على البشر، فإن البشر يحبون أن يعظموا، قلنا: أما خيار البشر فإنهم لا يحبون أن يعظموا إلا إذا كان التعظيم حقاً يحبه الله تعالى ويرضاه، وقد علمتم أنه لم يثبت بعد أن تعظيم الملائكة حق، وأما أشرار البشر فإنهم يحبون التعظيم بحق [٥٩٨] وبغير حق، ولكن ليس الملائكة بأشرار، ولو كانوا أشرارا يحبون التعظيم بغير حق لما أذن الله تعالى لهم بالشفاعة أصلاً.

فإن قالوا: إن التفصيل الذي ذكرتموه يأتي نحوه في إحسان بعض البشر إلى بعض، ومع ذلك فإن الإسلام نفسه يأمر بشكر المحسن، قلنا: هذا حق ولكن تعيين الفعل الذي يكون الشكر به ليس إلى اختيار البشر، بل يتوقف على أمر الله ﷻ أو إذنه، فليس لأحد أن يشكر أحدا بقول من الأقوال أو فعل من الأفعال إلا بسلطان ينزل الله تعالى بالأمر أو الإذن بذلك القول أو الفعل، وذلك لأن استحقاق ذلك المحسن للشكر مما يتحير فيه العقل كما مر، وعلى فرض أنه يقطع بالاستحقاق فلا يستطيع تعيين ما ينبغي من الشكر، ولاسيما مع خشية أن يقع في تسوية ذلك المحسن بالمحسن الحقيقي وهو رب العالمين تبارك وتعالى، فكان الواجب على الإنسان أن يتوقف حتى يأتيه سلطان من الله ﷻ ببيان ذلك، عالما أنه إذا علم الله ﷻ أن على الإنسان حقا لأحد لا يدري كيف يؤديه قيض له من يعلمه ببرهان بين، أو اكتفى منه بعلمه أنه لو عرف كيف يؤديه لأداه، بل إن الإسلام يوجب على العباد أن لا يعبدوا ربهم إلا بما أنزل به سلطانا، ويعلمهم أنهم ليس لهم أن يعبدوه بما يرون [٥٩٩] بدون سلطان منه؛ لأن في ذلك كذباً عليه بزعم أنه يحب ذلك الفعل ويرضاه مع أنه لم ينزل به سلطانا، ولا يدركه العقل إدراكاً قاطعاً، فإذا كان هذا في شكر المنعم الحقيقي، مع قطع العقل بأنه منعم حقيقي، وأنه يستحق الشكر، فما بالكم بغيره ممن نشك في كونه منعما، ونعلم بأنه إذا أنعم فليس هو بمنعم حقيقة، ونشك في استحقاقه الشكر، وعلى فرض استحقاقه الشكر نجهل صفة الشكر الذي يستحقه، وقد علمنا الله تعالى أن نؤمن بوجود

الملائكة، وأنهم عباد مكرمون مطهرون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وأن نسلم عليهم قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النمل: ٥٩) وهم من عباده الذين اصطفى، وعلمنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول أحدنا في صلاته: "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين"، وقال: "فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض"[1].

وأعلمنا الله ﷻ أن الملائكة يحبون من يطيع ربهم ﷻ ويعبده ويفعل الخير، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ (غافر: ٧) وقد مرت الأدلة في أول الجواب، وأنهم يبغضون من يعصي ربهم، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠) وقد تقدم الكلام على هذه الآية.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت لعنتها الملائكة حتى تصبح"[2]، فعلمنا أننا إذا أطعنا الله ﷻ أحبتنا الملائكة، وفي ذلك كفاية.

فإن قالوا: فإن في الإسلام من تعظيم الأنبياء ومن يظن بهم الصلاح

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٦٧)، وصحيح مسلم (٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٦٥)، وصحيح مسلم (١٤٣٦).

من البشر [٦٠٠] وتعظيم الكعبة، والحجر الأسود ما هو أعظم مما فيه من إكرام الملائكة الذي ذكرتموه، قلنا: قد أعلمناكم أن مدار الحق في الأقوال والأفعال على ما أنزل الله تعالى به سلطاناً، فما أنزل الله تعالى به سلطانا من الأقوال والأفعال التي أشرتم إليها فهو حق، وطاعة لله ﷻ، وهو عالم الغيب والشهادة، أحكم الحاكمين، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فعلينا أن نعمل ما أمرنا به، ونقف عما عداه، عالمين أن له في كل شيء حكمة بالغة وإن لم نفهمها، ومن ذا الذي يزعم أنه علمه كعلم الله تعالى، وإن حكمته كحكمته؟! ولولا خشية التطويل لبحثنا في تفصيل ما أمر الله تعالى به مما أشرتم إليه، وبيان الفرق الواضح بينه وبين ما لم يأمر الله به ولم يأذن فيه، على حسب ما يفتح الله به علينا من العلم، وقد مر بعض ذلك، ولعله يأتي زيادة فيه، ومن أوتي حظا من العلم، وكان حريصاً على إصابة الحق، صادق الافتقار إلى ربه تعالى؛ فإنه سيدرك ذلك بالتدبر إن شاء الله تعالى.

فصل في تحقيق السلطان الفاصل بين عبادة الله تعالى وعباده غيره

قد علمت فيما تقدم أن الفرق بين عبادة الله تعالى وعبادة غيره هو السلطان، فكل عبادة كان عند صاحبها سلطان بها من الله تعالى فيه عبادة لله ﷻ، وكل عبادة ليست كذلك فهي عبادة لغير الله تعالى.

والسلطان هو الحجة، وقد تكون الحجة يقينية، وقد تكون ظنية، [٦٠١] فهل تكفي الحجة الظنية هاهنا، أعني: إذا تعبد رجل عبادة عنده بها من الله ﷻ سلطان يثبت به الظن لا القطع، فهل تكون تلك العبادة لله ﷻ، أو لا يكون عبادة لله ﷻ إلا ما كان به سلطان قطعي؟

اعلم أن القطعي على ضربين:

الأول: ما هو نفسه قطعي كالآية القطعية الدلالة، والسنة المتواترة القطعية الدلالة، ونحو ذلك.

الثاني: ما ليس هو نفسه قطعياً، ولكن قد قام الدليل القطعي على أنه حجة يجب العلم بها، وذلك كخبر الواحد؛ فإنه ليس قطعياً، لجواز خطأ بعض الرواة وغير ذلك، ولكن قد قام الدليل القطعي على وجوب العمل بخبر الواحد بشرطه، فإن مجموع ما احتج به العلماء في إيجاب العمل بخبر الواحد يفيد القطع بمجموعه، وإن قيل: إن كل فرد من تلك الأفراد لا يفيد القطع، وعليه فيقال: في استحباب صيام ست من شوال أنه وإن لم يثبت ثبوتا قطعياً لكن وجوب العمل به قطعي؛ لأنه خبر واحد

مستجمع لشروط القبول، وخبر الواحد المستجمع لشرائط القبول يجب العلم به قطعاً.

فإن قيل: قد لا يكون عند الناظر علم يقيني بأن هذا الخبر مستجمع لها، قلت: الدليل يدل على وجوب العمل بخبر الواحد على كل من ظهر له أنه مستجمع لشرائط القبول وإن لم يعلم ذلك علم اليقين، وممن حقق هذا المعنى الشاطبي في كتاب الموافقات[1]، وقرر هو وغيره أن سائر الأدلة التي درج السلف الصالح والأئمة المجتهدون [٦٠٢] على الاحتجاج بها بعضها قطعي، أي: من الضرب الأول، وباقيها ظني، ولكنه يرجع إلى أصل قطعي، أعني: كما قررناه في خبر الواحد، ولذلك قالوا: إن أصول الفقه لا تكون إلا قطعية، وقد أنكر بعضهم هذا، وقال: إن كثيراً من أصول الفقه ظني.

والجواب: أن ما كان منها ظنياً فهو فرع لأصل آخر قطعي، فإن سلمنا أن كون الأمر حقيقة في الوجوب ظني فإننا نقول: إن هذا الظن مستند إلى أن ذلك هو الذي يظهر من اللغة ومن استعمالات الشارع، وقد ثبت بالقطع أن كل ما يظهر من معاني الكتاب والسنة بمقتضى اللغة والعرف الشرعي يجب العمل به، وقس على هذا، فقد يجوز أن يكون الأصل من أصول الفقه ظنياً ويستند إلى أصل آخر ظني، ولكن هذا الثاني

---

(١) الموافقات (٢: ٢٨٣).

يستند إلى أصل قطعي ... ثم نقول: أن الأمور الدينية منها ما يطلب العلم به كما هو عليه في نفس الأمر، كوجود الله ﷻ، وكونه حياً قادراً عالماً، وأنه لا إله إلا هو سبحانه، وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن من عند الله، ونحو ذلك، فهذا لابد فيه من القطع على الضرب الأول، والقطع بلا إله إلا الله يستدعي القطع بثلاثة أمور:

الأول: أنه لا مدبر في الكون استقلالا إلا الله ﷻ، فمن جوز أن يكون في الكون مدبر مستقل قد يعجز الله تعالى من منعه، وقد يستطيع هو منع الله ﷻ عن إنفاذ قضائه، فقد جوز أن يكون مع الله إله آخر، وكذلك إذا جوز أن يكون الله ﷻ فوض أمر العالم أجمع، أو أمر العالم الأرضي، أو أمر قطر خاص، أو بلد خاص، أو شخص واحد إلى مخلوق، وأذن له أن يصنع به ما أراد [٦٠٣] على أن يتخلى الباري ﷻ عن تدبير ذلك الشخص -مثلا- أصلا، وكذلك إذا جوز أن يكون مخلوق من الخلق مقبول الشفاعة، أو الدعاء ألبته، بحيث لا يخالفه الله ﷻ في شيء قطعاً، وليس من هذا تجويز أن يفوض الله تعالى قضية أو قضايا خاصة إلى مخلوق، كما جاء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج إلى الطائف قبل الهجرة وآذاه أهلها ورجع حزيناً وفيه: "... فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال:

يا محمد! فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين"[١].

وكما روي أن قارون وأصحابه لما بالغوا في أذى موسى عليه السلام شكا إلى الله ﷻ، فأوحى الله إليه إني قد أمرت الأرض أن تطيعك -وقد تقدمت القصة- فإنه ليس التفويض في هاتين الواقعتين أن الله ﷻ تخلى عن الأمر ألبته، فقد تقدم في قصة قارون وأصحابه أن موسى عليه السلام لما أمر الأرض أن تأخذهم فتضرعوا إليه مرارا فلم يلتفت إليهم عاتبه الله ﷻ، وقال له: يقول لك عبادي: يا موسى يا موسى فلا ترحمهم، لو إياي دعوا لوجدوني قريباً مجيباً، وقد مر في الكلام على الشبه أمثله من عدم استجابة الله ﷻ دعاء كبار الرسل، وعدم قبوله شفاعتهم في بعض المواطن.

وأما الأناسي الأحياء والجن؛ فإنه فوض إليهم العمل بما كلفهم به، ولكن لا على المعنى السابق، بل ما لم يقتض حكمة الله تعالى خلاف ما يريدون، ألا ترى أن الفاجر يريد أن يزني بامرأة صالحة فتبتهل [٦٠٤] هذه إلى الله ﷻ فيحول بينها وبينه، وقد تريد هي أن توافقه ولكن يكون زوجها صالحاً مثلا فيحول الله تعالى بينها مكافأة للزوج على صلاحه، وقد يريد الكافر قتل مؤمن فيمنعه الله منه، وقد يرد الإنسان التصدق على فقير وقد قضى الله تعالى حرمان ذلك الفقير فيمنع لله مريد التصدق منه،

---

[١] أخرجه البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (١٧٩٥).

وأمثال ذلك لا تحصى، وقد مر في قصة الخليل عليه السلام مع خصمه الذي كفر ما يتعلق بهذا.

وأما تصرف الجن بالإنس بغير الوسوسة فهو أوضح من هذا؛ لأن الإنس محفوظ من الجن قال تعالى: ﴿سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد: ١١) فإنما يستطيع الجن إيذاء الإنس نادراً بإذن الله ﷻ لحكمة يعلمها، وقد تقدم أيضاً ذلك.

وأما أرواح الموتى؛ فتصرفهم الذي يتعلق بالأحياء مما لا أحفظ له دليلاً صريحا، بل ثَمَّ دلائل تدل على عدمه، وإن فرض أن لهم تصرفا ما؛ فالأرواح الخيرة لها حكم الملائكة، فلا تقول ولا تفعل إلا بأمر خاص من الله ﷻ، والأرواح الشريرة كالشياطين فلا تستطيع أذى الأحياء إلا بتسليط خاص لحكمة يعلمها الله ﷻ، بل هي أولى من الشياطين بالعجز؛ لأنها ليست في دور تكليف بل في سجن وعذاب [٦٠٥].

الأمر الثاني: في القطع بأنه لا مستحق للعبادة إلا الله ﷻ.

الأمر الثالث: العلم بحقيقة العبادة.

واعلم أنه إذا عرض لك دليل ينقض هذه الأصول فإنه لا يمكن أن يكون قطعياً من الضرب الأول؛ لاستحالة تعارض القطعيات، وإنما يجوز أن يرد دليل من الضرب الثاني، وهو هاهنا لا يفيد الظن أيضاً، لمعارضته

للقطعي، فليس بسلطان، ومن الأمور الدينية ما أصل المقصود منه طاعة الله ﷻ، وقصد منه مع ذلك أن تكون الطاعة على وفق ما شرعه الله ﷻ، ولكن قصداً ثانياً بحيث يغفر لمن أخطأ ذلك بعد التحري وبذل الوسع، وذلك كفروع العبادات والمعاملات، فهذا إن تيسر فيه دليل من الضرب الأول فتلك الغاية القصوى، وإلا كفى فيه دليل من الضرب الثاني ... ويؤخذ من كلام كثير من أهل العلم زيادة قسم ثالث، وهو ما أصل المقصود منه تعظيم الله ﷻ، والبعث على الإيمان به، وعلى طاعته، ويدخل في هذا عامة الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه، أو وصفه بها نبيه، ووقع الاختلاف فيها بين الأمة، وقد احتج أكابر السلف على بعضها بأخبار الآحاد؛ لأنهم واقفون عن الخوض في تأويلها، ما حقيقتها، وكيف هي؟ ونحو ذلك، وخالفهم من خاض في ذلك؛ فاشترطوا أن لا يحتج فيها إلا بالبراهين القاطعة من الضرب الأول، وأكدوا ذلك بأن منها ما يفهم [٦٠٦] منه خلاف في نفس الأمر، وأجيب بأنه يفهم منها خلاف الواقع من خاض في تأويلها، وكيف هي، فأما من رجع إلى فطرته و لم يخض في ذلك فلا، فإن الشرع أطلقها بكثرة وسمعها الأعراب الجفاة و لم يقع من ذلك محذور؛ لأنهم قد علموا أن الله ﷻ ليس من جنس الخلق، فإذا سمعوا أن له وجها، وعينين، ويدين، وأصابع، لم يفهموا من ذلك إلا أن له صفات تطلق عليها هذه الألفاظ بينها وبين جوارح المخلوقين مناسبة ما، وليست من جنسها؛ لأن الموصوف بها سبحانه ليس من جنس المخلوقين، ولتحقيق هذا المعنى موضوع غير هذا ...

والصواب: أن أخبار الآحاد تقبل في هذا القسم الثالث على سبيل الشرط، فيقال: إذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هذا فهو حق، وأنا أومن به، ومن العجيب أن الذين خاضوا فيها استدلوا بشبهات عقلية ليست من الضرب الأول، ولا من الضرب الثاني، بل هي من باب الظن الممنوع الاحتجاج به مطلقا، وهو الخرص والتخمين، كما اعترف به أكابرهم، كالغزالي، وإمام الحرمين، والشهرستاني، والفخر الرازي في آخر أمرهم.

ومن تأمل أصولهم التي يبنون عليها العقليات علم أنها بغاية الضعف، وإنما يرجعون إلى تقليد أرسطو، وابن سينا، مع أنه قد جاء عن أرسطو أنه قال لا سبيل في الإلهيات إلى اليقين، وإنما الغاية القصوى فيها الأخذ بالأليق والأولى، حكاه علاء الدين الطوسي في الذخيرة (ص: ١٠)، وجاء نحو هذا عن بعض أكابر الآخذين عن ابن سينا، والله أعلم.

[٦٠٧] إذا تقرر هذا؛ فاعلم أن النظر في العبادة إذا كان معرفة حقيقتها من حيث هي فهو من القسم الأول كما تقدمت أدلته في أوائل الرسالة، فلابد من علم اليقين، فإن لم يتيسر اليقين لزم الاحتياط، وإن كان في عمل مخصوص أعبادة لله ﷻ هو أم لا؟ فهو من القسم الثاني، فيكفي فيه دليل من الضرب الثاني، وعلى هذا جرى العمل في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما بعده.

فإن قلت: فعلى هذا قد يكون العمل عبادة لله ﷻ بدليل ظني، كخبر واحد، ولو لم يأت ذلك الدليل الظني لكان ذلك العمل شركا،

قلت: ألا تعلم أنه لو ورد خبر صحيح بأن من كلم إمامه في الصلاة لا تبطل صلاته لعمل به العلماء، وإذ لم يرد فلو أن رجلا يصلي ويكلم إمامه زاعما أن الصلاة لا تبطل بذلك مع اعترافه بأنه لا دليل عليه لحكمنا ببطلان صلاته قطعا، فإن زعم أنه لا تجب عليه الصلاة إلا كذلك حكمنا بكفره.

ومثل ذلك لو ورود خبر واحد أن شرب ماء زمزم لا يفطر، أو أن من لم يدرك الوقوف بعرفة يوم عرفة يجزيه الوقوف يوم النحر، لقبلناهما وإذ لم يرد ذلك، فلو أن رجلا يشرب في نهار رمضان من ماء زمزم عمدا زاعما أنه لا يفطر، وأنه لا يجب عليه صيام غير ذلك لكفرناه، وكذا لو وقف يوم النحر [٦٠٨] عالماً بأنه يوم النحر، وزعم أنه لا يجب عليه حج غير ذلك. وأمثال هذا كثير.

نعم؛ قد يكون لبعض الناس عذر يمنع من تكفيره على ما يأتي بيانه في الأعذار إن شاء الله تعالى.

فإن قلت: إنما يقع التكفير في هذه الأمثلة للإجماع على أن خطاب الإمام في الصلاة يبطلها كغيره، وأن الشرب من ماء زمزم ذاكراً للصوم يبطل الصوم كغيره، وأن الوقوف يوم النحر مع العلم بأنه يوم النحر لا يجزئ من جاء متأخراً، فعبادات هؤلاء باطلة إجماعاً، فلما زعموا أنه لا يجب عليهم غيرها كان معنى قولهم أنه لا تجب عليهم صلاة صحيحة؛ وهذا تكذيب للرسول قطعاً، قلت: وهكذا يقال فيمن عمد إلى حجر في جدة مثلا فزعم أنه مستحق أن يعظم تعظيم الحجر الأسود، ألا ترى أنه

خالف الإجماع في ذلك، ومع مخالفته للإجماع كذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نبهنا مرارا على أن القرآن قسم الكفر إلى قسمين: الكذب على الله، والتكذيب بآياته.

فإن قلت: فالمدار على عدم خبر الواحد مثلا أم على مخالفة الإجماع؟ قلت: المدار في الحقيقة على الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، ومنه تكذيب رسوله.

فإن قلت: نعم؛ ولكن يشترط في تكفيره قيام الإجماع على أنه كاذب أو مكذب، أم يكفي في ذلك أنه لا دليل عنده؟ قلت: الأمران متلازمان، فإنه إذا تعبد بما لا دليل له على أنه عبادة فقد كذب على الله إجماعاً، وإن عمل عملا مبطلاً في الصلاة إجماعاً، ثم أنكر أنه تجب عليه الصلاة إلا كذلك فقد كذب الرسول إجماعاً.

فإن قلت: قد ينقل عن بعض السلف قول: [٦٠٩] "لا نعلم له دليلا" ولكنه يمنع عند كثير من الأصوليين كون القول المخالف له مجمعاً عليه، و لم يتحقق إجماع قبل ذلك القائل، فما الحكم فيه، وما الحكم فيمن يقول بقوله من الخلف مع اعترافه بأنه لا دليل له؟ قلت: أما القائل الأول من السلف فإننا نحسن الظن به؛ لأنا وإن لم نعلم له دليلا فلعله قامت عنده شبهة ظنها دليلاً، وكانت تلك الشبهة قوية يعذر صاحبها، اللهم إلا أن يثبت عنه ما يسد علينا طريق حسن الظن به، وأما الموافق له من الخلف فإن اعترف بأنه لا دليل له على قوله فلا ينفعه موافقته.

فإن قلت: فبهذا يتبين أن المدار على عدم الدليل لا على مخالفة الإجماع، قلت: ولكن قد خالف هذا القائل الإجماع من جهة تدينه بما لا دليل له عليه وهذا باطل إجماعاً.

فإن قلت: فإن كان القائل الأول صحابياً، واحتج هذا المتأخر بقوله بناء على أنه يرى قول الصحابي حجة، أو كان المتأخر عامياً وقلد القائل الأول، قلت: الظاهر أن المتأخر يعذر إلا أن تكون قد قامت عليه الحجة القاطعة بأن قول الأول خطأ محض، كما في قول ابن مسعود ﷺ بأن المعوذتين ليستا من القرآن، وهكذا الحال في كل من أظهر الاستناد إلى دليل قد قامت الحجة القاطعة على بطلانه.

فإن قلت: فلو قال متأخر قولا، وسألناه الدليل عليه، فاعترف بأنه لا دليل له، أو ذكر دليلا باطلاً إجماعاً، ولكننا نعلم دليلاً يصح أن يتمسك به لقوله لم يقف عليه أو لم يتنبه له، قلت: أما الذي تقتضيه [٦١٠] الأدلة فهو الجزم بأن هذا الرجل لا يعذر؛ لأنه قد ارتكب القول في الدين بلا دليل، وخالف بذلك الإجماع، وكان من معنى قوله الكذب على الله، وتكذيب رسوله، ولكني أرى أن الواجب علينا أن نبين له ما في قوله من الخطر، ونرشده إلى ذلك الدليل، ونقول له: إذا أصررت على قولك فعليك أن تستند إلى هذا الدليل، فإن أصر على أن له القول في الدين بغير دليل انقطع عذره.

فإن قلت: فإذا لم يدَّع الرجل أن له أن يقول في دين الله بغير حجة، ولكنه ذكر شبهة لا تصلح دليلا، قلت: هذا معذور حتى تقام عليه الحجة أن ما تمسك به لا يصلح دليلا، فإن أصر بعد ما قامت عليه الحجة نظرنا؛ فإذا كانت شبهته قوية في الجملة بحيث يجوز أن لا يتبين له بطلانها فهو معذور، وإلا فلا.

فصل

فإن قلت: إذا كان التدين بشيء لا دليل عليه، أو عليه دليل باطل شركا؛ فالبدع في الدين كلها شرك.

قلت: كل بدعة كانت تدينا بما لا دليل عليه، أو عليه دليل باطل، -والبدع كلها هكذا على التفسير الصحيح- فإنا نقول فيها: إذا قامت الحجة على صاحبها؛ بأن ذلك قول لا دليل عليه أصلا، أو على بطلان ما يزعم أنه دليل، وبأن التدين بما ليس عليه من الله تعالى سلطان عبادة لغيره، وهي شرك إذا قامت الحجة عليه بذلك وأصر على التدين بتلك البدعة فهي شرك، وهو مشرك، وإلا فإنا لا نطلق عليها أنها شرك بدون التفصيل، ولا يكون صاحبها ما لم تقم عليه الحجة مشركا، بل ولا مبتدعا، بل قد يكون من خيار المسلمين وأئمتهم أوليائهم، [٦١١] ويكون مأجورا على ذلك القول الذي نسميه نحن بدعة، وحسبك أن مثل هذا يوجد من أكابر الصحابة ﷺ، فضلا عمن بعدهم، فإن كان كل مسألة دينية اختلف فيها فالحق فيها واحد، وبقية الأقوال باطلة، ولكن لا يطلق على وجه من وجوه الاختلاف بدعة إلا إذا قامت الحجة الواضحة، ولا يطلق على صاحبها مبتدع حتى تقوم عليه الحجة الواضحة.

نعم؛ جرت عادة السلف أنهم إذا رأوا رجلاً ذهب مذهباً يعتقدون هم أنه بدعة؛ ولذلك الرجل شبهة استولت عليه، بحيث لم يستطيعوا اقتلاعها من قلبه، ولكنها عندهم شبهة باطلة، أن يطلقوا عليه مبتدع،

وهو عندهم كالواسطة بين المعذور المأجور وبين المعاند الذي سبق أنه يكفر، والغالب أنهم لم يشددوا عليه إلا خوفاً على المسلمين من الاغترار بقوله، والافتراق في الدين، ولذلك يشتد نكيرهم عليه إذا كان داعية، أي: يظهر قوله ويجادل عنه ويناضل، ويرغب الناس فيه.

واعلم أن الأفهام تختلف، وتأثير الأدلة والشبهات في النفوس يختلف باختلاف العقول والأهواء وغير ذلك، فكم من معنى هو عند بعض الأئمة حجة قوية، وعند بعضهم شبهة ضعيفة، وحسبك بأن الصحابة وأئمة التابعين اختلفوا في مسائل كثيرة، وربما لم يقدر أحدهم على إقناع الآخر، مع أنهم كانوا أبعد الناس عن الهوى، وأسرعهم إلى الحق إذا تبين، أو لم يبلغك محاورة أمير المؤمنين علي عليه السلام [٦١٢] مع ابن عباس ﷺ في متعة النكاح؟ حتى قال علي لابن عباس: "إنك امرؤ تائه"[١].

ومع ذلك لم يستطع أحدهما إقناع الآخر، فاحذر أن تعجل فتحكم على مخالفك بأنه معاند بسبب أنك ترى شبهته ضعيفة، وترى الحجة التي أقمتها قطعية أو كالقطعية، وعليك أن تتأنى وتتريث في الحكم حتى لا يبقى لديك في عناده أدنى تردد، وهذا التأني والاحتياط هو الذي منع العلماء من إعلان أن البدع الدينية كفر وشرك، ومن صرح بذلك فعلى سبيل الفرض والتقدير.

---

(١) انظر: صحيح مسلم (١٤٠٧).

قال الشاطبي: "فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقدا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يتبدع ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم، قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خان الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ (المائدة: ٣). فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً.

والثالث: أن المبتدع معاند للشرع، ومشاق له؛ لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها، إلى غير ذلك؛ لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم [٦١٣] رحمة للعالمين، فالمبتدع راد لهذا كله؛ فإنه يزعم أن ثَمَّ طرقا أُخَر، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعين، كأن الشارع يعلم ونحن أيضاً نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع أنه علم ما لم يعلمه الشارع، وهذا إن كان مقصودا للمبتدع فهو كافر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين"[١].

---

(١) الاعتصام (١: ٣٣).

وقال أيضاً: "والرابع: أن المبتدع قد نَزَّلَ نفسه منزلـه المـضاهي للشارع؛ لأن الشارع وضع الشرائع، وألزم الخلق الجري علـى سـننها، وصار هو المنفرد بذلك؛ لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفـون، وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الـشرائع، ولم يبـق الخلاف بين الناس، ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام.

هذا الذي ابتدع في دين الله قد صير نفسه نظيراً ومضاهيا للشارع، حيث شرع مع الشارع، وفتح للاختلاف بابا، ورد قـصد الـشارع في الانفراد بالتشريع، وكفى بذلك.

والخامس: أنه اتباع للهوى؛ لأن العقل إذا لم يكن متبعا للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى، وأنه ضـلال مبين، ألا ترى قول الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْـأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ [٦١٤] عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِـسَابِ﴾ (ص: ٢٦).

فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده: وهو الحق والهـوى، وعزل العقل مجردا إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَـنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهـف: ٢٨) فجعـل الأمر محصورا بين أمرين: اتباع الذكر، واتباع الهوى، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (القصص: ٥٠) وهي مثل ما قبلها وتأملوا هذه الآية، فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه فلا أحد

أضل منه، وهذا شأن المبتدع، فإنه اتبع هواه بغير هدى من الله"[١].

أقول: وإذا لم يكن أحد أضل منه فهو كافر مشرك، إذ لو لم يكن كذلك لكان الكافر المشرك أضل منه، وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ (الأنعام: ١٤٤)، و(الأعراف: ٣٧)، و(يونس: ١٧)، و(الكهف: ١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ (الأنعام: ٢١-٩٣)، و(هود: ١٨)، و(العنكبوت: ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الكَذِبَ﴾ (الصف: ٧).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٣٢) وإذا لم يكن أحد أظلم منه فهو مشرك، وإلا لكان يوجد من هو أظلم منه.

وقد قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

[٦١٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: "وقد اتفق العلماء على تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه من الكبائر، حتى بالغ الشيخ أبو محمد الجويني فحكم بكفر من وقع منه ذلك، وكلام

---

[١] الاعتصام (١: ٣٣).

القاضي أبي بكر ابن العربي يميل إليه"[١].

وقال ابن حجر الهيتمي: "قال الشيخ أبو محمد الجويني: إن الكذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفر، وقال بعض المتأخرين: وقد ذهبت طائفة إلى أن الكذب على الله ورسوله كفر يخرج عن الملة بلا ريب، وأن الكذب على الله ورسوله في تحليل حرام أو تحريم حلال كفر محض، وإنما الكلام في الكذب عليهما فيما سوى ذلك"[٢].

وقال صاحب الصارم المسلول على شاتم الرسول: "السنة الثالثة عشرة: ما رويناه من حديث أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي قال: ثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني ثنا على بن مسهر عن صالح ابن حيان عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلغه أن رجلا قال لقوم: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرني أن أحكم فيكم برأيي، وفي أموالكم كذا وكذا، وكان خطب امرأة منهم في الجاهلية فأبوا أن يزوجوه، ثم ذهب حتى نزل على المرأة، فبعث القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: "كذب عدو الله" ثم أرسل رجلا فقال: "إن وجدته حيا فاقتله، وإن أنت وجدته ميتا فحرقه بالنار" فانطلق فوجدوه قد لدغ فمات، فحرقه بالنار، فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فتح الباري (٦: ٤٩٩).

(٢) الزواجر للهيتمي (١: ٢٤٩).

وآله وسلم: "من كذب علي متعمدا؛ فليتبوأ مقعده من النار".

ورواه أبو أحمد بن عدي في كتابه الكامل قال: ثنا الحسن بن محمد ابن عنبر ثنا حجاج بن يوسف الشاعر ثنا زكريا بن عدي ثنا على بن مسهر عن صالح بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه قال: كان حي من بني ليث من المدينة على ملين وكان رجل قد خطب منهم في الجاهلية فلم يزوجوه فأتاهم وعليه حلة فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كساني هذه الحلة وأمرني أن أحكم في أموالكم ودمائكم [٦١٦] ثم انطلق فنزل على تلك المرأة التي كان يحبها فأرسل القوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: كذب عدو الله ثم أرسل رجلا فقال: إن وجدته حيا -وما أراك تجده حيا- فاضرب عنقه وإن وجدته ميتا فاحرقه بالنار قال: فذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار هذا إسناد صحيح على شرط الصحيح لا نعلم له علة [٦١٦].

وله شاهد من وجه آخر رواه المعافى بن زكريا الجريري في كتاب الجليس قال: ثنا أبو حامد الحصري، ثنا السري بن مرثد الخراساني، ثنا أبو جعفر محمد بن علي الفزاري، ثنا داود بن الزبرقان، قال: أخبرني عطاء ابن السائب، عن عبد الله بن الزبير أنه قال يوما لأصحابه: أتدرون ما تأويل هذا الحديث: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"؟ قال: كان رجل عشق امرأة فأتى أهلها مساء فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعثني إليكم أن أتضيف في أي بيوتكم شئت قال:

وكان ينتظر بيتوتة المساء قال: فأتى رجل منهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إن فلانا يزعم أنك أمرته أن يبيت في أي بيوتنا شاء فقال: "كذب، يا فلان! انطلق معه؛ فإن أمكنك الله منه فاضرب عنقه، واحرقه بالنار، ولا أراك إلا قد كفيته" فلما خرج الرسول؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ادعوه" قال: "إني كنت أمرتك أن تضرب عنقه وأن تحرقه بالنار، فإن أمكنك الله منه فاضرب عنقه ولا تحرقه بالنار؛ فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار، ولا أراك إلا قد كفيته"، فحانت السماء بصيب فخرج الرجل يتوضأ فلسعته أفعى، فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "هو في النار".

وقد روى أبو بكر بن مردويه من حديث الوازع، عن أبي سلمة، عن أسامة [٦١٧] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من تقول علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار" وذلك أنه بعث رجلا فكذب عليه فوجد ميتا قد انشق بطنه، ولم تقبله الأرض.

وروي أن رجلا كذب عليه فبعث عليا والزبير إليه ليقتلاه [٦١٧].

وللناس في هذا الحديث قولان:

أحدهما: الأخذ بظاهره في قتل من تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن هؤلاء من قال: يكفر بذلك، قاله جماعة منهم: أبو محمد الجويني، حتى قال ابن عقيل عن شيخه أبي الفضل الهمداني: مبتدعة الإسلام والكذابون والواضعون للحديث أشد من الملحدين؛ قصدوا إفساد الدين من خارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من

داخل؛ فهم كأهل بلد سعوا في فساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من خارج، فالدخلاء يفتحون الحصن، فهم شر على الإسلام من غير الملابسين له.

ووجه هذا القول؛ أن الكذب عليه كذب على الله، ولهذا قال: "إن كذبا علي ليس ككذب على أحدكم" فإن ما أمر به الرسول فقد أمر الله به، يجب اتباعه كوجوب اتباع أمر الله، وما أخبر به وجب تصديقه كما يجب تصديق ما أخبر الله به.

ومن كذبه في خبره أو امتنع من التزام أمره، ومعلوم أن من كذب على الله بأن زعم أنه رسول الله أو نبيه، أو أخبر عن الله خبرا كذب فيه كمسيلمة والعنسي ونحوها من المتنبئين فإنه كافر حلال الدم، فكذلك من تعمد الكذب على رسوله.

ويبين ذلك أن الكذب عليه بمنزلة التكذيب له؛ ولهذا جمع الله بينهما بقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه﴾ (العنكبوت: ٦٨) بل ربما كان الكاذب عليه أعظم إثما من المكذب له، ولهذا بدأ الله به، كما أن الصادق عليه أعظم درجة من المصدق بخبره، فإذا كان الكاذب [٦١٨] مثل المكذب أو أعظم، والكاذب على الله كالمكذب له، فالكاذب على الرسول كالمكذب له.

يوضح ذلك أن تكذيبه نوع من الكذب؛ فإن مضمون تكذيبه الإخبار عن خبره أنه ليس بصدق، وذلك إبطال لدين الله، ولا فرق بين تكذيبه في خبر واحد أو في جميع الأخبار، وإنما صار كافرا لما يتضمنه من

إبطال رسالة الله ودينه.

والكاذب عليه يدخل في دينه ما ليس منه عمدا، ويزعم أنه يجب على الأمة التصديق بهذا الخبر، وامتثال هذا الأمر؛ لأنه دين الله، مع العلم بأنه ليس لله بدين.

والزيادة في الدين كالنقص منه، ولا فرق بين من يكذب بآية من القرآن أو يصنف كلاما ويزعم أنه سورة من القرآن عامدا لذلك.

وأيضا فإن تعمد الكذب عليه استهزاء به واستخفاف؛ لأنه يزعم أنه أمر بأشياء ليست مما أمر به، بل وقد لا يجوز الأمر بها، وهذه نسبة له إلى السفه، أو أنه يخبر بأشياء باطلة، وهذه نسبة له إلى الكذب، وهو كفر صريح.

وأيضا فإنه لو زعم زاعم أن الله فرض صوم شهر آخر غير رمضان، أو صلاة سادسة زائدة، ونحو ذلك، أو أنه حرم الخبز واللحم؛ عالما بكذب نفسه كفر بالاتفاق.

فمن زعم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوجب شيئا لم يوجبه، أو حرم شيئا لم يحرمه، فقد كذب على الله، كما كذب عليه الأول، وزاد عليه بأن صرح بأن الرسول قال ذلك، وأنه -أعني القائل- لم يقله اجتهادا واستنباطا.

وبالجملة؛ فمن تعمد الكذب الصريح على الله فهو المتعمد لتكذيب الله وأسوأ حالا، وليس يخفى أن من كذب على من يجب تعظيمه فإنه مستخف به، مستهين [٦١٩] بحقه.

وأيضا فإن الكاذب عليه لابد أن يشينه بالمكذب عليه وينقصه بذلك، ومعلوم أنه لو كذب عليه كما كذب عليه ابن أبي سرح في قوله: كان يتعلم مني، أو رماه ببعض الفواحش الموبقة، أو الأقوال الخبيثة؛ كفر بذلك، فكذلك الكاذب عليه؛ لأنه إما أن يؤثر عنه أمراً، أو خبراً، أو فعلاً، فإن أثر عنه أمرا لم يأمر به فقد زاد في شريعته، وذلك الفعل لا يجوز أن يكون مما يأمر به؛ لأنه لو كان كذلك لأمر به صلى الله عليه وآله وسلم لقوله: "ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا نهيتكم عنه"[1].

فإذا لم يأمر به فالأمر به غير جائز منه، فمن روى عنه أنه أمر به فقد نسبه إلى الأمر بما لا يجوز له الأمر به، وذلك نسبة له إلى السفه.

وكذلك إن نقل عنه خبرا، فلو كان ذلك الخبر مما ينبغي له الإخبار به لأخبر به؛ لأن الله تعالى قد أكمل الدين، فإذا لم يخبر به فليس هو مما ينبغي له أن يخبر به، وكذلك الفعل الذي ينقله عنه كاذباً فيه لو كان مما

---

[1] الحديث بنحو هذا اللفظ ذكره صاحب المشكاة في باب التوكل والصبر من حديث ابن مسعود مرفوعا، ونسبه إلى البيهقي في شعب الإيمان، والبغوي في شرح السنة، وفي المستدرك (٣: ٤) نحوه، أخرجه شاهداً، وفي سند المستدرك انقطاع، وأخرج [الشافعي] نحوه من طريق المطلب بن حنطب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ...". الأم (٧: ٢٧١)، وهو مرسل، وذكره ابن عبد البر في كتاب العلم، وقال: "رواه المطلب بن حنطب وغيره عنه صلى الله عليه وآله وسلم". مختصر جامع بيان العلم (ص: ٢٢٢).

ينبغي فعله ويترجح لَفَعَلَهُ، فإذا لم يفعله فتركه أولى.

فحاصله أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أكمل البشر في جميع أحواله، فما تركه من القول والفعل فتركه أكمل من فعله، وما فعله ففعله أكمل من تركه، فإذا كذب الرجل عليه متعمدا، أو أخبر عنه بما لم يكن، فذلك الذي أخبر عنه نقص بالنسبة إليه؛ إذ لو كان كمالا لوجد منه، ومن انتقص الرسول فقد كفر.

واعلم أن هذا القول في غاية القوة كما تراه، لكن يتوجه أن يفرق بين الذي يكذب عليه مشافهة، [٦٢٠] وبين الذي يكذب عليه بواسطة، مثل أن يقول: حدثني فلان بن فلان عنه بكذا، فهذا إنما كذب علي ذلك الرجل، ونسب إليه ذلك الحديث، فأما إن قال: هذا حديث صحيح، أو ثبت عنه أنه قال ذلك، عالما بأنه كذب، فهذا قد كذب عليه، أما إذا افتراه ورواه رواية ساذجة ففيه نظر[١].

أقول: وكلامه في من كذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله، فأما من كذب على الله ﷻ بقوله وفعله واعتقاده؛ بأن زعم في عمل أنه من الدين الذي يحبه الله ويرضاه، وليس له على ذلك سلطان؛ فلا أرى موضعاً للشك في كفره، إلا أن يكون له عذر، والآيات المتقدمة صريحة في ذلك.

---

[١] الصارم المسلول (ص: ١٦٥-١٧٠).

وقال الشاطبي أيضاً: "وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾ (المائدة: ١٠٣). فهم شرعوا شرعة، وابتدعوا في ملة إبراهيم عليه السلام هذه البدعة، توهما أن ذلك يقربهم من الله تعالى، كما يقرب من الله ما جاء به إبراهيم عليه السلام من الحق، فزلوا وافتروا على الله الكذب؛ إذ زعموا أن هذا من ذلك، وتاهوا في المشروع، فلذلك قال تعالى على أثر الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥). وقال سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ﴾ (الأنعام: ١٤٠). فهذه فذلكة لجملة بعد تفصيل تقدم، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٦).

فهذا تشريع كالمذكور قبل هذا، ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٧) وهو تشريع أيضاً بالرأي مثل الأول، ثم قال: ﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ [٦٢١] يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٨) فحاصل الأمر أنهم قتلوا أولادهم بغير علم، وحرموا ما أعطاهم الله من الرزق بالرأي على جهة التشريع، فلذلك قال تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ

مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٠). ثم قال تعالى بعد تعزيرهم على هذه المحرمات التي حرموها وهي ما في قوله: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٤) وقوله: ﴿لاَ يَهْدِي﴾ يعني: أنه يضله"[١].

وقال ابن حجر الهيتمي في كتابه الإعلام بقواطع الإسلام: "ووقع قريباً أن ميراً بنى بيتا عظيماً فدخله بعض المجازفين من أهل مكة فقال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد". وأنا أقول: تشد الرحال إلى هذا البيت أيضاً، وقد سئلت عن ذلك، والذي يتجه ويتحرر فيه أنه بالنسبة لقواعد الحنفية والمالكية وتشديداهم يكفر بذلك عندهم مطلقا، وأما بالنسبة لقواعدنا وما عرف من كلام أئمتنا السابق واللاحق فظاهر هذا اللفظ أنه استدراك على حصره صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ساخر به، وأنه شرع شرعاً آخر غير ما شرعه نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ألحق هذا البيت بهذه المساجد الثلاث في الاختصاص عن بقية المساجد بهذه المزية العظيمة التي هي التقرب إلى الله تعالى بشد الرحال إليها، وكل واحد من هذه المقاصد الأربعة التي دل عليها، وهذا اللفظ القبيح الشنيع كفر بلا مرية، فمتى قصد أحدها فلا

---

[١] الاعتصام (١: ١٠٣).

نزاع في كفره، وإن أطلق فالذي يتجه الكفر أيضاً لما علمت أن اللفظ ظاهر في الكفر، وعند ظهور اللفظ فيه لا يحتاج إلى نية ... وإن تأول بأنه لم يرد إلا أن هذا البيت لكونه أعجوبة يكون ذلك سبباً لمجيء الناس إلى رؤيته ... قبل منه ذلك، ومع ذلك فيعزر التعزير البليغ بالضرب والحبس وغيرهما بحسب ما يراه الحاكم، بل لو رأى إفضاء التعزير إلى القتل كما سيأتي عن أبي يوسف لأراح الناس من شره ومجازفته، فإنه بلغ فيهما الغاية القصوى، تاب الله علينا وعليه آمين[1].

واعلم أن ما قدمته من أن صاحب البدعة قد يكون مأجورا عليها خاص بما إذا كان عالماً قامت عنده شبهة قوية حملته على ظن أن تلك البدعة سنة، وقد بذل وسعه في البحث والنظر فلم يجد ما يدفع ذلك عنه، وإذا كانت تلك المسألة مما أمر الشرع بإخفائه حذر الفتنة اشترط أيضاً أن لا يكون ذلك العالم معلنا به ...

فأما الجاهل فإنما يمكن أن يكون مأجوراً على البدعة إذا كان قلد فيها من يعتقد فيه العلم، و لم يقصر في الاختيار، ولا تبين له ضَعف قوله ولا ترك الاحتياط، فإذا اختل شيء من هذا فقد صرح العلماء بأنه يكون آثماً لتقصيره على تردد من بعضهم في بعض ذلك، إلا أنه لا يحكم عليه بالكفر أو الشرك حتى تقام عليه الحجة، وعندي تردد فيمن ترك

---

(١) الإعلام بقواطع الإسلام (ص: ٣٦).

الاحتياط، كأن يسمع من بعض العلماء أن هذا الفعل مستحب، ويسمع من آخر أن هذا الفعل ليس بمستحب بل هو شرك، فإذا أقدم مثل [٦٢٢] هذا على ذلك الفعل ألا يحكم عليه بالشرك؟ وقد نص العلماء أن من أقدم على ما يظنه كفر يكفر وإن لم يكن ذلك الشيء كفرا في نفس الأمر.

وفي الهداية وشرحها من كتب الحنفية: "وإن قال: إن فعل كذا فهو يهودي أو نصراني أو كافر يكون يمينا، لأنه ... ولو قال ذلك لشيء قد فعله فهو الغموس ولا يكفر اعتبارا بالمستقبل، وقيل: يكفر لأنه تنجيز معنى، كما إذا قال هو يهودي، والصحيح أنه لا يكفر فيهما إن كان يعلم أنه يمين، فإن كان عنده أنه يكفر بالحلف فإنه يكفر فيهما.

قال المحشي: "قوله: يكفر فيهما؛ لأنه لما أقدم على ذلك الفعل وعنده أنه يكفر فقد رضي بالكفر"[١].

نعم؛ قد يترجح عذره في بعض الأحوال، كأن نشأ بقطر أتفق من به من المنتسبين إلى العلم على أن ذلك الفعل مستحب، وإنما بلغه أنه شرك عن رجل ببلد آخر، وعلماء ذلك القطر يردون عليه ويخطئونه ويشددون النكير عليه، وليس لهذا العامي مكنة في البحث والنظر، والله المستعان.

---

[١] العناية شرح الهداية (٦: ٤٧٤).

فصل

إذا تقرر أن السلطان الفارق بين عبادة الله تعالى وعبادة غيره قد يكون ظنياً في نفسه، ولكنه يستند إلى أصل قطعي؛ فإنه يدخل فيه سائر الأدلة التي يحتج بها الأئمة المجتهدون على ما هو مبسوط في أصول الفقه، وما اختلف فيه منها أدليل هو أم لا؟ فالمدار على ما ترجح أو قامت به الحجة، فمن احتج بدلالة الاقتران -مثلاً- على فعل بأنه عبادة؛ فإن كان قد نظر في الأصول وترجح له بأن دلالة الاقتران حجة فهي سلطان في حقه حتى تقام الحجة عليه بأن دلالة الاقتران ليست بحجة، وهكذا من تمسك بدليل صالح في نفسه ولكنه عارضه ما هو أقوى منه؛ فإنه على سلطان حتى يعلم بالمعارض وتقوم عليه الحجة بأن المعارض أقوى، وهكذا من كان له معرفة بالكتاب والسنة ففهم من آية أو حديث معنى فهو سلطان له حتى تقوم عليه الحجة بخطئه في فهمه، أو بوجود معارض لما فهمه أقوى منه، وكذلك من كان له معرفة بالحديث ورجاله فظهر له صحة حديث فهو سلطان له حتى تقام عليه الحجة بضعف ذلك الحديث أو بأنه عارضه ما هو أقوى منه.

والحاصل: أن السلطان؛ هو الحجة التي يحتج بها في فروع [٦٢٣] الفقه، فكل حجة في فروع الفقه سلطان ... حتى التقليد في حق العامي فهو سلطان له حتى تقام عليه الحجة بأن مقلده ليس بمرتبة الإمامة، أو تقام الحجة على خطئه.

نعم؛ ينبغي للمقلد الاحتياط في مواضع الاختلاف إلا إن تبين له أن قول من خالف أمامه ضعيف جداً، ويكون استناده في ظن ضعفه إلى أمر ظاهر لا إلى التعصب المحض، فإن كثيرا من المقلدين يتوهمون أن إمامهم معصوم ويستضعفون دلالة الكتاب والسنة وأقوال أكابر الصحابة وأكثر الأئمة إذا كان قول إمامهم مخالفاً لذلك، وهذا هوى محض إنما حملهم عليه محبة أنفسهم، تقول لأحدهم نفسه أنت مقلد لهذا الرجل متبع له؛ فإذا توهمت فيه نقصا فقد توهمت النقص في نفسك، فينبغي لك أن تطرد عن فهمك كل ما يفهم منه نقص إمامك، وهذا باب واسع يكتفي بالإشارة إليه، والله الموفق.

وقد قدمنا في أوائل الرسالة فصولاً فيما يتمسك به بعض الناس ويظنه دليلا وليس كذلك، فارجع إليه.

فصل

الأمور الدينية تنقسم إلى قسمين: عبادات، ومعاملات.

والعبادات على ضربين:

الأول ما هو تعظيم لله ﷻ بلا واسطة، كالصوم.

الثاني: ما هو خضوع له سبحانه ولكن بواسطة احترام مخلوق، كتقبيل الحجر الأسود، وإكرام الأبوين، وغير ذلك.

فالقسم الأول والضرب الأول من القسم الثاني يشق على العامي الاحتياط فيه مشقة شديدة؛ لأنه يلزم من ذلك أن يشدد عليه أشد مما يشدد على العالم، فيُمنع من كثير من المصالح الدنيوية لا يمنع منها العالم، ويُلزم بكثير من الأعمال لا يُلزم بها العالم، مع أن المناسب لحال العامة [٦٢٤] أن يوسع عليهم الأمر ويرخص لهم أكثر مما يرخص للعلماء، فلذلك لم يوجب العلماء على العامة الاحتياط فيما ذكر.

فأما الضرب الثاني من القسم الثاني -أعني: ما كان من العبادات- هو في الصورة احترام مخلوق، فأرى أنه يجب فيه الاحتياط لأمور:

الأول: أنه وإن تقدم أن البدع كلها تؤول إلى الكفر والشرك؛ فهذا الضرب -أعني ما فيه تعظيم لمخلوق- أصرح في ذلك من غيره، فإن ما عداه إنما يحتمل الشرك لأنه يؤول إليه، وذلك من جهة كونه طاعة للرؤساء وللشيطان والهوى في شرع الدين، والطاعة تعظيم.

الثاني: أنه لا مشقة على العامي في اجتناب ذلك، بل فيه تخفيف

عليه بخلاف ما عداه.

الثالث: أنه قد كثر في القرون المتأخرة ابتداع التدين بتعظيم المخلوقين أكثر مما عداه.

الرابع: أن عامة الاختلاف في القسم الأول والضرب الأول من القسم الثاني قد وقع بين السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وأكثر ما اختلف فيه من تعظيم المخلوق لم يثبت عن السلف، وإنما اخترعه أفراد من الخلف لم يبلغوا رتبة الاجتهاد، ومثل ذلك بدعة قطعاً لسبق الإجماع على تركه، المستلزم الإجماع على أنه ليس من الدين، ولأن المحدث له ليس ممن يجوز تقليده.

ولا يغرنك ذكر من يدعى العلم من أنصار البدع آية من كتاب الله، أو حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو حكاية عن بعض السلف؛ فإنه قد كثر من هؤلاء القوم تحريف الآيات القرآنية وتفسيرها بالهوى على خلاف التفسير الذي يثبت بالحجج الصحيحة، وكذلك يفعلون في تفسير الأحاديث الصحيحة، ويعتمدون على الأحاديث الضعيفة أو المكذوبة، وكذلك يحرفون الآثار الثابتة عن السلف، ويعتمدون [٦٢٥] على الآثار التي لم تثبت أو هي مكذوبة ...

والعجب من هؤلاء القوم أنهم إذا نوقشوا في بعض المسائل المختلف فيها بين المذاهب وأقيمت عليهم الحجة بآية من كتاب الله أو حديث صحيح كان آخر قولهم: إنه ليس لنا أن نخالف مذهبنا لذلك؛ لأنا قاصرون عن معرفة الدليل، ولعل إمامنا فهم غير ما فهم غيره من الأئمة،

أو كان عنده دليل يعارض ذلك، وإذا نقشوا في بدعة لم يقل بها إمـــامهم ولا غيره من السلف فتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه، فأخذوا يحرفون الآيات والأحاديث الصحيحة والآثار الثابتة، ويتبعون الأحاديث والآثـــار الواهية والمكذوبة، وعند التحقيق لا عجب أن هؤلاء القوم إنما يتبعـــون هواهم، والله المستعان.

تقسيم الكفر إلى ضربين

اعلم أن القرآن يقسم الكفر إلى ضربين: الكذب على الله والتكذيب بآياته. والآيات في ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ٢١).

فالشرك كله كذب على الله في أن له شريكاً أو أنه ﷻ يرضى أن تُدعى [٦٢٦] الملائكة ونحوهم، أو أنه شرع اتخاذ البحيرة والسائبة ونحوهما، أو أنه حرم ما في بطون الأنعام على النساء وأحله للرجال، وغير ذلك.

والكفر كله تكذيب لآيات الله؛ ولذلك حصر المتكلمون الكفر في تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأنت إذا أحطت خبراً بما تقدم في هذه الرسالة علمت أن الشرك والكفر متلازمان؛ فإن التكذيب بآيات الله طاعة في الدين للرؤساء والهوى والشيطان وتلك عبادة كما مر، إلا أنه في بعض المواضع قد يخفى كون الأمر شركا، وذلك فيما كان طاعة للرؤساء أو الشيطان أو الهوى، ولهذا كان المشركون يعرفون أنهم مشركون بتعظيم الملائكة والأصنام، ولذلك كانوا يسمونها آلهة، ويسمون تعظيمهاً عبادة، ولم يعرف اليهود أنهم مشركون بطاعتهم في الدين لأحبارهم ورهبانهم للشيطان وللهوى، وبين القرآن أن الكذب على الله

شرك سواء أكان الكاذب يعلم أنه كاذب أم لا، بل يكفي في ذلك أنه قال على الله تعالى ما لا سلطان له به، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ (آل عمران: ١٥١).

وقال تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ (الأنعام: ٨١).

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (الحج: ٧١).

[٦٢٧] وكذلك بين أن التكذيب بآيات الله كفر سواء أعلم المكذب أنها من عند الله أم لم يعلم، ولكنه لا سلطان له على أن ما كذب به كذب.

فمن الأول: فرعون وقومه، كما تقدم في الكلام عليهم.

وأما الثاني: فكثير، وهم أهل الريب والشك، وقد يكون الكذب بالقول فقط، كأن يقول رجل: إن الله تعالى يرضى لعباده السجود للشمس، وهو يعلم أن الله تعالى لا يرضى ذلك، وهو نفسه لا يسجد لها، وقد يكون بالفعل فقط، كمن يسجد للشمس وهو يعتقد أنه لا ينبغي السجود لها، ويعترف بذلك، وقد يكون بالاعتقاد فقط، كمن يعتقد في نفسه أن الله تعالى يرضى السجود للشمس ولكنه لا يتكلم بذلك ولا يعمل به، وقد يكون بالثلاثة معا، أو اثنين منها معا.

وكذلك التكذيب قد يكون باللفظ فقط، كمن يقول: إن الله تعالى لم يفرض صلاة الظهر وهو نفسه يصليها ويعتقد أن الله ﷻ فرضها، وقد يكون بالفعل فقط، كمن ألقى مصحفا في قاذورة، وقد يكون بالاعتقاد فقط، كأن يعتقد أن الله تعالى لم يفرض الظهر، وقد يكون بالثلاثة معا، أو اثنين منها معا.

ونص العلماء على تكفير من كذّب بآيات الله بقول أو فعل ولو كان على وجه [٦٢٨] الهزل واللعب ومما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (التوبة: ٦٥).

والكذب والتكذيب بالاعتقاد يصدق بما إذا جزم بأن الله تعالى يرضى السجود للشمس، أو لم يفرض صلاة الظهر، وما إذا ظن ذلك أو شك، أو لم يجزم بأن الله لا يرضى السجود للشمس، وبأنه فرض صلاة الظهر، هذا بالنسبة إلى ما هو كَذِبٌ قطعاً بأن لم يكن لصاحبه عليه سلطان، وما هو تكذيب قطعا بأن ثبت قطعا أن ذلك الأمر مما جاء به الرسول عن ربه.

فأما ما يظن أنه كذب، كأن كان لصاحبه دليل مختلف فيه، نرى نحن أنه ليس بحجة، وقد قال بعض المجتهدين: إنه حجة، وليس هناك برهان قاطع بأنه حجة أو ليس بحجة، فلا يعد القول بموجبه كذبا على الله، وكذلك ما يظن أنه تكذيب كهذا المثال؛ فإن القائل بأن ذلك الدليل حجة يرى أن مخالفة مكذب؛ فلا يعد هذا تكذيباً بآيات الله، فأما الدلائل

الظنية المستندة إلى الأصول القطعية كخبر الواحد المستجمع لشرائط القبول فرده مع قيام الحجة على استجماعه لها تكذيب لآيات الله تعالى.

فإن قلت: أرأيت اليهودي -مثلاً- إذا دعي إلى الإسلام فبحث ونظر وتدبر وتفكر طالبا للحق حريصاً على إصابته، ولكنه لم يوفق للعلم اليقيني بأن الإسلام حق، [٦٢٩] بل قامت لديه شبهة يعتقد أنها يقينية أن البقاء على اليهودية حق، فإذا أسلم كان في اعتقاده كاذباً على الله ﷻ مكذبا بالآيات، فماذا حكمه؟ قلت: قد أجاب القرآن عن هذا بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٨-٦٩).

وحاصل الجواب: أن من بحث ونظر وتدبر وتفكر طالباً للحق حريصاً على إصابته فهو مجاهد في الله؛ فلابد أن يهديه الله ﷻ لمعرفة الحق، وقد أشكل هذا السؤال على الأئمة قديماً، وهذا جوابه في القرآن كما ترى.

فإن قلت: فقد اختلف أكابر الصحابة وأئمة التابعين في فروع الفقه، وقد قدمت أن من أقوالهم ما هو خطأ في نفسه، وأنه لولا العذر لكان بدعة، وكان صاحبه مبتدعاً، وإن البدعة شرك، بل قد وقع من بعضهم ما هو أصرح من هذا مما لولا العذر لكان كفرا كما سيأتي، مع أن أولئك الأكابر كانوا يبحثون وينظرون حريصين على إصابة الحق، أي: أنهم قد جاهدوا في الله على وفق ما حملت عليه الآية.

[٦٣٠] قلت: فهذا يدل أنه ليس المراد بهداية السبيل الهداية إلى عين الحق في نفس الأمر، بل الهداية إلى ما يرضي الله ﷻ عن المجتهد، ويستحق عليه الأجر، إما أجرين؛ وذلك إذا أصاب الحق في نفس الأمر، أو أجر واحد؛ وذلك إذا أخطأ مع عدم تقصيره كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ، وعبد الله بن عمرو ﷺ، قالا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[١].

ولهذا -والله أعلم- عبر في هذه الآية بلفظ الجمع بقوله: ﴿سُبُلَنَا﴾ فتكون السبل في هذه الآية عبارة عن السبيل الأعظم؛ وهو الحق في نفس الأمر وفروع ترجع إليه كما علمت، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣) فإن سبيل الله تعالى في هذه الآية عبارة عما يعم السبيل الأعظم والفروع التي ترجع إليه، وأما السبل فعبارة عن سبل مستقلة عن سبيله غير راجعة إليه، والسياق يدل على ذلك، فإن فيه: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ... وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣) فالخطاب في هذه الآيات للمشركين يدعوهم إلى الإسلام؛ فالإسلام سبيل واحد، وللمشركين سبل أخرى، والكلام في آية

---

(١) صحيح البخاري (٦٩١٩)، وصحيح مسلم (١٧١٦).

العنكبوب عام لكل كاذب ومكذب، فتدبر.

والحاصل: أن أئمة المسلمين المجتهدين في فروع الإسلام لم يخرجوا عن سبيل الله تعالى، بل منهم من هو في حق السبيل الأعظم، وهو الحق في نفس الأمر، ومنهم من هو في فرع راجع إليه، فكلهم مهديون إلى سبل الله ﷻ، وأما اليهود والنصارى والمشركون فهم في سبل أخرى ليست من سبل الله تعالى؛ لأنها لا ترجع إلى سبيله الأعظم، وصراطه المستقيم، فمن جاهد منهم في الله فلابد أن يهديه الله إلى سبيله الذي يرضاه وهو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ (آل عمران: ١٩).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وأما من جاهد في الله من المسلمين ليعلم مسألة فرعية فإن الله يهده؛ إما إلى حق السبيل، وإما إلى فرع يرجع إليه كما مر ...

واعلم؛ أن خطأ المجتهد المسلم إنما يكون راجعاً إلى سبيل الله ما لم يتبين أنه خطأ، فأما إذا تبين له أو لغيره أنه خطأ فإن ذلك القول ينقطع بذلك عن السبيل الأعظم، ولا يرجع إليه، بل يتصل بالسبل الباطلة، وفي صحيح البخاري وغيره عن هزيل بن شرحبيل قال: "سئل أبو موسى عن ابنة، وابنة ابن، وأخت، فقال: للبنت النصف، وللأخت النصف، وَأْتِ ابنَ مسعود فسيتابعني. فَسُئِلَ ابن مسعود، وأخبر بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي صلى الله

عليه وآله وسلم، للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم"[1].

[٦٣٢] فلم تكن فتوى أبي موسى أولا ضلالا، ولا خروجا عن الهدى؛ لأنه لا يعلم أنها خطأ، وكانت ضلالا وخروجاً عن الهدى في حق ابن مسعود لو أفتى بها؛ لأنه يعلم أنها خطأ، وهكذا في حق أبي موسى لو أصر عليها بعد أن تبين له أنها خطأ، والسبب في هذا ظاهر، فإن المجتهد المخطئ قاصد اتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو وإن أخطأ بقوله فقد أصاب بقصده، فأما بعد تبين الخطأ فقد انتفى هذا القصد أيضاً وحل مكانه قصد آخر إن إصر على الخطأ، وذلك هو الهوى واتباع الشيطان والرؤساء، فانقطع ذلك الفرع عن سبيل الله ﷻ، ورجع إلى السبل الباطلة كما ترى.

واعلم؛ أن القاضي المجتهد إذا اجتهد في قضية وتبين له فيها أن الحق كذا لا يخلو أن يكون ذلك الحكم الذي تبين له هو الحق في نفس الأمر بمقتضى الأدلة الشرعية العامة أو يكون خطأ، وإذا كان خطأ وكان القاضي عادلا بارا مخلصاً لله تعالى فقد يقال: إن الله ﷻ إنما رجح في نفسه ذلك الحكم لعلمه سبحانه بأنه الذي تقتضيه الحكمة في تلك القضية

---

[1] صحيح البخاري (٦٣٥٥).

خاصة، وبيان ذلك أن الأحكام العامة إنما يمكن مطابقتها للحكمة بالنسبة إلى الغالب، مثال ذلك الحكم على الزاني المحصن بالرجم، وعلى غيره بالجلد، فقد يمكن في غير الغالب أن يكون محصناً أولى بأن يخفف عنه من بكر، كأن يكون الأول شاباً شديد الشهوة تزوج وبات معها ليلة [٦٢٣] وماتت، وهو فقير لا يستطيع أن يتزوج غيرها، وقد ابتلى بعشق امرأة جميلة، وهو يتعفف عنها ويتجنب رؤيتها، فصادف إن هجمت عليه في خلوة فلم يصبر عنها فوقع عليها، ثم لم يلبث أن ندم، ويكون الثاني شيخا كبيراً ضعيف الشهوة غنيا عنده عدة سراري، ومع ذلك رأى امرأة قبيحة فاحتال عليها إلى أن زنى بها، و لم يندم، فأنت ترى أن الأول أولى بالتخفيف من الثاني، ولكن لما كانت الأحكام الشرعية عامة لم يمكن أن تراعي فيها الجزئيات، وإنما يراعي فيها الغالب فقط، فإذا وقع ذلك الحكم على من لا يناسبه فإن الباري ﷻ يسد هذا النقص بالقَدَر، فيجعل لذلك الشاب -مثلا- فرجا ومخرجا، إما بأن لا يفضحه، وإما بأن يظهر في القضية شبهة يقويها في نفس القاضي حتى يترجح له أن هذا لا يستحق الحد، وإما أن يكفر عن ذلك الشاب ذنوباً أخرى، وأما أن يرفعه درجات في الجنة، إلى غير ذلك، وهذا معنى جليل يحتاج إيضاحه إلى إطالة ليس هذا محلها، وهذا المعنى هو السبب، أو أحد الأسباب فيما أجمع عليه العلماء أن من شرط القاضي أن يكون مجتهداً لا يقلد أحداً فتدبر.

وهو أيضاً من أسباب جعل كثير من أدلة الأحكام الشرعية غير واضحة كل الوضوح، ومن أسباب التعبد بخبر الواحد، ومن أسباب

قولهم: الاجتهاد لا ينقض [٦٣٤] بالاجتهاد، ومن أسباب قواعد شرعية أخرى ليس هذا محل استيفاء ذكرها.

واعلم أن الطالب للحق الحريص عليه عزيز جدا، -كما مر عن الغزالي- والسبب في ذلك أن للهوى مداخل كثيرة، منها أن يميل الإنسان إلى ما كان عليه أبواه، كما في الحديث الصحيح "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه ..." الحديث[1].

ومنها أن يميل إلى ما كان عليه أستاذه، ومنها أن يميل إلى ما اعتاده وألفه، ومنها أن يميل إلى ما رأى عليه من يحبه أو يعظمه، ومنها أن يميل عما رأى عليه من يبغضه أو يستحقره قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود: ٢٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣).

ومنها أن يميل إلى ما وقع في ذهنه أولا، فيصعب على نفسه أن تعترف أنها أخطأت أولا، ولاسيما إذا كان قد أظهر قوله الأول، وإذا تمكن الهوى عميت البصيرة، فتعرض على صاحبه الحجة النيرة فيرى أنها شبهة فقط، حتى أنه كثيراً ما يقول: إنها شبهة لا أقدر على حلها،

---

[1] أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم (٢٦٥٨).

وتعرض عليه الشبهة الضعيفة [٣٣٥] الموافقة لهواه؛ فيرى أنها برهان قاطع.

ومسالك الهوى قد تكون خفية جداً؛ فيتوهم الإنسان أنه لا سلطان للهوى عليه، وأنه ممن يجاهد في الله طلبا للحق أنى كان، مع أنه في الحقيقة على خلاف ذلك، ولولا هذا لما كنت تجد الناس لا يخرجون عن مذاهب آبائهم إلا نادرا، ولهذا لم يقتصر القرآن على دعوة الناس إلى البحث والنظر فقط، بل أرشدهم مع ذلك إلى أنهم إن لم يتيقنوا أن ما يدعوهم الله هو الحق فلا يمنعهم ذلك عن اتباعه فإنه أحوط لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ) (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

وقال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء: ٨٢).

[٦٣٦] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: ٥٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٠).

ومن هنا يعلم أن قوله تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) لا تقتصر معنى الهداية فيه على تيسير البرهان القاطع، بل يحصل بذلك وبتيسير الدليل الذي يتبين به للناظر أن اتباع الإسلام أحوط له، ولكنه إذا عمل بالأحوط ودخل في الإسلام يسر الله تعالى له بعد ذلك ما يثلج صدره إن شاء الله تعالى، -كما مر في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٤)- وهكذا يقال في من تردد من المسلمين في أمر أشرك هو، أم مستحب، أو مباح؟ فإنه قد ينظر ويبحث فلا يتضح له الحق، وإنما ذلك ابتلاء من الله ﷻ له، أيعمل بالقدر الذي ظهر له [٦٣٧] من الحق وهو الاحتياط، أم لا؛ فإن عمل به فعسى أن ييسر الله تعالى له ما يوضح له الحق إن شاء الله تعالى، فاشدد يديك بهذا الأمر فإنه إن لم تستقر في يديك فائدة من هذه الرسالة إلا هو فقد فزت، وقد مر ما يتعلق بهذا.

الأعذار

وقد تعرضت لهذا البحث في مواضع، وأريد أن أبسط الكلام عليه هاهنا مستعينا بالله تعالى، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

فقوله ﷻ: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ نص قاطع، وقد جاء نحوه في آيات أخرى، [٦٣٨] وهو مطابق لما جبلت عليه النفوس وشهدت به بَدائهُ العقول؛ أن الله سبحانه عدل حكيم، رءوف رحيم.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ "قال: نعم ..." وفي رواية أخرى: "قد فعلت، قد فعلت"[١].

---

(١) صحيح مسلم (١٢٥)، (١٢٦).

ويظهر أنه ليس المراد بالنسيان والخطأ ما لا يكون من العبد فيه تقصير قطعاً، وليس المراد بما لا طاقة لنا به ما لا نطيقه ولو بذلنا أقصى جهدنا؛ كأن يلمس أحدنا الشمس، ويحمل جبلاً، أو يصلي في اليوم ألف ألف ركعة؛ فإن هذه الأمور قد نفيت بقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وإنما المراد -والله أعلم- النسيان والخطأ اللَّذَيْنِ لا يخلو العبد من تقصير ما فيها، فإننا نجد أحدنا ينسى الصلاة أو ينام عنها حتى يخرج وقتها، ولو قيل له: إذا حضرت اليوم وقت الصبح بباب الملك حصل لك مال عظيم وهو محتاج لم يفته ذلك الوقت، وكذلك نجد المفتي إذا سئل عن مسألة فيها إراقة دم بذل فيها من الجهد في البحث والنظر ما لا يبذله إذا سئل عن مسألة في البيوع -مثلاً- والمراد -والله أعلم- بـ ﴿مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ما فيه مشقة شديدة؛ ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وما في معناها.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الدين يسر ..." الحديث[١].

وهذا هو الذي فهمه الفقهاء، فقالوا: إنه يعفى عما يشق الاحتراز عنه من النجاسات [٦٣٩] ونحوها، وقالوا أن المرأة إذا اشتبهت بأجنبيات

---

(١) صحيح البخاري (٣٩).

غير محصورات لم يحرم على أبيها مثلاً أن يتزوج واحدة منهن، بل جعلوا هذا المعنى أصلا من أصول الشريعة، فقالوا: "إن المشقة تجلب التيسير" ووسعوا دائرة الإكراه الذي يبيح إظهار الكفر فلم يحصروه في تيقن القتل إذا لم يعمله.

فإن قلتَ: ولكن النفي في قوله: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يخالف ما ذُكِر؛ فإنه نص في نفي جنس الطاقة، قلتُ: صدقتَ ولكن معنى الطاقة القدرة على الشيء بدون صعوبة شديدة، وقد نبه على ذلك الراغب فقال: "فقوله: ﴿مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: يصعب علينا مزاولته، وليس المعنى لا تحملنا ما لا قدرة لنا به ..."

أقول: ومما يبين ذلك حديث المعراج وهو في الصحيحين وغيرهما من طرق، وفيه مراجعة موسى لمحمد عليهما الصلاة والسلام في فرض الصلوات، وقوله له: "إن أمتك لا تستطيع ذلك" وفي روايات: "لا تطيق ذلك" حتى أنه قال له ذلك في خمس صلوات[(١)].

ولكن يجب أن تعلم أنه ليس كل نسيان وخطأ معفواً؛ فإن من تشاغل بلهو محرم أو مكروه فأنسأه الصلاة ليس بمعذور، وكذلك من سمع آية فهم منها حكماً فعمل به وأفتى واستمر على ذلك، ولم يتدبر القرآن والسنن الثابتة؛ مع احتمال أن يكون فيها ما يخالف فهمه.

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٢)، وصحيح مسلم (١٦٣).

فكأن النسيان والخطأ إنما يعذر بهما إذا انتفى التقصير، ولكن التقصير أمر مشتبه؛ فإن العلماء صرحوا بأنه يكفي المجتهد أن يبحث حتى يغلب على ظنه أنه لا مخالف لما فهمه، وغلبة الظن أمر يتفاوت، وهكذا المشقة التي إذا وجدت في الشيء صدق أنه لا يطاق هي أمر غير منضبط أيضاً، ولكننا نتتبع أمثلة مما ثبت فيه عذر من جرى منه ما لولا العذر لكان كفراً.

فأقول: قد سبق أن الكفر كله يرجع إلى الكذب على الله تعالى، والتكذيب بآياته، [٦٤٠] فممن يعذر إجماعاً من كذب على الله تعالى بقوله فقط لسبق اللسان كما تقدم في الحديث الصحيح فقال: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح". وقد تقدم، ومن تلا آية كان يعتقد أنه يحفظها فزاد فيها أو نقص أو غير شيئاً فيها على سبيل الخطأ، فإذا نبه اعترف بأنه أخطأ، ومثل هذا في الأحاديث ... ومن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان بشرط أن لا يظهر منه ما يدل على الاختيار، بخلاف من ظهر منه ذلك، كما تقدم فيمن بقي بمكة من المسلمين بعد الأمر بالهجرة، وهو قوي. ومن حكى كلام غيره مصرحاً بذلك، كمن يتلو قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ﴾ (التوبة: ٣٠) على أن الحاكي لا يطلق عليه أنه كذب، ومثله من يحكي كلاماً لغيره، ثم يردفه باعتراض عليه؛ كأن يقول: من لازم هذا القول أن يكون الله تعالى كذا -ويذكر وصفا محالا- وكذلك من يفرض اعتراضا ليجيب عنه؛ كأن يقول: فإن قيل: إن الله تعالى يرضى أن تعبد الملائكة معه؛ لأنهم

مقربون لديه، فالجواب كذا، وربما يظهر عذر من كان قريب عهد بالإسلام، أو عاش ببادية بعيدة عن العلماء إذا نطق بكذب على الله تعالى على سبيل الضحك واللعب، ظاناً أن مثل ذلك لا يكون كفراً، كما يحكى أن عدنانياً افتخر على قحطاني قائلاً له: محمد من عدنان! فأجابه القحطاني قائلاً: الله من قحطان!! تعالى الله عما قال، لكنه إذا قيل [٦٤١] بالعذر يشتبه الحال فيمن كان مسلما بالغا قد مضت له بعد بلوغه مدة تمكن فيها من التعلم على أن في عذر قريب العهد بالإسلام ونحوه نظرا؛ لأنه يعلم أن قوله كذب، وإن في ذلك الكذب سوء أدب، وانتهاك حرمة، وإن لم يعلم أنه يبلغ الكفر، فالله أعلم.

وممن يعذر إجماعاً ممن كذب على الله تعالى بفعله فقط من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان بالشرط المتقدم، ومن أخطأ كأعمى تلا آية سجدة فسجد إلى جهة يظنها القبلة وكان أمامه صنم يظهر لمن يرى أن السجدة للصنم، ويظهر لي عذر من رأي تمثالا يشبه صورة ولد له غائب فاعتنق التمثال وقبله بداعي الشوق إلى ولده فقط؛ فإن كان يعلم أن ذلك التمثال صنم يعبد ففي قبول عذره نظر، وهكذا من كان قريب عهد بالإسلام أو عاش ببادية بعيداً عن العلماء إذا سجد أمام صنم مثلاً على سبيل الهزل والاستهزاء، -كما مر نظيره في الكذب بالقول- وممن يعذر ممن كذب على الله تعالى باعتقاده المجتهد في الفروع إذا اجتهد فظهر له ما ظنه سلطاناً على حكم فاعتقده، وكذا من قلده بشرطه المتقدم فيما مر في الكلام على البدع.

وكذلك يعذر من كان قريب عهد بالإسلام إذا توهم جواز شيء مخالف لشهادة أن لا إله إلا الله مخالفة غير صريحة كما مر في قول بني إسرائيل: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨)، وقال بعض المسلمين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: اجعل لنا ذات أنواط، وقد تقدم حديث: "اتقوا هذا الشرك؛ فإنه أخفى من دبيب النمل"، وليس من الشرك الذي عند صاحبه استئذان قيس بن سعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٦٤٢] في السجود له؛ -وقد تقدم الحديث- لأنه رأى قوماً من الأعاجم يسجدون لمرزبان لهم، فرأى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحق بأن يسجد له، فإن السجود للمخلوق إنما ينافي معنى لا إله إلا الله إذا لم يأذن به الله، وقيس لم يسجد، وإنما سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولو أذن له لدل ذلك على الإذن من الله ﷻ، وكذا يقال فيما جاء من الأحاديث في معنى حديث قيس، وقد قال ابن القيم في النونية:

تالله لو يرضى النبي سجودنا كنا نخر له على الأذقان

وكذلك يعذر من اشتبه عليه معنى لا إله إلا الله بعد القرون الأولى؛ فظن معناها قاصراً على نفي وجوب الوجود عن غير الله تعالى حتى تقوم عليه الحجة، أو يبلغه أن بعض العلماء يفسرها على غير ما فهمه، وربما يعذر وإن بلغه ذلك إذا رأى علماء جهته يقولون: إنه لم يخالف في هذا إلا فلان وهو جاهل ضال مبتدع كافر مخالف لإجماع الأمة، ونحو ذلك،

فأما إذا اختلف الناس عليه وبلغه أن ذلك المخالف يوافقه جماعة من العلماء والعقلاء، ويحتج بكتاب الله وسنة رسوله؛ فإنه لا يعذر فيما يظهر، ومما يدل على هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى: ١٦).

فقوله: ﴿مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ مفهومه أن الحال قبل الاستجابة كان بخلاف ذلك، ووجهه فيما يظهر أن من كان بعيداً عن الحجاز فبلغه أن رجلا [٤٤٣] بمكة يزعم أن الله أرسله والناس كلهم حتى أقاربه مطبقون على تكذيبه، ويقولون: هو مجنون، ومسحور، ونحو ذلك؛ فإن هذا البعيد قد يغلبه تصديق الجمهور مع ما عنده من الشبهة، فربما يعذر بذلك، فأما بعد ما استجيب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فآمن به جماعة واتبعوه، وفارقوا دين آبائهم، وعادوا أهليهم وأحبائهم، وعرَّضوا أنفسهم وأموالهم للتلف؛ فلم يبق عذر لهذا البعيد وإن كان له شبهة، بل تعين عليه أن يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويسمع كلامه، ويتدبر ما يقوله بنية خالصة صادقة؛ فإنه إن فعل ذلك تبين له الحق بمقتضى قول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) على ما تقدم.

نعم؛ من لم يبلغه الاستجابة فربما يعذر، وعليه يحمل قول الغزالي في فيصل التفرقة، وصنف بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبلغهم مبعثه ولا صفته، بل سمعوا أن كذابا يقال له فلان، ادعى النبوة، فهؤلاء عندي من الصنف الأول، أي: من الذين لم يسمعوا اسمه أصلاً،

فإنهم لم يسمعوا ما يحرك داعية النظر.

وسر المسألة أن البعيد عن الحجاز ليس عنده برهان على بطلان دعوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى لا يلزمه السفر إليه وسماع كلامه، ولكن إطباق الناس على تكذيبه شبهة قوية، فإذا تبعه [٦٤٤] جماعة وآمنوا به وصدقوه سقطت هذه الشبهة، فأما من بلغه من المسلمين في هذا الزمان أن رجلاً ادعى النبوة وتبعه الآلاف من الناس فإنه لا يلزمه إتيانه وسماع كلامه وتدبر ما يقول؛ لأن عندنا براهين قطعية على كذب مثل هذا المدعي ولو اتبعه الثقلان، ولعله يعذر من بلغه أن العلماء اختلفوا ولم يمكنه التفرغ للنظر والتفكر في حجج الفريقين، ولكن إنما يرجى عنده فيما عدا الأمور التي يتوقف القطع بأنه لا إله إلا الله على القطع بها، -وقد مر بيان ذلك- فلا يرجى عذره إلا بالنسبة إلى الأمور التي يكفي فيها الدليل الظني المستند إلى أصل قطعي، ولكن عليه أن يحتاط فيجتنب الأمور المختلف فيها.

فإن قلتَ: إن جميع الفروع الشرعية المختلف فيها تدخل في هذا القبيل كما تقدم، وقد مضى سلف الأمة وخلفها على أنه يكفي العامي تقليد مجتهد، ولا يجب عليه الاحتياط.

قلتُ: قد تقدم القول في هذا، وإذا قلنا بأنه يرجى أن يعذر هذا الرجل إذا احتاط؛ فمعنى ذلك أنه إذا لم يحتط لا يرجى عذره، وكذلك أقول على معنى أني لا أرجو له أن لا يأثم، فأما الحكم عليه بأنه يكون كافراً أو مشركاً فإني أدع الأمر في ذلك إلى نظرك.

واعلم أن كثيراً من البلدان إلى الآن يتبين أن أهلها معذورون وإن لم يحتاطوا، فإنك تجد أكثر نواحي اليمن -مثلا- [٦٤٥] لم يبلغهم في هذه المسائل أكثر من أن رجلاً يقال له محمد بن عبد الوهاب نبغ بنجد وكفّر سلف الأمة وخلفها، وخرق الإجماع، وزعم أن العصا أفضل من النبي، واستحل دماء المسلمين، وليس له حجة إلا أن يحرف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى هواه، وأنه كان رجلاً جاهلا لا يعرف العربية، ولا المعاني والبيان، ولا أخذ العلم عن العلماء، وأن العلماء كلهم أنكروا عليه وكفروه حتى أبوه وأخوه، وإنما اتبعه أعراب جفاة غرضهم من اتباعه استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأنهم يبغضون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنهم إذا تشهدوا قالوا: أشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا يقولون وأشهد أن محمد رسول الله، وأنهم أرادوا أن يمنعوا أشهد أن محمدا رسول الله من الأذان، ولكنهم خافوا من افتضاح عقيدتهم فأبقوها، وأنهم إذا دخلوا قرية قتلوا الرجال والنساء والصبيان، وتحروا بالقتل خاصة من ينسب إلى العلم والصلاح، وإذا طلب منهم أحد من علماء المسلمين أن يناظروه قالوا ليس عندنا إلا السيف، وإذا احتج عليهم أحد بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: حسبنا ما قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأشباه هذه الحكايات يزعم نقلتها بألسنتهم أو في كتبهم بأنها [٦٤٦] متواترة لا ريب فيها.

وإن ظفر بعض طلبة العلم في تلك الجهات -أعني: أكثر نواحي اليمن- بنسبة الخلاف في تلك الأمور إلى ابن تيمية فَمَقْرُوناً بتكفير ابن

تيمية وتضليله، وأنه كان يبغض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمه عليا عليه السلام، وأنه كان يقول: إن الله تعالى شخص مثل الإنسان جالس على العرش، وأنه قال: إن العرش قديم، وأنه خرق الإجماع في نحو عشرين مسألة، وأن علماء المسلمين في عصره أجمعوا على تكفيره، وأفتوا بقتله، ولكن امتنع السلطان حينئذ من قتله واكتفى بسجنه إلى أن مات.

فأما بعد دخول السعوديين الحجاز فإنها لا تزال تروى عنهم كل سنة حكايات شنيعة جداً، وحبذا لو أن الحكومة السعودية توعز إلى أصدقائها في كل جهة من جهات العالم أن يكتب إليها كل منهم كل سنة بما يقوله الحجاج وغيرهم عن الحجاز وأهله وحكومته، ثم تنظر في ذلك، فما كان صحيحاً ولها عذر بينته، وما كان صحيحاً ولا عذر عنه تداركته، وما كان كذباً أعلنت تكذيبه.

والمقصود هنا إيضاح أن كثيراً من البلاد الإسلامية المنتشرة فيها البدع معذورون، والله أعلم.

فإن قلتَ: كيف يعذر من وقع عنه عمل من أعمال الشرك، وقد وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨).

[٦٤٧] قلتُ: من صح عذره لا يصدق عليه أنه أشرك، كما أن من تزوج امرأة لا يشعر بأنه بينه وبينها محرمية فبانت أنها أخته من الرضاع -مثلاً- لا يصدق عليه بأنه زنى بأخته، لكن لو أراد أن يتزوج امرأة فقال له قائل: إنها أختك من الرضاع وكثير من الناس يعلمون ذلك لو سألتهم

أخبروك فأبى أن يسأل وأقدم على نكاحها لم يكن معذورا.

ومن يعذر ممن كذب بآية من آيات الله من سبق لسانه إلى لفظ فيه تكذيب، ومن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان بالشرط السابق، ومن ظن أنها ليست من عند الله، وكان له عذر في ظنه، مثل أن يكون قارئاً للقـرآن يظن أنه إذا تليت عليه آية من القرآن لا يشتبه عليه أنها منه فتليت عليه آية فظن زيادة كلمة أو نقصانها فجزم بذلك خطأ على شرط أنه إذا روجـع وبين له غلطه رجع، ومن هذا القبيل ما وقع لابن مسعود من إنكـار أن تكون المعوذتان من القرآن، وذلك أنه صحب النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم طويلاً وقرأ عليه القرآن فلم يتفق له أن يقرأه النبي صلى الله عليـه وآله وسلم المعوذتين على أنهما من القرآن، ولا ذكر أن النبي صـلى الله عليه وآله وسلم قرأ بهما في الصلاة، وإنما سمع النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم يعوذ بهما الحسن والحسين عليهما السلام مع أمور أخرى تجمعت عنده وقويت في نفسه حتى ظن ما ظن[1].

ونحن على يقين أنه لو اتفق مراجعة جماعة من الصحابة له بحيـث [٦٤٨] يكون خبرهم قطعياً لرجع، وقد وقع لأفراد من الصحابة مثل مـا وقع لابن مسعود، وقد جاء عن أبي بن كعب أنه كان في مصحفه أشياء ليست عند جمهور الصحابة من القرآن؛ لأنهم علموا أن تلاوتها نسخت،

---

(١) انظر: فتح الباري (٨: ٧٤٢-٧٤٤).

وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس قال: قال عمر ﷺ: "أقرؤنا أُبَيّ، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أُبَيّ، وذاك أن أُبَيًّا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦)"[١].

وقد اختلفت الأمة في "بسم الله الرحمن الرحيم" واتفقت على عذر المثبت والنافي، وقد جرى لعمر وأُبَيّ وابن مسعود وغيرهم إنكار قراءة من قرأ مخالفا لما أقرأهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حتى بين لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن تلك القراءات كلها حق، فأما عمر وابن مسعود وغيرهما فاكتفوا بذلك[٢].

وأما أُبَيّ؛ فعرض له ما تقدم أوائل الرسالة، حيث قال: فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقا وكأنما أنظر إلى الله فرقاً، وذكر الحديث.

قال الأبي في شرح مسلم بعد أن نقل كلام المازري، ثم كلام القرطبي: "قلت: وكلامه وكلام غيره قاض بأنهم حملوا الحديث على أن معناه فوقع في نفسي من تكذيبي إياه لتصويبه قراءة الرجلين أكثر من

---

(١) صحيح البخاري (٤٢١١).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٢٢٨٧)، (٤٦٦٠)، وصحيح مسلم (٨١٨)، (٢٤٦٢).

تكذيبي إياه قبل الإسلام، فلذلك أولوه بأن الذي وقع في نفسه إنما هـــو نزغة وخطرة لا تستقر في النفس، والخطرة التي لا تستقر في النفس غـــير مؤاخذ بها؛ لأنه لا يقدر على دفعها، ثم ذكر تأويلاً ضعيفاً جداً"[1].

وأقول: هذه النزغة ليست من باب الوسوسة التي يلقي بها الشيطان [٦٤٩] في صدر الإنسان خواطر هو يعلم أنها كذب كما في حديث مسلم عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا مـــا يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: "أوقد وجدتموه". قالوا: نعـــم. قـــال: "ذلك صريح الإيمان"[2].

فإنهم فسروا هذه الوسوسة بما يلقيه الشيطان في خاطرك وأنت تعلم يقيناً بطلانه، كما جاء في حديث آخر أنه يلقي في خاطر الإنسان: "هذا الله خلق الناس، فمن خلق الله؟"[3].

فإن الإنسان يخطر له خاطر وهو يعلم موقنا أن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه لم يزل ولا يزال، ويحكى أن رجلاً جاء إلى بعض العلماء فقال له: إن الشيطان قد أضر بي، يقول لي: قد طلقت زوجتك قـــد طلقـــت

---

(١) شرح الأُبي على صحيح مسلم (٢: ٤٣٠).

(٢) صحيح مسلم (١٣٢).

(٣) صحيح البخاري (٦٨٦٦)، صحيح مسلم (١٣٤).

زوجتك. فقال له العالم: أو لم تطلقها وأنا شاهد. قال: لا والله ما طلقتها، فراجعه في ذلك، فقال: اتق الله فِيّ فإنها والله زوجتي، والله ما طلقتها قط. فقال له العالم: فإذا جاءك الشيطان فاحلف له كما حلفت لي. هذا معنى القصة دون لفظها.

والذي عرض لأبيّ شيء أشد من هذا إذا حمل الحديث على ما فهموه، وعندي أن المعنى: فسقط في نفسي شيء من التكذيب ليس كالتكذيب إذ كنت في الجاهلية، أي: بل دونه، فقد اتفق أهل اللغة على أن قولهم في المثل: "ماء ولا كصداء" معناه هذا ماء جيد وليس كماء صداء في الجودة بل دونه، وكذا قالوا في المثل الآخر: "مرعى ولا كالسعدان" والحكايات التي ذكروها في أصل هذين المثلين صريحة في ذلك، والقواعد تقتضي ذلك، [٦٥٠] وعلى هذا فالأمر الذي سقط في نفس أبيّ ﷺ دون تكذيبه إذ كان في الجاهلية، ولكن مع ذلك يظهر لي أنه أشد من الوسوسة الفارغة، وفي كلام الأُبي ما يؤخذ منه أن العذر مبني على مجموع أمرين:

الأول: عدم استقرار ذلك العارض.

والثاني: عدم القدرة على دفعه.

وقد يقال: لماذا لا يكفي عدم القدرة، وقد قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)؟

والجواب: أنه لا يمكن أن يجتمع استقرارها في النفس مدة طويلة وعدم قدرته على الدفع، بل إنما تستقر مدة طويلة إذا قصر في البحث

والنظر الصادق، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩) كما مر، بخلاف النزغة العارضة؛ فإنها تسبق النظر والمجاهدة، ومما يشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٠-٢٠١). وتقدم في أوائل الرسالة الإشارة إلى وقائع أخرى تشبه واقعة أُبَيّ ﷺ.

ومن الآثار في الأعذار؛ ما جاء أن أمة زنت في عهد عمر بن الخطاب ﷺ فسألها فاعترفت اعترافاً يظهر منه أنها لم تعلم حرمة الزنا، فاستشار عمر أكابر الصحابة، فقال له عثمان: "إنما الحد على من عرفه، وأراها تستهل به"[1].

فيؤخذ من هذا أنهم فهموا أن الأمة كانت ترى الزنا مباحاً، ومع ذلك عذروها فلم يكفروها، ولا حدوها.

ومنها توهم بعض [٦٥١] الصحابة في زمن عمر أن الخمر حلال للمتقين المحسنين، واحتج بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ...﴾ (المائدة: ٩٠) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ

---

(١) سنن البيهقي (١٦٨٤٢).

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ٩٣) فعذره الصحابة، وبينوا له خطأه، و لم يكفروه، ولكنهم حدوه[1].

ومنها حديث الصحيحين وغيرهما: "كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحداً، فلما مات فُعِلَ به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم بين يدي الله فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له"[2].

قال في الفتح: "قال الخطابي: قد يستشكل هذا فيقال: كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب: أنه لم ينكر البعث وإنما جهل، فظن أنه إذا فُعِل به ذلك لا يعاد ...

قال ابن قتيبة: قد يغلط في بعض الصفات قوم من المسلمين فلا يكفرون بذلك"[3].

أقول: والحديث ثابت من رواية جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم: حذيفة، وسلمان، وأبو هريرة، وأبو سعيد،

---

(١) انظر: المستدرك (٤: ٣٧٥) وسنن البيهقي (١٧٢٩٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٢٩٤)، وصحيح مسلم (٢٧٥٦).

(٣) فتح الباري (٦: ٥٢٣).

وأبو مسعود البدري.

ومنها الحديث الصحيح [٦٥٢] في الأمة التي سألها النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أين الله؟" فقالت: في السماء. فقال: "من أنا؟" قالت: رسول الله. فقال لسيدها: "اعتقها فإنها مؤمنة"[١].

فقد قال منكروا الجهة: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عذرها في ظنها أن الله تعالى في السماء بجهلها وضعف عقلها وقلة علمها، ولم يبين لها خطأها لأنها لا استعداد لها لإدراك مثل هذه الحقيقة، أي: أن الله تعالى ليس في جهة، ومثبتوا الجهة لا ينكرون العذر، ولكنهم يحتجون بالحديث لأن فيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "أين الله؟" ولأنه لو كان يعلم أنها مخطئة لبين ذلك لمن حضر القصة من أصحابه، أو على الأقل لبعضهم، فإنه لا يجوز أن يقال إنهم جميعاً لم يكن لهم استعداد لإدراك الحقائق.

ومنها أنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: "من حلف بغير الله فقد أشرك" وثبت عنه أن سمع بعض أصحابه يحلف بأبيه قبل أن يعلموا ما في ذلك، فنهاهم عن ذلك وعذرهم فيما صدر منهم قبل العلم.

وقد أشار البخاري في صحيحه إلى هذا المعنى فترجم بقوله: "باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال"، ثم ترجم بعده: "باب من لم ير

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٥٣٧).

إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلا"، وذكر في هـذا البـاب بعـض الأحاديث التي ذكر فيها أن بعض الصحابة نسب غيره منهم إلى النفـاق بتأويل، وذكر آخره حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسـلم أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ألا إن الله ينهاكم عن الحلف بآبـائكم ..." الحديث.

قال في الفتح: [٦٥٣] "وقصده بذكره هنا الإشارة إلى مـا ورد في بعض طرقه: "من حلف بغير الله فقد أشرك" لكن لما كان حلـف عمـر بذلك قبل أن يسمع النهي كان معذوراً فيما صنع ...". وسيأتي ذكـر هذه الأحاديث وغيرها والكلام على القسم بغير الله تعالى مفصلاً إن شاء الله تعالى.

فصل

واعلم أن مدار العذر على الجهل مع عدم التقصير في النظر، وإنما الشأن في ضبط التقصير، وهو أمر مشتبه جداً؛ فإنه ليس المراد به ألا يكون للإنسان استعداد للنظر أصلاً بأن يكون مجنوناً، ولا أن يكون قد صرف عمره كله في البحث والنظر ولم يتشاغل عنه إلا بما لا يستطيع تركه، كتناول ما يسد رمقه من الطعام والشراب، وكقضاء الحاجة، ونحو ذلك، بل الأمر أوسع من هذا، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦) ما يوضح هذا، وأن الأمور الموجبة للعذر من النسيان والخطأ وعدم الطاقة ليست بمنضبطة، ولكن لعلك إذا تدبرت ما تقدم تستطيع التقريب.

وهاهنا قاعدة جليلة؛ وهي أن من رضي بالإسلام ديناً ولو إجمالا فالأصل فيه أنه معذور في خطئه وغلطه، ومن لم يرض بالإسلام ديناً فالأصل فيه أنه غير معذور، ولا يخرج أحدهما عن أصله إلا ببيان واضح، هذا في الحكم الظاهر، فأما عند الله ﷻ فالمدار على الحقيقة، ولهذا كان يحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٦٥٤] على أهل الفترة بالشرك والنار، ولا يستثني أحدا إلا من فارق شركهم، كزيد بن عمرو بن نفيل، ومن حقق النظر ربما يظهر له أن كثيراً منهم كانوا معذورين، ولكن ليس هناك بيان واضح، فلذلك حكم الشرع عليهم بالظاهر، وأمرهم عند الله

موكول إلى الله، وقد جاء ما يدل أن أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة، قال الحافظ في الإصابة في ترجمة أبي طالب: "وورد من عدة طرق في حق الشيخ الهرم، ومن مات في الفترة، ومن ولد أكمه أعمى أصم، ومن ولد مجنوناً، أو طرأ عليه الجنون قبل أن يبلغ، ونحو ذلك، وأن كلا منهم يدلي بحجة ويقول: لو عقلت أو ذُكِّرت لآمنت، فترفع لهم نار ويقال لهم: أدخلوها، فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما، ومن امتنع أدخلها كرها. هذا معنى ما ورد من ذلك، وقد جمعت طرقه في جزء مفرد، ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآل بيته في جملة من يدخلها طائعاً فينجو، لكن ورد في أبي طالب ما يدفع ذلك".

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحكم في من أسلم أنه على إسلامه وإن ظهر منه خلاف ذلك ما لم يتضح أمره، فمن ذلك قصة ذات أنواط، وقد تقدمت، فعذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم القائلين اجعل لنا ذات أنواط، مع بيانه أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿اجعل لنا إلها﴾ (الأعراف: ١٣٨).

ومن ذلك حديث الصحيحين عن عتبان بن مالك في صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٦٥٥] في بيته وفيه: فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تقل ذاك، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله". قال: الله ورسوله أعلم، أما نحن فوالله لا نرى وده ولا حديثه إلا إلى المنافقين. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "فإن

الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"[١].

وأخرج الشافعي وغيره عن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلاً سارَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يدر ما سارَّه حتى جهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإذا هو يستأذنه في قتل رجل من المنافقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أليس يشهد ألا إله إلا الله؟". قال: بلى، ولا شهادة له. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أليس يصلي؟" قال: بلى، ولا صلاة له. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أولئك الذين نهاني الله عنهم"[٢].

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري -في قصة قَسْمِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذهيبة التي بعث بها علي عليه السلام من اليمن- أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اتق الله ... وذكر الحديث، إلى أن قال: فقال خالد بن الوليد: يا رسول! ألا أضرب عنقه؟ قال: "لا لعله أن يكون يصلي". قال خالد: وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إني لم أُومَرْ أن أُنَقِّبَ عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم"[٣].

---

[١] صحيح البخاري (٤١٥)، وصحيح مسلم (٣٣).

[٢] الأم (٦: ١٧٠).

[٣] صحيح البخاري (٤٠٩٤)، وصحيح مسلم (١٠٦٤).

وفي رواية [٦٥٦] أن المستأذن في قتل الرجل عمر بن الخطاب[١].

قال العلماء: لعل كلاً من عمر وخالد استأذن في قتل الرجل.

وفي الصحيحين وغيرهما عن علي عليه السلام في قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين يفشي إليهم سر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوه إياهم أن عمر قال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إنه قد شهد بدراً ..." الحديث[٢].

وفي الصحيحين وغيرهما في قصة الإفك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب فقال: "من يعذرني في رجل قد بلغ إذاه في أهل بيتي ..." فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج -وكان رجلاً صالحاً ولكن اجتهلته الحمية- فقال لسعد بن معاذ: لعمر الله لا تقتلنه، ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير -وهو ابن عم سعد بن معاذ- فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ...

---

(١) صحيح البخاري (٣٤١٤)، وصحيح مسلم (١٠٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٢٨٤٥)، وصحيح مسلم (٢٤٩٤).

الحديث[١].

وفي الصحيحين وغيرهما عن جابر قال: إن معاذ ابن جبل ﷺ كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة، قال: فتجوز رجل فصلى صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذاً فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! إنا قوم نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضحنا، وإن معاذاً صلى بنا البارحة فقرأ البقرة، فتجوزت، فزعم أني منافق، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "يا معاذ! أفتان أنت ثلاثا ..." الحديث[٢].

وفي الصحيحين في قصة أسامة في سريته إلى الحرقات وفيه؛ قال: "ولحقت أنا ورجل من الأنصار [٦٥٧] رجلا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا، بَلَّغَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: "يا أسامة! أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟" قلت: كان متعوذا، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم"[٣].

---

[١] صحيح البخاري (٢٥١٨)، وصحيح مسلم (٢٧٧٠).

[٢] صحيح البخاري (٦٧٣)، وصحيح مسلم (٤٦٥).

[٣] صحيح البخاري (٤٠٢١)، وصحيح مسلم (٩٦).

وفي رواية قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح، قال: "أفلا شققت عن قلبه حتى قالها أم لا"[(١)].

وفي الصحيحين من حديث المقداد أنه قال يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال أسلمت لله، أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تقتله". فقال: يا رسول الله! إنه قطع إحدى يدي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال"[(٢)].

وفي قصة خالد بن الوليد في سريته إلى بني جذيمة أنه قتل جماعة منهم قد قالوا صبأنا ولم يحسنوا قول أسلمنا، فوداهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"[(٣)].

ووقع لخالد في قتال أهل الردة ما يشبه ذلك.

ففي هذه الأحاديث عذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمالك بن الدخشن، والرجل الذي استؤذن في قتله، [٦٥٨] والقائل له: اتق الله،

---

(١) صحيح مسلم (٩٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٧٩٤)، وصحيح مسلم (٩٥).

(٣) صحيح البخاري (٤٠٨٤).

وحاطب بن أبي بلتعة، وسعد بن عبادة، مع ما ظهر منهم، وعذر المتكلمين في مالك بن الدخشن، والمستأمر في قتل الرجل، وخالد بن الوليد، وعمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير، ومعاذاً، وأسامة، والمقداد، مع تكفير كل منهم لمن ليس بكافر، مع أن في الصحيحين من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما"، وقد روي معنى هذا الحديث عن جماعة من الصحابة، وقد ترجم البخاري في صحيحه لهذا الحديث: "باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال"، وترجم بعده "باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا" وذكر فيه قصة حاطب ومعاذ"[1].

وقد ذهب جماعة من الشافعية إلى نحو مما ترجم به البخاري رحمه الله، فقالوا: من كفر مسلما بغير تأويل فهو كافر مرتد، وأطال ابن حجر الهيتمي في تقرير ذلك وتأييده في أوائل كتابه الإعلام بقواطع الإسلام، ونقل نحوه عن بعض المالكية.

فأما كف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قتل من ثبت نفاقه فقد بين سبب ذلك بقوله صلى الله عليه وآله وسلم [٦٥٩] "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"[2].

---

(١) صحيح البخاري (٥: ٢٢٦٣-٢٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٢)، ومسلم (٢٥٨٤).

ولأنهم كانوا إذا سئلوا عن كلماتهم الخبيثة جحدوها واعتذروا عنها وأظهروا التوبة، فأمر الله تعالى بالأعراض عنهم، قال سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة: ٩٥).

فصل

واعلم أن من الأعذار ما ينفع في الحكم الظاهر وينفع في الآخرة، ومنها ما ينفع في الحكم الظاهر فقط، ومنها ما ينفع في الآخرة فقط، وإن مدار الحكم الظاهر على الأمر الظاهر، ولذلك يكفي في ثبوت الردة شاهدان، فلو شهدا أن فلاناً مات مرتدا وجب الحكم بذلك؛ فلا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ويعامل معاملة المرتد في جميع الأحكام، وقد جرى العلماء في الحكم بالردة على أمور منها ما هو قطعي، ومنها ما هو ظني، ولذلك اختلفوا في بعضها، ولا وجه لما يتوهمه بعضهم أنه لا يكفر إلا بأمر مجمع عليه، وكذلك من تكلم بكلمة كفر وليست هناك قرينة ظاهرة تصرف تلك الكلمة عن المعنى الذي [٦٦٠] هو كفر إلى معنى ليس بكفر فإنه يكفر، ولا أثر للاحتمال الضعيف أنه أراد معنى آخر، وفي الشفاء عن صاحب سحنون في رجل ذكر له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال فعل الله برسول الله كذا وكذا وذكر كلاماً قبيحاً، ثم قال: أردت برسول الله العقرب؛ أنه لا يقبل دعواه التأويل، ونقله الهيتمي في الإعلام، ثم قال: ومذهبنا لا يأبى ذلك"[١].

وقال في الزواجر: "نقل إمام الحرمين عن الأصوليين: أن من نطق بكلمة الردة وزعم أنه أضمر تورية كُفِّرَ ظاهراً وباطنا، وأقرهم على

---

(١) الإعلام (ص: ٤٨٧).

ذلك"[١].

أقول: وهو الموافق لقواعد الشريعة، ولو قبل من الناس مثل هذا التأويل لأصبح الدين لعبة، يقول من شاء ما شاء، من سب الله وسب رسوله؛ فأن سأل اعتذر بما يشبه هذا التأويل.

فإن قلتَ: فإن قبول توبته يلزم منه مثل هذا الأمر، قلتُ كلا؛ فإن قبول توبته معناه إثبات أنه ارتد ثم أسلم، ومثل هذا يعاب به بين الناس ويوبخ عليه ويسقط من العيون، وهذا مانع للسفهاء والملحدين عن إظهار ما يكفرون به، بخلاف من يقبل عذره، فتدبر.

وإذا كان الأمر كما سمعت في عدم قبول عذر من ذكر مع أنه قد زعم أنه لم يرد المعنى الذي هو كفر، وذكر معنى آخر زعم أنه أراده، [٦٦١] فما بالك بمن يذكر مثل هذه الكلمة وأمثالها وأخبث منها، ويؤلف فيها الكتب، ويبنيها على شبهات عقلية، ويحتج لها ويناضل عنها، ويجهل من لم يقل بها، ويزعم أنه أدركها بالكشف وبالوحي؛ لأنه من أولياء الله تعالى، هذه حالة جماعة من المتصوفة، وتجد كثيرا من المنتسبين إلى العلم يعتذرون لهؤلاء المتصوفة بأنهم لم يريدوا المعاني الظاهرة، وإنما أرادوا معاني أخر، ويسندون هذا العذر إلى أن أولئك المتصوفة كانوا ملتزمين لأحكام الإسلام، وقد صرحوا في بعض كلامهم أنهم لا يخالفون الكتاب والسنة،

---

(١) الزواجر (١: ٧٣).

وأن من فهم من كلامهم معنى يخالف الكتاب والسنة فإنما أتى من جهله بمعاني كلامهم، أو جهله بالكتاب والسنة، وشبه ذلك، ولا يكتفون بذلك بل يقولون: إن أولئك المتصوفة هم خيرة الله من المسلمين وصفوته وأولياؤه، وكانت نتيجة هذا أن بقيت تلك الكتب تقرأ وتنسخ وتطبع وتنشر، ويضل بها كل يوم جماعة، وبقي أتباعها ظاهرين مناضلين عن تلك المقالات، وآل الأمر بكثير من الناس إلى الكفر الصراح، والشرك البواح، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

[٦٦٢] وهكذا تجد أكثر المنتسبين إلى العلم إذا أقيمت عليهم الحجة بأن كثيرا من الأفعال والأقوال المشهورة بين العامة كفر أو شرك أخذوا يتأولون تأويلات ضعيفة، قائلين: إن العوام لا يقصدون هذا المعنى، كيف وهم مسلمون يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن القرآن كلام الله؟ فإذا قلت لهم: أن العوام ينذرون للموتى ويذبحون لهم ويدعونهم إلى غير ذلك، قالوا: أمَّا نذرهم للموتى فإنما يقصدون النذر لله ﷻ على أن يكون ثواب ما ينذرونه من صدقة أو نحوها هدية منهم للموتى، كمن يتصدق بصدقة لوجه الله تعالى ويجعل ثوابها لوالديه، وإنما يذبحون لله ﷻ، ويتصدقون بالطعام، ويجعلون ثواب الصدقة للموتى، وإنما يقصدون بقولهم: يا بدوي! يا رفاعي! سؤال الله تعالى بحق البدوي والرفاعي ونحو ذلك.

كذا يقولون؛ مع أن من خالط العامة وعرف حالهم علم أن هذه التأويلات لا تخطر ببال أحد منهم، وإنما يريدون ما هو الظاهر من أفعالهم

وأقوالهم.

نعم؛ إننا نعذر كثيراً من العامة أو أكثرهم بالجهل وعدم قيام الحجة عليهم، ولكن الفرض على كل من أوتي حظا [٦٦٣] من العلم أن يبين للعامة حقيقة ما هم عليهم، ويبلغهم حجة الله عليهم، ويحذرهم مما يصنعون؛ فإن لم يفعل فالتبعة عليه، ولاسيما إذا رضي بتلك الأقوال والأفعال، ونصرها وساعد عليها، وعادى من يسعى لإبطالها وعانده وحذر العامة من استماع قوله.

وكثير من المنتسبين إلى العلم يدركون هذه الحقيقة، ولكن الشيطان والهوى وحب الدنيا وما يحصل لهم بسبب انتشار تلك الأقوال والأفعال بين العامة من تعظيم ومنافع دنيوية يصدهم عن الحق، ويحملهم على عداوته، فالله المستعان.

واعلم أن البلاء كل البلاء هو إيثار المنتسبين إلى العلم للدنيا ولذاتها وجاهها؛ فالذي يدافع عن المتصوفة إنما يحاول أن يشتهر بين العامة وجهلة الأمراء أنه ولي من أولياء الله تعالى، فإن ساعدته الأحوال على هذه الدعوى فذاك، وإلا اكتفى بما اشتهر أن التسليم للأولياء وعدم الاعتراض عليهم ولاية صغرى، وأقل أحواله أن يكون مقبولا عند السواد الأعظم من الأغنياء والأمراء الذين ابتلوا بحسن الاعتقاد في أولئك المتصوفة؛ ظناً منهم أن محبتهم إياهم تحررهم من قيود الشريعة، فلا يبقى عليهم حساب ولا عقاب، [٦٦٤] ولا يضرهم ترك الصلاة ولا الصيام ولا ارتكاب الفواحش، بل يتم لهم نعيم الدنيا وشهواتها ونعيم الجنة ودرجاتها، وقد

وضع لهم شياطين الإنس حكايات وقصصا تهيجهم على هذا الاعتقاد؛ كالأشعار المكذوبة على الشيخ عبد القادر ونحوها.

وإن المنتسبين إلى التصوف في الهند وغيرها يحضر عندهم الغني أو الأمير المجاهر بالفسق بحيث ليس له من الإسلام إلا اسمه، فيعظمونه، ويحترمونه، ويمدحونه، ويثنون عليه، ويؤكدون له أنه باعتنائه بهم قد أحرز سعادة الدنيا والآخرة، وكلما جاءهم كان كلامهم معه كله في تعظيمه ومدحه، وإقناعه بأنه من الفائزين دنيا وأخرى، وتحريضه على قضاء حوائجهم وحوائج أتباعهم ومن يتشفع بهم، ولا يكادون يعرضون له أدنى تعريض بأن عليه أن يلتزم الفرائض الإسلامية ويجتنب الكبائر، بل إن أحدهم قد يكون يتكلم بموعظة فإذا دخل أحد أولئك الأغنياء أو الأمراء اختصر الوعظ وتجتنب أن يكون فيه كلمة تؤثر على ذلك الغني؛ فإذا كان معروفاً بترك الصلاة وشرب الخمر والفجور ونحو ذلك لم يتعرض الواعظ في وعظه لشيء من ذلك [٦٦٥] خشية أن يتوهم ذلك الغني أنه تعريض به فينفر، فيحرم هذا الواعظ من المنافع الدنيوية التي كان ينالها منه، بل يقتصر على فضائل الصالحين، وما لهم من الجاه العظيم، وما في محبتهم وخدمتهم من الخير الجسيم، وأن من أحبهم فاز دنيا وأخرى، ونحو ذلك، بل قد وسعوا الدائرة للكفار والمشركين؛ فأعلموهم أنهم إذا أحبوا المتصوفين واحترموهم وبذلوا لهم الأموال حصلت لهم سعادة الدنيا وإن كانوا مصرين على شركهم وكفرهم، بل وقد يوهموهم أنهم يفوزون بالنجاة في الآخرة أيضاً، بل ربما صرح بعضهم بذلك، وهذا الأمر هو

أعظم البواعث لكثير من عقلاء العصر على عدم الإسلام؛ لأنهم يتوهمون أن الإسلام هو ما عليه هؤلاء المتصوفون وأضرابهم، فإذا تدبروا ما هم عليه وجدوا جهالات، وخرافات، ومحالات، ودجلا، ومكرا لعله يفوق ما عند رهبان النصارى وطواغيت المشركين، بل إن هذا الأمر نفسه قد ورَّط كثيرا من عقلاء المسلمين في الإلحاد الصريح، وهذا الوباء يتفشى بسرعة مخيفة.

وبالجملة؛ فإنك إذا طلبت الإسلام مما يظهر لك منه في هذا العصر وما قرب منه؛ تمثلت لك صورة إذا قارنتها بالإسلام المعروف في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وما قرب منهم؛ لم تكد تجد بينهما مناسبة ما، فمن أراد الإسلام حقا فعليه أن يطلبه من معدنه، من كتاب الله وسنة رسوله وعمل القرن الأول وما قرب منه، والله الموفق.

[٦٦٦] ذكر أمور ورد في الشريعة أنها شرك وأشكل تطبيقها على الشرك

تمهيد:

اعلم أن كون الشيء سببا أو علامة قد لا يكون تدينا، وهو ما يرجع إلى أصل عادي مبني على الحس والمشاهدة الموجبين للقطع ولو في جنس ذلك الشيء، كأن يأكل مجذوم ورق شجرة اتفاقا فيبرأ، فيعتقد هو وغيره أن أكل ورق تلك الشجرة ينفع من الجذام؛ فإن هذه تجربة ناقصة، ولكنها ترجع إلى أصل قطعي؛ وهو أن العقاقير تنفع من الأمراض، كأن يكون رجل في بيت بعيد عن القرية فأراد أن يخرج ليلا لحاجة كصلاة العشاء أو الصبح جماعة، فسمع نباح الكلب فظن وجود إنسان مختف قريباً من بيته ليسرق -مثلا- فمنعه ذلك من الخروج، فإن نباح الكلب ليس بعلامة قطعية على وجود إنسان غريب، ولكنه يرجع إلى أصل قطعي وهو أن الكلاب تنبح لرؤية الغرباء.

وقد يكون تديناً وهو ما يرجع إلى اعتقاد أمر غيبي، كاعتقاد أن استلام الحجر الأسود سبب للخير، وأن نفرة النفس عن الحاجة بعد الاستخارة فيها علامة على أنه لا خير فيها، وغير ذلك.

[٦٦٧] وقد يتردد في بعض الظنون؛ أمن الضرب الأول هو أم من الثاني؟ وذلك كما يظن في بعض الأحجار أن التختم بها يورث السرور، أو يدفع العين، أو يطرد الجن، والحكم في هذا -والله أعلم- أن صاحب

الظن إن كان يرى أن تلك الخاصية ناشئة عن سبب من جنس الأسباب العادية المبنية على الحس والمشاهدة إلا أنه لم يتبين ذلك السبب، فهذا من الضرب الأول، ولكن ينبغي المنع من العمل بهذا الظن سدا للذريعة.

وإن كان مجوزا إن تلك الخاصية ناشئة عن سبب غيبي؛ كأن يكون ذلك الحجر محبوباً عند الله ﷻ، أو عند الملائكة، أو الجن، أو شبه ذلك، فهذا من الضرب الثاني.

وقد علمت فيما تقدم أن التدين بما لم يشرعه الله تبارك وتعالى شرك، وربما يقع التردد في الظن؛ أقد بلغ الحد المعتد به في الحكم أم هو من قبيل الوسوسة؟ فيضبط الشارع الظن المعتد به بما نشأ عنه فعل أو قول.

وكثيراً ما يقيم الشارع القول أو الفعل الذي من شأنه أن ينشأ عن ظن معتد به مقام ذلك الظن، كما مضى في السجود للصنم، أو الشمس، ونحو ذلك.

ولنشرع في المقصود ومن الله ﷻ التوفيق [٦٦٨].

الطيرة

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "الطيرة من الشرك، -وما منَّا- ولكن الله يذهبه بالتوكل"[1].

أقول: لا يخلو المتطير أن يظن أن الطائر سبب أو علامة، وعلى الحالين فهذا الظن من قسم التدين؛ لأنه لا يعرف له توجيه من الأصول العادية المبنية على الحس والمشاهدة، وهو تدين بما لم يشرعه الله ﷻ؛ فيكون شركاً، وإنما الشأن في حصول الظن، وقد جعل الشارع ضابط حصول الظن هو العمل به، ففي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم ... قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنَّ منَّا رجالا يأتون الكهان. قال: "فلا تأتهم". قال: ومنا رجال يتطيرون. قال: "ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم"[2].

[٦٦٩] وفي مسند أحمد بسند فيه نظر عن الفضل بن عباس عن النبي

---

[1] أخرجه الترمذي (١٦١٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: كان سليمان بن حرب يقول: في هذا الحديث "وما منا، ولكن الله يذهبه بالتوكل" قال سليمان: هذا عندي قول عبد الله بن مسعود "وما منا".

وأخرجه الحاكم في كتاب الإيمان من المستدرك (٤٤) بلفظ الترمذي، وقال: صحيح سنده، ثقات رواته، وأقره الذهبي.

[2] صحيح مسلم (٥٣٧).

صلى الله عليه وآله وسلم: "إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك"[١].

فالذي يعرض للمؤمنين إنما هو من قبيل الوسوسة التي لا تقدح في الإيمان أصلاً، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم"[٢].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الوسوسة قال: "تلك محض الإيمان".

وعن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه، أنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: "وقد وجدتموه؟" قالوا: نعم. قال: "ذلك صريح الإيمان"[٣].

فالعمل بالطيرة أن تصدك عن أمر قد عزمت عليه، أو كنت مترددا فيه، أو تمضيك في أمر لم تكن عازما عليه.

نعم؛ لو عزم رجل على معصية، أو هم بها، فعرض عارض فهم منه إشارة إلى موعظة فصده عن المعصية لم يكن هذا من الطيرة المنهي عنه؛ لأن الذي صده في الحقيقة إنما هو علمه بأن ذلك الفعل معصية متوعد

---

(١) المسند (١٨٢٤).

(٢) صحيح البخاري (٢٣٩١)، وصحيح مسلم (١٢٧).

(٣) صحيح مسلم (١٣٢).

عليها بالعذاب، وكذا من كان مترددا في فعل يعلم أنه طاعة لله ﷻ، فعرض عارض فهم منه إشارة ترغبه في الفعل، ففعل.

[٦٧٠] وليس من الطيرة ما ينقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حب الفأل، فإنه لم يكن الفأل يحمله صلى الله عليه وآله وسلم على فعل ما لم يكن يريد أن يفعله، ولا يصده عن فعل ما كان يريد أن يفعله، وإنما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا أراد أن يرسل رسولا تحرى أن يكون اسمه حسنا، ونحو ذلك.

قال العلماء إنما هذا من باب سد الذريعة؛ لئلا يقع أمر مكروه قد قضي فيلقى الشيطان في نفوس بعض الناس أن ذلك لأجل قبح اسم الرسول، أو نحوه.

أقول: سيأتي أن التفاؤل محمود في الجملة، فاختيار الاسم الحسن ليتفاءل به المرسل إليه، فيكون ذلك ادعى إلى امتثال ما أرسل إليه به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يكون ذلك إلا خيراً، ولو كان الاسم قبيحاً لتطير به المرسل إليه إن كان كافراً، أو قريب عهد بالإسلام، وهم الغالب يومئذ.

ويروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا سمع الكلمة الحسنة سر بها.

وأقول: في توجيه ذلك أن ما يعرض للإنسان مما يتفاءل به يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون من الله ﷻ على سبيل التبشير.

الثاني: أن يكون من فعل الشيطان يرغب الإنسان في فعل ما لا خير له فيه.

الثالث: أن يكون أمراً اتفاقياً

فالوجه الثاني منتف فيما يكون المتفائل آخذا في العمل؛ إذ لا حاجة بالشيطان إلى الترغيب فيه، وقد شرع الإنسان فيه دائباً على فعله، ويبقى الاحتمالان؛ الأول والثالث.

فأما النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان يترجح في حقه الأول؛ لأنه لم يكن يقدم على العمل حتى يظهر له أنه طاعة لله ﷻ، وقد علم من الدين أن طاعة الله ﷻ سبب للخير، وعلم أن الشيطان لا يرغب في الخير.

فأما من لا يريد عملا فيسمع كلمة حسنة فيرغب فيه، فاحتمال الوجه الثاني قائم فيه، والوجه الأول منتف بدليل منع الشارع من الاعتداد بذلك، ولعله [٦٧١] يكون في ذلك الفعل ضرر؛ لاحتمال أن تكون تلك الكلمة من الشيطان يرغب الإنسان فيما يضره، اللهم إلا أن يكون ذلك الفعل طاعة لله ﷻ، فكان الإنسان متكاسلاً عنه فسمع كلمة فهم منها إشارة إلى الترغيب في الخير، فهذا معنى آخر كما تقدم.

وأما الطيرة؛ فإن الكلمة السيئة -مثلاً- يحتمل أن تكون من تنبيه الله ﷻ تنفيرا عن ذلك العمل، ويحتمل أن تكون من الشيطان ليصد الإنسان عن ذلك الفعل، لعلمه أن له خيراً فيه، وتحتمل أن تكون اتفاقاً.

ويترجح الأول إذا كان العمل معصية لله ﷻ، ولا يكون الانزجار

عن تلك المعصية عند سماع تلك الكلمة من التطير المنهي عنه؛ لأنه لم يستند إليها، وإنما استند إلى ما عنده من السلطان أن ذلك العمل معصية.

ويترجح الثاني إذا كان ذلك العمل طاعة لله ﷻ أو مباحاً؛ لأن الاحتمال الأول منتف، بدليل منع الشارع من التطير، والاحتمال الثالث مرجوح؛ لما علم أن الشيطان مولع بالإضلال والإضرار، فالانكفاف عن العمل تدين بما لم يشرعه الله ﷻ كما مر، وهو مع ذلك طاعة للشيطان.

وقد قال ابن حجر المكي: "قال الرافعي عنهم: -أي الحنفية- واختلفوا فيمن خرج لسفر، فصاح العقعق؛ فرجع، هل يكفر؟". انتهى.

زاد النووي في الروضة: "قلت: الصواب؛ أنه لا يكفر به"[1].

[٦٧٢] أقول: وقد علمت أن الدليل مع من قال يكفر هذا الراجع إن تحقق أنه إنما رجع لصياح العقعق؛ إلا أن يكون ممن يعذر، وقد مر بيان الأعذار، والله أعلم.

---

(١) الإعلام بقواطع الإسلام (ص: ٢٣).

الرقى

قال الإمام أحمد: ثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن يحيى بن الجزار، عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله، قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح، قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى جنبي، فرأى في عنقي خيطا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط أرقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك"، قالت: فقلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أذهب البأس، رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما"[١].

وأخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء عن أبي معاوية ... فذكره

---

(١) مسند أحمد (٣٦١٥).

مختصرا[١].

وأخرجه ابن ماجه من طريق عبد الله بن بشر عن الأعمش[٢].

[٦٧٣] وفي سنده ابن أخي زينب مجهول، لكن رواه الحاكم في المستدرك من طريق محمد بن مسلمة الكوفي، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن يحيى بن الجزار، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن زينب فذكره بنحوه، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وأقره الذهبي[٣]، وفيه نظر.

ولكن أخرجه الحاكم من طريق أخرى عن ميسرة بن حبيب، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، قال: دخل ابن مسعود على امرأته فرأى عليها حرزاً من الحمرة فقطعه قطعا عنيفا، ثم قال: إن آل عبد الله عن الشرك أغنياء، وقال: كان مما حفظنا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أن الرقى والتمائم والتولة من الشرك"، قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح[٤].

وأخرجه الحاكم أيضاً من طريق أبي الضحى، عن أم ناجية قالت:

---

(١) سنن أبي داود (٣٨٨٣).

(٢) سنن ابن ماجه (٣٥٣٠).

(٣) المستدرك (٦٩٠٩).

(٤) المستدرك (٧٥٠٥).

دخلت على زينب امرأة عبد الله أعودها من حمرة ظهرت بوجهها، وهي معلقة بحرز، فإني لجالسة دخل عبد الله، فلما نظر إلى الحرز أتى جـذعا معارضاً في البيت فوضع عليه رداءه، ثم حسر عن ذراعيه فأتاها فأخـذ بالحرز فجذبها حتى كاد وجهها أن يقع في الأرض، فانقطع، ثم خرج من البيت فقال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك، ثم خرج فرمى بها خلف الجدار، ثم قال: يا زينب! أعندي تعلقين؟ إني سمعت رسـول الله [٦٧٤] صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "نهى عن الرقى والتمائم والتولية"، فقالت أم ناجية: أي أبا عبد الرحمن! أما الرقى والتمائم فقد عرفنا، فمـا التولية؟ قال: التولية ما يهيج النساء"[1]. كذا وقع في النسخة: "التولية"، والمعروف "التولة"، ووقع فيها "الحرز" بالحاء المهملة، والظاهر: "الخـرز" بالمعجمة، والله أعلم.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن أبي عبيدة بن عبـد الله بـن مسعود قال: دخل عبد الله على امرأته وهي مريضة، فإذا في عنقها خيط معلق، فقال: ما هذا؟ فقالت: شيء رقي لي فيه من الحمى، فقطعه فقال: إن آل إبراهيم أغنياء عن الشرك، -كذا وقع في النسخة: "الحمى"، و"آل إبراهيم"، والصواب: "الحمرة" و"آل عبد الله"-.

وأخرج عن إبراهيم قال: رأى ابن مسعود على بعض أهله شيئاً قد

---

[1] المستدرك (٧٥٠٤).

تعلقه فنزعه منه نزعاً عنيفاً، وقال: إن آل ابن مسعود أغنياء عن الشرك.

وأخرج من طريق قتادة، عن واقع بن سحبان، قال: قال عبد الله: من علق شيئاً وكل إليه.

وأخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم في المستدرك، وابن حبان في صحيحه، من طريق عبد الرحمن بن حرملة، عن عبد الله بن مسعود قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكره عشر خلال ..." الحديث. ذكر فيه: "الرقى -إلا بالمعوذات- وعقد التمائم"(١) [٦٧٥] ولكن عبد الرحمن بن حرملة مجهول.

وبالجملة؛ فحديث قيس بن السكن عن ابن مسعود صحيح لا مغمز فيه، وبقية الروايات شواهد قوية وعواضد يبلغ بها الحديث غاية الصحة.

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقى في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟ فقال: "اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك"(٢).

هذا شاهد لحديث ابن مسعود في الجملة؛ لدلالته على أن من الرقى ما هو شرك، وهو في أحاديث أخر في الإذن بالرقى -قد مر بعضها- تبين

---

(١) مسند أحمد (٣٦٠٥)، (٣٧٧٤)، وسنن أبي داود (٤٢٢٢)، والمستدرك (٧٤١٨) وقال: صحيح الإسناد. وأقره الذهبي.

(٢) صحيح مسلم (٢٢٠٠).

حديث ابن مسعود بدلالتها على أن من الرقى ما ليس بشرك.

وتفسير ذلك أن الرقى على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: الرقية بكتاب الله تعالى وذكره ودعائه الـــذين أذن في مثلهما؛ فهذا حق وإيمان، ولكن الأولى بالمؤمن أن لا يسأل غـــيره أن يرقيه كما تقدم إيضاحه في الدعاء.

الضرب الثاني: ما كان فيه تعظيم لغير الله ﷻ؛ فهذا إن كان ممـــا أنزل الله تعالى به سلطاناً فهو كالأول، وإلا فهو شرك، ومن ذلك الإقسام بالكواكب، وأسماء الشياطين، وبالحروف والأسماء التي يزعمون أنها أسماء الروحانيين، ويلحق بذلك في المنع ما كان فيه كلمات أعجمية لا يدرى معناها، وإن كان معها ذكر لله ﷻ وثناء عليه؛ لأن المشركين يخلطـــون عبادة الله تعالى بعبادة غيره، وكذا ما كان فيه حروف مفردة؛ فإنـــه لا يؤمن أن تكون كلمات أعجمية شركية قطعت حروفاً [٦٧٦].

الضرب الثالث: ما كان من الرقى كلمات عربية ليس فيها تعظـــيم ولا مدح، فإن كان يرى أو يجوز أن لتلك الكلمات أثرا يستند إلى غيبي كالروحانيين، والجن، والكواكب، ونحوها؛ فحكمه كالقسم الثاني، والله أعلم.

وإن كان لا يجوز ذلك، وإنما يقول لعل للحـــروف والكلمـــات خواص كخواص الأشجار والأحجار؛ فالحكم في هذا مشتبه، ولم نجد له مستندا ثابتا في الشريعة، ولا في الحس والعادة القطعيين، والذي أختـــاره الآن المنع من هذا؛ لأنه إن لم يكن فيه نفسه حرج، فهو ذريعة إلى القسم

الثاني، والله أعلم.

وفي فتح الباري: "وقال ابن التين: ... وتلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المعزم وغيره ممن يدعي تسخير الجن له فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم والتعوذ بمردتهم، ويقال: إن الحية لعداوتها للإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بني آدم، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها، وكذا اللديغ إذا رقي بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، ولذلك كره من الرقى ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصة وباللسان العربي الذي يعرف معناه ليكون بريئا من الشرك، وعلى كراهة الرقى بغير كتاب الله علماء الأمة.

قال القرطبي: الرقى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما كان يرقى به في الجاهلية مما لا يعقل معناه فيجب اجتنابه لئلا يكون فيه شرك أو يؤدي إلى الشرك.

الثاني: ما كان بكلام الله أو بأسمائه فيجوز، فإن كان مأثوراً فيستحب [٦٧٧].

الثالث: ما كان بأسماء غير الله من ملك أو صالح أو معظم من المخلوقات كالعرش، قال: فهذا ليس من الواجب اجتنابه ولا من المشروع الذي يتضمن الالتجاء إلى الله والتبرك بأسمائه فيكون تركه أولى، إلا أن

يتضمن تعظيم المرقى به فينبغي أن يجتنب كالحلف بغير الله"[١].

أقول: ذكر اسم الملك أو الصالح أو المعظم في معرض الرقية بذكره تعظيم وأي تعظيم، فالحق ما قدمناه في الكلام على الضرب الأول.

ثم قال في الفتح: "وقال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية، فقال: لا بأس إن يرقى بكتاب الله وما يعرف من ذكره، قلت: أيرقي أهل الكتاب المسلمين؟ قال: نعم إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله وبذكر الله. اهـ ... وروى ابن وهب عن مالك كراهة الرقية بالحديدة والملح وعقد الخيط والذي يكتب خاتم سليمان وقال: لم يكن من أمر الناس القديم ... وسئل ابن عبد السلام عن الحروف المقطعة فمنع منها ما لا يعرف لئلا يكون فيها كفر"[٢].

---

(١) فتح الباري (١٠: ١٩٧).

(٢) فتح الباري (١٠: ١٩٧).

التمائم

قد تقدم حديث ابن مسعود، وأخرج الإمام أحمد والحاكم في المستدرك وغيرهما عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعه فلا ودع الله له"[(١)].

[٦٧٨] وأخرج الإمام أحمد، والحاكم، وغيرهما عن عقبة أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبل إليه رهط، فبايع تسعة، وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله! بايعت تسعة وتركت هذا؟ قال: "إن عليه تميمة" فأدخل يده فقطعها، فبايعه، وقال: "من علق تميمة فقد أشرك"[(٢)].

وقال ابن أبي شيبة في المصنف: ثنا شبابة، ثنا ليث بن سعد، عن يزيد، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر قال: "موضع التميمة من الإنسان والطفل شرك". وهذا سند صحيح.

وقال: ثنا شريك، عن هلال، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من علق التمائم، وعقد الرقى فهو على

---

(١) مسند أحمد (١٧٤٤٠)، والمستدرك (٧٥٠١)، وقال الحاكم: صحيح. وأقره الذهبي.

(٢) مسند أحمد (١٧٤٥٨)، والمستدرك (٧٥١٣)، ورجاله ثقات، ووقع في نسخة المستدرك تحريف في بعض الأسماء.

شعبة من الشرك". وهذا مرسل.

وقال: ثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم قال: "كانوا يكرهون التمائم والرقى والنشر".

وقال: ثنا حفص، عن ليث، عن سعيد بن جبير قال: "من قطع تميمة عن إنسان كان كعدل رقبة".

وقد اختلف في تفسير التمائم، فقيل: إن التميمة خرزة مخصوصة، وقيل: بل كل ما يعلق رجاء للنفع.

ومما يدل على الثاني ما في مصنف ابن أبي شيبة، [٦٧٩] ثنا هشام "هشيم"، ثنا مغيرة، عن إبراهيم قال: "كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن".

ثنا هشيم، أنا يونس، عن الحسن أنه كان يكره ذلك.

وفيه: ثنا وكيع، ثنا سفيان، عن إبراهيم بن المهاجر، عن إبراهيم، عن عبد الله أنه كره تعليق شيء من القرآن.

وقال: ثنا هشيم، عن مغيرة قلت لإبراهيم: أعلق في عضدي هذه الآية: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩)؟ من حمى كانت بي، فكره ذلك.

وقال: ثنا وكيع، عن ابن عون، عن إبراهيم أنه كان يكره المعاذة للصبيان، ويقول: "إنهم يدخلون به الخلاء".

ومما يدل على أن التمائم يتناول ما كان من القرآن ونحوه ما أخرجه الحاكم في المستدرك وغيره عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

"ليست التميمة ما تعلق به بعد البلاء، إنما التميمة ما تعلق به قبل البلاء".

قال الحاكم: "هذا حديث على شرك الشيخين و لم يخرجاه، ولعل متوهما يتوهم أنها من الموقوفات على عائشة رضي الله عنها، وليس كذلك، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ذكر التمائم في أخبار كثيرة، فإذا فسرت عائشة رضي الله عنها التمائم؛ فإنه خبر مسند"[١].

ودلالته على العموم من وجهين:

الأول: ظاهر قولها: "إنما التميمة ما تعلق به" [٦٨٠] وكلمة "ما" من قولها: "ما تعلق به" اسم موصول، فيعم كل ما يتعلق به.

الثاني أن كلمة "ال" في قولها: "التميمة" ليست للجنس بدليل أن المعروف في اللغة بل المتواتر أن التميمة يطلق على الخرزة التي تعلق رجاء نفعها سواء بعد البلاء علقت أم قبله، وإنما هي للعهد أرادت -والله أعلم- ليست التميمة التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ... ولو جعلنا التميمة في كلامها خاصا بالخرزة لدل كلامها أن تعلق الخرزة بعد البلاء غير منهي عنه؛ وهذا باطل لعموم الأحاديث في النهي، وما في بعضها من ذكر السبب، وأنه كان بعد البلاء، مع ما سيأتي عن عائشة

---

(١) المستدرك (٧٥٠٦)، وأعاده بعد ذلك (٧٥٠٧)، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين. وقال الذهبي في تلخيصه: صحيح.

نفسها من إنكارها جعل الخلخالين على الصبي، والصبي حينئذ يبتلى.

فالصواب -والله أعلم- حمل التميمة في كلامها على كل ما يتعلق رجاء النفع، ثم يستثنى من ذلك الخرز ونحوها، فإنها منهي عنها مطلقـا، ويبقى ما يعلق مما فيه ذكر الله تعالى، فهذا هو الذي يجيء فيه التفصيل، فإن علق قبل البلاء فهو تميمة منهي عنها، وإن علق بعد البلاء فلا حرج فيه. وحديثها هذا هو -الله أعلم- حجة القائلين بمنع الرقى والمعاذات قبل البلاء والترخيص فيها بعد البلاء.

قال الحافظ في الفتح: "وقال قوم: المنهي عنه من الرقى ما يكون قبل وقوع البلاء، والمأذون فيه ما كان بعد وقوعه، ذكره ابن عبد البر والبيهقي وغيرهما، وكأنه مأخوذ من الخبر الذي قرنت فيه التمائم بالرقى ..." فذكر [٦٨١] حديث ابن مسعود المتقدم، ثم قال: "والتمائم جمع تميمة، وهي خرز أو قلادة تعلق في الرأس، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات، والتولة ... شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله، ولا يدخل في ذلك ما كان بأسماء الله وكلامه، فقد ثبت في الأحاديث استعمال ذلك قبل وقوعه ..."، فذكر حديث: "كان إذا آوى إلى فراشه ينفث بالمعوذات"، وحديث تعويذه صلى الله عليه وآله وسلم الحسن والحسين، وما في معنى ذلك"، ثم قال: "لكن يحتمل أن يقال: إن الرقى أخص من التعوذ، وإلا فالخلاف في الرقى مشهور، ولا خلاف في مشروعية الفزع إلى الله تعالى والالتجاء إليه

في كل ما وقع وما يتوقع"[١].

أقول: أما ما كان من تعويذ الإنسان بالقول والنفث ونحوه لنفسه ولولده أو لولد غيره بدون سؤال فهذا لا يدخل في الرقية ولا يمنع قبل البلاء ولا بعده، وأما ما يكون لغيره بسؤال ولا سيما إذا كان المسئول منه لا يعرف بالخير والصلاح أو كان من أهل الكتاب فهذا هو الرقية التي يمنع عنها قبل البلاء ويرخص فيها بعده بشرط أن تكون بذكر الله تعالى، فأما إذا كان المسئول معروفا بالخير فقد كان الصحابة ﷺ ربما يذهبون بأطفالهم الأصحاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لهم، ولكن لم يكن ذلك يتكرر، ولم يفعل السلف فيما نعلم مثل ذلك مع غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يكونوا يذهبون بأطفالهم إلى أبي بكر أو عمر أو غيرهما.

[٦٨٢] وأما ما يكتب ويعلق فالفرق بينه وبين تعويذ الإنسان نفسه وولده ظاهر، وقول الحافظ: "وكأنه مأخوذ من الخبر الذي قرنت فيه التمائم بالرقى" صريح أو كالصريح في أن الحكم المذكور مسلم في التمائم، أي: إنها إنما يرخص فيها بعد البلاء، وهذا لا يصح في الخرز، فإنه لا يرخص فيها أصلا كما يدل عليه قوله: "وإنما كان ذلك من الشرك، لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله"، فإن هذا المعنى

---

[١] فتح الباري (١٠: ١٩٦).

موجود في تعليق الخرز سواء أقبل البلاء علقت أم بعده، ولكن ينبغي أن يزاد بعد قوله: "من عند غير الله" بغير إذنه، لإخراج التداوي بالأدوية المعروفة.

فالحاصل: أن التمائم التي يرخص فيها بعد البلاء هي المعاذات المكتوب فيها ذكر الله ﷻ، والله أعلم.

وقال البيهقي في السنن الكبرى في الكلام على حديث ابن مسعود: "وقال أبو عبيد ... وأما الرقى والتمائم فإنما أراد عبد الله ما كان بغير لسان العربية مما لا يدرى ما هو، قال الشيخ: والتميمة يقال إنها خرزة ... ويقال قلادة تعلق فيها العوذ ..."، ثم ذكر حديث عقبة بن عامر، ثم قال: "وهذا أيضاً يرجع معناه إلى ما قال أبو عبيد، وقد يحتمل أن يكون ذلك وما أشبهه من النهي والكراهة فيمن تعلقها وهو يرى تمام العافية وزوال العلة منها على ما كان أهل الجاهلية يصنعون، فأما من تعلقها متبركا بذكر الله تعالى فيها وهو يعلم أن لا كاشف إلا الله ولا دافع عنه سواه فلا بأس بها إن شاء الله" اهـ.

فكلام أبي عبيد صريح في أن التمائم تطلق على ما يكتب، وكذا كلام البيهقي أخيراً فإنه في التمام، بدليل قوله: "فيمن تعلقها وهو يرى تمام العافية" [٦٨٣] وصريح في أن مراده التمائم المكتوبة، بدليل قوله: "فأما من تعلقها متبركاً بذكر الله تعالى فيها".

بقي كلام في حديث عائشة وهو أن لفظه عند البيهقي في رواية: "ليس التميمة ما يعلق قبل البلاء إنما التميمة ما يعلق بعد البلاء ليدفع به

المقادير" كذا وقع في هذه الرواية، ورجح البيهقي الرواية التي قدمناها عن المستدرك، وكأنه انقلب الحديث في هذه الرواية، على أنها لو صحت لكان لها معنى بأن يقال: المراد بالتمائم الخرز، فما علق قبل البلاء لزينة -مثلا- فلا بأس به، وإنما البأس فيما يعلق بعد البلاء لدفع المقادير، ولكن في هذا المعنى ركاكة إذ لا يكون فائدة للتقييد بقبل البلاء وبعده، بل المدار على الباعث على التعليق، فكان وجه الكلام لو أريد هذا المعنى أن يقال: ليس التمائم ما علق للزينة وإنما التمائم ما علق رجاء النفع، أو نحو ذلك.

فالصواب ما رجحه البيهقي، وأن المعنى في هذه الرواية انقلب على الراوي، والله أعلم.

والحاصل: أن التمائم إن أريد بها الخرز ونحوها مما لا كتابة فيه فهو ممنوع ألبته، وقد ورد فيه حديث ابن مسعود، وحديث عقبة بن عامر، وقد تقدما.

وأخرج الحاكم في المستدرك من طريق بكير بن عبد الله بن الأشج أن أمه حدثته أنها أرسلت إلى عائشة رضي الله عنها بأخيه مخرمة وكانت تداوي من قرحة تكون [٦٨٤] بالصبيان، فلما داوته عائشة وفرغت منه رأت في رجليه خلخالين جديدين -كذا- فقالت عائشة: أظننتم أن هذين الخلخالين يدفعان عنه شيئاً كتبه الله عليه، لو رأيتهما ما تداوى عندي،

وما مس عندي، لعمري لخلخالان من فضة أطهر من هذين"[١].

ولعل الصواب: خلخالين حديدا -بدل جديدين- بدليل قولها: "لخلخالان من فضة أطهر من هذين".

وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه من طريق المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أخبرني عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبصر على عضد رجل حلقة -أراه قال: من صفر- فقال: "ويحك ما هذه؟" قال: من الواهنة. قال: "أما إنها لا تزيدك إلا وهنا، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا"[٢].

أقول: لكن في مصنف ابن أبي شيبة: ثنا هشيم، أنا يونس، عن الحسن، عن عمران بن حصين أنه رأى في يد رجل حلقة من صفر فقال، "ما هذه؟" قال: من الواهنة. قال: "لم تزدك إلا وهنا، ولو مت وأنت تراها نافعتك لمت على غير الفطرة".

ثنا هشيم قال: أنا منصور، [٦٨٥] عن الحسن، عن عمران بن

---

(١) المستدرك (٧٥٠٨) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبي. وفي تهذيب التهذيب في ترجمة بكير بن عبد الله: "وقال أحمد بن صالح: إذا رأيت بكير بن عبد الله روى عن رجل فلا تسأل عنه فهو الثقة الذي لا شك فيه".

(٢) مسند أحمد (٢٠٠١٤)، واللفظ له، وسنن ابن ماجه (٣٥٣١)، قال السندي في حواشي ابن ماجه: وفي الزوائد إسناده حسن.

الحصين مثل ذلك"[١].

أقول: وهذا هو الصحيح موقوف، المبارك بن فضالة متكلم فيه، وقد تابعه على رفعه من هو دونه، وهو أبو عامر الخزاز صالح بن رستم، أخرجه الحاكم في المستدرك من طريقه عن الحسن، عن عمران بن حصين، قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي عضدي حلقة صفر فقال: "ما هذه؟" فقلت: من الواهنة. فقال: "انبذها". قال الحاكم: صحيح الإسناد. وأقره الذهبي[٢].

وأخرج الإمام أحمد والحاكم في المستدرك وغيرهما من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أخيه عيسى قال: دخلت على أبي معبد الجهني -وهو عبد الله بن عكيم- وبه جمر[٣]، فقلت: ألا تعلق شيئا؟ فقال: الموت أقرب من ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من تعلق شيئاً وكل إليه"[٤].

---

[١] في النسخة ثنا هشام قال أنا أبو منصور.

[٢] المستدرك (٧٥٠٢).

[٣] كذا [وهو عند الترمذي (٢٠٧٢) "حمرة"].

[٤] لفظ المستدرك (٧٥٠٣)، ولفظ الإمام أحمد في المسند بنحوه (١٨٨٠٣)، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى إمام في الفقه، ولكنه غير قوي في الحديث، ولكن في كنز العمال أن ابن جرير أخرج هذا الحديث وصححه، والله أعلم.

وقال ابن أبي شيبة في المصنف: ثنا علي بن مسهر، عن يزيد، أخبرني زيد بن وهب قال: انطلق حذيفة إلى رجل من النخع يعوده، فانطلق وانطلقت معه، فدخل عليه ودخلت معه، فلمس عضده فرأى فيه خيطاً فقطعه، ثم قال: "لو مت وهذا في عضدك ما صليت عليك".

[٦٨٦] ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن حذيفة، قال: دخل على رجل يعوده، فوجد في عضده خيطاً، فقال: "ما هذا؟" قال: خيط رقي لي فيه. فقطعه، ثم قال: "لو مت ما صليت عليك".

وقال: ثنا عبدة، عن محمد بن سوقة: "أن سعيد بن جبير رأى إنساناً يطوف بالبيت في عنقه خرزة فقطعها".

ثنا حفص، عن ليث، عن سعيد بن جبير قال: "من قطع تميمة عن إنسان كان كعدل رقبة".

وكل هذا يدل على ما قدمنا في التمهيد أن من تعلق خرزة أو نحوها مجوزاً أن تكون سببا لنفع غيبي كان ذلك شركا، وإن لم يكن يجوز ذلك ولكنه يرجو أن تكون لها خاصية طبيعية في سرور النفس أو طرد الجن أو دفع العين أو نحو ذلك فهذا أيضاً ممنوع سدا للذريعة.

وعموم الأحاديث يتناول الخيط الذي يرقى فيه، ويصرح بذلك أثر ابن مسعود وأثر حذيفة؛ فإنهما لم يلتفتا إلى أن ذلك الخيط رقي فيه، و لم يسألا عن تلك الرقية بماذا كانت، أبذكر الله تعالى أم بغيره، وكان ذلك -والله أعلم- لشبهه بالخرزة، فمنع سدا للذريعة، وإلا فقد يقاس على ما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يدني يديه من فيه فيتعوذ

وينفث فيهما ثم يمسح بهما بدنه، فإن هذا يدل أن نفث القارئ يقتضي حصول بركة فيما نفث فيه، فأما إذا اختار الراقي شيئاً مخصوصاً كجلد أرنب أو نحو ذلك مما لم يأت به سلطان أو عقد في الخيط فلا شبهة أنه في معنى الخرزة قطعا، والله أعلم.

[٦٨٧] وأما ما جرت به العادة أن يؤتى إلى الراقي بماء فيقرأ عليه ويدعو فيه، ثم يذهب به فيسقاه المبتلى ويرش عليه منه فلا أرى به بأسا، والأولى بالمؤمن أن لا يسأله لنفسه على ما علمت فيما مر، والله أعلم.

وأما المعاذات؛ وهي ما يكتب من القرآن والدعاء ويعلق فقد تقدمت آثار بكراهيتها، وجاءت آثار بالرخصة فيها، والظاهر الجواز بعد البلاء؛ بشرط أن لا يكتب إلا ما ثبت من الشرع التبرك به من القرآن والدعاء الخالص عما لم يأذن الله تعالى به، وبشرط أن لا يتحرى شيئاً لا سلطان من الله تعالى على تحريه، وذلك كأن يكون القلم من حديد، أو يكون الرق جلد غزال، أو يكون المداد فيه زعفران، أو يكون الخط بالسريانية، أو أن يبخر عند الكتابة، أو أن يكتب عدداً مخصوصا إلا الثلاثة أو السبعة فإن لتحريهما أصلا في الشريعة، أو يتحرى وقتا مخصوصا كوقت الكسوف، أو مكاناً مخصوصا كساحل البحر، أو أن يكتب على هيئة مخصوصة كالأوفاق، أو يراعى حساب الجمل، أو طبائع الحروف على زعم أن لها طبائع، وغير ذلك مما هو معروف في كتب العزائم كشمس المعارف وغيره، وعامة ذلك مأخوذ عن الصابئة كما تقدم عن الشهرستاني.

فإذا تحرى في المعاذة شيئا من هذه الأشياء التي لم يجئ بها سلطان من كتاب الله ﷻ ولا من سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم كانت المعـــاذة في معنى الخرزة، وعامة كتب العزائم والتعاويذ على خلاف الشريعة، وفي كثير منها الكفر البواح، والشرك الصراح، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

[٦٨٨] فصل في التولة والسحر

قد تقدم في حديث ابن مسعود أن التولة شرك.

وفي النهاية: "التولة بكسر التاء وفتح الواو ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى".

وقال الحافظ ابن حجر: "والتولة بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله"[١].

أقول: تحبب المرأة إلى زوجها على وجهين:

الأول: تحببها بما جرت العادة المبنية على الحس والمشاهدة أنه يحبب، كالتزين، والتذلل، وإظهار فرط محبتها له، ونحو ذلك، وليس هذا من التولة.

الثاني: تحببها بما لم تجر به العادة كذلك، وإنما هو مستند إلى قوة غيبية، فهذا إن جاء سلطان من الله تعالى بالإذن فيه فذاك، وإلا فهو من التولة، وإنما جاء السلطان بالإذن في الدعاء المجرد عن البدع والخرافات، وفي كل ما هو طاعة لله ﷻ، كالصلاة، والصيام، والصدقة، وكل ما لم

---

[١] فتح الباري (١٠: ١٩٦).

يجئ به سلطان فهو من التولة، وهي شرك؛ لأنها تتضمن خضوعا يطلب به نفع غيبي لم ينزل الله تعالى به سلطانا، ويتضمن طاعة للشياطين والمعزمين والعجائز ونحوهم فيما يطلب به نفع غيبي، و لم ينزل الله تعالى بها سلطانا، والله أعلم.

وقال ابن احجر الهيثمي في كتابه الإعلام بقواطع الإسلام: "قد مر أن السحر قد يكون كفراً، وغرضنا الآن استقصاء ما يمكن من الكلام فيه وفي أقسامه وحقيقته وبيان أحكامه؛ ردعا لكثيرين انهمكوا عليه وعلى ما يقرب منه، وعدوا ذلك شرفاً وفخرا.

[٦٨٩] فنقول: مذهبنا في السحر ما بسطناه فيما مر، وحاصله؛ أنه إن اشتمل على عبادة مخلوق، كشمس، أو قمر، أو كوكب، أو غيرها، أو السجود له، أو تعظيمه كما يعظم الله سبحانه، أو اعتقاد أن له تأثيرا بذاته، أو تنقيص نبي أو ملك بشرطه السابق، أو اعتقد إباحة السحر بجميع أنواعه؛ كان كفرا ورده ...

وأما الإمام مالك رحمه الله تعالى فقد أطلق هو وجماعة سواه الكفر على الساحر، وأن السحر كفر، وأن تعلمه وتعليمه كفر، كذلك وأن الساحر يقتل ولا يستتاب، سواء سحر مسلما أم ذميا، كالزنديق، ولبعض أئمة مذهبه كلام نفيس ... وحاصله؛ أن الطرطوشي قال: قال مالك وأصحابه: الساحر كافر ... ويؤدب من تردد إلى السحرة إذا لم يباشر سحرا ولا علمه؛ لأنه لم يكفر ولكنه رَكَنَ للكفر، قال: وتعلمه وتعليمه عند مالك كفر.

وقالت الحنفية: إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما شاء فهو كافر، وإن اعتقد أنه تخييل وتمويه لم يكفر.

وقالت الشافعية ﷺ: يصفه؛ فإن وجدنا فيه كفرا كالتقرب للكواكب ويعتقد أنها تفعل فيلتمس منها فهو كفر، وإن لم نجد فيه كفراً فإن اعتقد إباحته فهو كفر.

قال الطرطوشي: ... واحتج من لا يقول أن تعلمه كفر بأن تعلم الكفر ليس بكفر، فإن الأصولي يتعلم جميع أنواع الكفر ليحذر منه، ولا يقدح في شهادته ...

قال القرافي: هذه المسألة في غاية الإشكال على أصولنا؛ فإن السحرة يعتمدون أشياء تأبى قواعد الشريعة أن نكفرهم، كفعل الحجارة المتقدم ذكرها قبل هذه المسألة، وكذلك يجمعون عقاقير ويجعلونها في الأنهار والآبار أو في قبور الموتى أو في باب يفتح إلى الشرق، ويعتقدون أن الآثار تحدث عن تلك الأمور بخواص نفوسهم التي طبعها الله تعالى على الربط بينها وبين تلك الآثار عند صدق العزم، فلا يمكن تكفيرهم بجمع العقاقير ولا بوضعها في الآبار، ولا باعتقادهم حصول تلك الآثار عند ذلك الفعل؛ [٦٩٠] لأنهم جربوا ذلك فوجدوه لا ينخرم عليهم لأجل خواص نفوسهم، فصار ذلك الاعتقاد كاعتقاد الأطباء عند شرب الأدوية، وخواص النفوس، ولا يمكن التكفير بها؛ لأنها ليست من كسبهم، ولا كفر بغير مكتسب.

وأما اعتقادهم أن الكواكب تفعل ذلك بقدرة الله فهذا خطأ؛ لأنها

لا تفعل ذلك، وإنما جاءت الآثار من خواص نفوسهم التي ربط الله بها تلك الآثار عند ذلك الاعتقاد، فيكون ذلك الاعتقاد في الكواكب، كما إذا اعتقد طبيب أن الله تعالى أودع في الصبر أو السقمونيا عقد البطن وقطع الإسهال، وأما تكفيرهم بذلك فلا.

وإن اعتقدوا أن الكواكب تفعل ذلك والشياطين تقدرها لا بقدرة الله تعالى فقد قال بعض علماء الشافعية: هذا مذهب المعتزلة من استغلال الحيوانات بقدرتها دون قدرة الله تعالى، فكما لا تكفر المعتزلة بذلك لا يكفر هؤلاء، ومنهم من فرق بأن الكواكب مظنة العبادة؛ فإذا انضم إلى ذلك اعتقاد القدرة والتأثير كان كفرا، وأجيب عن هذا الفرق بأن تأثير الحيوان في القتل والضر والنفع في مجرى العادة مشاهد من السباع والآدميين وغيرهم، وأما كون المشترى وزحل يوجب شقاوة أو سعادة فإنما هو حزر وتخمين للمنجمين لا حجة في ذلك، وقد عبدت البقر والشجر، فصار هذا الشيء مشتركاً بين الكواكب وغيرها، والذي لا مرية فيه أنه كفر إن اعتقد أنها مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى الله تعالى، فهذا مذهب الصابئة وهو كفر صراح ...

وقال قبل ذلك: ... ذكروا أنه يؤخذ سبعة أحجار ويرجم بها كلب شأنه أنه إذا رمي بحجر عضه؛ فإذا رمي بسبعة أحجار وعضها كلها لقطت بعد ذلك وطرحت في ماء فمن شرب منه ظهر فيه آثار [٦٩١] خاصة يعبر عنها السحرة، فهذه تثبت للسحر وليس ما يذكره

الأطباء من الخواص في هذا العالم للنباتات وغيرها من هذا القبيل"[١].

أقول: أما ما اشتمل على عبادة غير الله تعالى من خضوع يطلب به نفع غيبي ولم يأذن به الله تعالى، أو طاعة فيما يطلب به نفع غيبي ولم يأذن بها الله تعالى فهو شرك وكفر قطعاً، فوضع العقاقير في قبور الموتى ونحوها إن كان الواضع يرى، أو يجوِّز كون الوضع مرضيا عند الله ﷻ، أو عند الروحانيين، أو أرواح الموتى، أو الجن، أو الشياطين، أو الكواكب؛ فوضعه لها خضوع وطاعة يطلب بهما نفع غيبيي، وإذ لم يأذن الله ﷻ به فهو شرك.

وإن كان لا يجوز شيئا من ذلك، وإنما يرى ما يحصل من الآثار من قبيل الخواص الطبيعية؛ فإن ثبت أن تلك الآثار من مسمى السحر كان حكمه حكم السحر الذي لا يتضمن كفرا آخر، وسيأتي ما فيه إن شاء الله تعالى.

وهكذا رمى الكلب بالأحجار ولقطها ووضعها في الماء إن جوز الرامي أن عمله ذلك يرضى الله ﷻ، أو الروحانيين، أو أرواح الموتى، أو الجن، أو الشياطين، أو الكواكب؛ فهو من الشرك، وإن كان لا يجوز ذلك وإنما يرى ذلك لخاصة في لعاب الكلب عند غضبه؛ فإن ثبت أن تلك الآثار من مسمى السحر كان حكمه حكم السحر على ما سيأتي إن

---

(١) الإعلام (ص: ٥٨-٦١).

شاء الله تعالى.

فأما اعتقاد التأثير؛ فاعلم أن التأثير على ضربين:

الأول: ما ثبت بالعادة القطعية المبنية على الحس والمشاهدة، كتأثير الآدميين الأحياء وغيرهم من الحيوان [٦٩٢] إلى الحد المحدود المعروف، وتأثير الشمس للحرارة واليبوسة، وتأثير الأدوية في الصحة والمرض، ونحو ذلك؛ فلا يكفر إلا من يخرجها من خلق الله تعالى أصلا، فأما من يقول: إن الله تعالى أودع في النار قوة الإحراق -مثلا- فهي تؤثر بذلك إلا أن يشاء الله ﷻ سلبها قوة الإحراق فيسلبها فلا يكفر هذا وإن خطأه كثير من العلماء، ويدخل في هذا ما لم يكن قطعياً ولكنه مستند إلى قطعي، كما سلف في التمهيد.

الضرب الثاني: ما لم يثبت بالعادة القطعية المبينة على الحس والمشاهدة، فإن بلغ اعتقاد التأثير إلى زعم أن ذلك المؤثر مدبر استقلالا؛ -وقد مر تفسيره- فهو شرك، وإن لم يبلغ ذلك؛ فإن كان في ذلك الاعتقاد تكذيب لله ﷻ، أو كذب عليه؛ فهو كفر وشرك، وإلا فهو من الخرص المذموم.

هذا حكم الاعتقاد، فأما إن صحبه خضوع أو طاعة فقد مر حكم ذلك، ولا يتوقف كون الخضوع أو الطاعة شركا على فساد الاعتقاد في التأثير، فإن من اعتقد أن الملائكة والجن قد ينفعون بني آدم بإذن الله وقد يضرونهم بإذن الله تعالى مصيب في اعتقاده؛ ولكنه إن خضع للملائكة خضوعاً لم يأذن به الله تعالى يكون مشركا، وكذلك إن خضع للجن أو

أطاعهم قائلا: إنما أخضع لهم لكي ينفعوني إذا أذن لهم الله تعالى في نفعي، ولكي لا يضروني إذا أذن الله تعالى لهم في ضري، بل من عمد إلى شجرة فزعم أن التمسح بها ينفع عند الله ﷻ يكون مشركا مع أنه لم يعتقد للشجرة تأثيراً أصلاً، ولو اشتهرت شجرة بأنها تعبد ثم جاء إنسان إليها فصنع كما يصنع عابدوها لكان مشركا؛ وإن زعم أنه لم يعتقد أن عبادتها تقرب إلى الله تعالى.

[٦٩٣] حكم السحر وتعليمه وتعلمه

أما إذا كان في السحر عبادة لغير الله تعالى أو كذب عليه ﷻ أو تكذيب بآياته فلا شبهة في التكفير، وربما لا يخلوا السحر عن ذلك، ولكن لاشتباه معنى العبادة كثيراً ما يخفى الشرك، وهذا مصداق ما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ..." الحديث[١].

وتعليمه وتعلمه إن كانا بمباشرة الشرك أو مع اعتقاد الكفر فكلاهما كفر، وذلك كأن يباشر المعلم والمتعلم الأعمال الشركية، كأن يلبسا اللباس الخاص بزحل، ويبخرا ببخوره، ويقعدا يدعوانه ويعظمانه، أو يقربا القربان المخصوص بالجن، ويقعدا يدعوان الجن، أو اعتقدا أن تعظيم الكواكب جائز، أو أن تعظيم الملائكة يحملهم على نفع المعظم، وقس على ذلك.

وإن لم يكن إلا ذكر الصفة وسماعها فليس في ذلك كفر؛ لكن إذا علم الواصف أن السامع يريد العمل فلا شك أنه لا يجوز له حينئذ الوصف، بل ربما يكفر به، فإن كان راضياً بأن يعمل السامع فلا شك في كفره، والله أعلم.

وكذلك إذا خاف الإنسان من نفسه أنه إذا علم الصفة نازعته نفسه

---

(١) مسند أحمد (١٩٦٢٢)، وقد تقدم في الأعذار بشواهده.

إلى العمل بها فإنه لا يجوز له استماع الصفة، فأما إذا كان عازما على العمل فهذا العزم كفر، ويظهر لي أن مجرد ذكر الصفة مع ظن الواصف أن السامع لا يريد العمل لا يصدق عليه أنه تعليم، وكذلك مجرد استماع الصفة مع عدم إرادة السامع العمل لا يسمى تعلماً، فتدبر.

وأما السحر الذي ليس فيه عبادة لغير الله تعالى ولا كذب عليه سبحانه ولا تكذيب بآياته [٦٩٤] ففيه نظر، وقد يحتج لمالك ومن وافقه بقول الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠٢).

والمراد بكلمة "ما" من قوله: ﴿مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ﴾ السحر كما جاء به التفسير عن السلف والسياق يبينه؛ كان الشياطين يعلمون الناس ويزعمون أن سليمان عليه السلام كان يعرفه ويعمل به، وأنه كان قوام ملكه، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ معناه: ما سحر، كما جاء به التفسير عن السلف وهو واضح من السياق، فدل هذا أن السحر كفر، وقوله تعالى: ﴿وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ﴾ بينه بقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، فدل ذلك أن تعليم السحر كفر، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ

منْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ ظاهر في أن تعلمه كفر، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ [٤٩٥] ظاهر في كونه كفراً؛ إذ لا يصدق على أحد أنه لا خلاق له في الآخرة إلا إذا كان مخلداً في النار، وإنما يخلد الكفار، فأما الملكان؛ فقد تقدم العذر عنهما، ولا يمتنع أن يغلظ الشرع في السحر فيجعله كفرا، وإن لم يتضمن شركاً ولا كذباً على الله تعالى ولا تكذيباً بآياته، أو يقال: قد علم الله تعالى أن السحر لا يخلو عن الشرك بالله أو الكذب عليه أو التكذيب بآياته، هذا أقصى ما يوجه به إطلاق مالك رحمه الله تعالى.

وقد يجاب عن الآية باحتمال أن الضرب الذي نسبه الشياطين إلى سليمان عليه السلام من السحر فيه شرك وكذب على الله وتكذيب بآياته، فقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: سحر هذا الضرب من السحر، فلا يلزم من ذلك أن كل سحر كفر، وأما كفر الشياطين بتعليمهم فلأهم يعلمون الناس ذلك الضرب من السحر الذي هو كفر، راغبين في أن يعمل الناس به، مرغبين لهم في العمل به، ويشهد لذلك أن الملكين يعلمان ولكنهما لا يرضيان بالعمل، فلذلك لم يكن التعليم في حقهما كفراً.

وأما قول الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ فالمعنى: لا تعمل به فتكفر، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ فاشتراؤه هو العمل به، والله أعلم.

ولنذكر بعض الطرق التي يتوصل بها إلى السحر.

[٦٩٦] طرق تحصيل قوة السحرة

(١) أشهر الطرق بين الحكماء هي رياضة النفس بالجوع، والسهر، والخلوة، والتفرغ عن الشواغل، وحصر الفكر في شيء محصور، وأن لا يأكل روحاً، ولا ما خرج من روح، ويمسك عن الجماع، ويجمع همته، ويرتب تنفسه على نظام معروف عندهم، ونحو ذلك.

فمن واظب على هذه الأمور وكان في نفسه استعداد اكتسبت نفسه قوة غريبة؛ هي السحر.

ويزعمون أن مما يعين على حصول تلك القوة أن يكون المرتاض بريئاً من الحسد، والبغضاء، والطمع، يحب نفع المخلوقات كلها، وخاصة الحيوان، وليس من شرطها دين مخصوص، لكن يرون أن مما يساعد على حصول تلك القوة أن يجتهد المرتاض فيما يعتقد أنه عبادة، سواء أكان لله ﷻ أم لغيره.

والحكماء وأشباههم يزعمون أن المقصود من هذه الرياضة تصفية النفس، وتهذيبها، وترقيق الحجب الجسمانية الحائلة بين النفس وبين ما هو ممكن لها من إدراك العلوم الدقيقة، والإشراف على العالم الروحاني، وتطهير النفس من الأخلاق الذميمة والشهوات الحيوانية، وأن يستعمل المرتاض ما يحصل له من القوة الغريبة في تحصيل العلوم، ونفع الخلق.

ويقولون: إن من اشتغل بهذه الرياضة لحصول تلك القوة الغريبة فقط، أو حصلت له تلك القوة فاستعملها في الأغراض الخسيسة من

تحصيل جاه، أو مال، أو شهوة، أو ضر بها مخلوقاً؛ فهو إنسان مذموم ساقط الهمة، وأنه لا ينبغي للأستاذ أن يعلم إنساناً الرياضة أو يساعده عليها حتى يعلم حسن قصده.

[٦٩٧] ومن العجيب أن المتصوفة نقلوا هذه الرياضة إلى الإسلام وألصقوها به كما أشرنا إليه فيما تقدم، وذلك معروف في كتبهم، والمحققون منهم يعترفون بأن هذه الرياضة ليست من الدين، وأن ما يحصل بسببها من القوة الغريبة لا يتوقف على كون المرتاض مسلماً، وفي تاريخ الهند أن بعض المسلمين كان يرتاض على يد بعض العارفين بهذا الفن من الوثنيين، وأن بعض الوثنيين ارتاض على يد بعض المتصوفة من المسلمين، والغلاة من أصحابها من المتصوفة والوثنيين وغيرهم يزعمون أن الأديان كلها حق، وقد صرح بذلك جماعة من زعماء المتصوفة، وإن تأوله بعض أتباعهم، وقد اشتهر في هذا العصر بين البحاثين أن من العقائد الأساسية للتصوف تَساوي الأديان.

وصرح كثير من المتصوفة بأن المرتاض على تلك الطريقة تحصل له قوة غريبة يستطيع أن يعمل بها العجائب، ولكنهم يحذرون المريد أن يكون ارتياضه لأجل حصول تلك القوة، وأن يقف عندها إذا حصلت له أمر يستعملها في أغراضه، وأنه إن فعل ذلك هلك، وسماها بعضهم، كصاحب الإنسان الكامل -السحر الحال- وذكر أن السالك يمر عليها فيكون بحيث لا يريد شيئاً إلا حصل له، وأنه نفسه مر عليها.

أما حكم هذه الطريقة؛ فإن تضمنت كفراً كاعتقاد أن الأديان كلها

حق، أو كذبا على الله تعالى بإلصاق ما ليس من دين الإسلام به، أو تكذيباً بشيء من آيات الله تعالى، أو عبادة لغير الله تعالى، أو نحو ذلك مما [٦٩٨] هو كفر أو شرك؛ فالأمر واضح، وإلا فالإقدام على القول بأن تعلمها وتعليمها كفر صعب، فإن كثيرا من المعتقدين عند المسلمين قد سلكوها وعلموها وألفوا فيها الكتب، والله المستعان.

وقد علمت مذهب مالك رحمه الله تعالى.

فأما من ارتاض وحصلت له تلك القوة وعمل بها كما اشتهر عن جماعة أنهم كانوا يقتلون بالحال ونحو ذلك؛ فالكفر بذلك أقرب، ولكن لا يغيبن عنك ما قدمناه في فصل الأعذار، ولا تجترئ فتحكم بأن كل ما ينقل عن المتصوفين من الغرائب هو من هذا القبيل، فإن الصالحين في المسلمين كثير، وكرامات الأولياء حق، وعليك بالتدبر والابتهال إلى الله ﷻ أن يرزقك نورا وفرقانا تفرق به بين المشتبهات، والله الموفق.

(٢) ومن طرف التعليم رياضة أخف من هذه يكون فيها أعمال مخصوصة يزعمون أن العامل بها إذا ثبت عليها صارت له سلطة على الروحانيين والجن، فيساعدونه فيما يريد، ويزعمون أن الجن يعرضون للمرتاض بها ويخيلون له أموراً مخفية يهولون عليه بها لكي يقطع رياضته، فإذا كان رابط الجأش ثبت إلى أن يتم رياضته فتتم له السلطة، وإن خاف وقطع رياضته فاته ذلك، وربما يزول عقله من الخوف.

وهذه الطريق لا تخلو عن خضوع للروحانيين والجن وتدين بما لم ينزل به الله تعالى سلطانا وغير ذلك مما هو شرك وكفر.

(٣) ومنها ما في شمس المعارف وغيره من العزائم التي تتلى على هيئات مخصوصة يزعمون أن من عمل بها تمكن من مخاطبة الروحانيين واستخدامها، وعامتها مشتمل على الشرك والكفر [٦٩٩].

(٤) ومنها المندل، وأصل هذه الكلمة في الهندية -منتر- وله عندهم صور؛ منها أن يستحضر العامل صبيا ويضع له إناء من ماء، أو نقطة كبيرة من المداد، أو غير ذلك من الأشياء الصقيلة، ويأمر الصبي أن يحدق في ذلك الشيء، والعامل يكرر ألفاظاً أعجمية، وربما يكتبها أيضاً، ويزعمون أن الصبي يتراءى في ذلك الشيء الصقيل أشخاصاً من الروحانيين، ويأمر العامل أن يخاطب أولئك الأشخاص، كأن يقول لهم: احضروا كبشاً، ثم يقول لهم: اذبحوه، اسلخوه، قطعوه، اطبخوه، كلوه، فيراهم يفعلون ذلك كله، ثم يسألهم عن غائب، أو سرقة، فيحضرون له ذلك الغائب بهيئته التي هو عليها حينئذ، حتى إذا كان ميتاً يرونه إياه ميتاً، أو يرونه قبره، أو يرونه الموضع الذي خبئت فيه السرقة، أو يحضرون له السارق فيراه، كل ذلك على سبيل التخييل والتمثيل يراه الصبي في ذلك الشيء الصقيل، هكذا يزعمون ولا أدري ما صحته، وقد دعاني بعضهم وأنا صبي صغير فكتب أسماء ووضع على ظفر إبهامي نقطة كبيرة من المداد وبقي يكرر ألفاظاً أعجمية فيما أحسب وأمرني بالتحديق في النقطة وأن أقول أحضروا، ثم سألني هل ترى أشخاصاً؟ فلم أر شيئا، ولكن من شدة التحديق وتعب النظر مع جهد الفكر كنت أرى خيال بعض الأشياء الحاضرة، فَأَتَوَهَّم أنها صورة شخص، فإذا تأملت لم أثبته، فاعتذر العامل

بأني ليس في نفسي استعداد لذلك، وهذا العمل من الشرك لما فيه من الخضوع للجن ودعائهم وغير ذلك [٧٠٠].

(٥) ومنها التقرب إلى الشياطين بالإقدام على أعمال خبيثة، كقتل الصبيان، والزنا بالمحارم، وغير ذلك من الفظائع، وذلك شرك كما علمت مما تقدم.

(٦) ومنها ما يسمونه التعفين والتحريق، وقد ذكر في تذكرة داود الأنطاكي، وظاهر وصفه أنه من قبيل الخواص الطبيعية الغريبة، فيلحق بالشعبذة، ولا أرى الشعبذة كفرا إلا أن يقصد بتعلمها دعوى النبوة أو الولاية ليضل الناس عن سبيل الله، ويكذب على الله، فإن لم يقصد ذلك وقصد ما هو محرم كالاستعانة على السرقة ونحوها فحرام، وإلا فقد يتجه إطلاق التحريم أيضاً سدا للذريعة، وقد قال ابن سعد: أخبرنا أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي، ثنا عطاف بن خالد قال: كنت قائماً مع سالم بن عبد الله فأتى بغلام ومعه غلمان وهو أشقهم، فسل خيطا من إزاره فقطعه، ثم جمعه بين إصبعيه، ثم تفل فيه مرتين أو ثلاثا، ثم مده فإذا هو صحيح لا بأس به، فقال سالم: "لو وليت من أمره شيئاً لصلبته"[١].

---

[١] طبقات ابن سعد (٥: ٢٠٠).

[٧٠١] القسم بغير الله ﷻ

في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من حلف فقال في حلفه: باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله ..." الحديث[١].

وفي صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تحلفوا بالطواغيت، ولا بآبائكم"[٢].

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"[٣].

وفي مسند أبي داود الطيالسي: ثنا شعبة، عن منصور والأعمش - قال أبو داود: وأنا لحديث الأعمش أحفظ، والإسناد واحد- سمعا سعد بن عبيدة يحدث عن ابن عمر أن رجلاً سأله عن الرجل يحلف بالكعبة، فقال: لا تحلف بالكعبة واحلف برب الكعبة، فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من حلف بغير الله فقد

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٧٩)، وصحيح مسلم (١٦٤٧).

(٢) صحيح مسلم (١٦٤٨).

(٣) صحيح البخاري (٢٥٣٣)، وصحيح مسلم (١٦٤٦).

أشرك"[١].

أقول هذا إسناد جليل على شرط الشيخين إلا أن للحديث علة.

قال الإمام أحمد: ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن منصور، عن سعد[٢] بن عبيدة قال: كنت عند ابن عمر، فقمت وتركت رجلاً عنده من كندة، فأتيت سعيد بن المسيب، [٧٠٢] قال: فجاء الكندي فزعاً، فقال: جاء ابنَ عمر رجلٌ فقال: أحلف بالكعبة؟ فقال: لا، ولكن احلف برب الكعبة، فإن عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تحلف بأبيك، فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك"[٣].

وقال أيضاً: ثنا حسين بن محمد، ثنا شيبان، عن منصور، عن سعد بن عبيدة قال: جلست أنا ومحمد الكندي إلى عبد الله بن عمر، ثم قمت من عنده ... فذكر الحديث بنحوه وفيه: ... فجاء صاحبي -يعني الكندي- وقد اصفر وجهه وتغير لونه، فقال: قم إليّ. قلت: ألم أكن جالساً معك الساعة؟ فقال سعيد:[٤] قم إلى صاحبك. قال: فقمت إليه

---

(١) مسند الطيالسي (١٨٩٦).

(٢) (في النسخة -سعيد- خطأ).

(٣) المسند (٥٥٩٣).

(٤) (في النسخة -سعد- خطأ).

فقال: ألم تسمع إلى ما قال ابن عمر؟ ... فذكره بنحوه[1].

وقال الطحاوي: إن ابن مرزوق قد حدثنا قال: حدثنا شعبة عن منصور... فذكر بنحو من رواية محمد بن جعفر -غندر- عن شعبة.

ثم قال الطحاوي أيضاً: وإن يزيد بن سنان قد حدثنا قال: حدثنا الحسن[2] بن عمر بن شقيق، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن منصور ... فذكره بنحوه من رواية غندر عن شعبة أيضاً[3].

فهذه الروايات عن منصور تبين أن سعد بن عبيدة إنما سمع القصة من محمد الكندي؛ وهو رجل مجهول.

فإن قلت: سعد بن عبيدة لم يوصف بتدليس، فليحمل على أنهما قصتان، سمع سعد من ابن عمر أحداهما، وسمع الأخرى من محمد الكندي عن ابن عمر، ويوجه إخباره بالثانية عن الكندي مع أنه قد سمع مثلها من ابن عمر بأن في الثانية زيادة؛ وهي بيان ما لحق الكندي [٧٠٣] من الروع والفزع.

قلت: إنه لمحتمل، ولكن ليس بالبين، ويضعفه أن أبا داود الطيالسي أشار إلى أنه لم يتقن الحديث كل الإتقان.

---

(١) المسند (٥٣٧٥).

(٢) (في النسخة -الحسين- خطأ).

(٣) مشكل الآثار (١: ٣٥٩).

وقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم من طريق أبي خالد الأحمر، عن الحسن بن عبيد الله النخعي، عن سعد بن عبيدة أن ابن عمر سمع رجلا يقول: لا والكعبة. فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"[1].

أقول: قوله في هذه الرواية: إن ابن عمر سمع رجلاً يقول: لا والكعبة يدل أن هذه قصة أخرى غير التي سمعها سعد من الكندي؛ لأن في تلك جاء ابنَ عمر رجلٌ فقال: أحلف بالكعبة؟ ولكن قد يقال: إن مثل هذا الاختلاف كثيراً ما يقع في حكاية القصة الواحدة، والحسن بن عبيد الله ثقة، وثقه الأئمة وأخرج له مسلم في صحيحه، وأما البخاري فقال: "لم أخرج حديث الحسن بن عبيد الله لأن عامة حديثه مضطرب". حكاه في تهذيب التهذيب، ولما ذكر الإمام أحمد هذه الرواية في المسند أعاد عقبها روايته عن محمد بن جعفر -غندر- عن شعبة التي مرت، كأنه يشير إلى احتمال أن تعلل بها، وصرح بذلك البيهقي في السنن (١٠: ٢٩)؛ ذكر رواية أبي خالد الأحمر ثم قال: "وهذا مما لم يسمعه سعد بن

---

[1] المسند (٦٠٧٢)، جامع الترمذي (١٥٣٥)، وقال حسن، والمستدرك (٧٨١٤)، وقال صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي وفي رواته الحاكم تصريح أبي خالد بقوله: "ثنا الحسن بن عبيد الله" فأمن تدليسه.

عبيدة من ابن عمر". فذكر حديث أحمد عن غندر كما مضى، [٧٠٤] وتعقبه الحافظ ابن حجر بقوله: "قلت: قد رواه شعبة عن منصور عنه، قال: كنت عند ابن عمر، ورواه الأعمش عن سعد، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن ابن عمر"[١].

كذا قال؛ فإن كان أراد رواية شعبة التي ذكرها الإمام أحمد عن غندر فلا يفيد قول سعد -كنت عند ابن عمر-، فإن بعده -فقمت وتركت رجلاً ...- كما تقدم، وهو صريح أنه لم يسمع القصة، وإن أراد غيرها فلم أقف عليها، وكذلك رواية الأعمش، عن سعد، عن أبي عبد الرحمن السلمي لم أقف عليها، وستأتي رواية للأعمش على غير هذا الوجه.

وفي المستدرك من طريق جرير بن عبد الحميد، عن الحسن بن عبيد الله النخعي، عن سعد بن عبيدة، عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من حلف بغير الله فقد كفر"[٢].

وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا بمثل هذا الإسناد، وخرجاه في الكتاب، وليس له علة، ولم يخرجاه، وله شاهد على شرط مسلم ... شريك بن عبد الله، عن الحسن بن عبيد الله، عن

---

[١] التلخيص الحبير (٢٠٤٢).

[٢] المستدرك (٤٥).

سعد بن عبيدة، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "كل يمين يحلف بها دون الله شرك" وأقره الذهبي[(١)].

وأعاده بعد عدة أوراق من طريق إسرائيل، عن سعيد بن مسروق، عن سعد بن عبيدة، عن ابن عمر قال: قال عمر: لا وأبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بشيء دون الله فقد أشرك"[(٢)].

[٧٠٥] ومن طريق محمد بن يحيى، ثنا عبد الرزاق، أبنا سفيان، عن أبيه والأعمش ومنصور، عن سعد بن عبيدة، عن ابن عمر قال: كان عمر يحلف: وأبي، فنهاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "من حلف بشيء من دون الله فقد أشرك"، وقال الآخر: "فهو شرك"[(٣)]

ثم أعاد رواية جرير بن عبد الحميد من طريق أخرى، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ، وإنما أودعته كتاب الإيمان للفظ الشرك فيه، وفي حديث مصعب بن المقدام، عن إسرائيل: "فقد كفر" فأما الشيخان فإنما أخرجاه من حديث سالم ونافع وعبد الله بن دينار عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال

---

(١) المستدرك (٤٦).

(٢) المستدرك (١٦٨).

(٣) المستدرك (١٦٩).

لعمر: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم"[(١)].

وهذا غير ذاك، ورواية عبد الرزاق عن سفيان أخرجها الإمام أحمد في المسند (٢: ٣٤)، وسفيان هو الثوري، ورواية إسرائيل عن سعيد بن مسروق -وهو والد الثوري- ذكرها الطحاوي في مشكل الآثار (١: ٣٥٨)، فهذه الروايات أقرب إلى أن يحكم لها بالسلامة من العلة؛ لأنه غير مستنكر أن يكون سعد بن عبيدة قد سمع هذا الحديث المرفوع من ابن عمر، ولكنه لم يسمع كلام ابن عمر في شأن الكعبة؛ فاحتاج أن يذكره عن الكندي عن ابن عمر.

ويؤيد هذا قال الإمام أحمد: ثنا وكيع، ثنا الأعمش، عن سعد بن عبيدة قال: كنت مع ابن عمر في حلقة فسمع رجلاً في حلقة أخرى وهو يقول: لا وأبي، فرماه ابن عمر بالحصى وقال: إنها كانت يمين عمر فنهاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم [٧٠٦] عنها وقال: "إنها شرك"[(٢)].

وقال الطحاوي: حدثنا بكار، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة ... فذكره بنحوه[(٣)].

ففي هذه الرواية تصريح سعد بسماعه هذا الحديث من ابن عمر،

---

(١) المستدرك (١٦٩).

(٢) مسند أحمد (٥٢٢٢).

(٣) مشكل الآثار (١: ٣٥٧).

وأكد ذلك أن في هذه الرواية قصة غير القصة التي ذكرها عن الكندي قطعاً، وليس من المحتمل أن تكون القصة واحدة، ولكن فيه شيء؛ وهو أن الأعمش مدلس ولم يصرح في هذه الرواية بالسماع، وإن كان قد صرح به في رواية أبي داود الطيالسي التي صدرنا بها.

نعم؛ ذكر الذهبي في ترجمة الأعمش من الميزان أن روايته عن شيوخه الذين أكثر عنهم محمولة على الاتصال -كذا قال- وفيه نظر.

وبالجملة؛ فإن جاء في رواية تصريح الأعمش بالسماع في الرواية التي صرح فيها سعد بن عبيدة بسماعه هذا الحديث من ابن عمر فالحديث صحيح على شرط الشيخين حتماً، وكذا إذا كان شعبة قد روى عن منصور عن سعد مصرحا بالسماع كما سبق عن التلخيص الحبير أو صح رواية سعد الحديث عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن عمر كما سبق من تلخيص الحبير أيضاً، وإلا فالحديث حسن كما قاله الترمذي، ويؤكد ذلك جزم الحاكم بأن الحديث صحيح على شرط الشيخين وليس له علة، وأقره الذهبي، ويبعد أن يكونا لم يطلعا على الرواية التي ذكر فيها الكندي، وقد صحح الحديث أيضاً ابن حبان؛ رواه من طريق الحسن بن عبيد الله، وقد أشار البخاري في صحيحه إلى صحة هذا الحديث؛ فإنه قال: "باب من [٧٠٧] أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال" ثم ذكر الأحاديث في ذلك، ثم قال: "باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلاً"، ثم ذكر قول عمر لحاطب: "إنه منافق" وقول معاذ للرجل الذي فارقه في الصلاة: "إنه منافق"، وحديث أبي هريرة قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من حلف منكم فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله"، وحديث نافع عن ابن عمر أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وهو يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت"[١].

فأما حديث أبي هريرة فكأن البخاري استنبط من اكتفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: "فليقل لا إله إلا الله"؛ أنه لم يجعل ذلك ردة مع أن الكلمة كلمة كفر، ولكن لما كانت لا تقع منهم عمداً وإنما يسبق لسان بعضهم عليها لاعتياده قولها قبل أن يسلم عذرهم بذلك، وأخبرهم بما يدفع معرة التلفظ بها؛ وهو أن يعلن بنقيضها وهو قول لا إله إلا الله.

قال في الفتح: "وقال ابن العربي: من حلف بها جادا فهو كافر، ومن قالها جاهلاً أو ذاهلا يقول لا إله إلا الله، يكفر الله عنه ويرد قلبه عن السهو إلى الذكر، ولسانه إلى الحق، وينفي عنه ما جرى به من اللغو"[٢].

وأخرج النسائي بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بئس ما قلت، قلت هجرا، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له، فقال: "قل لا إله

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٥٧٥٧).

(٢) فتح الباري (٨: ٦١٢).

إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وانفث عن [٧٠٨] يسارك ثلاثا، وتعوذ بالله من الشيطان، ثم لا تعد"

وفي رواة أخرى له عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: كنا نذكر بعض الأمر وأنا حديث عهد بالجاهلية، فحلفت باللات والعزى، فقال لي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بئس ما قلت، ائت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره، فإنا لا نراك إلا قد كفرت، فأتيته فأخبرته فقال لي: "قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثلاث مرات، وتعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات، واتفل عن يسارك ثلاث مرات، ولا تعد له"[١].

وأما ذكر البخاري لحديث عمر؛ فقال في الفتح: "وقصد بذكره هنا الإشارة إلى ما ورد في بعض طرقه "من حلف بغير الله فقد أشرك" لكن لما كان حلف عمر بذلك قبل أن يسمع النهي كان معذورا فيما صنع، فلذلك اقتصر على نهيه ولم يؤاخذه بذلك"[٢].

أقول: ومن الواضح أن احتجاج البخاري بحديث عمر في هذا الباب أنه يرى أن من حلف بأبيه غير جاهل ولا ذاهل فقد كفر، ويؤخذ

---

(١) سنن النسائي (٣٧٧٦)، وابن ماجه مختصراً (٢٠٩٧)، وصححه ابن حبان (٤٣٦٤)، (٤٣٦٥) كما في الفتح (٨: ٦١٢).

(٢) فتح الباري (١٠: ٥١٦).

من ذلك أنه يرى أن حديث سعد بن عبيدة صحيح ثابت، والله أعلم.

ومن شواهد الحديث ما في مصنف ابن أبي شيبة عن عكرمة قال: قال عمر: حدثت قوماً حديثاً فقلت: لا وأبي، فقال رجل من خلفي: "لا تحلفوا بآبائكم" فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "لو أن أحدكم حلف بالمسيح هلك، والمسيح خير من آبائكم" قال الحافظ بن حجر: وهذا مرسل يتقوى بشواهده[١].

وفي كنز العمال عن مصنف عبد الرزاق عن الشعبي قال: مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم برجل يقول: وأبي، فقال: "قد عذب [٧٠٩] قوم فيهم ابن مريم خير من أبيك، فنحن منك براء حتى ترجع"[٢].

وأخرج الحازمي في كتاب الاعتبار، وابن عساكر، وغيرهما عن يزيد بن سنان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحلف زمنا فيقول: "لا وأبيك" حتى نهي عن ذلك، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يحلف أحدكم بالكعبة؛ فإن ذلك إشراك، وليقل ورب الكعبة".

قال الحازمي: هذا حديث غريب من حديث الشاميين وإسناده ليس بذاك القائم غير أن له شواهد، ثم ذكر حديث: "أفلح وأبيه إن صدق"

---

(١) فتح الباري (١١: ٥٣١).

(٢) كنز العمال (٤٦٥٤٠).

ونحوه[(١)].

وأنا إنما ذكرته شاهدا لحديث سعد بن عبيدة لأن فيه: "فإنه إشراك"

وأخرج الإمام أحمد والنسائي والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد. وأقره الذهبي، عن قتيلة بنت صيفي رضي الله عنها "أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنكم تنددون، وإنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، أو تقولون والكعبة، فأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة، ويقول أحد: ما شاء الله ثم شئت"[(٢)].

وأخرج أبو داود والحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي [٧١٠] عن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من حلف بالأمانة فليس منا"[(٣)].

---

(١) الاعتبار (ص: ٢٢٩).

(٢) مسند أحمد (٢٧١٣٨) وسنن النسائي (٣٧٧٣)، واللفظ له، والمستدرك (٧٨١٥)، وفيه: "... إنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة ...".

(٣) سنن أبي داود (٣٢٥٣)، واللفظ له، والمستدرك (٧٨١٦)، وصححه النووي في الأذكار.

حقيقة القسم

وقع اشتباه في معناه وارتباك في الجمع بين الأحاديث المتقدمة، وإقسام الله تبارك وتعالى في كتابه بأشياء من مخلوقاته، كالشمس والقمر والتين والزيتون، وما صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: "أفلح وأبيه إن صدق"، وقوله: "وأبيك لتنبأن"، وجاء عن أبي بكر ﷺ أنه كان يقول للرجل الذي اهم بالسرقة وكان يقوم الليل: "وأبيك ما ليلك بليل سارق".

وألف الأستاذ حميد الدين الفراهي الهندي رسالة سماها: "الإمعان في إقسام القرآن" أجاد فيها، وسألخص هاهنا ما استفدته منها ومن غيرها وما ظهر لي.

فأقول: أصل المقصود من القسم التوكيد اتفاقا، ولذلك -والله أعلم- سمي يميناً؛ أخذا من اليمين بمعنى القوة، ويمكن أن يكون من اليد اليمنى لما جرت العادة من الصفق باليمين عند المحالفة، وسمي أَلِيَّة من قولهم: "ألا يألو" إذا اجتهد، لا من قولهم: "ألا يألوا" إذا قصر.

وفي سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا اجتهد في اليمين قال: "والذي نفس أبي القاسم بيده"[1].

---

[1] سنن أبي داود (٣٢٦٤).

وأما القسم؛ فاسم من قولهم: أقسم إذا حلف، وكأنه مأخوذ من القسم، [٧١١] وهو: الشك، -كما في القاموس وغيره- فقالوا أقسم أي: أزال القَسْم كما قالوا: أشكاني الأمير، أي: أزال شكواي، -كما في كتب اللغة والتصريف- والحالف إنما يحلف ليزيل الشك.

وأما الحلف فكأنه مأخوذ من حلافة اللسان، أي: حدته؛ -كما في القاموس وغيره- لأن حديد اللسان يكثر من القسم، ولذلك -والله أعلم- لم يجئ لفظ الحلف في القرآن إلا في معرض الذم، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ (التوبة: ٦٢)، وآيات أخرى كلها في المنافقين. وقال سبحانه ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (القلم: ١٠).

فأما وجه إفادة القسم التوكيد فمختلف باختلاف المقسم به، وهو على أضرب:

الضرب الأول: أن يكون في اعتقاد الحالف ومخاطبيه ذا قدرة غيبية، فمعنى الحلف به جعله كفيلا وشاهداً على الحالف بأن لا يخلف ولا يكذب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ (النحل: ٩١).

وقال ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة: ٢٠٤).

قال ابن جرير: "فقال بعضهم: نزلت في الأخنس بن شريق، قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فزعم أنه يريد الإسلام، وحلف أنه ما قدم إلا لذلك ... حدثني يونس قال: أنا بن وهب قال: قال ابن

زيد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) قال: كان رجل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: أي رسول الله! اشهد أنك جئت بالحق ... ثم يقول: أما والله يا رسول الله إن الله ليعلم ما في قلبي مثل ما نطق به لساني[1].

[٧١٢] فالجعل للمحلوف به كفيلاً ظاهر فيما إذا كان الحلف على فعل شيء في المستقبل أو تركه، وإشهاده ظاهر فيما يكون الحلف على أنه وقع أو لم يقع، أو أنه واقع في الحال أو غير واقع، وكذا على أنه سيقع في المستقبل أو أنه لن يقع؛ لأن العلم إذا أحاط بوقوع شيء في المستقبل أو عدم وقوعه صار كأنه حاضر فتصح الشهادة والإشهاد عليه كما يقول المؤمن: أشهد أن الساعة ستقوم، ونحو ذلك.

ويمكن أن يكون الحلف على الوقوع وعدمه تكفيلا، كأن الحالف يجعل المحلوف به كفيلاً عليه أن لا يكذب، ومن هذا الضرب الحلف بالكعبة؛ لأن الحالف يرى أنها كريمة عند الله ﷻ، بحيث يغضب على من احتقرها واستهان بها، ومن جعل شيئاً كفيلاً ولم يفِ، أو شهيدا على كذب؛ فقد احتقره واستهان به.

ومنه أيضا الحلف بالأصنام؛ لأن الحالف يزعم أنها كريمة عند من جعلت تماثيل لهم، وهم أولوا قدرة غيبية، أو مكرمون عند الله تعالى الذي

---

(١) تفسير ابن جرير (٤: ٢٣٣).

له القدرة الغيبية، فيزعم أن احتقارها والاستهانة بها احتقار لهم، وقس على ذلك.

وإنما يثق المحلوف له باليمين في هذا الضرب لأنه يعلم أن الحالف يجل المحلوف به ويخاف سطوته الغيبية، فيبعد أن يجعله كفيلا ثم لا يفي، أو شهيداً على الكذب، وعلى فرض أن الحالف يجترئ على ذلك فالمحلوف به يعاقبه ويوفي المحلوف له حقه من عنده.

[٧١٣] الضرب الثاني: أن يكون المحلوف به عزيزا على الحالف ولا يرى له قدرة غيبية، وذلك كما يحلف بعض الناس بشرفه، كأنه يقول: إن شرفي كفيل عليّ، بمعنى: أني إن لم أفِ، أو إن كنت كاذباً فقد احتقرت شرفي، أو فلا شرف لي، ومنه قولهم: وحقك، كأنه يقول: إن لم أف، أو إن كنت كاذباً فقد ضيعت ما لك من الحق عليّ، وقد يكون منه قولهم: وحياتك، ورأسك، وجدك، كأنه يقول: إن لم أف، أو إن كنت كاذباً، فقد احتقرت حياتك، واستهنت بها، فاعددني حينئذ عدواً، فيثق المحلوف له بهذه اليمين لعلمه أن الحالف حريص على بقاء المودة.

الضرب الثالث: أن يكون المحلوف به مما له خطر عند الحالف بحيث يضره أن يتلف أو ينقص، فيحلف به على معنى: أني إن لم أفِ أو إن كنت كاذباً فالإله يُتْلِفُ هذا الشيء أو ينقصه، كحلف بعضهم برأسه، وعينيه، وحياته، ويمكن أن يكون منه قول أحدهم لصديقه: وحياتك، ورأسك، وجدك، كأنه يقول: إن حياتك أعز على من حياتي، فهي أولى أن أقسم بها، وهذا المعنى المفهوم من القسم يغفر ما يؤول إليه المعنى؛ إذ

حاصله؛ إن لم أف، أو إن كذبت، فأفقدني الله تعالى حياتك، وكأن القائل:

فإن تك ليلى استودعتني أمانة فلا وأبي أعدائها لا أخونها

استشعر هذا المعنى فرأى أنه إن قال وأبيها كان حاصله؛ أفقدني الله تعالى [٧١٤] أباها إن خنتها، وفي هذا ما فيه من الإساءة، فعدل عن أبيها إلى أبي أعدائها؛ لأن فقد أبي أعدائها يسرها ولا يضرها، ولم يبال باختلال أصل المعنى اتكالا على أن القرائن تبين أنه إنما أراد القسم بأبيها، ولكنه عدل إلى أبي أعدائها لما تقدم.

ويظهر أن لفظ الأب مقحم، وأنه أراد القسم بها، ولكن لما كان واو القسم لا يدخل على الضمير أقحم لفظ أب، ثم أقحم لفظ أعداء لما تقدم.

ويشبه هذا قولهم: الأبعد، كناية عن ضمير المتكلم مثلا، كقولهم: إن غدر الأبعد فأهلكه الله، يريدون: إن غدرتُ ولكن يتنزهون عن نسبة الغدر إلى النفس صريحاً، ومثل هذا قول الآخر:

لعمر أبي الواشين أني أحبها ....

وقد يكون البيتان من الضرب الرابع كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

الضرب الرابع: أن يكون في المحلوف به دلالة على المحلوف عليه، فكأن الحالف جعله كفيلاً وشاهداً بالنظر إلى حاله، كقول الحصين بن الحمام المري يرثي نعيم بن الحارث:

قتلنا خمسة ورموا نعيما وكان القتل للفتيان زينا
لعمر الباكيات على نعيم لقد جلت رزيته علينا

أقسم بالباكيات منهم استدلالا ببكائهن على عظم رزيته عليهم، ويقرب منه قول الشويعر يتنصل إلى امرئ القيس مما بلغه عنه أنه هجاه:

لعمرُ أَبيكَ الذي لا يُهانُ لقد كان عِرْضُك مني حراما
وقالوا هَجَوْتَ ولم أَهْجُه وهِلْ يَجِدَنْ فيكَ هاجٍ مراما

استشهد بعزة أبي امرئ القيس وسلامته من الذام على أنه لم يهجه، وأوضح ذلك بقوله:

.... الذي لا يُهانُ ....

وقوله:

.... وهِلْ يَجِدَنْ فيكَ هاجٍ مراما

وقد يكون من هذا قول الآخر، وقد مر:

.... فلا وأبي أعدائها لا أخونها

كأنه جعل أعدائها كفلاء عليه لا يخونها، وإنما جعلهم كفلاء نظرا إلى حالهم؛ لأنهم قد جربوه وعرفوا صدق محبته لها وشدة حرصه على كتمان سرها، فلو سئلوا لقالوا: هيهات [٧١٥] أن يبوح هذا الرجل بسر هذه المرأة.

وكذا قول الآخر، وقد تقدم أيضاً:

لعمر أبي الواشين أني أحبها ....

فإن الواشين أعرف الناس بمحبته لها، وأحرص الناس على إذاعتها، أي: فمن شك في محبتي لها فليستمع إلى ما يقوله الواشون عني وعنها، ففي ذلك شهادة كافية.

ومنه قول أبي خراش الهذلي:

لعمر أبي الطّير المربّة غدوة على خالد لقد وقعن على لحم

أراد على لحم عظيم؛ لأن التنكير قد يفيد التعظيم، وأقسم بالطير التي وقعت عليه لأنها أعرف الخلق به، وكلمة "أبي" في هذه الأبيات الثلاثة مقحمة كما علم من تفسيرها، وكأن الباعث على إقحامها الفرار مما يوهمه القسم من إجلال الأول أعداء محبوبته، والثاني الواشين بخليلته، والثالث الطير الواقعة على صاحبه؛ فرأى الأول: أن إيهام إجلال أبي أعدائها أهون، وقس عليه، هذا مع مراعاة الوزن في الأبيات الثلاثة.

الضرب الخامس: أن يكون المحلوف به شيئاً حقيراً فيحلف به على كلام قصد به التهكم والاستهزاء، ويكون الحلف به قرينة على ذلك، كقول عروة بن مرة الهذلي:

وقال أبو أمامة يا لبكر فقلت ومرخة دعوى كبير

وقد حقق الأستاذ الفراهي أن عامة إقسام القرآن من الضرب الرابع، وذلك واضح في كثير منها، ويحتاج في بعضها إلى تدبر.

فأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "أفلح وأبيه إن صدق" وقول أبي بكر: "وأبيك ما ليلك بليل سارق" فيظهر أنه من الضرب الرابع،

[٧١٦] كأنه صلى الله عليه وآله وسلم استشهد حال ذلك الرجل؛ لأنها تدل على أنه سيفلح، فإن في قصته: "...جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "خمس صلوات في اليوم والليلة". فقال هل علي غيرهن؟ قال: "لا، إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان". فقال: هل علي غيره؟ فقال: "لا إلا أن تطوع ..." وذكر له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الزكاة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: "لا إلا أن تطوع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أفلح إن صدق"، وفي رواية: "أفلح وأبيه إن صدق"، أو "دخل الجنة وأبيه إن صدق""[١].

فمجيء الرجل من نجد، واهتمامه بالسؤال عن فرائض الإسلام، واعتناؤه بذلك، حتى سأل بعد كل فريضة هل علي غيرها، ثم إدرباه بعد ذلك، فعلم أنه إنما جاء للسؤال عن فرائض الإسلام؛ لم يخلط بذلك رغبة في دنيا، ثم إقسامه أن لا يزيد على الفرائض ولا ينقص، وفي إقسامه أن لا يزيد ما يدل على صدق لهجته؛ إذ أظهر ما في نفسه و لم يبال بأن عليه في ذلك غضاضة، كل هذا يدل على صدق إيمانه، وقوة يقينه، وتصميم عزيمته على الوفاء بفرائض الإسلام، وفي ذلك أقوى علامة على فلاحه.

---

[١] صحيح مسلم (١١).

فأما قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إن صدق" فهو كقول القائل: لأقضينك دينك إن شاء الله، فليس تعليقا محضا بحيث يخدش دلالة الكلام على عزم المتكلم أن يقضي، وإنما هو دلالة على أن عزمه على القضاء لا يقتضي علم اليقين بأنه سيقضى، وإنما يحصل علم اليقين بذلك العزم مع مشيئة الله ﷻ، فهكذا "أفلح وأبيه إن صدق" معناه: أنني أظن ظنا قوياً أنه سيفلح، ولكن ظني هذا لا يكفي وحده [٧١٧] لحصول الفلاح، بل لابد معه من أن يصدق الرجل فيما وعد به أن يؤدي الفرائض ولا ينقص منها شيئاً، أو يقال: إن زيادة "إن صدق" دفع لما قد يتوهم أن المعنى قد أفلح الرجل على كل حال حتى على فرض أنه يقصر بعد ذلك في أداء الفرائض.

وأما ما روى عن أبي بكر ﵁ من قوله: "وأبيك ما ليلك بليل سارق" فواضح أنه من هذا الضرب؛ لأن قيام الليل دائماً يدل دلالة قوية أن صاحبه ليس بسارق.

وأما قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "وأبيك لتنبأنه" فأصل الحديث عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! أي الصدقة أعظم أجرا؟ فقال: "أما وأبيك لتنبأنه أن تصدق وأنت صحيح شحيح"[١].

---

[١] صحيح مسلم (١٠٣٢).

فالسائل يعلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عالم بما سأله عنه، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم سينبئه بذلك، وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى من هيئة الرجل وكلامه ما يظهر منه أنه كالمتردد؛ أينبئه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما سأل عنه أم لا؟ فكأنه قال له: لم هذا التردد مع علمك بأنك إنما تسأل رسول الله وأنه عالم بما تسأله عنه وأنه لا يقصر في تعليم الناس ما يحتاجون إليه في دينهم؟ والله أعلم.

وقد علمت من تفسيرنا للحديثين والأثر عن أبي بكر أننا نرى أن لفظ الأب [٧١٨] مقحم فيها كما هو مقحم في الأبيات المارة، وكأن الباعث على الإقحام أن واو القسم لا تدخل على الضمير؛ فتوصل إليه بإقحام لفظ الأب، وباعث آخر معنوي؛ وهو تبعيد إيهام التعظيم، فإنه يتوهم تعظيم المخاطبين؛ لأنهم مسلمون، بخلاف آبائهم المشركين، والله أعلم.

وهناك أجوبة أخرى عن الحديثين؛ منها الطعن في زيادة: "وأبيه" في الأول، وزيادة: "ما وأبيك لتنبأنه" في الثاني بتفرد بعض الرواة بها.

وفي مسند أحمد ثنا إسماعيل، ثنا يحيى بن أبي كثير، عن أبي إسحاق قال: حدثني رجل من غفار في مجلس سالم بن عبد الله، حدثني فلان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتي بطعام من خبز ولحم فقال: "ناولني الذراع" فنوول ذراعا فأكلها. قال يحيى: لا أعلمه إلا هكذا، ثم قال: "ناولني الذراع" فنوول ذراعا فأكلها، ثم قال: "ناولني الذراع" فقال: يا رسول الله! إنما هما ذراعان، فقال: "وأبيك لو سكت ما زلت أناول

منها ذراعا ما دعوت به" فقال سالم: أما هذه فلا، سمعت عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "إن الله تبارك وتعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم"[١].

فأنكر سالم بن عبد الله بن عمر هذه الزيادة، وهو سلف لمن أنكرها في الحديثين السابقين.

ويمكن تأويلها في هذا الحديث بمثل ما تقدم، كأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استشهد حال السامع من علمه بأن الله تعالى كثيراً ما يخرق العادة لرسوله، وأقحم لفظ الأب كما تقدم.

ومن الأجوبة ما نقله الحافظ في الفتح أن القسم في هذه المواضع للتأكيد محضا، [٧١٩] كأن قائل ذلك أراد أن القسم انسلخ عن التكفيل والاستشهاد المستلزمين غالباً للتعظيم، وصار بمنزلة "إن" ونحوها للتوكيد فقط، كأنه قال: أؤكد.

وقال البيهقي في السنن: "ويحتمل أن النهي إنما وقع عنه إذا كان على وجه التوقير له والتعظيم لحقّه دون ما كان بخلافه، ولم يكن ذلك منه على وجه التعظيم، بل كان على وجه التوكيد"[٢].

ومنها قول السهيلي: إنه للتعجب، كأنه أراد أن قوله: "وأبيه" بمنزلة

---

[١] مسند أحمد (٥٠٨٩).

[٢] سنن البيهقي (١٩٦١٦).

قولهم: لله أبوه، وقس عليه. هذه أقوى الأجوبة فيما أرى، والجواب الذي قدمته أشفها، إلا أنه قد يطعن فيه بأن دعوى إقحام لفظ الأب لا يعرف لها نظير في العربية.

وقد رد أبو حيان قول من قال: إن كلمة "مثل" من قول الله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) زائدة؛ رده بأن الأسماء لا تزاد، ويدفع هذا بأن المعنى إذا اقتضى توجيه اللفظ بزيادة أو نقص أو تغيير لا تأباه الحكمة ولا تدفعه الصورة الكلية المرتسمة في ذهن العارف باللغة وما يقع فيها من التغيير؛ فإن ذلك التوجيه يقبل وإن لم يوجد له نظير.

وقد قال ابن جني: "إذا دل الدليل؛ فإنه لا يجب إيجاد النظير"[١].

ألا ترى إلى صيغة -أفعِل به- في التعجب نحو قوله تعالى: ﴿أسمع بهم﴾ كيف وجهوها بأن أسمع فعل ماض أصله أسمع كأكرم، ومعناه صار ذا سمع، فأصله في الآية أسمعوا، أي: صاروا ذوي سمع، [٧٢٠] ثم حول إلى موازنة صيغة الأمر مع بقائه على الماضوية، ثم زيدت الباء وجوباً، فوجب تغيير الفاعل من صورة ضمير الرفع -وهو الواو هنا- إلى صورة ضمير الجر، ولو تطلبت في اللغة فعلا ماضيا صورته صورة الأمر لما وجدته؛ إلا ما ادعوه في هذا الموضع، فلم يمنعهم عدم النظير من توجيه اللفظ على ما سمعت لما كان المعنى يقتضي ذلك، فكذلك نقول نحن.

---

[١] الخصائص (١: ١٩٧).

ومع هذا فقد وجدنا النظير ولله الحمد، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١) فقد قال جماعة: إن كلمة اسم مقحمة، وأن المعنى: سبح ربك الأعلى، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والآثار عن الصحابة ﷺ تدل على ذلك، انظرها في روح المعاني وتفسير بن جرير.

وأنشدوا للبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر

فأما حديث أبي داود وغيره عن الفجيع؛ وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ذلك وأبي الجوع"[١].

فهو حديث ضعيف، وكذلك حديث يزيد بن سنان وقد تقدم؛ سنده ضعيف، ولكنه يشهد لحديث سعد بن سنان فيما اتفقا فيه كما مر، والله أعلم.

بقي أنه قد جاء في كلام الصحابة وغيرهم: "لعمري" وهي على المشهور بمعنى: أقسم بحياتي، فيكون قسما بغير الله تعالى.

فأقول: قد جاء في تفسير قول الله ﷻ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢) ما أخرجه ابن جرير وغيره من طريق سعيد بن زيد قال: ثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، [٧٢١] عن ابن عباس

---

(١) سنن أبي داود (٣٨١٧).

قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢).

وأخرج ابن جرير أيضاً من طريق الحسن بن أبي جعفر قال: ثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢) قال: ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال: وحياتك يا محمد، وعمرك وبقائك في الدنيا؛ ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي: في ضلالتهم يعمهون أي: يلعبون[(١)].

أقول: في ترجمة أبي الجوزاء من التاريخ الكبير للبخاري: "وقال لنا مسدد: عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك النكري، عن أبي الجوزاء قال: أقمت مع ابن عباس وعائشة اثنتي عشرة سنة، ليس من القرآن آية إلا سألتهم عنها. قال محمد: في إسناده نظر".

ونبه الحافظ ابن حجر في ترجمة أبي الجوزاء من تهذيب التهذيب على أن البخاري إنما قال هذا لمكان النكري قال: " والنكري ضعيف عنده" أي: عند البخاري.

ولم يذكر في ترجمة النكري أحدا وثقه إلا قول ابن حبان في

---

(١) تفسير ابن جرير (١٧: ١١٨).

الثقات: "ويعتبر حديثه من غير روايته ابنه عنه، يخطئ ويغرب".

وقد عرف من مذهب ابن حبان في الثقات أنه يذكر فيها المجاهيل، ومع ذلك فقوله: "يعتبر حديثه" ظاهر في أنه لا يعتمد عليه، وقوله: "يخطئ ويغرب" ظاهر أنه وصف للأب؛ لأن هذا الكلام في ترجمته، ولأنه الموافق لقوله: "يعتبر حديثه" [٧٢٢] إذ الحكم عندهم فيمن يخطئ ويغرب أن يعتبر به ولا يعتمد عليه؛ ولأن كلام ابن حبان في الابن صريح في أنه لا يعتبر بروايته أصلا، فهو عنده أسوأ حالا من أن يكون يخطئ ويغرب فقط، والله أعلم.

فأما قول الذهبي في الميزان: ثقة؛ فإنما اعتمد ذكر ابن حبان له في الثقات، وقد علمت ما فيه.

وسعيد بن زيد؛ مختلف فيه، والحسن بن أبي جعفر؛ ضعيف جدا على عبادته.

وأخرج ابن جرير أيضاً من طريق أبي صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿لعمرك﴾ يقول: لعيشك ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ قال: يتمادون[1].

وهذا السند ضعيف عندهم إلا أن البخاري يستأنس بما روي به فيعلقه في صحيحه، وأبو صالح، ومعاوية بن صالح مختلف فيهما، وعلي بن

(١) تفسير ابن جرير (١٧: ١١٩).

أبي طلحة فيه شيء، وقد نص الأئمة أنه لم يسمع من ابن عباس، ولكن ذكروا أنه سمع التفسير من مجاهد عن ابن عباس، وهذا لا يغني لأننا لا ندري في هذه الرواية أمما سمعه من مجاهد هي أم لا؟.

وقال ابن جرير: وحدثني أبو السائب قال: ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل لعمري، يرونه كقوله: وحياتي[1].

أقول: أبو معاوية والأعمش يدلسان.

[٧٢٣] وذكر في لسان العرب الأثر عن ابن عباس، ثم قال: قال أبو الهيثم: النحويون ينكرون هذا، ويقولون: معنى "لعمرك" لدينك الذي تعمر، وأنشد لعمر بن أبي ربيعة:

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يَجْتَمِعان؟

قال: عمرك اللّهَ: عبادتك الله فنصب، وأنشد:

عَمْرَكِ اللهَ ساعةً حَدِّثينا وذَرِينا مِن قَوْلِ مَن يُؤْذِينا

أقول: لأهل اللغة اضطراب كثير في هذه الكلمة، وحاصله: أن العَمر بالفتح يأتي بمعنى الدين، وبمعنى العبادة، ويمكن أن يكون المعنيان واحدا، وبمعنى الحياة لغة في العُمر بضم العين، والضم أشهر، ولم يأت قولهم: لعَمرك إلا بالفتح، وهذا مما يضعف تفسيره بالحياة.

---

(١) تفسير ابن جرير (١٧: ١١٩).

ولا حاجة للإطالة، بل نقول: إن ما صح عمن يعتد بقوله من الصحابة وغيرهم من قولهم لعمري، ولعمرك، فالظاهر أنهم رأوا العمر بمعنى العبادة، ثم قصدوا به المعبود من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول؛ كقولهم: فلان عدل رضا، أي: مرضي.

فأما قولهم: لعمر الله، فإن صح عمن يعتد بقوله؛ فكأنه قصد بالعمر البقاء، كما يقوله بعض أهل اللغة، وبقاء الله صفة له، فلا يكون القسم بها قسماً بغير الله، ثم رأيت هذا المعنى، فقد ترجم له البخاري "باب قول الرجل: لعمر الله"، قال ابن عباس: "لعمرك لعيشك"، ثم ذكر ما قاله أسيد بن حضير في حديث الإفك: "لعمر الله لنقتلنه"[1].

وقال الحافظ في الفتح: "وقال أبو القاسم الزجاج: العمر: الحياة، فمن قال لعمر الله؛ كأنه حلف ببقاء الله ... ومن ثَمَّ قال المالكية والحنفية: تنعقد بها اليمين؛ لأن بقاء الله من صفة ذاته.

وعن مالك: لا يعجبني الحلف بذلك ...

وقال الشافعي وإسحاق: لا تكون يمينا إلا بالنية؛ لأنه يطلق على العلم وعلى الحق، وقد يراد بالعلم المعلوم وبالحق ما أوجبه الله ... وأجابوا عن الآية بأن لله أن يقسم من خلقه بما شاء، وليس ذلك لهم،

---

[1] صحيح البخاري (٦٢٨٥).

لثبوت النهي عن الحلف بغير الله[١].

وأما قولهم: عمرك الله؛ فعمر بمعنى العبادة، أو التعمير، أي: اعتقاد البقاء، وهو من باب المناشدة، كأنه قال: أنشدك بعبادة الله، أو باعتقادك بقاؤه، وهذه المناشدة ليست من القَسَم في شي، والله أعلم.

فأما الآية؛ فلا مانع من أن يكون العمر فيها بمعنى الحياة، وقد أقسم الله تعالى في كتابه بكثير من المخلوقات كما علمت، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري (١١: ٥٤٧).

[٧٢٤] فصل

القسم من الضرب الأول يفهم إجلال الحالف للمحلوف به واعتقاده أن له سطوة غيبية؛ بحيث ينال الحالف النفع الغيبي إذا وفى وصدق، وأنه إن لم يف، أو لم يصدق نالته عقوبته، ونال المحلوف له النفع الغيبي بإيفائه حقه إن كان له حق.

ومن ذلك الحلف بالكعبة يفهم احترام الحالف بها، واعتقاده أن لها سطوة غيبية، بمعنى: أنها كريمة على الله ﷻ؛ بحيث ينال الحالف بها النفع الغيبي أو العقوبة الغيبية من الله ﷻ.

ونحوه الحلف بالصنم يفهم احترام الحالف له، واعتقاده أن له سطوة غيبية، بمعنى: أنه كريم على من له سطوة غيبية، وهو من جعل الصنم تمثالا أو تذكارا له، أو أنه كريم عند من هو كريم عند من له سطوة غيبية، وهذا فيمن يجعل الصنم تمثالا لإنسان ولا يعتقد لذلك الإنسان سطوة غيبية ذاتية، ولكنه يقول: ذلك الإنسان كريم على الله ﷻ، ولله تعالى السطوة الغيبية.

إذا ثبت هذا؛ فقد ثبت أن القسم من هذا الضرب خضوع وتعظيم للمقسم به يطلب به نفع غيبي للحالف أو للمحلوف له على فرض.

وهذا الخضوع والتعظيم هو العبادة -كما مر تحقيقه- والعبادة إذا لم ينزل الله تعالى بها سلطاناً فهي عبادة لغير الله، وعبادة غير الله كفر وشرك، والحلف بالكعبة من هذا؛ لأن الله تعالى لم ينزل سلطاناً بجواز

الإقسام بها، وإنما كان يقع من قريبي العهد بالإسلام غير عالمين بأنه شرك، فلما بين لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك اجتنبوه.

[٧٢٥] ويجوز أن الذين كانوا يقولون: والكعبة، كانوا يريدون ورب الكعبة، ولكن لما لم تكن هناك قرينة ظاهرة على الإضمار كان ظاهر الكلام شركا.

فأما الحلف باللات والعزى غير جاهل ولا ذاهل فشرك لا ريب فيه، -كما تقدم- وقد سبق أن اللات والعزى ومناة في الأصل أسماء للإناث الخياليات التي كان يزعم المشركون أنهن الملائكة، ثم أطلقت هذه الأسماء على الأصنام؛ لأنها تماثيل لتلك الإناث.

ولم يفرق في الأحاديث بين من قصد باللات والعزى الأصنام، ومن قصد الإناث الخياليات، ومن قصد الملائكة على قياس ما تقدم في توجيه رواية: "تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى"، فعلم من عدم التفرقة أنه لا فرق، وهذا مع ما تقدم في ذكر الحلف بالمسيح، ومع عموم النصوص أن الحلف بغير الله شرك، وما حققناه أن القسم من الضرب الأول عبادة.

كل ذلك واضح في أن الحلف بالملائكة والأنبياء والصالحين كالحلف بالكعبة، فأما ما جاء عن بعض الحنابلة في صحة القسم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإن كان إنما أراد أن من أقسم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يلزمه الكفارة تغليظا، كما يقوله الحنفية والحنابلة فيمن نذر معصية؛ أن عليه كفارة يمين مع قولهم: إن نذر المعصية حرام أو كفر،

بل قال الحنفية: إن من حلف باللات والعزى والأصنام تلزمه الكفـــارة، وقالوا: لأن الله تعالى أوجب في الظهار الكفارة لكون الظهار منكرا مـــن القول وزوراً، والحلف بالأصنام كذلك، وإنما خص هذا القائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه لعلو درجته يخشى على الناس الغلو فيه.

أقول: إن كان أراد ذلك القائل هذا المعنى فله وجه، وإن كان أراد القسم [٧٢٦] بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم جائز فزلة عالم؛ إذ لا يعلـــم له سلطان على ذلك، وكذا ما نقله الحافظ في فتح الباري عن ابن المنذر أنه قال: "اختلف أهل العلم في معنى النهي عن الحلف بغير الله، فقالـــت طائفة: هو خاص بالأيمان التي كان أهل الجاهلية يحلفون بها تعظيماً لغـــير الله تعالى، كاللات والعزى والآباء، فهذه يأثم الحالف بها ولا كفارة فيها، وأما ما كان يؤول إلى تعظيم الله كقوله: وحق النبي والإســـلام والحـــج والعمرة والصدقة والعتق ونحوها مما يراد به تعظيم الله والقربة إليه فلـــيس داخلا في النهي، وممن قال ذلك أبو عبيد وطائفة ممن لقيناه، واحتجوا بما جاء عن الصحابة من إيجابهم على الحالف بالعتق والهدي والـــصدقة مـــا أوجبوه، مع كونهم رأوا النهي المذكور؛ فدل على أن ذلك عندهم لـــيس على عمومه؛ إذ لو كان عاماً لنهوا عن ذلك ولم يوجبوا شيئاً".

قال الحافظ عقبه: "تعقبه ابن عبد البر بأن ذكر هذه الأشـــياء وإن كان بصورة الحلف فليست يميناً في الحقيقة، وإنما خرج على الاتـــساع،

ولا يمين في الحقيقة إلا بالله"[١].

أقول: المروي عن الصحابة في العتق والهدى والصدقة إنما هو فيمن قال: كل مملوك لي حر، وإبلي هدي، ومالي صدقة إن فعلت كذا، ونحو ذلك من صيغ الالتزام المعلقة، وذلك من باب النذر، وهو الذي يسميه الشافعية: نذر اللحاج، والآثار صريحة في ذلك انظرها في سنن البيهقي ومصنف ابن أبي شيبة وغيرهما، وليس ذلك من القسم في شيء.

نعم؛ كانوا يسمون ذلك حلفاً، فيقولون: حلف فلان بالعتق أن لا يكلم فلاناً، إذا قال: كل مملوك لي حر إن كلمته، [٧٢٧] وهذا أيضا ثابت في الآثار، وإنما سموه حلفا لأنه يقصد به ما يقصد بالحلف الحقيقي من الامتناع، ولأنه قد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن كفارته كفارة يمين، وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "كفارة النذر كفارة اليمين"[٢].

وفي سنن أبي داود والمستدرك وغيرهما عن ابن عباس أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! إن أختي جعلت عليها المشي إلى بيت الله، قال: "إن الله تعالى لا يصنع بشقاء أختك شيئا، قل لها: فلتحج راكبة، ولتكفر عن يمينها". قال الحاكم: صحيح على

---

(١) فتح الباري (١١: ٥٣٥).

(٢) صحيح مسلم (١٦٤٥).

شرط مسلم[١].

وفي رواية للحاكم: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إن أختي حلفت أن تمشي إلى البيت ...".

وفي ورواية لأبي داود عن ابن عباس أن أخت عقبة بن عامر نذرت أن تحج ماشية، والحديث في الصحيحين من حديث عقبة بن عامر قال: نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله وأمرتني أن استفتي لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فاستفتيته فقال: "لتمش ولتركب"[٢].

وهذا المعنى -أعني: تسمية النذر يميناً وحلفاً- كثير في الآثار، ونحوه حديث الصحيحين وغيرهما: "من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال"[٣].

ولفظه: "ومن حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبا فهو كما قال".

وفي الفتح: "قال ابن دقيق العيد: الحلف بالشيء حقيقة؛ هو القسم به وإدخال بعض حروف القسم عليه، كقوله: والله، والرحمن، وقد يطلق على التعليق بالشيء يمين، كقولهم: من حلف بالطلاق؛ فالمراد تعليق

---

(١) سنن أبي داود (٣٢٩٥)، والمستدرك (٧٨٣٠).

(٢) صحيح البخاري (١٧٦٧)، وصحيح مسلم (١٦٤٤).

(٣) صحيح البخاري (٦٢٧٦)، وصحيح مسلم (٣١٥).

الطلاق، وأطلق عليه الحلف لمشابهته باليمين في اقتضاء الحث والمنع، وإن تقرر ذلك ... فيكون المراد صورة الحلف هنا على وجهين:

أحدهما: أن يتعلق بالمستقبل، كقوله: إن فعل كذا فهو يهودي.

والثاني: يتعلق بالماضي، كقوله: إن كان فعل كذا فهو يهودي"

ثم قال بعد كلام: "ولهذه الخصلة من حديث ثابت بن الضحاك شاهد من حديث بريدة أخرجه النسائي وصححه من طريق الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه: "من قال: إني بريء من الإسلام فإن كان كاذبا فهو كما قال، وإن كان صادقا لم يعد إلى الإسلام سالما"، يعني: إذا حلف بذلك"[1].

[٧٢٨] والحاصل: أن تسمية النذر يميناً وحلفاً، والقول بأن كفارته كفارة يمين أمر معروف عن السلف، فكل ما جاء عنهم من إطلاق الحلف بالعتق والهدي والصدقة إنما يقصدون به النذر، وإطلاق الحلف واليمين على النذر مجاز، وهب أنه حقيقة أيضا؛ فالنهي عن الحلف بغير الله إنما المقصود به أن يقول: والكعبة، أو أقسم بالكعبة، أو نحو ذلك، ولا يدخل فيه الحلف بمعنى النذر؛ كقول القائل: إن كلمتك فعلي الحج ماشياً، أو نحو ذلك، وجواز النذر ولزوم الكفارة به -وإن سمي حلفا ويميناً- لا يدل على جواز الحلف بغير الله، بمعنى قوله: والكعبة، ونحو

---

(١) فتح الباري (١١: ٥٣٩).

ذلك، وهذا واضح جدا، والفرق المعنوي بينهما كفلق الصبح، فإن القائل: والكعبة؛ معظم للكعبة كما علمت، والقائل: إن كلمت فلاناً فعلي صدقة؛ لا يفهم منه تعظيم للصدقة، والله أعلم.

فأما القسم من الضرب الثاني؛ فقد يشكل دخوله في النهي والتحريم من جهة أن أصل معنى قول الرجل: وشرفي إن كذبت، وإن لم أف؛ فأنا محتقر لشرفي ومضيع له، أو فلا شرف لي، وهذا اللفظ لا يظهر كونه حراماً لو عبر به.

نعم؛ يمكن أن يتطرق إليه التحريم لما فيه من مدح النفس والافتخار والإعجاب، ولكن لا يستمر هذا المعنى في جميع الألفاظ من هذا الضرب، مثل: وحقك، ولكن الذوق يشهد أن الإجلال والتعظيم الذي يفهم من قوله: وشرفي، وقوله: وحقك؛ [٧٢٩] أعظم جدا مما يفهم من قوله: إن كذبت، أو إن لم أف؛ فلا شرف لي، أو فأنا مخل بحقك، وكأن ذلك لأن المعروف في القسم أن يكون بالمعبود، وفي الفتح: "قال الخطابي: اليمين إنما تكون بالمعبود المعظم، فإذا حلف باللات ونحوها فقد ضاهى الكفار"[(١)].

فإما أن يكون اختصاص القسم بالمعبود من أصل الوضع، ويكون ما شاع عنهم من القسم بغير المعبود مجازاً على سبيل المبالغة والغلو، وإما أن يكون لاشتهار القسم بالمعبود أكثر من غيره؛ صار يسبق إلى الفهم من

---

(١) فتح الباري (٨: ٦١٢).

قولهم: وحقك -مثلاً- أن الحالف يجل حق صاحبه إجلال المعبود، وهذا المعنى ظاهر لا يتيسر إنكاره، ولاسيما إذا انضم إليه دلالة الحال على التعظيم والإجلال كما في قولهم: وشرفي، وأبي.

إذا تقرر هذا؛ فأقول: إن ظاهر هذا الضرب من القسم أن الحالف يجل المحلوف به إجلال المعبود، وذلك كفر وشرك، ولا مانع من أخذ الشرع بهذا الظاهر، فإذا ثبت من الشرع ما يدل على ذلك وجب القول به، وقد تقدم ما بلغنا عن الشرع في ذلك، والله أعلم.

وأما الضرب الثالث فقد يقال: ليس في أصل معناه إجلال وتعظيم، وإنما فيه المحبة.

وأقول: المحبة تستلزم الإجلال والتعظيم؛ لأن حبيب الإنسان جليل عظيم عنده كما قيل:

أحبك إجلالا وما بك قدرة علي ولكن ملء عيني حبيبها

[٧٣٠] وفي أشعار العجم ومحاوراتهم العشقية كثير مما معناه: أنا عبدك، وأنتِ معبودتي. ونحو ذلك، فإذا أقسم الإنسان بما يحبه كان ظاهر ذلك أنه يحبه كما يحب المعبود، وقد علمت توجيه ذلك، وبقية الكلام عليه كالكلام على الضرب الثاني.

وأما الضرب الرابع فليس في أصل معناه تعظيم، ولا ما يستلزم التعظيم، ولكنه يُمنع منه إذا كان يتوهم أنه من الأضرب السابقة.

وإقسام الله تبارك وتعالى لا يتوهم فيها ذلك، إذ كيف يتخيل أن

الله تبارك وتعالى يتخذ شيئاً من خلقه معبودا، أو يجله كما يجل العابد المعبود، أو يحبه كما يحب العابد المعبود.

وقد جاء عن السلف ما يشير إلى أن إقسام الله تبارك وتعالى بمخلوقاته من هذا الضرب، قال في الفتح: "وأسند -يعني الطبري- عن مطرف بن عبد الله أنه قال: "إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوق ويعرفهم قدرته؛ لعظمة شأنها عندهم ولدلالتها على خالقها"[١].

وكذلك ما تقدم من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "وأبيه"، "وأبيك"؛ إذ لا يتوهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعظم مشركاً أجنبياً عنه تعظيم المعبود.

وعلى كل حال؛ فينبغي المنع من القسم من هذا الضرب ما لم تكن القرينة الصارفة عن توهم كونه من الأضرب الثلاثة الأولى واضحة، والله أعلم.

وأما الضرب الخامس؛ فالظاهر المنع منه؛ لأنه من قبيل إطلاق الكلمة التي ظاهرها كفر على وجه الاستهزاء؛ وذلك لا يجوز، بل نص جماعة من العلماء على تكفير فاعل ذلك.

إذا تقرر هذا؛ فحلف الإنسان بأبيه منهي عنه مطلقاً، وقد علمت الأدلة الدالة على أنه شرك، أما إذا كان من الأضرب الثلاثة الأولى؛

---

[١] فتح الباري (١١: ٥٣٥).

فظاهر، وأما إذا كان من الرابع قصداً؛ فالظاهر لا يساعد على هذا القصد، بل يكون الظاهر أنه من أحد الأضرب الثلاثة الأولى.

فأما إقسامه: بأبي، غيره؛ فقد يساعد الظاهر على أنه قصد به من الضرب الرابع كما تقدم في كلمتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكلمة أبي بكر ﷺ.

وعلى هذا فإما أن يكون ذلك مخصصاً لعموم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تحلفوا بآبائكم"، وإما أن يقال: إن الإضافة في قوله: "بآبائكم" كهي في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣) والمعنى: لا يقسم أحد منكم بأبيه، وعلى هذا فلا يدخل فيه حلف أحدهم بأبي غيره، ويبقى حكم ذلك مسكوتاً عنه، فما كان بمعنى المنصوص ألحق به، وما لا فلا، فأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من كان حالفا فليحلف بالله أو ليسكت"، وقوله: "من حلف بغير الله فقد أشرك" فعام مخصوص تخصصه الأدلة الدالة على جواز ما يجوز من الضرب الرابع، ولقائل أن يقول: إن القسم الجائز من الضرب الرابع لا يسمى حلفاً؛ بدليل أن الحلف لم يجئ في القرآن إلا في معرض الذم كما تقدم، ولا يذم القسم [٧٣٢] من الضرب الرابع؛ لأنه عبارة عن إقامة دليل وحجة، وليس فيه تعظيم لغير الله تعالى، ولا ما يستلزم تعظيما، ولا ما يوهمه، ولذلك كثر إقسام الله ﷻ في كتابه مع قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (القلم: ١٠).

ويستأنس لهذا بأن الحلف مأخوذ من حلافة اللسان كما تقدم،

وحلافة اللسان مأخوذ من قولهم: سنان حليف إذا كان محددا، وحدة اللسان وحلافته عندهم ليس بمدح، فكأنهم إنما يريدون بها ما لا يستند إلى الدليل والحجة؛ لأن الاستناد إلى الدليل والحجة ليس موضعاً للذم، ولا يناسب أن يقال لصاحبه: حديد اللسان، بل يوصف بالسداد والبيان والثبات ونحو ذلك، فتأمل.

والحاصل: أن القسم الجائز من الضرب الرابع لا يدخل تحت النهي، إما لأنه لم يتناوله النهي أصلا، وإما لأن الدليل أخرجه، والله أعلم.

فإن قلتَ: حاصل كلامك أنك أبقيت قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" على ظاهره؛ إلا ما استثنيته من الضرب الرابع، وهذا خلاف ما عليه أهل العلم، فقد قال الترمذي عقب هذا الحديث: "وفسر هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله: "فقد كفر أو أشرك" على التغليظ، والحجة في ذلك حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع عمر يقول: وأبي وأبي، فقال: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم"، وحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من قال في حلفه واللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله". قال أبو عيسى: هذا دليل على ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الرئاء شرك، وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ...﴾ (الكهف: ١١٠) الآية،

قال: لا يرائي"[١].

قلت: قد خالفه أستاذه البخاري بذكره حديث عمر محتجا به على أن من قال لأخيه: يا كافر متأولا أو جاهلاً لا يكفر بعد جزمه أن من قال ذلك غير متأول ولا جاهل يكفر، وقد تقدم بيان ذلك، وعلم بذلك الجواب عن احتجاج الترمذي بحديث عمر، وحاصله؛ أن عمر كان معذوراً، ولا يلزم من عدم إكفار المعذور عدم إكفار من لا عذر له.

وأما احتجاج الترمذي بحديث "من قال في حلفه واللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله" فعجيب، فإنه لا حجة له فيه، والحلف باللات والعزى كفر جزماً؛ إلا إن كان الحالف جاهلا أو ذاهلاً فيعذر كما أشار إليه البخاري وصرح به ابن العربي –وقد مر– وهذا الحديث نفسه حجة في ذلك؛ فإن أمره بقول: "لا إله إلا الله" ظاهر في أن الحلف باللات والعزى ينقض الشهادة الأولى؛ ونقض الشهادة الأولى هو الكفر والشرك، ويلزم من انتقاض الشهادة الأولى انتقاض الثانية؛ وهي شهادة أن محمداً رسول الله، غاية الأمر أن الحالف إذا كان جاهلاً أو ذاهلاً لم تنتقض شهادته الأولى حقيقة، ولكن حصل فيها خلل ينقضها صورة؛ فشرع جبرانه بقول: لا إله إلا الله؛ تجديدا للشهادة الأولى، ولم يشرع تجديد الشهادة الثانية؛ لأنه [٧٣٤] لم ينقضها صورة، ولم تنتقض الشهادة الأولى

(١) جامع الترمذي (١٥٣٥).

حقيقة فيلزم من ذلك انتقاض الشهادة الثانية، فتدبر.

فإن قلت: ما نسبته إلى البخاري يرده قوله في ترجمة أخرى: "باب من حلف على ملة سوى ملة الإسلام، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله"، ولم ينسبه إلى الكفر"[١].

قلت: مراد البخاري -والله أعلم- أن من حلف بملة سوى الإسلام جاهلاً أو ذاهلاً لا يكفر بدليل حديث "من حلف باللات والعزى ..." الخ فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاله عالماً أن أحداً من أصحابه لا يحلف باللات والعزى إلا ذاهلاً؛ فأمر من وقع منه ذلك أن يقول: لا إله إلا الله، ولم ينسبه إلى الكفر؛ فدل هذا على من حلف بملة سوى الإسلام على نحو تلك الصفة -أي جاهلاً أو ذاهلاً- لا يكفر، وهذا من البخاري رحمه الله بيان للحديث الذي ساقه في هذه الترجمة؛ وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال" أي: أنه محمول على من حلف غير جاهل ولا ذاهل؛ هكذا يجب أن يفهم كلام البخاري رحمه الله تعالى ليوافق صنيعه المتقدم؛ إذ كيف يظن به أن حلف الإنسان بأبيه غير جاهل ولا ذاهل كفر ومع ذلك يرى أن حلفه باللات والعزى ليس بكفر مطلقاً، وإخراج الذاهل قد جاء في رواية لمسلم "من

---

[١] صحيح البخاري (٦: ٢٤٥٠).

حلف بملة سوى الإسلام كاذبا متعمدا فهو كما قال"[١].

وكذا في صحيح البخاري بلفظ: "من حلف بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال"[٢].

فإن قلتَ: فهلا إذْ أراد البخاري الإشارة إلى استثناء الجاهل والذاهل -كما زعمت- أشار إلى هذه الرواية؛ فإنها أصرح في ذلك، قلتُ: كأنه عدل عن ذلك لأنه قد يفهم من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: -متعمداً- أن المراد متعمداً للكذب، وعلى هذا فلا دلالة في الحديث على إخراج الجاهل والذاهل، وإنما ذكرت أنا هذه الرواية لأني أرى الأولى إبقاء قوله: "متعمدا" على إطلاقها؛ فيكون المراد متعمدا للحلف والكذب معا -والله أعلم- وذلك كأن يقول: إن كان ذاق ذلك اليوم طعاما فهو يهودي -يعني نفسه- فإن كان لم يذق طعاماً فليس بكاذب، وإن كان ذاق طعاماً ولكن نسي فليس بمتعمد الكذب، وإن كان ذاق و لم ينسَ فهو متعمد للكذب، ثم إن كان قوله: هو يهودي كلمة جرت على لسانه و لم يعقد نيته على قولها فليس بمتعمد للحلف بملة غير الإسلام، بل هو ذاهل، وإلا فهو متعمد، فإذا اجتمع تعمد الكذب، وتعمد الحلف باليهودية؛ فهو كما قال، وقس على هذا الحال من قال: إن كنت أملك الآن شيئاً فأنا

---

(١) صحيح مسلم (١١٠).

(٢) صحيح البخاري (١٢٩٧)، وصحيح مسلم (١١٠).

... وذكر اليهودية، فأما من يقول: إن سافرت غداً فأنا ... فالظاهر أنه إن كان حال اليمين عازماً أن لا يسافر غداً فهو صادق، ثم إن بدا له بعد ذلك أن يسافر غداً فسافر فلم يكن متعمداً للكذب؛ ما لم يكن سفره غدراً؛ بأن كان فيه ضرر للمحلوف له، والله أعلم.

فإن قلت: فلماذا بنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: "من حلف باللات والعزى ..." الخ على علمه أن أحدا من أصحابه لا يحلف بهما إلا ذاهلاً، ولم يصنع مثل ذلك في قوله: "من حلف بغير ملة الإسلام ..." الخ؟

قلت: لأن أصحابه كانوا [٧٣٥] يعلمون حق العلم أن الحلف باللات والعزى عمدا كفر، فلم يكن ذلك ليقع منهم، وأما الحلف بغير ملة الإسلام؛ كقول القائل: هو يهودي إن كان فعل كذا؛ -يعني نفسه- فلم يكونوا يعلمون أنه كفر؛ فلم يمتنع وقوع ذلك من بعضهم عمداً، فتدبر، والله أعلم.

وأما حديث: "إن الرياء شرك" فغاية ما فيه أن الشرك فيه متأول على خلاف ظاهره، وتأويل كلمة في كلام وقعت فيه لقيام الدليل الموجب لتأويلها فيه؛ لا يلزم منه جواز تأويل تلك الكلمة في كل كلام وقعت فيه، ولا دليل على تأويلها، ولزوم ذلك باطل قطعاً، لا يقول به أحد.

وتحقيق المقام؛ أن الشرك إذا أطلق في الشريعة في مقام الذم فإن المراد به الشرك بالله ﷻ؛ بأن يشرك معه غيره في العبادة على سبيل العبادة

للشريك، هذا هو الحقيقة المتبادرة، وأما الرئاء؛ فهو أن يشرك مع الله تعالى غيره في العبادة، ولكن لا على سبيل العبادة للشريك، فإن من كان يصلي فحضره رجل فأطال الصلاة فيحسن اعتقاد الرجل فيه فينال منه غرضاً دنيوياً؛ فإن المرائي قد أشرك ذلك الرجل مع الله تعالى في صلاته؛ لأن صلاته كانت لله ﷻ ولأجل ذلك الرجل، ولكن لم يكن ذلك على سبيل العبادة لذاك الرجل؛ [٧٣٦] لأنه لم يجعل إطالته صلاته لأجله خضوعاً وتعظيماً له يطلب منه نفعاً غيبياً، فمن جعلها كفرا لأنه خضوعا وتعظيماً له، فتدبر وأمعن النظر.

فأما بالنظر إلى اللغة؛ فمن راءى فقد أشرك، لأنه فعل فعلاً لأجل الله ﷻ ولأجل غيره، وأما بالنظر إلى الشرع؛ فلم يشرك، وإطلاق بعض الأحاديث إنه قد أشرك مجاز.

ومما يبين هذا أنه لم يجئ في الشرع نص على أن الرياء شرك بالله، وإنما جاء أنه شرك فحسب؛ لأن الشرك بالله نص في الشرك الذي هو كفر، ولذلك عداه بالباء؛ لتضمينه معنى الكفر بالله، أو العدل بالله على ما تقدم، والله أعلم.

فأما قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف: ١١٠) فالذي يظهر لي أنه ضَمَّن ﴿يُشْرِكْ﴾ معنى: يرائي.

ومن هنا؛ يظهر أن حديث أحمد، والطبراني عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل" فقالوا: وكيف نتقيه يا رسول الله؟ قال:

"قولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه" على ظاهره، أي: أن المراد الشرك الأكبر لقوله في الدعاء: "أن نشرك بك" فعداه بالباء، والله أعلم.

وما يعترض به على ما قدمناه؛ قول الشافعي رحمه الله تعالى: "وكل يمين بغير الله فهي مكروهة منهي عنها من قبل قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [٧٣٧] "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفا فليحلف بالله أو ليسكت ..." فكل من حلف بغير الله كرهت وخشيت أن تكون يمينه معصية"[١].

فالجواب: أن الشافعي رحمه الله تعالى لا نعلمه بلغه الأحاديث المصرحة بأن الحلف بغير الله تعالى شرك، ولم يتجشم التفصيل، ولعله لو سئل عن الضرب الأول من القسم لم يتوقف في أنه إن وقع بغير الله تعالى كان شركاً، فأما ما عداه فيحتمل أن يتردد فيه، ولا سيما إذا لم يقف على الأحاديث المصرحة بأن الحلف بغير الله تعالى شرك مطلقاً، والله أعلم.

وذكر الحافظ في الفتح الاختلاف في النهي أللتحريم هو أم للكراهة؟ ثم قال: "فإن اعتقد في المحلوف به من التعظيم ما يعتقده في الله حرم الحلف به؛ وكان بذلك الاعتقاد كافرا ... وأما إذا حلف بغير الله

---

(١) الأم (٧: ٦٤).

لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك"[١].

أقول: لم يرد بقوله: "ما يعتقده في الله" أن يعتقد أن المحلوف به واجب الوجود، أو أنه خالق رازق مدبر استقلالا ونحو ذلك، لأن الشرك يحصل بدون هذا الاعتقاد قطعاً كما تقدم تحقيقه، بل المراد ما يعتقده في الله من استحقاقه العبادة، وقد علمت أن القسم من الضرب الأول عبادة، فإذا وقع بغير الله ﷻ كان مما أنزل الله تعالى به سلطانا بأنه عبادة له ﷻ، فهو عبادة للمحلوف به، فكيف والمحلوف به يستحق هذا التعظيم.

[٧٣٨] وبهذا يعلم أن قول الحافظ: "على ما يليق به من التعظيم" [...][٢] المحلوف به أنه يستحق أن يحلف به، واعتقد أن الحلف به سبب لنفع غيبي، وهذا نظير السجود للشمس، وقد تقدم الكلام فيه، والله أعلم.

وأما ما عدا الضرب الأول؛ فقد تقدم أن من ذلك ما يفهم إجلال المحلوف به إجلال المعبود، وهذا لا يليق بمحلوف، وظاهر حال الحالف بذلك أنه يعتقد استحقاق المحلوف به لذلك، وعليه فقد اعتقد فيه من التعظيم ما يعتقده في الله من استحقاق العبادة؛ لأنه إذا اعتقد استحقاقه أن يجل إجلال المعبود فقد اعتقد استحقاقه العبادة، وهب أنه لم يعتقد

---

[١] فتح الباري (١١: ٥٣١).

[٢] [سطر في المخطوط لم أستطع قراءته].

ذلك؛ فقد يظهر أنه لا ينفعه، كما مر آنفا في الحلف من الضرب الأول، والله أعلم.

وفي الدر المختار من كتب الحنفية: "قال الرازي: أخاف على من قال: بحياتي، وحياتك، وحياة رأسك، أنه يكفر، وإن اعتقد وجوب البر فيه يكفر، ولولا أن العامة يقولونه ولا يعلمونه لقلت أنه مشرك.

وعن ابن مسعود ﷺ: لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا".

وفي حاشيته رد المحتار: "وفي القهستاني عن المنية أن الجاهل الذي يحلف بروح الأمير، وحياته، ورأسه، لم يتحقق إسلامه بعد"[١].

أقول: والأثر الذي ذكره عن ابن مسعود ذكره في فتح الباري، وذكر مثله عن ابن عباس، وابن عمر، والشعبي[٢].

[٧٣٩] واعتقاد وجوب البر يجعل القسم من الضرب الأول، وقد علمت كونه كفر، وقد جعل الرازي قولهم: بحياتي، وحياتك، وحياة رأسك شرك، وأطلق ذلك، وإنما نوقف عن الحكم على قائلي ذلك من العامة بأنهم لم يكفروا؛ لكونهم لا يعلمون، وهذا حق كما قدمناه في الأعذار، ولكن العامة في هذه الأزمنة قد غلوا في الغلو، فلم يقتصروا على

---

(١) حاشية رد المحتار (٤: ١٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١١: ٥٣٥).

نحو بحياتي، وحياتك، وحياة أبيك ما لا يعتقد فيه عدم وجوب البر، بـــل صاروا يحلفون بمن يعتقدون فيه الصلاح من الأحياء والموتى، ولم يقتصروا على الحلف بهم، بل يعتقدون وجوب البر، ويعلنون بذلك ولم يقفوا عند هذا، بل يعتقدون أن القسم بفلان وفلان مثل القسم بالله تعالى، بـــل ولم يقف كثير منهم عند هذا، بل يعتقدون أن القسم بفلان وفلان أحق بالبر والوفاء من القس بالله عز وجل، ول يكتفوا بهذا، بل إذا ســئل المتفاقــه منهم وعوتب، قال: إنما نرى القسم بالأولياء أوثق من القسم بـــالله عـــز وجل لأن الله تعالى صبور والأولياء لا يصبرون.

ولا تحسبن هذا أقصى ما عندهم، بل إذا قلت لهذا المتفاقه: غاية ما يكن من الولي أن يدعو الله تعالى على من لم يبر بيمينه؛ فرجع الأمـــر إلى الله تعالى[...][1].

---

(١) [نصف سطر لم أستطع قراءته وهو آخر المخطوط، والحمد لله على توفيقه].

فهرس الموضوعات

